مذكرات

20.2.2022

كريستين بارنيت

الشّرارة

قصة أم مع التربية والعبقرية والتوحّد



ترجمة

عبدالرحمن الفَذْح السَيّد

الشرارة

«قصة أمّ مع التربية والعبقرية والتوحّد»

تأليف:

كريستين بارنيت

ترجمة:

عبد الرحمن الفَدْح السَّيِّد

الشرارة

كريستين بارنيت

هـذا الكتـاب صـادر عـن مشـروع «مـدً» للترجمـة الـذي تقـوم عليـه دار أدب للنشـر والتوزيـع ضمـن مبـادرة إثـراء المحتـوى إحـدى مبـادرات مركـز الملـك عبـد العزيـز الثقافـي العالمي (إثراء)

هذه الترجمة هي الترجمة العربية عن الإنجليزية لكتاب:

The Spark

تنشر هذه الترجمة عن النسخة الأصلية للكتاب:

بموجب اتفاق حصري مع:

RANDOM HOUSE TRADE PAPERBACKS

الآراء الواردة في الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

ⓒ دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بارنيت، كريستين
الشرارة. / كريستين بارنيت؛ عبد الرحمن الفدح السيد.- الرياض، ١٤٤٢هـ
٥٦٠ ص؛ المقاس ١٤ × ٢١ سم
ردمك: ٨-٦-٩١٦١٨-٦٠٣-٩٧٨

١ -القصص أ.السيد، عبدالرحمن الفَدْح (مترجم ب.العنوان
ديوي ٨٠٨,٨٣ ١٤٤٣/٧٤

رقم الإيداع: ٧٤/ ١٤٤٣
ردمك: ٨-٦-٩١٦١٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ = ٢٠٢١م



info@adab.com adab.com @adab

المملكة العربية السعودية-الرياض

المحتويات

مقدمة المترجم

قبـل خمس سـنوات كنـت في زيـارة لمنزل أحـد الأصدقاء لمشـاهدة مبـاراة نهائية لفريقنـا، وتزامنتْ زيارتي تلـك مع زيارة أسرة أحد أقاربه القادمين إلى جدة من قرية بعيدة.

كان الأطفال يلعبون في كل زوايا المنزل، بما فيها مجلسـنا، وبيـن صخـب المبـاراة وضجيـج الأطفـال لفت نظـري طفل في الثالثـة مـن عمره يراقب تطريز السـتائر بتمعّـن، وكأنه يبحث عن شيء.

كان الطفـل فـي عزلة عن محيطه، ولا يثير انتباهه أي شـيء، حتى تلك الطفلة التي كانت تشخبط بالقلم على وجهه!

عندها سألت صديقي ما إذا كان هذا الطفل يعاني من شيء؛ فأجاب متعجبا من سؤالي بالنفي!

فلم أرد التدقيق أكثر، ولكن في قرارة نفسي كنت متأكدا من أن هنـاك خطبـا مـا، وكان «التوحّد» هو التفسـير الأقرب لذهني، رغم جهلي بكل ما يتعلق به.

استحضرت تفاصيل تلك الليلة في اللحظة التي عرض علي الأصدقاء في: «أدب» ترجمةَ كتاب: «الشـرارة»، ورغم محاولتي الهـروب بحجـة ارتباطاتي وضيق وقتي، إلا أنه كان هناك شـعور خفي يجذبني لترجمة هذا الكتاب بالذات، وقد عزّز هذا الشعور حديث الدكتور عبدالله السفياني معي بأسلوبه المقنع المفحم عن أهميته نقله إلى العربية.

علمـت حينها أنني بصدد خوض تجربة مختلفة عما اعتدت عليه فـي عالـم ترجمـة الشـعر والأدب وسـيناريوهات الأفلام، بالرغم من أنني اكتشـفت لاحقا أن محتوى الكتاب يضم بشـكل أو بآخر كل هذه المجالات، وأكثر.

بـدأت رحلتي مـع ترجمة: «الشـرارة» بالقراءة عـن التوحد، والتعمق في دراسة شخصية المؤلفة وكل ما يحيط بحياتها، وهي طقوسـي المعتـادة عنـد ترجمة الشـعر، ثم قـرأت الكتـاب قراءة مسـحية، وشعرت لوهلة أن لغته المباشرة قد تسهل مهمتي، وهو ما اكتشفت خلافه لاحقا.

باشـرت العمـل على الترجمـة، وكان العمل أمتـع مما كنت أتوقـع، ولكـن سـرعان مـا واجهت في مسـيرتي عقبـات ترجمية تطلبت مني أن أكون باحثا في علوم النفس والرياضيات والفيزياء

والفلك والطب وصولا إلى الاقتصاد والطقس، وبالرغم من الجهد والوقت الذي تطلبه ذلك إلا أنها كانت رحلة ثرية بالمعلومات والمعارف، وهذا بطبيعة الحال ما تنتج عنه الترجمة.

أما عن المشاعر التي انتابتني أثناء عملي على الترجمة، فأنا لا أبالغ عندما أقول: إنني شعرت وكأنني أحد أفراد عائلة بارنيت؛ حيث تأثرت بكل الأحداث التي مرت بها العائلة، وكان سيرها هو المتحكّم في انفعالاتي ومشاعري، وربما دموعي.

لقد اندمجت مع كل تفاصيل: «الشرارة»، وكنت أستحضر في كل منعطف من منعطفات القصة بعض الشواهد من حياتي الخاصة وملاحظاتي التي تؤكّد مدى حرص آبائنا - جزاهم الله الجنان - على كل ما فيه خير ومصلحة لنا، وبذلهم النفيس في سبيل الأفضل لحياتنا ومستقبلنا، ولو كان ذلك على حساب أنفسهم وحياتهم، ولا سيما تضحيات الأمهات التي تجلى نموذجها في مؤلفة الكتاب: السيدة كريستين بارنيت؛ حيث كافحت وحاربت، وبذلت أعظم التضحيات حتى حولت ابنها من طفل ميؤوس من تطوره بحسب تشخيص الخبراء، إلى عالم ينتظر جائزة نوبل.

إن قصة هذا الكتاب تذهب بنا إلى أبعد من موضوعه، نحو

أفق تتجلى فيه معجزة البشر وقدرتهم على صناعة التغيير متى ما حضرت العزيمة والإصرار وقبلهما الإيمان والأمل.

إنها قصة نموذجية لرسالة الإنسان المثلى في هذه الحياة.

انتهت رحلتي مع ترجمة هذا الكتاب بسؤال صديقي عن حال الطفل الذي صادفته في منزله تلك الليلة، وأخبرني أنه بالفعل شخّص باضطراب طيف التوحد، وأن عائلته انتقلت إلى مدينة جدة لعلاجه وتأهيله، وأن تطوره كان مذهلا بسبب تفرغ والدته كليا لمتابعته والاهتمام به، في تضحية سامية أخرى.

عبدالرحمن الفدح السيّد

إهداء

إلى مايكل الذي جعل المستحيل ممكنا، وإلى كل من
قيل لهم في يوم أنهم «لا يستطيعون»

مقدمة

إنه وقت محاضرة الفيزياء، أنا أجلس في مؤخرة القاعة بينما يجتمع الطلاب أمامي في مجموعات حول السبورات المنتشرة في القاعة، الكل مستعد للتعامل مع مسألة اليوم.

الطلاب يكتبون ويمسحون، ويبدو أنهم يعانون في حل المسألة، وبينما هم يتجادلون نظرت إلى ابني الذي يبلغ من العمر تسع سنين وهو يجلس في مقدمة القاعة ويتحدث بكل سهولة مع أستاذه.

تتصاعد أصوات نقاش الطلاب المحبطين من المسألة في القاعة، ويسحب ابني مقعده إلى السبورة الخاصة بمجموعته ويصعد عليه، ويقف على أطراف أصابعه ممسكا بقلم السبورة، ورافعا ذراعه بأقصى ما يمكنه.

إنها أول مواجهة له مع المسألة الفيزيائية كما هو الحال مع بقية الطلاب، ولكنه يبدأ في حلها بدون توقف، وتتدفق الأرقام بطلاقة وسرعة من قلمه، وخلال لحظات يتوقف الجميع عن

محاولة حل المسألة ويحدقون في هذا الطفل الصغير الذي يرتدي قبعة بيسبول بشكل عكسي، ولكن ابني لا يلاحظ المتفرجين المتفائلين؛ لأنه منغمس بسعادة مع الأرقام والرموز التي بدأت تنتشر بسرعة على السبورة، حتى بلغت خمسة أسطر، ثم عشرة، ثم خمسة عشر سطرا؛ لتضيق المساحة وينتقل إلى سبورة المجموعة المجاورة ويكمل الحل.

سرعان ما يبدأ ابني في شرح المسألة لمجموعته على طريقة أستاذه، فيشير ويشرح ويطرح الأسئلة الاسترشادية.

تنهض طالبة ذات جديلة فرنسية من إحدى المجموعات بحماس وتقترب منه لتستمع لشرحه، وينضم إليها طالب آخر وهو يومئ برأسه بشدة كناية عن بداية فهمه لتعقيدات هذه المسألة.

وفي غضون دقائق اجتمع جميع الطلاب في مقدمة القاعة حول ابني الصغير، ويشير ابني لخدعة وجدها في المسألة ويشرحها للطلاب وهو في قمة حماسه وسروره، وبينما طالب ملتحٍ يسأل ابني عن المسألة ألقيت نظرة إلى الأستاذ الذي يقف متكأً على الحائط وقد علت وجهه ابتسامه إعجاب.

عاد الطلاب إلى مجموعاتهم بعد أن فهموا تلك الخدعة في

المسألة ليكملوا الحل، وتبدأ الأرقام والرموز تنتشر على سبوراتهم، ولكن التوتر واضح في ملامحهم؛ فلا أحد في هذه القاعة يحب المسألة مثل ابني.

انتهى وقت المحاضرة، وبدأت القاعة تفرغ من الطلاب .. أرى ابني يجمع أغراضه بينما يتحدث بحماسة مع زميل آخر عن لعبة دوري المحترفين الجديدة التي يريدها كلاهما، وبينما هم قادمون نحوي مدّ الأستاذ يده ليصافحني:

«سيدة بارنيت، أريد أن أخبرك عن مدى استمتاعي بوجود جيك في محاضرتي، إنه يخرج أفضل ما في الطلاب الآخرين، فلم يسبق لي أن رأيتهم ملتفين حول أحد مثل اليوم، وحتى أكون صريحا معك، أنا لا أعتقد أنني سأتمكن من فعل ما فعله ابنك بهم!» ضحكنا سويا وقلت له مازحة:

«يا إلهي، لقد وصفت للتو وإلى حد كبير قصة حياتي».

* * *

اسمي كريستين بارنيت، ويعد ابني جيك معجزة في الرياضيات والعلوم، لقد بدأ في أخذ دورات على مستوى الجامعة في الرياضيات وعلم الفلك والفيزياء وهو في الثامنة من

عمره، وقبلته الجامعة في سن التاسعة، وبعد فترة وجيزة بدأ العمل على نظرية فريدة في مجال النسبية.

لقد كانت المعادلات التي يعمل عليها طويلة جدا، حتى إنها تجاوزت السبورة العملاقة إلى نوافذ منزلنا.

لم أكن متأكدة من الطريقة الأنسب لمساعدة جيك، فسألت عما إذا كان هناك من يرغب في عرض أعماله عليه، فاتصلت بفيزيائي مشهور بالنيابة عن جيك ووافق بسخاء على مراجعة أعمال جيك بشكل دوري، وأكد أن جيك بالفعل يعمل على نظرية فريدة وإذا ثبتت صحتها فستضعه في قائمة الفائزين بجائزة نوبل.

وفي صيف ما، وعندما كان جيك في الثانية عشرة عيّنته الجامعة باحثا مدفوع الأجر في الفيزياء، لقد كانت وظيفته الصيفية الأولى.

وبحلول الأسبوع الثالث له في الوظيفة كان جيك قد حل مشكلة قائمة في نظرية الشبكية الرياضية، وهو العمل الذي نشر لاحقا في مجلة علمية رفيعة المستوى.

قبل بضعة أشهر، وفي ربيع ذلك العام نشر مقالا صغيرا في صحيفة محلية عن مؤسسة خيرية صغيرة أسستها أنا وزوجي

مايكل، وبشكل غير متوقع قادت تلك المقالة الناس للتعرف على قصة جيك من خلال صحيفة أكبر، حتى أصبحت طواقم التصوير تخيّم في حديقتنا، ولم يتوقف رنين جرس هاتفنا من اتصالات السينمائيين، والبرامج الحوارية، والبرامج الإخبارية الوطنية، ووكالات المواهب، والناشرين، والجامعات العريقة، وكذلك المراسلين والمنتجين الذين كانوا يحاولون يائسين إجراء مقابلة مع جيك.

أستطيع أن أقول - بكل صراحة -: إنني في ذلك الوقت كنت مشوشة، ولم يكن لدي أنا ومايكل أي فكرة عن سبب اهتمام كثير من الناس بابننا، نحن نعلم بالتأكيد أن جيك ذكي، ونفهم أن قدراته في الرياضيات والعلوم كانت متقدمة، وأنه ليس من «الطبيعي» أن يكون طفل بعمره في الجامعة، ولكننا ركزنا بشكل مباشر على الاحتفال بالإنجازات المختلفة؛ حيث أصبح لجيك مجموعة مقربة من الأصدقاء في سنه الذين يلعبون معه لعبة الهالو الإلكترونية، ويشاهدون معه الأفلام في الطابق السفلي لمنزلنا، ومن ضمنهم صديقته الأولى.

هذه الأشياء الجديدة في حياة جيك كانت بالنسبة لنا هي الأكثر استثنائية؛ لذلك شعرنا بالحيرة عن سبب ظهور وسائل الإعلام، وتحدث هؤلاء المراسلين معنا، وسماع القصص التي

كتبوها، حينها بدأنا نفهم أن هناك شيئا ما في حياتنا، والحقيقة هي أن الأمر احتاج إلى ذلك الضوء الساطع لتظهر لي ولمايكل حقيقة أن قصة حياتنا مع ابننا قد تغيرت.

ما لم يفهمه هؤلاء المراسلون هو أن عقل جيك الاستثنائي كان أكثر ما يلفت الانتباه لحقيقة أنه كان على وشك الضياع، فعندما ظهرت وسائل الإعلام في حديقتنا، كنا لا نزال نعيش داخل حالة التوحّد الذي شخّص بها جيك عندما كان في الثانية من عمره، حينما نظرنا بلا حول ولا قوة إلى طفلنا الرضيع النابض بالحياة والمبكِّر النضوج يتوقف تدريجيا عن الكلام، ويختفي أمام أعيننا في عالم خاص به.

سرعان ما تحولت حالته من سيئ إلى أسوأ؛ فعندما كان في الثالثة من عمره كان الهدف الذي وضعه الخبراء له هو الأمل في أن يتمكن من ربط حذائه في سن السادسة عشرة.

هذا الكتاب يروي قصة وصولنا من هناك إلى هنا، قصة رحلة تلك الأم مع ابنها الرائع.

أما بالنسبة لي فالأمر يتعلق أكثر بقوة الأمل،والاحتمالات المبهرة التي يمكن أن تحدث عندما نبقي عقولنا منفتحة، ونتعلم كيفية الاستفادة من الإمكانات الحقيقية التي تكمن داخل كل طفل.


الشَّرارة

الخطوة الأولى في رحلة الألف ميل

نوفمبر ٢٠٠١

جيك في الثالثة من عمره

«سيدة بارنيت، أود التحدث معك بخصوص بطاقة الحروف الأبجدية التعليمية التي أرسلتها مع جاكوب إلى المدرسة».

كنا نجلس أنا وجيك في غرفة المعيشة مع معلّمة صعوبات التعلّم أثناء زيارتها الشهرية المكلّفة بها من الولاية.

لقد أحب جيك تلك البطاقات التعليمية ذات الألوان الزاهية أكثر من أي شيء آخر في العالم؛ حيث ارتبط بها مثل ارتباط الأطفال الآخرين بدمى الدببة أو بطانياتهم الرثة التي تشعرهم بالأمان.

تباع هذه البطاقات التعليمية في متجر سوبر تارجيت الذي أتسوق فيه، وبينما يضع الأطفال أكياس المقرمشات أو الحلوى بخلسة في عربات أمهاتهم، أرى المزيد من تلك البطاقات المفضلة لدى جيك في عربتي.

«أوه! أنا لم أرسل أي بطاقة، جيك هو من يمسك بها في يده دائمـا، حتى إنني أنتزعها بصعوبة عندما أريد أن أخلع قميصه، حتى إنه يأخذها معه عند ذهابه للنوم!».

تعدّل معلّمة جيك وضعيتها على الكنبة وتقول: «أتساءل ما إذا كنتِ ستتقبلين الوضع الحقيقي الذي يعاني منه جاكوب، سيدة بارنيت برنامجنا هو برنامج مهارات حياتية، نحن نركّز بشكل أساسي على أشياء محددة، مثل: تعليمه ارتداء ملابسه يوما ما».

لقد كان مهذبة، ولكنها تريد أن توضّح الأمور على حقيقتها.

«نعم صحيح، بالفعل، نحن أيضا نعمل على تعليمه تلك المهارات هنا في المنزل، ولكنه يحب هذه البطاقات التعليمية».

«أنا آسفة سيدة بارنيت، ما أريد أن أقوله أننا لا نعتقد أنه يجب أن تكوني مهتمّة بشأن تعلّم جاكوب للحروف».

أخيرا .. وفي النهاية استوعبت ما تريد أن تقوله لي معلّمة جيك، لقد أرادت أن تخبرني بكل وضوح عن أهداف برنامج المهارات الحياتية، هي لم تقصد أن البطاقات التعليمية سابقة لأوانها، لقد أرادتني أن أصرف النظر نهائيا بشأن تعّلم جيك للحروف؛ *لأنهم يعتقدون أن جيك لن يستطيع القراءة مطلقا.*

لقد كانت لحظة مدمرة بالفعل، في عام كان مليئا بتلك اللحظات.

شُخّص جيك مؤخرا بالتوحّد، وأدركت أخيرا أن جميع الرهانات كانت تتوقف عند الموعد الذي سيصل فيه جيك إلى أي من مراحل النمو الطبيعية عند الأطفال (إن كان سيصل إليها).

لقد أمضيت ما يقرب من عام وأنا أحاول جاهدة مواجهة حالة عدم اليقين الرمادية الهائلة التي أعانيها من مرض التوحد، ولقد وقفت عاجزة وأنا أشاهد العديد من قدرات جيك، مثل: القراءة والتحدّث تُقتلان أمامي، لكنني لم أكن لأسمح لأي شخص بإغلاق الباب على إمكانات هذا الطفل الصغير، سواء كان مصابا بالتوحد أم لم يكن.

من المفارقات؛ أنني لم أكن أتوقع أن يقرأ جيك على الإطلاق، لكن لم أكن لأسمح لأي شخص بوضع سقف لما يمكن أن نتوقعه منه، ولا سيما هذا الاحتمال المنخفض جدا، ولكنني في ذلك الصباح شعرت وكأن المعلمة أغلقت أحد أبواب مستقبل جيك.

بالنسبة إلى أحد الوالدين، من المستبعد أن تتعارض مع نصيحة المختصين، لكنني كنت أعرف في داخلي أنه إذا ظل

جيك في فصول الاحتياجات الخاصة فسوف يفلت من أيدينا؛ لذلك قررت أن أثق في حدسي وأعتنق الأمل بدلا من التخلي عنه، ومن هذا اليوم لن أبذل أي وقت أو جهد في إقناع المعلمين والمعالجين في مدرسته بتغيير توقعاتهم أو أساليبهم.

لم أكن راغبة في الكفاح ضد النظام أو فرض ما شعرت أنه مناسب لجيك على الآخرين، وبدلا من تعيين محامين وخبراء من أجل أن يحصل جيك على الخدمات التي يحتاجها، سأستثمر مباشرة في جيك وأفعل كل ما شعرت أنه ضروري لمساعدته على الوصول إلى إمكاناته الكاملة - مهما كانت تلك الإمكانات -.

نتيجة لذلك؛ اتخذت القرار الأكثر رعبا في حياتي، كان ذلك يعني مخالفة الخبراء، وحتى مخالفة رأي زوجي مايكل.

في ذلك اليوم عقدت العزم على تحفيز شغف جيك، ربما كان يحاول تعلم القراءة بهذه البطاقات الأبجدية التي يحبها، وربما لم يكن.

في كلتا الحالتين، وبدلا من أخذها منه سأحرص على أن يمتلك أكبر عدد يريده منها.

* * *

قبل ثلاث سنوات، كنت أشعر بسعادة غامرة لمعرفة أنني حامل بجيك، وبحسب ما أتذكر أصبحت في سن الرابعة والعشرين أمارس دور الأم.

حتى عندما كنت طفلة صغيرة كان من الواضح لي ولكل من حولي أنه من المرجح أن يحتل الأطفال مكانة خاصة في مستقبلي، وطالما أطلقت علي عائلتي لقب جليسة الأطفال؛ لأنه أينما ذهبت كان من المؤكد أنه سيكون خلفي مجموعة من الصغار ينتظرون بدء مغامرة معي.

وُلد أخي بنجامين عندما كنت في الحادية عشرة من عمري ومنذ ذلك الوقت لم يكن بعيدا عن أحضاني أبدا، وعندما بلغت الثالثة عشرة من عمري عملت جليسة لأطفال الحي بأكمله، وبحلول الرابعة عشرة كنت مسؤولة عن مدرسة الأحد الدينية في الكنيسة؛ لذلك لم يتفاجأ أحد عندما عملت مربية منزلية من أجل دفع مصاريفي الجامعية، ثم بعد أن تزوجت أسست الحضانة الخاصة بي، وهو حلم كان يراودني طويلا .. لقد أحاط الأطفال بي طوال حياتي، والآن أنا لا أطيق الانتظار حتى أنجب طفلي.

لسوء الحظ لم يكن الطريق الذي أدى إلى ولادة جيك سهلا، فعلى الرغم من أنني لم أزل صغيرة إلا أن الحمل كان

صعبا منذ البداية، لقد أصبت بحالة خطيرة من ارتفاع ضغط الدم تسمى: (تسمم الحمل)، وهي حالة شائعة أثناء الحمل ويمكن أن تضر بالأم والطفل.

ساعدتني والدتي وقدمت لي الرعاية في فترة النهار، وكنت يائسة من إمكانية الحفاظ على جنيني، وشيئا فشيئا أصبح الحمل محفوفا بالمخاطر؛ حيث دخلت في المخاض المبكر لعدة مرات، وعندها أصبح أطبائي قلقين للغاية لدرجة أنهم صرفوا لي الأدوية وألزموني بالراحة التامة في الفراش من أجل منع الولادة المبكرة، وبالرغم من ذلك دخلت المستشفى تسع مرات.

وقبل ثلاثة أسابيع من موعد ولادتي تم نقلي إلى المستشفى مرة أخرى، هذه المرة كنت في مخاض لا يمكن إيقافه، فتوالت سلسلة من الأحداث جعلت توقع النتيجة غير مؤكد.

بالنسبة لي كنت أرى أشخاصا يندفعون ويخرجون، وأسمع أجهزة الإنذار تنطلق باستمرار، وكنت ألحظ وجوه الممرضات والأطباء المحتشدين في الغرفة متوترة بشكل واضح.

يقول مايكل: «إن ذاك اليوم هو اليوم الذي رأى فيه مدى قوتي وإصراري بشكل واضح».

بالنسبة لي لم أكن أعرف ذلك حينها، لكن مايكل أخبرني

أن طبيبي أخـذه جانبا ليخبره أن المخاض لـم يكن على ما يرام، وأنه يجب أن يسـتعد؛ حيث من المحتمل أنه سـيعود إلى المنزل مع زوجة أو طفل فقط، وليس مع كليهما.

كل ما كنت أعرفه هو أنني وسط ضباب من الضوضاء والألـم والأدوية والخوف.

فجـأة جـاء مايكل إلى جانبي وأمسـك بيدي ونظر في عيني، كانت عيناه مشعة ولفت انتباهي وكل حواسي إليه .. تلك اللحظة هـي الذكـرى الوحيـدة الواضحـة التـي أمتلكها عن ذلـك الوقت الصعب، شعرت وكأن الزمن توقف وأن الضجيج المحيط بنا قد تلاشـى، بالنسـبة لي لـم يكن هناك سـوى مايكل الـذي كان قويا وكنت عازمة على سماعه فقط.

«هيليسـت روحان فقـط، بل ثلاثة أرواح علـى المحك هنا، كريس.. سنتجاوز هذا معا، يجب أن نتجاوزه».

لا أعرف ما إذا كانت هذه هي الكلمات الفعلية التي قالها أم أنني قرأتها في نظرة عينيه، لكن رسـالته العاجلة كسـرت ضباب خوفـي وألمـي، لقد أرادنـي أن أفهـم العمـق اللامتناهي لحبه لي، وأن أسـتمد القوة منه، لقد بدا على يقين من أنه كان في مقدوري الاختيار وجعل هذا الاختيار حقيقيا.

وبطريقة ما شعرت بالقداسة حين وعد في المقابل بأن يكون مصدر قوة وسعادة دائمتين لي ولطفلنا لبقية عمره.

لقد كان مثل قبطان سفينة في عاصفة هوجاء، كان يأمرني بالتركيز والبقاء على قيد الحياة، وهكذا فعلت.

لا أعلم هل كان ذلك واقعا أم خيالا، ولكنني سمعت مايكل يعدني بإحضار الزهور الطبيعية لمنزلنا كل يوم لبقية حياتي. كان مايكل يعلم أنني كنت دائما أحب الزهور، لكن شراء باقة من الزهور كانت رفاهية لا يمكننا تحملها إلا في المناسبات الخاصة، ومع ذلك وفي اليوم التالي، وبينما كنت أحمل طفلنا الجميل بين ذراعي، قدم لي مايكل أجمل باقة ورد رأيتها في حياتي.

مرت ثلاث عشرة سنة منذ ذلك الحين، وكانت الأزهار النضرة تصلني كل أسبوع مهما كلّف الأمر.

كنا محظوظين، كنا أصحاب المعجزة السعيدة، بالرغم من أننا لم نكن نعرف ذلك، لكن هذه لن تكون المرة الأخيرة التي تُختبر فيها أسرتنا، ولن تكون المرة الأخيرة التي نتغلب فيها على الصعاب.

الناس لا يتحدثون عن ذلك النوع من الحب الذي يجعل كل شيء ممكنا إلاّ في الروايات الرومانسية، لكنني ومايكل

نحمل هذا النوع من الحب، حتى عندما نختلف، يظل هذا الحب هو ملاذنا وبر الأمان في الأمواج العاتية.

إنني على يقين بأن قوة حب مايكل هي التي أنقذتني وجيك يوم ولادته، وجعلت كل المعجزات التي حدثت منذ ذلك الحين ممكنة.

عندما غادرنا المستشفى كان لدينا أنا ومايكل كل ما تمنيناه، وأنا متأكدة من أن كل أسرة تشعر بهذا الشعور عندما ترزق بمولودها الأول، لكننا شعرنا حقا أننا أكثر الناس حظا على هذا الكوكب.

في طريق العودة إلى المنزل مع ابننا الجديد، توقفنا للتوقيع على أوراق الرهن العقاري النهائية لمنزلنا الأول، ومع بعض المساعدة من الجد الأكبر جون هنري، كنا ننتقل إلى منزل متواضع في نهاية أحد الطرق في إحدى ضواحي الطبقة العاملة في ولاية إنديانا، حيث سأعمل أيضا على إدارة أعمال دار الحضانة الخاصة بي.

ألقى مايكل نظرة خاطفة على وجه مولودنا الجديد جيك وكان مبتهجا، تذكرت فجأة أنه من الصدفة المحضة أن نعيش أنا ومايكل مع بعضنا البعض، خاصة عندما بدا لقاؤنا الأول مشؤوما للغاية.

التقيت أنا ومايكل لأول مرة أثناء دراستنا الجامعية.

«لقاء الصدفة» كان في الواقع حيلة من تدبير أختي المتطفلة ستيفاني ودون علمي، لقد شعرت بأنها مضطرة للعب دور الخطابة، إنها فكرة سخيفة؛ لأنني بالتأكيد لست هنا من أجل العشق، بالرغم من أنني كنت على وشك الوقوع فيه مع شاب رائع يدعى ريك، ذلك الأمير الساحر، كنا سعداء معا، وكنت أتطلع إلى سعادتنا الأبدية.

ومع ذلك كان لدى ستيفاني شعور تجاهي بأنني أتوافق مع شاب من فصل الخطابة العام، شاب لم يكن ذكيا فحسب، بل كان مثيرا للإعجاب، لقد كانت مقتنعة بأنه رفيق روحي الحقيقي لذلك دبّرت تلك الحيلة.

في فترة ما بعد الظهيرة، أطلقت ستيفاني ذلك الكمين، كنت حينها منشغلة في غرفة التجميل بتجهيز نفسي لموعد مع ريك، وضائعة مع ما لا يقل عن عشرين لونا مختلفا من أحمر الشفاه وثمانية أزواج من الأحذية، وعندما خرجت أخيرا، وجدت أن الشِخص الذي يقف أمامي لم يكن ريك، بل كان شابا لم أضع عيني في عينيه من قبل.

نظرت إلى أختي للحصول على تفسير للأمر وأنا مرتبكة من

هـذا الزائـر غير المتوقع، عندها أخذتني جانبا لتقول لي أشـياء لا معنى لها على الإطلاق.

قالت إنها دعت هذا الشـاب حتى تضطرني للقائه، حتى إنها اتصلـت بصديقـي لتخبـره بأنـه لا يمكـن إتمـام موعدنا فـي هذا المساء؛ نظرا لأن لدي ظرف طارئ.

فـي البدايـة كنت مذهولة جـدا لدرجة أنني لم أسـتطع الرد، كمـا اتضـح لـي ببـطء أن سـتيفاني كانت تحـاول لعـب دور آلهة الحب «كيوبيد».

اعتقـدت حقـا أنها فقـدت عقلها؛ فمن الـذي يفعل ذلك مع شخص يعتقد أنه على وشك الارتباط بصديق؟

كنت غاضبة، فأنا وهي لم ننشأ على لعب مثل هذه الأدوار.

فـي الواقع لـم أذهب في أول موعد لي حتى بدأت دراسـتي الجامعيـة، ومـن المؤكـد أننا لم نتعلم أن نكـون مخادعين أو غير مخلصين أيضا.

بـم كانـت تفكر؟ بقـدر ما شـعرت بالرغبـة في الصـراخ في وجهها أو الخروج من الشقة تماما إلا أنني فضلت الصمت؛ لأننا نشأنا على أخلاق حميدة، وكانت ستيفاني تعتمد على ذلك.

مددت يدي إلى الشـاب لأصافحه، كان بمثابة بيدق في لعبة ستيفاني تماما مثلي، وجلست معه ومع أختي في غرفة المعيشة، تداولنـا بعـض الأحاديـث المتكلفة علـى الرغم من أننـي لم أكن أعره اهتماما كثيرا.

بعـد ذلـك نظـرت أخيـرا إلـى الشـاب وتمعنتـه لأول مـرة، لاحظت قبعة البيسـبول التي يلبسـها عكسـيا، وعينـاه اللامعتان، ولحيته السخيفة.

وبمظهـره البسـيط وغيـر المتكلـف افترضـت أنـه يفتقر إلى الجوهر، وكان مقدار التباين بين شخصيته وشخصيتي وشخصية صديقي ريك الرسمية واضحا.

لماذا أرادت ستيفاني منا أن نلتقي؟!

كنـت فتـاة ريفية، مـن عائلة عاشـت لأجيال حيـاة متواضعة وبسـيطة، لقـد أراني ريك عالمـا مختلفا للغاية، لقـد تعرفت معه علـى الشـقق الفاخـرة، وخدمات السـيارات، وإجـازات التزلج، والمطاعـم، وحفـلات افتتاح المعارض الفنيـة، ولكن لا يهم أي مِن ذلـك، فحتى لو أحضرتْ سـتيفاني الممثل الشـهير براد بيت إلى غرفة معيشتنا كنت سأغضب منها لعدم احترام علاقتي، لكن التبايـن بيـن هـذا الطالـب الجامعـي الأشـعث والعملـة المعدنية

اللامعة التي تتمثل في صديقي جعلتني أتساءل أكثر عما كانت تفكر فيه أختي.

ماهي إلا لحظات حتى أخرجتني ستيفاني من صمتي وأخذتني إلى زاوية في شقتها الصغيرة ثم وبختني بشدة «أين أخلاقك؟».

ثم قالت: «اصرخي في وجهي لاحقا إن شئت، ولكن هذا الفتى ضيفنا ويستحق بعض المجاملة والحديث اللطيف.».

لقد كانت على حق، أن تكون فظا مع شخص غريب وضيف هو أمر غير مقبول.

لقد كانت اللباقة واللطف من الصفات التي غرسها فينا آباؤنا وأجدادنا والمجتمع المترابط الذي نشأنا فيه منذ كنا صغارا.

عدت للجلوس وأنا أشعر بالخجل وقدمت اعتذاري إلى مايكل، وأخبرته أنه كان لدي ارتباط ولم أكن أعرف ما الذي تفكر فيه ستيفاني عندما رتبت هذا اللقاء، وبالطبع شرحت له أنني لم أكن غاضبة منه، بل من أختي التي وضعتنا نحن الاثنين في هذا الموقف المحرج، ومع هذا الانفتاح في الحديث ضحكنا بسخرية من ذلك، وتعجبنا من جرأة ستيفاني.

تلاشــى التوتر في الغرفة إلى حد كبير، ثم دخلنا نحن الثلاثة في محادثة سـطحية؛ حيث أخبرني مايكل عن دراسته وعن فكرة خطرت له يمكن أن تصبح سيناريو لفيلم.

هـذا بالتحديـد ما أرادت سـتيفاني أن أراه فـي مايكل .. كان الشغف والحماسة يتدفقان من مايكل عندما تحدث عن سيناريو فيلمه، ولم يشـبه ذلك أي شــيء رأيته في أي شـخص آخر قابلته على الإطلاق.

إنه يشبهني كثيرا!

شـعرت باضطـراب فـي معدتي وشـعرت بنوع مـن الدوار، وعلى الفور أدركت أن مسـتقبلي الذي كان واضحا قبل لحظات لن يسير وفقا للخطة.

نعـم .. لن أتـزوج ريك على الرغم من أنـه كان رجلا رائعا، إلا أن تلك العلاقة انتهت.

لــم يكن لدي أي خيار في هذه المسـألة، لقـد عرفت مايكل بارنيـت منـذ أقل من سـاعة، ولكن بطريقة يصعب شـرحها كنت أعرَف بالفعل أنني سأقضي بقية حياتي معه.

ذهبنـا أنا ومايكل إلى مقهى وتحدثنا طـوال الليل، وبقدر ما

كان الأمر يبدو مبتذلا إلا أن كل واحد منا شعر كما لو أنه يعيد التواصل بشخص فقده.

لقد كنت مع مايكل وكأنني في وطني الحقيقي.

أصبحنا مخطوبين بعد ثلاثة أسابيع، وتزوجنا بعد ثلاثة أشهر، ومع ذلك وبعد ستة عشر عاما من الزواج، أشعر أنه من الضروري والمهم أن أكون مع مايكل كما كنت في تلك الليلة الأولى وغير المحتملة التي التقينا فيها.

لم يتقبل باقي أفراد عائلتي مايكل على الفور ولا حتى فكرة الارتباط المفاجئ أو تودده لي.

ما الذي حصل لابنتهم الحكيمة؟ حتى ستيفاني نفسها والتي كانت مسؤولة عن لقائنا أصبحت قلقة ومرتبكة مثل الآخرين.

صحيح أنها شعرت بأنها مضطرة لتقديمنا لبعض، لكنها لم تفهم كيف يمكننا التأكد من قرارنا المصيري في مثل هذا الوقت القصير.

لقد كان اختلافنا واضحا لنا نحن الاثنين، وكذلك للجميع؛ فقد كنت فتاة ريفية ذات جذور دينية عميقة، ونشأت في استقرار مع أسرة مترابطة، بينما كان مايكل فتى يعيش في المدينة، ونشأ في الجانب غير الصالح من شيكاغو في حياة عائلية صعبة.

في حين أنني لم أكن أغادر المنزل لأي سبب كان دون التأكد من أن مظهري لائق، وأن كل شعرة في مكانها، حتى لو كنت ذاهبة إلى متجر البقالة المجاور، كان مايكل غير المهتم بهندامه لا يعير تلك الشكليات أي اهتمام، كما كان الاعتزاز بأصولي الريفية مهما بالنسبة لي، فكان من المرجح أن تجد دجاجة حية في مطبخنا بدلا من العثور على لفافة من المناشف الورقية أو كومة من ورق التنشيف - رغم أنني لم أعد كذلك اليوم -.

لقد كان عالمي غريبا تماما بالنسبة لمايكل الذي نشأ وهو يتناول وجبات سريعة من النادر أن تقدم على الطاولة، وهذا ما جعل روحه مرحة وكثير النكات.

من المؤكد أن دهاء مايكل الحاد وحماسته وروح الدعابة والسخرية لديه أسهمت في عدم تقبل عائلتي له، ومع ذلك فإن قدرته على إضحاكي خصوصا عندما تصبح الأمور صعبة أو عندما أخذنا علاقتنا على محمل الجد كانت من الأشياء التي جعلتني أقع في حبه على الفور.

كان قلق عائلتي عميقا وواضحا وأجمعوا عليه باستثناء أحدهم، إنه الجد جون هنري الذي رأى شيئا متألقا ومختلفا في

مايكل، كان رأيه هو الرأي الأكثر أهمية وثقلا بالنسبة إلي؛ لذا شعرت بأنه عبارته تعني لي كل العالم عندما قال إنه يثق بحدسي وأنه ينبغي عليّ أيضا أن أثق به.

كانت الحياة مع مايكل هي قدري ويقينني الذي لم أشكك فيه، ولكن كانت هناك نتيجة مؤلمة لحبنا تمثلت في الانفصال عن الكنيسة التي نشأت فيها، كنيسة والديّ وأجدادي وأجيال عديدة من عائلتي قبلهم.

لقد نشأت في عائلة من طائفة الأميش، ولكن من الأميش المتحضرين الذين لا يعتمدون على الحصان والعربة مثل العديد من الأميش، أراد أجدادي الانخراط في هذا العالم الحديث مع الاستمرار بالتمسك بتقاليدهم ومعتقداتهم القديمة؛ لذلك أصبحوا جزءا من نظام جديد من الأميش يشار إليه أحيانا باسم طائفة الأميش الجديدة، وهم الذين حافظوا على معتقدات مجتمعهم مع تقديم بعض التنازلات من أجل الحياة الحديثة؛ حيث كنا نرتدي ملابس عادية، واستمتعنا بوسائل الراحة الحديثة، وذهبنا إلى المدارس العامة، ومع ذلك لم تكن الكنيسة بالنسبة لنا مجرد حدث في يوم الأحد، بل كانت نظام حياة.

تقتضي الأعراف في عقيدة الأميش أنه إذا لم تتزوج شخصا

مـن الكنيسـة التـي تنتمي إليها فـلا يمكنك البقاء عضـوا في تلك الكنيسـة، وكان جـدي الحبيـب جون نفسـه قـد طُرد منهـا عندما تـزوج من جدتي، المرأة التـي أحبها، رغم أنها كانت من الأميش إلا أنهـا لـم تكـن من نفـس المجتمع، كما أن والـدي لم يكن من طائفـة الأميش، لكن عندما تقدم لخطبة أمي انضم إلى كنيسـتها، مما سمح لها بالبقاء في المجتمع.

على الرغم من صعوبة تصوّر الخروج عن هذا التقليد المهم جـدا بالنسـبة لـي، فقـد كنـت أعـرف دائمـا أن عـادة الأميش في الزيجات التقليدية لم تكن تناسبني، ورغم وجود العديد عروض الـزواج التـي رفضها والدي مما أثار اسـتياء والدتي، فهو لم يكن يؤمن بالزواج التقليدي وبالتالي لن يقبله لفتياته.

بقـدر مـا أحببـت كنيسـتي وطريقـة حياتنـا، ولكـن كان مـن الواضح بالنسبة لي أنه إذا لم أستطع الجمع بين الزواج من مايكل والبقاء في الكنيسة، فلن يكون لدي خيار سوى مغادرتها.

الطفل الرضيع

منذ اليوم الأول كان جيك لطيفا وفضوليا مثل أي طفل آخر، فقد تحدث مبكرا وسرعان ما تعلم قول «مرحبًا!»، واعتادت أختي ستيفاني أن تضحك من الطريقة التي يمكنه بها أن يأسر مطعما بأكمله من خلال إلقاء التحية على الجميع وهو يلوح بيده الصغيرة، كما كان يحب الدمى، ويحب أن يختبئ في كومة منها ليصرخ ببهجة في كل مرة يتم اكتشافه فيها.

لقد عرفت بالطبع الجانب الأكثر لطفا من مايكل، ولكنني أشعر بالبهجة كلما رأيت مايكل في دور الأب المخلص.

كان يعمل لساعات طويلة في تلك الأيام، ولكنه حتى إن عاد من نوبة عمل مزدوجة أو مناوبة ليلية، فإنه كان يجد دائما الطاقة للتصارع مع جيك بطريقة المصارعة الحرة العالمية على كومة كبيرة من وسائد غرفة المعيشة الملقاة على الأرض، وكانت من أحب الألعاب للطفل الصغير جيك مع أبيه هي إطعامه قطعة من الكعك والضحك، مما يعني تلطيخ وجه مايكل الذي كان يتظاهر بالتهام يديه.

عدت إلى عملي في الحضانة بعد أقل من أسبوع من ولادة جيك، لقد كنت حريصة على العودة إلى العمل لأنني أحببته، ولأنني مكثت طويلا على الفراش، وكنت قلقة بشأن أخذ المزيد من الإجازات، كما لم أكن أريد أن أفقد ثقة العائلات التي أعطتني أطفالها لرعايتهم.

في بعض الأيام كنت أمكث في الحضانة من السادسة صباحا حتى السابعة مساء، وكان جيك معي، حيث عامله الأطفال مثل دمية بالحجم الطبيعي، فقاموا بتزيين ملابسه، وغنوا له الأغاني، وعلموه الرقص على طريقة أغنية باتي كيك، وكنت مبتهجة لانسجام الفتيات معه على وجه الخصوص، حتى إن أحد الأمهات قالت لي مازحة ذات مرة أن ابنتها «يجب أن تكون ضمن قائمة الموظفين في الحضانة»؛ لأنها تجد صعوبة في ترك جيك بمفرده.

كانت هناك بعض العلامات المبكرة تدل على أن جيك ذكيا جدا، لقد تعلم الأبجدية قبل أن يتمكن من المشي، وكان يحب أن يقرأها بالترتيب وأيضا بطريقة عكسية، وبحلول عامه الأول كان ينطق كلمات قصيرة مثل: «قطة»، و»كلب» بمفرده، وكان في عمر عشرة أشهر يصعد بنفسه على ذراع الأريكة حتى يتمكن من

إدخـال القـرص المفضل لديه فـي محرك الأقـراص بالكمبيوتر، والـذي كان يحتـوي علـى برنامـج قـراءة تعليمـي لكتـاب دكتور سـوس: «القـط فـي القبعـة»، وكنـا نـراه كما لـو كان يتتبـع الكرة الصفراء الصغيرة التي تظهر فوق الكلمات ويقرأ معها.

ذات ليلة رأيت مايكل واقفا خارج غرفة جيك بعد أن وضعه فـي سـريره، فأشـار إلى بأن أصمـت، وطلب مني الاقتـراب منه، تسـللت إلى جانبه لأسـتمع إلى ابننا الذي كان مستلقيا في سريره وهـو يثرثر فيما بدا لي وكأنها باللغة اليابانية، علمنا حينها أنه كان يحفـظ جميع أقراص الأفلام الخاصة به عن ظهر قلب، سـبق أن رأينـاه يغيـر اللغـة على جهاز التحكـم عن بُعد، ولكـن الأمر كان بمثابة صدمة حقيقية عندما أدركنا أنه لـم يحفظ النسخ الإنجليزية فقط، بل على ما يبدو الاسبانية واليابانية أيضا.

لقد أذهلتنا أيضا دقة جيك وبراعته، خاصة في عصر نرى فيه معظم الأطفال على عكس ذلك.

كان جيك يجلس في كثير من الأحيان بهدوء وينظم سياراته الصغيـرة في خط مسـتقيم تماما على طول طاولـة القهوة، ويقوم بتعديلها بإصبعه للتأكد من أن المسـافة بينها متساوية أيضا، وكان يقوم بترتيب الآلاف من أعواد الماسحات القطنية على السجادة،

مما يخلق تصميمات متقنة تشبه المتاهة، وتغطي أرضية الغرفة بالكامل.

كنا نشعر بنوع من الفخر في بعض الأحيان عندما نرى جيك وكأنه متفوقا على أقرانه، ولكننا كنا ندرك أيضا أن جميع الآباء الجدد يعتقدون أنهم أنجبوا الطفل الأكثر تميزا على وجه الأرض.

عندما بلغ جيك أربعة عشر شهرا بدأنا نلحظ بعض التغييرات الطفيفة عليه .. في البداية كانت جميع تلك التغيرات صغيرة لدرجة أننا أوجدنا تفسيرات لها.

لا يبدو أنه يتحدث أو يبتسم كثيرا، لكن ربما كان قلقا أو متعبا أو أنه في مرحلة بروز الأسنان.

لقد أصيب في ذلك العام بالتهابات مزعجة ومؤلمة ومتكررة في الأذن، مما ساهم في تفسير سبب عدم ضحكه عندما كنت أدغدغه، أو سبب عدم اهتمامه في بعض الأحيان عندما أغطي عيني لألعب معه لعبة النظرة الخاطفة أو البيكابو، كما لم يعد حريصا على المصارعة مع والده، وهي اللعبة كان يترك كل شيء في يده من أجل أن يلعبها، ولكن ربما أنه ليس في مزاج جيد.

الحقيقة أن طفلنا جيك لم يعد كما عهدناه.

يبدو أن جيك قد فقد شغفه ببعض اهتماماته القديمة، لقد كان دائما مفتونا بالضوء والظلال والأشكال الهندسية، لكن بالنسبة لي بدا اهتمامه بهذه الأشياء مختلفا الآن.

على سبيل المثال؛ اكتشفنا أنه عندما كان صغيرا يحب النقوش، وكان غطاء السرير الخاص بنا في ذلك الوقت يحتوي على نقوش، وكان هو الشيء الوحيد الذي من شأنه أن يهدئه عندما يشتد عليه ألم التهاب أذنيه، وكما أن الأمهات الأخريات لا يغادرن منازلهن بدون مصاصة لأطفالهن، لم أكن أخرج مطلقا بدون قطعة من القماش المنقوش.

في سنته الأولى بدأ يتدحرج على جانبه ويحدق باهتمام في الغطاء ووجهه على بعد إنشات فقط من النقوش، وكان يستمر في التحديق طالما سمحنا له بذلك، وأحيانا نراه محدقا بتركيز على شعاع الشمس المنعكس على الحائط وهو على جانبه، أو مستلقيا على ظهره ويحرك يده ذهابا وإيابا عبر ضوء الشمس ويتأمل الظلال التي كان يصنعها.

لقد كنت فخورة حينها بالعلامات المبكرة لاستقلاليته، لكن هذه السلوكيات لم تعد تشعرني باستقلاليته، بل بشعور كما لو أن ابني حدث له شيء.

كان جيك دائما «الأخ الأصغر المدلل» لأطفال دار الحضانة، وكان يحب كل لحظة يقضيها معهم، لقد أمضى عامه الأول بأكمله في المرح والرقص والقفز والرسم بالأصابع معهم، وكان يأخذ قيلولته عندما يأخذونها، ويأكل وجبته عندما يأكلون، ولكنني اكتشفت الآن أنه يفضل النظر إلى الظلال بدلا من الزحف ببهجة خلف الأطفال،كما أنه أصبح إلى يتجاهل أكثر عروضهم المبهرة لجذب انتباهه.

اعتقد مايكل أنني كنت أشعر بالقلق دون مبرر؛ فالأطفال برأيه يمرون بهذه المراحل.

«طفلنا بخير كريس، مهما كان ما يمر به فسوف يتجاوزه.»

كان يطمئنني ويحضننا بقوة وهو يصرخ ويضحك ويدغدغ جيك محاولا تبديد قلقي.

في الواقع كانت والدتي أول شخص في العائلة يشتبه في أن كل ما يمر به جيك لم يكن مجرد مرحلة طفولية عادية، لم نكن نعرف ذلك بعد لكن عالمنا المثالي بدأ يتغيّر بالفعل.

هناك خطب ما

نشـأت في منطقة إنديانا الوسـطى بالقرب مـن منطقة ريفية، حتـى إنـه كان لدينا عدد من حيوانات المزرعـة في الفناء الخلفي للمنـزل، وكانت فـي الغالب ماعزا أو دجاجـة، وكانت لدى أمي عادة في كل ربيع، وهي أن تقترض من إحدى المزارع المجاورة فرخـا لأحد الطيور؛ ليبقى معنا يومـا بأكمله، وكنت كطفلة أحب هـذه العـادة، بـل وأنتظرهـا بشـوق فـي كل عـام .. وبالطبع كنت متحمسة بشدة لأمارسها مع ابني جيك.

وفـي الربيـع الثاني من عمر جيك، اقترضـت أمي لهذا العام طائـرا صغيـرا رائعا، كان فرخ بط، وفي ذلـك اليوم كان جيك ذو الأربعة عشـر شـهرا يجلـس إلى طاولـة المطبخ فـي بيت جدي، منهمـكا في ملء الصفحـة تلو الأخرى من الورق المقوى بمئات من الدوائر التي يرسـمها بيده، والتي كانت جميلة، ولكنها غريبة أيضا؛ فقد بدت كنوع من الرسـومات العابثة التي قد تجدها على هوامـش دفتـر مهنـدس معمـاري، وليس فـي رسـومات طفل لم يتخـط بعـد عامـه الثانـي، وبينما كانت أمي تسـحب الفـرخ برفق

لتخرجه من سلة الخوص لم أستطع إخفاء ما بدا على وجهي من توقعات متضاربة لردة فعل جيك.

أثار ذلك ضحك أمي وهي تتسلل خلف جيك واضعة أصبعها فوق شفتيها إشارة للصمت، ثم وضعت ذلك الفرخ الرائع فوق الورقة التي كان جيك منهمكا في الرسم عليها .. كنا نتوقع ردة فعل معينة من جيك، إلا أننا ا لم نر شيئا، فوجه جيك لم يشرق لرؤية ذلك الفرخ الصغير ذو الزغب الناعم يتهادى في مشيته على بعد سنتميترات من وجهه، بل بدلا من ذلك مد جيك أصبعه نحو الفرخ دافعا إياه برفق ليبعده عن ورقة الرسم، بينما لم ينقطع لحظة عن رسم دوائره!

عندئذ رفعت نظري نحو أمي لتلتقي أعيننا بخوف هذه المرة، ولأسمعها تقول: «أعتقد أنه يحتاج إلى فحص طبي يا كريس».

وعلى الفور؛ حجز لنا طبيب الأطفال موعدا لإجراء فحص السمع، غير أننا لم نجد أي مشكلة في قوة السمع لدى جيك، على الرغم من أنه حينها لم يكن حتى يستجيب لدى سماع اسمه حينما كنا نناديه!

اتفقنا جميعا على أن الوقت قد حان لتقييم جيك لدى

أخصائي نمو وسلوك، واقترح علينا الطبيب التواصل مع برنامج «فيرست ستبس»، وهو برنامج تموله الدولة للتدخل المبكر، ويعمل على تقييم وعلاج الأطفال تحت سن الثالثة ممن يبدو أنهم يعانون من تأخر في التطور.

وبعد إجراء التقييم الأولي؛ اتضح أن هناك تأخر في بعض النواحي لدى جيك؛ وعليه أرسل لنا برنامج «فيرست ستبس» أخصائي تخاطب في المنزل ليعقد جلسة أسبوعية مع جيك، ولكنه وعلى الرغم من كل تلك الجلسات، كانت قدراته على التحدث تقل أكثر فأكثر بمرور الوقت، فأخذ يتراجع تدريجيا ليدخل في عالمه الخاص الصامت، مما دعا أخصائي التخاطب إلى زيادة عدد الجلسات التي يتلقاها جيك إلى ثلاث أسبوعيا، وهو الحد الأقصى الذي يسمح به البرنامج، ولم يمر وقت طويل حتى انضم إلى الفريق معالجا تنمويا.

وقد خصصنا مساحة في مطبخ المنزل لعقد تلك الجلسات العلاجية، كما اشتريت تقويما كبيرا علقته على الحائط حتى أسجل عليه كافة المواعيد العلاجية.

وعند تلك المرحلة كان جيك بالكاد يتحدث.

لم يعترض مايكل على دخول وخروج كل هذا العدد من

الأخصائيين يوميا إلى المنزل، ولكنه كان يبوح لي سرا بأنه يعتقد بأن كل هذا كان مبالغة منّا، أو كان كحال كل شيء في عصرنا .. رد فعل مبالغ فيه.

كان يقـول: «نسـب نمو وتطـور الأطفال تختلـف يا كريس، أنت من قال ذلك بنفسك، قبل وقت قريب لم يكن أحد يفعل كل هذه الضجة على أمر كهذا، ومهما كان ما يمر به جيك فسيجتازه أثنـاء نموه، ولكن ما دامت الدولة على اسـتعداد لتقديم كل تلك الخدمات من أجل تسريع سير العملية فلا بأس بذلك أيضا».

كان مايكل واثقا من أن جيك سـيكون على ما يرام في نهاية الأمر.

كان شـعوري بالتفاؤل يتزايد أيضا، وكان يعزز ذلك الشعور وجود كتيبة خاصة من المعالجين.

عندمـا كنـت أعمـل كمربية مقيمـة كان عليّ رعايـة عدد من الأطفـال حيـث كان أحدهـم يعاني مشـكلة في التخاطـب، ولقد رأيـت معالـج التخاطـب يصنع معـه المعجزات فـي وقت قصير للغايـة؛ لـذا فقد كان أمرا مؤكدا أننا ومع كل هؤلاء الخبراء الذين يقدمـون لنـا العـون ومـع قليـل مـن الجهـد والصبر سـننجح في استعادة ابننا مجددا.

كما كان هناك سبب آخر يدعو إلى الابتهاج، وهو دار الحضانة التي كنت أعمل بها وتدعى أكاديمية «أكورن هيل»؛ حيث كانت تلك الدار في حالة من الازدهار، فلم تكن «أكورن هيل» تبدو كأي دار رعاية نهارية عادية، بل كانت تبدو أكثر منها كالكواليس الخلفية لمسرح ما، حيث يجري الإعداد لإخراج العمل النهائي.

لطالما كانت قلة الموارد المالية تقف حائلا بيني وبين شراء ما يلزم الأطفال من مواد تساهم في شحذ طاقاتهم الإبداعية من المتاجر المتخصصة في لوازم الأشغال اليدوية؛ ولذلك كنت دائمة البحث عن سبل مبتكرة للحصول على هذه المواد.

فعلى سبيل المثال؛ احتمال إسعاد الأطفال باستخدام كرتون ثلاجة جديدة قد يكون مذهلا بحق، ولقد اكتشفت أنه كلما أبديت مدى استعدادي لاغتنام تلك الاحتمالات أبدى الآخرون سعادتهم لمساعدتي.

منذ فترة طويلة؛ بدأ عدد من المتاجر في الجوار بادخار صناديق الكرتون الفارغة من أجلي - تلك الصناديق التي كنت أراها مليئة بالكنوز -، كما كان أحد متاجر السجاد يرسل لنا باستمرار عينات من قطع السجادة مربعة الشكل، وكان متجرا

للدهانات يرسل لنا كتيبات قديمة لعينات ورق الحائط بالإضافة إلى علب من الدهانات التي تم تجهيزها وخلطها بناء على طلب أصحابها ثم لم يستلموها، وغيرها من فرش الدهانات التالفة.

لقد كنا في دار الرعاية دائما ما نحدد مشروعا أو مغامرة ما لنعمل عليها: كأن نصنع جدارية ضخمة، على سبيل المثال، أو رقعة شطرنج بحجم الغرفة (بمساعدة تبرعات أخرى) بمجسمات وقطع كبيرة للغاية يتطلب تحريكها أن يقوم الأطفال بتكوين فرق فيما بينهم.

ولم يكن أولياء الأمور يأبهون لرؤية أطفالهم ملطخين ببقع الطلاء من الرأس حتى أصابع الأقدام بمجرد أن يروا تلك القلعة العملاقة المشيدة بإتقان والتي أمضينا اليوم كله في بنائها باستخدام الصناديق الكرتونية التي تحفظ بداخلها الثلاجات الجديدة.

لقد كانوا ينظرون إلى المعنى وراء ملابس أطفالهم المتسخة، عندما يأخذهم الأطفال بكل سعادة وفخر في جولة داخل القلعة ذات الألوان الزاهية والتي تتكون من غرف عديدة منفصلة.

ومما زاد الأمر حماسا؛ أنني أصبحت حاملا مرة أخرى، وكان مايكل يشعر بسعادة غامرة، فها هو حلمنا ببيت ممتلئ عن آخره بالأطفال يتحقق شيئا فشيئا.

وعلى الرغم من أنني لم أدرك ذلك في حينه، إلا أن تلك الفقاعة من السعادة العائلية التي غمرتنا لم تكن سوى بداية الإعصار؛ حيث تبدو الأمور هادئة؛ لأني لم أنتبه لمدى خطورة ما يحدث لجيك، ذلك الشيء الذي لم نكن ندركه أو حتى نعرف له اسما إلا بعد أسابيع، حين كنا مدعوين لحضور حفل عيد ميلاد أحد الأطفال.

هناك عدد من الأمور التي قد تشعر الأطفال بالفرحة العارمة كالتفاعل مع أحد الشخصيات التي يعرفونها ويحبونها من الكتب أو التي تظهر على شاشة التلفاز، ولم تكن حفلة عيد الميلاد في بيت جارنا في تلك الليلة استثناء؛ حيث أحيت الحفل شخصية كليفورد، الكلب الأحمر الكبير (من سلسلة كتب للأطفال بهذا الاسم).

حينما دخلت شخصية الكلب الأحمر من الباب؛ اندفع الأطفال في حالة من الابتهاج الهستيري، وعلق مايكل ضاحكا بأن الأمر بدا وكأن المغني مايكل جايكسون قد ظهر بين زوار أحد المراكز التجارية.

اتجهت أنظار جميع الأطفال في المكان إلى شخصية الكلب العملاق ماعدا جيك، الذي ظل ملتصقا بكتاب الحروف

الأبجدية الذي أحضره معه، فحاولنا أنا ووالده لفت انتباهه ليندمج مع ما يحدث «انظر جيك .. إنه كليفورد!»، إلا انه لم يرفع حتى عينيه عن الكتاب، في غرفة تعج بالأطفال الصاخبة، مزينة من الأرض إلى السقف بالبالونات وأوراق الزينة الملونة وأواني الحلوى العملاقة في كل مكان، ناهيك عن ذلك الشخص الذي يرتدي زي الكلب الأحمر ذو الفراء الكثيف وطوله الذي يبلغ ستة أقدام .. كان جيك جالسا هناك وغارقا مع الحرف K.

تصاعدت موجة من التوتر في أعماقي وأنا أهتف بمايكل قائلة: «اجلسه على كتفيك حتى يستطيع أن يرى ما يحدث.»

وقد فعل ذلك وهو يرقص ويغني مع أغنية عيد الميلاد التي يغنيها كليفورد، ولكن جيك وبكل بساطة عاد ليفتح كتاب الأبجدية مرة أخرى واضعا إياه على رأس مايكل، وفي محاولة أخيرة للفت انتباهه، أمسك مايكل بأصابع جيك محاولا فتحها ليعطيه بالونا، إلا أنه نظر من فوق كتف أبيه إلى الشريطة الحمراء ثم رفع نظره إلى الأعلى نحو بالون الهيليوم اللامع، وما لبث أن عاد ينظر مجددا إلى الكتاب فوق رأس مايكل، وببطء بدأ يفتح أصابعه متخليا عن البالون .. هنالك وقفت أنا ناظرة إلى ولدي الذي بدا جادا وصامتا وضائعا بين حروف كتابه، بينما كان البالون يطير مرتفعاً نحو السقف.

في تلك اللحظة أدركت أن أمي كانت على حق: هناك خطب ما مع ابني.

وهكذا؛ تابع برنامج «فيرست ستيبس» إرسال المعالجين إلى منزلنا ليعملوا مع جيك .. أما أنا؛ فقد كنت بالطبع أعايش الأحداث غير أن شعوري القديم بالتفاؤل بعد تلك الليلة في حفل عيد الميلاد كان قد أصبح مسطحا وأجوف تماما كالبالون الذي جلبناه معنا إلى المنزل، ولم أعد واثقة بعد الآن من أن ذلك العلاج كان كافيا لإيقاف ما يحدث لجيك .. أما هو؛ فقد بدا أنه يواصل عزلته أكثر فأكثر ولم يفلح شيء في إيقاف هذا التدهور السريع.

كان قضاء ساعة مع المعالج قد يحث جيك فقط على نطق كلمة واحدة أو ربما صوت واحد، وأحيانا كان يكرر كلمات أغنية بشكل عشوائي أو يقلد جملة قالها أحدنا كما يفعل الببغاء، ولكننا كنا قد فقدنا تماما أي تواصل فعلي مع جيك حتى في أبسط التفاعلات التي قد تشبه المحادثة كأن يقول: «مرحبا»، أو حتى يطلب قطعة من البسكويت، كل ذلك لم يعد ممكنا.

عندما أعود بذاكرتي فأتأمل ما كان يحدث؛ أدرك أن جيك كان يظهر علامات التوحد كما يقول الكتاب، من التغيير

التدريجي في التخاطب، وعدم القدرة على التواصل بالعين، أو الاندماج مع عائلته أو مع المعالجين، ولكن كل هذا كان يحدث في العام ١٩٩٩، أي قبل أن يعرض التلفاز برامج (PBS) التثقيفية المجتمعية، وقبل أن يعرف أحد بأننا نتعامل مع مرض؛ ففي العام ١٩٩٩ كان مرض التوحد يعني شيئا واحدا للغالبية العظمي من عامة الناس، وهو فيلم (رجل المطر – Rain Man)، بيد أنني لم أجد أي وجه للتشابه بين صغيرنا والشخصية التي لعبها الممثل «داستن هوفمان» في ذلك الفيلم.

على الرغم من أنني حينها كنت لا أزال أجهل اسم هذا المرض، إلا أنني كنت قد بدأت أتفهم في أعماقي مدى جدية ما كانت تتكشف عنه الأيام، ومع ذلك كان من الأهمية بمكان بالنسبة لي أن أحافظ على تلك التقاليد التي كانت تجعل من حياتنا الأسرية أمرا فريدا خاص بنا.

كان أحد تلك التقاليد، وربما كان أكثرها أهمية بالنسبة لي هو عشاء يوم الأحد في بيت جدي.

لقد كان عمل أمي كمحاسبة في إحدى الشركات يجعلها تقضي ساعات طويلة خارج المنزل بالإضافة إلى رحلاتها المتكررة إلى مدينة نيويورك، الأمر الذي جعلنا نقضي جل وقتنا

مع جدي وجدتي حيث يقع منزلهما في الجهة المقابلة من الشارع مباشرة.

كان جدي مخترعا غريب الأطوار ذا شخصية جامحة على نحو رائع، إلا أنه كان يعشق اللعب معنا أكثر من أي شيء آخر، كان قادرا على تحويل حياة كل من حوله إلى سلسلة من المغامرات الحقيقة التي لا نهاية لها.

كان جدي جون هنري رجلا مذهلا، فلم يكن مجرد ميكانيكيا ومهندسا ومخترعا فحسب، بل كان أيضا حرفيا ونجارا جيدا، فبعد انقضاء فترة تجنيده في البحرية الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية؛ عاد إلى مسقط رأسه في مدينةك ««مانسفيلد» بولاية أوهايو؛ حيث عمل هناك ميكانيكيا في ورشة وستنجهاوس للخراطة، التي كان يعمل فيها والده من قبل. وكعمل إضافي إلى جانب وظيفته اليومية، حصل الجد جون على رخصة مقاول، وبدأ في إنشاء المباني السكنية والتجارية، وتحدثت عنه الصحف المحلية حينئذ باعتباره مثالا لروح القدرة الأمريكية، والدليل الحي على التفاؤل والعمل المؤسسي القائمين على مبدأ الصعود من الحضيض إلى القمة، وهي الفكرة التي جعلت من أمريكا بلدا عظيما، وكان ذلك مباشرة قبل أن يقوم بأفضل أعماله على الإطلاق.

فعندما بدأ الجد جون عمله في وستنجهاوس؛ لاحظ وجود قصور في العملية المعروفة بالتلدين، حيث كان العمال يحتاجون من أجل إحداث ثقب في الحديد الصلب إلى تسخين المعدن لتليينه للدرجة التي تسمح باختراقه باستخدام الأدوات الخاصة بذلك، ولكن كانت المشكلة تكمن في أن تلك الفتحة تفقد شكلها المحدد بدقة بسبب التسخين، مما يستدعي إعادة العملية برمتها.

لقد كانت تلك المشكلة تواجه كافة أصحاب مصانع الحديد والصلب في العالم أجمع، وبحكم معرفتي بشخصية الجد جون فلا بد أن هذا الأمر كان يثير جنونه.

لم نكن نرى جدي دون دفتره الصغير الذي كان يضعه دائما في جيب سترته، تلك الدفاتر التي كان يملؤها برسومات وأفكار ومشروعات كان يعمل عليها، ولا أعرف في الحقيقة كم من الوقت أو من الدفاتر استغرقه الأمر، ولكن في نهاية الأمر؛ استطاع الجد جون بمعاونة شريكه أن يحل الأحجية، وكان ذلك من خلال اختراع مجموعة جديدة من الأدوات بالإضافة إلى ابتكار خطوات لعملية صناعية جديدة تسمح باختراق الحديد الصلب دون تسخينه أو تليينه، الأمر الذي كان بمثابة ثورة في صناعة الحديد والصلب.

انتبهت شركة فورد للسيارات إلى اختراع جدي، وكانت أول شركة تبادر بشراء الحقوق غير الحصرية لهذا الاختراع من أعضاء الفريق، ثم قامت شركة فورد لاحقا ببيع تلك الحقوق إلى شركات كبرى، واليوم لا توجد سيارة على الطريق أو حتى جهاز تحميص خبز في مطبخك لم يستفد من اختراع جدي.

وهكذا غيرت فورد من حياة جدي، فلقد انتقل الجد من ورشة الماكينات إلى المقر الشهير لشركة فورد في مدينة ديربورن بولاية ميتشجان، المعروف باسم: (البيت الزجاجي)، ولكن، وحتى بعد أن أصبح مديرا تنفيذيا؛ ظلت ورشة الماكينات هي المكان الذي يفضل جدي التواجد به.

وفي النهاية عرضت شركة فورد على جدي الانتقال إلى ولاية إنديانا بوليس لرئاسة قسم الخراطة في أكبر منشآتها الصناعية.

وهكذا انتقل جدي (وانتقلنا معه لاحقا لنعيش هناك).

لقد كان اختراع جدي علاوة على المنصب الذي شغله في شركة فورد، والذي ظل يشغله حتى بلغ السبعينات من عمره؛ سببا في ثرائه، إلا انه لم يشتر أبدا منزلا فارها أو يسافر حول العالم، ولكنه بقي في نفس المنزل المبني بالطوب الأحمر ذي

الطابق الواحد في الجانب الشرقي من ولاية إنديانا بولس، والتي انتقل إليه بصحبة جدتي من مدينة ديربورن؛ حيث ظل هناك بقية عمره، وحيث تعيش جدتي إلى يومنا هذا.

وبسبب ذلك المال الذي استطاع جمعه؛ فقد تمكن من الحصول على إجازة لمدة خمس سنوات لمساعدة والدي في تربيتي والاعتناء بي أنا وأختي ستيفاني عندما كانت الحاجة تقتضي ذلك.

وفي كل يوم يمر علينا كان جدي يفتح لنا أبواب عوالم سحرية جديدة، فكان جدي هو الشخص البالغ الوحيد الذي كانت طاقاته وإبداعاته تمثل ما لدينا نحن الأطفال من طاقات وقدرات إبداعية.

عندما كان جدي بجانبنا؛ كنا نستطيع أن ننسج كل عجائب خيالنا لنصنع منها ألعاب ملموسة واقعية كالأرض التي تحت أقدامنا.

كان الجد جون قادرا على بناء أي شيء بحق، وفي نفس الوقت الذي كان يساعد فيه في تنشئتنا أنا وأختي كان أيضا يعمل على مشروع آخر قريب إلى قلبه؛ فالإسراف الوحيد الذي كان يسمح لنفسه به هو أن يشتري قطعة أرض في الجوار ليبني عليها ملجأ لجماعة الأميش الدينية في إنديانا.

أما الكنيسة فكانت إلى حد كبير مشروعا بالنسبة له؛ ذلك أن جـدي كان قد نشـأ متأثـرا بثقافة تربيـة حيوانـات الحظائر وحرفة النجارة، ثم إنه حصل على ذلك الترخيص لمزاولة مهنة المقاولة؛ لذلك عندما أصر على بناء كل مقعد في الكنيسـة الجديدة بنفسـه كان هذا يعبر عن شخصيته تماما.

وعندمـا لـم يكـن أداء الطاقم المسـؤول عن صنفـرة وطلاء العوارض الخشـبية لدعم السقف مطابقا لمعاييره؛ قام بتجديدها بنفسـه بمسـاعدة عائلتـه - حتـى إنـه قـام بتجنيدنـا أنا وسـتيفاني كأصغر الأعضاء -.

لقـد كان يتواجـد فـي موقـع البنـاء كل يـوم، وفـي كثيـر من الأحيان كان يشترك معنا في عمليات السحب والجر، وكنا نصنع تماثيل صغيرة من نشـارة الخشـب المبللة والبراغـي الملقاة أثناء انشـغاله بالإجابة على سـؤال أو التشـاور مع أحدهم بشأن خطط العمل، ثم نتوجه معه إلى البحيرة الواقعة في ممتلكات الكنيسة، ونصطاد أسـماك الكرابي والخيشـوم الأزرق في قارب بناه جدي بيديه.

وفـي الأوقـات التي لـم نذهب فيهـا إلى موقع الكنيسـة؛ كنا نبقـى إلى جـواره في ورشـة المـرآب الخاصة به حيـث الفوضى الخلاقة.

ربما يحاول الأطفال الآخرون أن يتخيلوا كيف تبدو ورشة عمل سانتا كلوز، لكنني نشأت فيها في الواقع.

استقرت أكوام من الخشب المعطر على أقواس قوية في المرآب، في انتظار جدي ليستخدمهم في صنع مهد لطفل جديد في الأسرة، أو لإحدى الدمى لدينا، بينما كانت المطارق والمشابك والأدوات الصغيرة الأخرى، والتي صقلت مقابضها بفعل سنوات من الاستخدام المحترف، معلقة بشكل عشوائي بمجموعة من المسامير على الحائط، وترى أدراج مصنوعة يدويا من خشب البلوط لها مقابض نحاسية لامعة تفتح لتكشف عن آلاف البراغي والصواميل والمسامير من كل الأحجام والأوصاف، بينما كانت الخزانات المصنوعة يدويا تحتوي على ورنيش ودهان وفرش وأحجار شحذ وأزاميل وأي شيء آخر قد يحتاجه لتحويل الخيال إلى حقيقة واقعية.

وفي المساءات؛ نكون متعبين بعد أيامنا الطويلة المزدحمة مع الجد، فأنزلق أنا وستيفاني إلى نعومة الروتين المهدئ للأعصاب في مطبخ جدتي إيدي شديد النظافة والنظام.

كانت جدتي صارمة قليلا مقارنة بالجد جون الذي كان يتمتع بالحيوية والحماس، وكانت الجدة تجندنا للمساعدة في أواخر الصيف في تعليب الذرة والتوت وصنع المخللات.

بعـد ذلك؛ كنـا نضع أوعية كبيـرة من صلصة التفـاح الحارة والمصنوعـة مـن التفاح الـذي قطفناه في الخريف مـن نوع: «يلو ترانسبيرنت»، و»لودي».

وفـي ليالـي الشـتاء؛ كنا نصنع مقرمشـات الفول السـوداني، والفشـار بالكراميل، وعندما كانت درجة الحرارة تنخفض إلى ما دون درجة التجمد؛ كنا نصنع حلوى حبل الغسيل.

وبعد العشـاء؛ كنا نمضي السـاعة الأخيرة من اليوم في غرفة أجـدادي الأمامية؛ حيث نسـتمتع بتناول جبن الشـيدر والتفاح أو أحـد المخبوزات الألمانية الرائعة من خزينة الجدة إيدي، وكنت أنـا وسـتيفاني نعشـق بشـكل خـاص كعـكات الفطائـر العملاقـة المرشوشة بالسـكر والقرفـة والتـي أطلقنـا عليهـا اسـم: «رقعـة الركبة».

أمـا فـي الصيف؛ فـكان آيس كريم الجـدة بالفانيليا محشـوا بالفراولة التي قطفت للتو.

وفـي الشـتاء؛ كانـت تضـع علـى أطباقنـا ملعقة مـن الخوخ المعلب الذي صنعته بيديها.

فـي هذه الغرفـة؛ علمتني جدتي أنـا وسـتيفاني كيفية خياطة الألحفة، وكيفية التطريز، وأيضا فك تشـابك الخيوط الملونة في صبر عندما كانت تتشابك.

وحينما كانت العائلة بأكملها تجلس لتناول العشاء في ليالي الأحد؛ كنا نفعل ذلك على طاولة صنعها جدي بنفسه، ثم صقلها بالرمل ولمعها لتبدو كالمرآة في النهاية، وقد جُهزت الطاولة بمفارش ومناديل من الكتان قمنا نحن نساء العائلة بتطريزها بأيدينا.

كان هناك دوما اهتمام ورعاية وجودة على تلك المائدة، وكان الحب حاضرا.

ونظرا لمدى أهمية علاقتي بأجدادي بالنسبة لي؛ كان من الطبيعي أن أرغب في أن يكبر جيك بالقرب منهم أيضا؛ لذلك ففي كل أسبوع، كانت عائلتي الصغيرة الجديدة تنضم إليهما لتناول عشاء يوم الأحد بصحبتهما .. تماما كما كنت أفعل دائما وأنا بعد طفلة.

لقد كان مايكل يعشق الذهاب لتناول عشاء يوم الأحد بقدر ما كنت أعشقه أنا، فقبل أن نلتقي، لم يكن يعرف أبدا مدى روعة الشعور بالاحتماء من برد الشتاء في منزل دافئ تفوح فيه الروائح الشهية لشواء اللحوم وخبز الفطائر، لم يجلس أبدا قبل ذلك في عِيد الشكر إلى مائدة زُينت بشموع صنعت في المنزل من شمع العسل، ولم يمزح مع الأقارب حيث عمل الجميع معا على إعداد المائدة حتى نتناول الطعام فيما لا يزال ساخنا.

وهكذا كنت أرى أن الترحيب بمايك في هذا الحضن العائلي من أعظم الهدايا التي يمكن أن أقدمها له.

أما عن نزهات الأحد؛ فلم يكن مايك هو الوحيد الذي استمتع بها، فبقدر ما كان جيك صعب الإرضاء بشأن ما يأكل، إلا أنه كان يلتهم قطعة عملاقة من فطيرة التفاح التي تصنعها جدتي - بل وأخرى إذا سمحنا له بذلك -، وكان يحب اللعب بالألعاب الخشبية الجميلة التي صنعها الجد جون لأحفاده عندما كنا صغارا، وكانت لعبة سباق كرات البرجون هي المفضلة لدى جيك، كما كانت هي المفضلة لدي قديما.

كنت على يقين أنه عندما يكبر، سوف أراه بصحبة الجد جون يجلسان سويا إلى طاولة العمل في المرآب، وكلاهما ينحني على أحد تلك الدفاتر الخاصة بجدي.

في إحدى أمسيات الأحد كان مايكل قد تم استدعاءه للعمل، فذهبت أنا وجيك بمفردنا إلى العشاء، في المعتاد، كان جدي يرحب بنا عند الباب، لكنه لم يفعل في تلك الليلة>

افترضت أنه إما كان ينهي مشروعا أو يقوم بالتنظيف، فلم تكن جدتي لتسمح له بالاقتراب من مائدتها حتى يغسل شحم الماكينة وغبار الخشب عن يديه بصابون الصنفرة الأسود ثم

يخلع ملابسه ليرتدي أحد قمصان القطن الناعمة التي كانت تحتفظ بها دائمًا مكوية ومرتبة بدقة من أجله، بيد أنه عندما ظهر أخيرا على رأس المائدة لتقطيع الشواء؛ صُدمت عندما رأيته جالسا على كرسي متحرك.

لقد عانى جدي على مدار العام السابق، من سلسلة من السكتات الدماغية الصغيرة ورأينا صحته تتراجع تدريجيا، ومع ذلك؛ فقد صُدمت إذ أدركت أنه أصبح الآن أضعف من أن يقف، شعرت لحظتها بغصة تخنقني، لكن الطريقة التي أظهر بها افتخاره لأخي بن بالهندسة التي يعمل بها كرسيه المتحرك، ساعدتني أيضا على رؤية أنه لا يزال هو كما نعرفه.

في تلك الليلة؛ حدث تقارب طريف، فقد كان أخصائي العلاج الطبيعي الذي يعالج جدي قد أعطاه قطعة من العجين اللين الخاص ليعتصره بيده حتى يتمكن من استعادة القوة في يده المصابة، ولكنه عندما أخرجها؛ اتسعت عينا جيك، وبدأ يهمهم بصوت خافت.

«ما هذه الأغنية التي يغنيها؟

سألتني جدتي في حيرة.

كان هذا هو الصوت الوحيد الذي سمعناه من جيك طوال

الليل، ابتسمت وغنيت معه: «اصنع ثعبان، اصنع ثعبان»، تلك الأغنية التي كنت أنا ومايك نغنيها دائما لتشجيع جيك ليشكل قطعة من العجين من نفس النوع على النحو الذي يطلبه منه أخصائي العلاج الطبيعي.

إلا أن تلك الروح المعنوية المرتفعة لم تدم طويلا، ففي وقت لاحق من تلك الليلة، بينما كنت أساعد جيك على الجلوس في مقعد السيارة، سلمتني والدتي مقالا في إحدى الصحف يشرح كيف يبدو التوحد في طفل صغير جدا، وعندما قرأت المقال، شعرت بالانزعاج: فالعديد من السلوكيات التي أُدرجت في قائمة المراجعة كانت مألوفة للغاية بالنسبة لي، وفي الطريق إلى المنزل، اضطررت إلى التوقف؛ لأن دموعي المنهمرة كانت تمنعني من رؤية الطريق.

مهارات مشتّتة

تعرض كافة الآباء والأمهات لتلك اللحظات التي يشعرون فيها بعدم الانتباه أثناء تسوقهم، فمثلا تلك الأم وهي تتسوق تفكر وتقول: «مممم، كم يروقني هذا الفستان الرائع! أتمنى أن يناسب مقاسي»، وبمجرد أن تلتفت، لا ترى طفلها من حولها وكأنه اختفى! تخيل أنك في تلك اللحظة! تشعر بغصة في حلقك ويتملكك الذعر وتبدأ تلقائيا في الصراخ باسم الطفل أو الطفلة! تلك اللحظة تشبه تماما مشاهدتك لطفلك وهو يغرق في ظلمة التوحد، ولكن يكمن الفرق في أنك أثناء التسوق سوف تفقد طفلك لبضع دقائق مفزعة وما تلبث أن تجده يطل برأسه الصغير من خلف كومة من الملابس، أما مع التوحد فقد يمكث الشعور بقلة الحيلة والإحباط واليأس لسنوات، أو ربما مدى الحياة.

لم يكن يشعر زوجي مايكل بذلك بتاتا، فلم يبرح يدفع ويقاوم تلك الظلمة العدائية ويحارب للحفاظ على صورة مثالية لحياتنا، فرغم كل شيء يبقى جيك «صغيره»، «ابنه الحبيب»،

«ولده»، فعندما استخدمت الأخصائية كلمة «توحد» مشيرة إلى «جيك»؛ طردها على الفور.

لا أقول إننا فخورين بذلك التصرف الآن، ولكنه كان رد فعل طبيعي.

على أية حال؛ بعد مرور عدة أسابيع أصبح جليًا أمام كلينا أننا نفقد بالفعل ابننا جيك، ففي شهر أكتوبر من عام ٢٠٠٠؛ أحضرنا أخصائيين «First Steps» للبيت لإجراء أول تقييم فعلي، وفي الليلة التي سبقت يوم التقييم، كنت محبطة تماما، وتواصل زوجي مايكل مع أخي بن ودعاه للبيت ليرفع من روحنا المعنوية، فأخي بن دائما ما يفكر ويأتي بالخطط الجديدة المجنونة، كأن يحول غرفة نوم الضيوف إلى صالة لممارسة اليوغا، أو أن يفرد قطع اللحم على كل رف في منزله ليصنع شرائح لحم منزلية، ولكن بالرغم من هذه الروح المعنوية العالية والمزاح، كان بن وقورا في يوم تقييم جيك، ولم يتمكن أحد على وجه الأرض من رسم الابتسامة على وجهي.

بينما كنا نصافح الأخصائية «ستيفاني ويست كوت»، كنت أدرك تماما أن كل شيء في حياتنا مترتبٌ على الساعات القليلة القادمة؛ فرأي وتقييم تلك المرأة إما أن يسعدنا ويبهجنا، وإما أن يلقي بنا بعيدا في غياهب الأحزان.

لقد عايشنا ما يكفي لنعرف جيدا حجم المأساة التي قد نواجهها.

كانت يدي ترتعدان لدرجة أن مايكل أمسك بهن بين يديه بقوة حتى تهدئا.

وبحلول منتصف النهار؛ شعرت بأنني منهارة، ولم نكن بحاجه إلى تدريب خاص لنفهم مدى سوء التقييم الذي يجري، فلم يكن جيك يجيب ستيفاني معظم الوقت عندما تتحدث إليه، ولم يتواصل بصريا معها، ولم يشير بإصبعه إلى الدائرة، ولم يضع النجمة في مجسم الأشكال، ولا الحلقات في العصا، ولم يوزع الأشياء تبعا للون أو الشك على الرغم من أنه أمضى وقتا طويلا في أداء تلك الأنشطة بمفرده، ولم يغني معها كذلك أغنية: «العنكبوت النونو» "Itsy Bitsy Spider" ولا حتى مثّل لها بأصابعه كيف يتسلق العنكبوت المزراب.

ولكن؛ عندما قرأ عليها حروف الأبجدية، شعرت حينما بانتعاشٍ في قلبي! ولكن ستيفاني لم تتأثر كما كنت آمل، ولا حتى حينما قرأ عليها الأبجدية بالمقلوب، وعندما حاولت أن تنتقل مع جيك إلى نشاط جديد بعد اللعب بالطباشير الملونة على الأرض، بكى ورفض، وتشنج كليا، وخلال الوقت الذي

حاولت فيه إقناعه بأن ينتقل معها للنشاط التالي، كنت قد غرقت في عرقي.

طلبت ستيفاني من جيك أن يركِّب معها لعبة الأحجية الخشبية، حينها تنفست الصعداء ولم أكن أشعر بأنني أحبس أنفاسي من قبل! فشعرت أنا ومايكل بقليل من الراحة، فكنا على يقين بأنه سيبلي بلاء حسنا في تلك اللعبة؛ فلطالما أحب جيك ألعاب الأحجية والألغاز منذ أن كانت يديه الصغيرتين الممتلئتين بإمكانها أن تمسك بقطع الأحجية وكان متفوقا فيها، وقد كان اللغز الذي طلبت منه أن يركبه شبيها من أحد الألغاز التي يعرفها أو ربما أسهل، فكنا متأكدين بأنه على الأقل وأخيرا سوف يحرز تقدما، ولكن حينها، وبعد أن كادت لحظة تفوقه تقترب، قرر جيك أن يلعب بالحروف الأبجدية؛ فقد كان مولعا بتلك الحروف الأبجدية البلاستيكية المغناطيسية التي نضعها على الثلاجة، ولديه كميات كبيرة منها ويحملها معه أينما ذهب، وقد كنا خبأنا تلك الحروف في صندوق على رف كتب بعيد عن مرأى العين على أمل أن نتجنب حدوث أي تشتت أثناء التقييم، ظنا منا أنه عندما لا يراه لن يتذكره، ولكن لسوء الحظ، فشلت الخطة، وانصب تركيز جيك فقط حينها على الحصول على تلك الحروف المغناطيسية من على الرف.

أراد جيك أن ينهض ويذهب بحركة دورانية إلى الصندوق، ولكن ستيفاني أحضرته إلى الطاولة بلطف وحزم في آن واحد، وكان الأمر يزداد سوءا بينهما مع مرور الوقت، فلم أتحمل رؤيته كذلك، وبدلا من النظر إليه كنت أنظر إلى يدي مايكل وهي تُحكم قبضتها على يدي ومفاصل أصابعه شاحبة جدا.

وبعد برهة من الوقت وأخيرًا، جلس جيك، ولكنه كان متجها بجسده كليا نحو مكان صندوق الحروف الأبجدية المغناطيسية، وبعد عدة ملاطفات، ركّب الأحجية، أخيرًا! وبدون أن ينظر إلى الأحجية ولا إلى ستيفاني التي كانت تجلس أمامه مباشرة، بل كان لا يزال مائلا بجسده على الكرسي يحدّق نحو الصندوق؛ شعرت وكأن السماء قد أطبقت على الأرض! ولكن بعد كل ذلك، على الأقل فعل شيئا، وكان بارعا فيه.

كنا نعوّل على تلك الأحجية أن تكون بريق أمل وسط ذلك الأداء المُحبِط حتى اللحظة، وأدركت حينها كم كنتُ متفائلة بأن النجاح في تلك اللعبة قد يقلب الموازين ويُحدث فرقا عظيما في النتائج النهائية، ولابد أن مايكل شَعَرَ بنفس ما أشعر به، ثم قال مايكل: «اسمعيني، أعتذر عن المقاطعة، ولكنه مشتت جدا، إنه يركّب الأحجية باللمس وباستخدام يده اليسرى، وهو ليس أعسر! امنحيه فرصة ثانية ليريكِ سرعته في تركيبها!».

نظرت ستيفاني إلى مايكل وتعابير وجهها تشير إلى أنها لا توافقه الرأي وقالت: «سيد بارنيت، في الغالب يركب الأطفال في نفس عمر جيك أحجية بنفس مستوى هذه في دقيقتين تقريبا»، وأخبرتنا أنه بالرغم من استعماله ليده اليسرى الذي لم يعتد على استعمالها وبالرغم من انشغاله بالنظر إلى صندوق الحروف المغناطيسية طوال الوقت، لم يستغرق سوى أربعة عشر ثانية في تركيب الأحجية!.

حرر مايكل يدي، فشعرت بخفة، وضرب بقبضة يده على يده الأخرى المبسوطة وقال بحماسة: «أحسنت .. لقد فعلها! إننا على الطريق الصحيح الآن».

فتأكدت حينها بأن ستيفاني حالما ترى قدرات جيك وما هو كفؤ فيه فسوف تطغى نقاط القوة تلك على كافة المهام الأخرى التي لم يستطع أو يرغب في فعلها .. ولأول مرة منذ أسابيع، أشعر ببصيص أمل.

سنعالجه أكثر، وسنفعل كل ما يطلبون منا، كل ما أريد سماعه أن تُخبرني بأن ملاكي الصغير سيكون في النهاية بخير.

وانتهى التقييم أخيرا بعد ساعاتٍ طوال، تحدثت ستيفاني إلينا بملامحٍ رزينة، قائلة: «جيك مصاب بمتلازمة أسبرجر»؛

حينها غمرتني الراحة! فقد كنت مستعدة لأسوأ من ذلك، فقلت: «ياللروعة!، لقد خشينا أنه مصابٌ بالتوحد»، فاستكملت «ستيفاني» حديثها موضحة أن متلازمة أسبرجر تُعد إحدى اضطرابات طيف التوحد.

وفي النهاية لن يحدث ذلك الفارق أية أهمية، فتشخيص جيك بهذه المتلازمة سيتحول قريبا إلى توحد كامل.

عرفنا في ذلك اليوم مفهوم «المهارات المُشتتة»، ووضحت لنا ستيفاني بأنه من الشائع بين أطفال التوحد أن يكونوا بارعين نسبيا في بعض المهارات حتى وإن كانوا متأخرين جدا في مهارات أخرى.

على سبيل المثال؛ كان جيك في عمر العامين، يحل متاهة معقدة أسرع مما أستطيع، في حين أنه لم يتواصل بصريا، الأمر الذي يعد عائقا للنمو حيث يتواصل الرضيع بصريا عادة من شهر إلى ثلاثة أشهر، وقد كان بمقدور جيك التواصل بصريا حتى عمر ستة عشر شهر وما لبث بعدها أن بدأ في التراجع.

أخبرتنا ستيفاني بأن تلك التقدمات والتراجعات في مستوى تطور النمو تُعرف ب «المهارات المُشتتة»، ويجري تشخيص الأطفال بطيف التوحد عندما تكون مهاراتهم مشتتة خلال تطورهم عوضا عن كونها متطورة بدقة ومنظمة.

فقدت الأمل! وشعرت فجأة بأن كل مناطق القوة التي علقنا عليها آمالنا أنا ومايكل أثناء التقييم ذهبت أدراج الرياح، ولن تغير أو ترفع من نتيجة تقييمه، فقد اتضح كل شيء أمامنا فجأة! وكل الأشياء البسيطة التي كنا فخورين بها في أداء جيك مثل: قراءته المبكرة، وسرعته الفائقة في حل الألغاز، وقدرته على التركيز لفترات طويلة، لم تنف وجود التوحد، بل على العكس، أكدته. وعلمت بأن مواهب جيك ترتبط ارتباطا وثيقا بكل ما لديه من إخفاقات صادمة، وللمرة الأولى أسمح لنفسي بتقبل تلك الحقيقة الشنيعة، وما الذي تمثله تلك الإخفاقات بالنسبة لجيك وللحياة التي رسمناها وحلمنا بها من أجله.

شعرت بأنني بلهاء! فما الفرق إن كان يحل اللغز أسرع من طفل آخر في حين أنه لن يتمكن من التودد لفتاة ويواعدها، أو أن يصافح شخصا يجري له مقابلة عمل؟

ذكر تقرير ستيفاني ويستكوت يومها جزئيا بأنه: «مهتم بظلال الأشياء، والأضواء البراقة، ويتمحور حول نفسه، ولديه استجابة بسيطة للألم الطفيف».

ذهبنا إلى النوم، احتضنني مايكل بقوة، ولكنني لم يغمض لي جفن تلك الليلة، فبينما لم أكن منهكة من القلق على مستقبل

جيك، كنت محطمة ومضطربة من التفكير فيما هل سيكون ذلك هو نفس مصير ابننا القادم!

في دوّامة التشخيص

التوحد، ذلك اللص الذي يحرمك طفلك، ويحول بينك وبين آمالك، ويسلب منك أحلامك.

إنني أؤكد على أنني لم أترك شيئا إلا وفعلته مع طفلي، فلقد أخذته إلى حديقة الحيوانات الأليفة وحديقة الأسماك، واشتريت له ذاك الزي الصغير اللطيف بقبعته التي تأخذ نفس نمط وألوان الزي، وكنت أتخير بدقة أي نوع من الحفاظات هو الأنسب له: «هاجيز» أم «لافز».

لقد كنا عائلة عادية، وكان جيك طفلا عاديا، يعيش طفولة عادية، ثم بدأ ينسحب عنا، وبهذا التشخيص الأولي لمرض أسبرجر؛ تبددت الآمال في عودة الأمور إلى طبيعتها.

ببلوغه سن الثانية والنصف، كان جيك قد أصبح مجرد ظل لذلك الصبي الصغير الذي كان بيننا؛ فلم أكن أشعر بوجوده في الغرفة في معظم الأوقات، وكان حينها قد توقف عن الكلام تماما، حتى إنه لم يعد يتواصل بصريا مع أي شخص، بل ولم يعد

يستجب عندما يتحدث إليه أي منا، وإن حاولت معانقته، فسوف يدفعك بعيدا، بينما كان أفضل ما يمكنك أن تطمح إليه هو أن يسمح لك بحمله لبضع ثوان متجاهلا إياك، محدقا في الظلال على الحائط.

لم يكن يطلب طعاما أو شرابا أبدا، ولم يكن يأكل سوى الأطعمة البسيطة المعدة والمقدمة بطرق مخصوصة، كما أنه كان لا بد أن أسجل بدقة مقدار ما يتناوله من السوائل حتى لا يصاب بالجفاف.

كان يدور حول نفسه حتى يصاب بالدوار، أو يلف الأشياء على يديه أو على أي سطح مستو، وفي بعض الأحيان كان يحدق بشدة في الشيء الذي يدور أمامه حتى يهتز جسده كله.

سلوكيات تدوير الأشياء هذه هي السمات المميزة لمرض التوحد، ويشار إليها في عالم التوحد باسم «التحفيز الذاتي» أو «سلوك التحفيز الذاتي»، كما كان جيك يحب البطاقات التعليمية من أي نوع، وخاصة تلك التي طبعت عليها حروف الأبجدية حيث كان يحملها في كل مكان.

كان لديه هوس بالأسطوانات، وكان باستطاعته أن يقضي ساعات في وضع أشياء صغيرة في إناء زهور فارغ، وكان يمضي

كثيرا من وقته منشغلا بالظلال والمرايا والضوء، حتى إنه كان يقضي فترة الصباح بأكملها يمشي ذهابا وإيابا أمام الكراسي الموضوعة حول طاولة المطبخ، مطأطئ الرأس، متفحص الظلال التي تلقيها أعمدة سور الدرج على الأرض والطريقة التي تتغير بها أثناء تحركه.

إلا أن معظم هذه السلوكيات الجديدة كانت محيرة بحق؛ فحتى عندما كان رضيعا، أظهر جيك ميلا فضوليا لقلب أي علبة من علب رقاقات حبوب الذرة تصل إليها يده، والآن أصبح من المحال أن أحتفظ بعلب الرقاقات في أمان؛ ففي كل مرة كان يتمكن من الوصول إلى علبة الرقاقات مهما حاولت إخفاءها عنه بحيل ذكية، كان يجدها دائما ويفتحها ليفرغ محتوياتها على الأرض، حتى إنه في كل مرة كنت أنظر حولي، كنت أرى أحد أطفال الحضانة يجري بمرح مبعثرا بقدميه كومة كبيرة من رقاقات الذرة التي أفرغها جيك، لقد كنا نعاني عناء كبيرا من تنظيف رقاقات الذرة المبعثرة في كل مكان، حتى إنني ومايكل اعتدنا على العثور على حلقات حبوب الإفطار في أماكن غير متوقعة مثل أحذيتنا الشتوية، ودرج السيارة، بل حتى في حوض الاستحمام.

كان جيك يمضي معظم وقته متواريا في عالمه الهادئ، حتى عندما كان يجول حاملا بطانيته الناعمة المنسوجة بالكروشيه الأفغاني الأصفر ذي الفراغات، ولم يكن يفعل ذلك طلبا للشعور بالأمان مثل معظم الأطفال، بل كان يمضي فترات طويلة محدقا بها، وقد انتبهت لتوي أنه ربما كان يتأمل تلك الأشكال الهندسية المنقوشة عليها.

لقد كان جيك مهووسا إلى حد مخيف بالنمط المنقوش بالمربعات المتكررة وأي نمط آخر يتضمن خطوطا مستقيمة.

لقد كان لدي خبرة كبيرة في التعامل مع الأطفال الصغار، الذين عادة ما يتميزون بتقلب المزاج والنشاط المفرط، وكان يصعب علي دائما تهدئتهم وتثبيتهم من أجل مساعدتهم في ارتداء أحذيتهم، ولكن وعلى النقيض منهم كان جيك يمضي ساعات محدقا بصمت في نمط لظل على الحائط أو الأرض دون أن يحرك ساكنا.

لقد كان جيك يفضل المكوث في مساحات صغيرة وضيّقة شأنه في ذلك شأن غيره من الأطفال المصابين بالتوحد؛ لذا فقد كان الجزء السفلي من خزانة ملابسه هو المكان المفضل ليصف فيه سيارات الألعاب الصغيرة، وكلما كانت المساحة أضيق كان

ذلك أفضل، فكثيرا ما كان يحشر نفسه في الرف السفلي للخزانة الموضوعة في غرفة المعيشة، أو في إحدى الحافظات البلاستيكية الصغيرة التي كنا نستخدمها لجمع الألعاب وحفظها، وذات يوم أصبت بالذعر الشديد، حين أمضيت خمسا وأربعين دقيقة أبحث عنه في كل مكان، ولقد كنت على وشك الاتصال بالشرطة لو لا أنني وجدته متكورا بارتياح فوق بعض المناشف المطوية في سلة غسيل صغيرة.

في أعماقي؛ كنت أطمئن نفسي أنه لم يكن هناك ما يدعو للخوف، ليس في منزلنا الذي راعينا تزويده بأساليب حماية الأطفال بكل عناية، حيث هناك على الأقل زوجان من الأعين لا تفتأ تراقب جيك ليل نهار، ولكن في تلك الدقائق المرعبة؛ كان الصبي الذي بدا أنه يختفي في كل يوم أكثر من ذي قبل، كان يختفي فجأة - ولو للحظات فقط - وكان ذلك بالنسبة لي أكثر مما أستطيع تحمله.

في وقت لاحق من ذلك العام، وبعد تقييم رسمي آخر لحالته، راجعت الأخصائية الجديدة تشخيص جيك، وأوضحت لنا أن جيك قد تم تشخيصه على الأرجح بمرض أسبرجر (وهو شكل خفيف من التوحد يتميز بأداء عالٍ نسبيا) بدلا من التوحد

الكامل؛ لأن معدل ذكائه كان مرتفعا للغاية، وهو أمر صادم وغير مألـوف حيث بلغ معدلـه ١٨٩ درجة على مقياس وكسـلر لذكاء الأطفال.

لقـد رأينا أنا ومايكل هذا الرقـم عندما كنا نتأمل التقارير معا بعـد المجموعـة الأولـى من الاختبـارات، لكننا تجاهلنـاه تماما، وذلك بسـبب انشـغالنا بكل شيء آخر في التقرير من ناحية، ومن ناحية أخرى بسـبب أن أيا منا لـم يفكر حتى إن معدل الذكاء كان مرتفعا إلى هذا الحد، لقد اعتقدنا ببساطة أنه كان خطأ مطبعيا.

فـي الحقيقـة ذلك لـم يكن خطأ، ولكـن ماذا يهـم؟ لم يكن معـدل الـذكاء الفلكـي هـذا يمنع جيك مـن الغوص إلـى أعماق عالمـه المنعـزل، وبحلـول وقت التقييـم الثاني، قبـل عيد ميلاده الثالث مباشـرة، كان التشخيص يشير إلى حالة توحد من متوسط إلى شديد، وعلى الرغم من معدل ذكائه المرتفع بشكل ملحوظ، إلا أن درجاته الوظيفية وضعته في نطاق ما يسمى «بالمتخلفين".

عندما سـمع أخي بن ذلك التشـخيص قال لي: «اسـتعدي يا كريس، ستكون هذه معركة حياتك».

علـى الرغـم من أننـي كنت دائما تلـك الفتاة سـهلة المراس وصانعـة السـلام فـي عائلتنـا، فقد كان بـن يعلـم - ربمـا أكثر مما

كنت أعلم أنا - أنني سأقاتل من أجل جيك، إلا أن أيا منا لم يكن يفهم بعد حجم ما سيأتي.

بمجرد أن يتم تشخيصك بمرض التوحد، فإن قبضة رهيبة تعتصر كل فرد في الأسرة؛ فأنت تأكل وتتنفس وتنام على التوحد، أنت تحارب التوحد في كل لحظة تكون فيها مستيقظا، وتنام وأنت تعلم أنه كان بالإمكان فعل ما هو أكثر، وهو ما كان يجب عليك فعلا؛ لأن هناك الكثير من الأدلة على أن التحسن يعتمد على مقدار التدخل الذي يحصل عليه الطفل قبل سن الخامسة.

إن الحياة مع طفل مصاب بالتوحد هي سباق دائم مع الزمن لفعل المزيد والمزيد والمزيد.

في السنة التي سبقت بلوغه الثالثة من عمره، حصل جيك على جلسات ممولة من الدولة لعلاج التخاطب لمدة ساعة يوميا في خمسة أيام في الأسبوع، وكان يزوره في المنزل أيضا معالج طبيعي، وآخر فيزيائي، وآخر متخصص في التطور مرة واحدة في الأسبوع لمدة ساعة أو أكثر لكل مختص، ومع ذلك، وبالإضافة إلى عمل جيك مع برنامج «فيرست ستيبس»؛ فقد بدأنا في بروتوكول علاجي آخر يسمى تحليل السلوك التطبيقي (ABA) ، والذي يتطلب أربعين ساعة أو أكثر في الأسبوع، وهذا هو عدد

ساعات العمل الأسبوعية عند الشخص العادي! وبناء على توصية من مارلين نيف، وهي طبيبة ومعالجة رائعة عملت مع جيك؛ استقرينا لاحقا على نوع مختلف من العلاج يسمى: فلور تايم أو «وقت العمل على الأرض»، والذي يكون موجها بشكل أكبر للأطفال، علاوة على تصميمه على غرار أنماط اللعب الطبيعية.

يتطلب هذا البرنامج تدريبا أقل، لكنه كان لا يزال مستهلكا للوقت بشكل مفرط.

كان من المستحيل تقريبا إيجاد متسع من الوقت لساعات العمل الإضافية ببرنامجك «فلور تايم» بين كل تلك المواعيد والجلسات والتدخلات الأخرى التي يحتشد بها جدولنا اليومي.

كان التقويم على جدار المطبخ ممتلئا للغاية، ولم يكن بمقدور أحد سواي قراءة الكتابة اليدوية المجهرية التي اعتدت حشرها في ذلك التقويم، حتى إن أحد الأصدقاء والذي يعمل كسكرتير لأحد المديرين التنفيذيين رأى يوما ذلك التقويم فعلق عليه قائلا: «إن أخف يوم فيه يجعل أسوأ يوم لرئيسه يبدو وكأنه نزهة في حديقة».

وعلاوة على كل تلك الساعات التي كنا نقضيها مع

المعالجين، كانت الأسـرة بأكملها تتعلم لغة الإشـارة الأمريكية، بما فيهم روبي، تلك الشـابة التي كانت تعمل معي في الحضانة، على أمل أن يستطيع جيك التواصل معنا بهذه الطريقة في النهاية، وكان كل جدار في منزلنا مغطى بأوراق ومواد تشرح لغة الإشارة. كان بطنـي يكبـر كل يـوم وأنـا لا أزال أعمل فـي الحضانة، وكان مايكل يعمل بدوام كامل .. لقد كنا منهكين.

أصبح واضحا أنه لم يكن لدينا أي فترة للراحة على الإطلاق؛ فبعـد الإفطـار مباشـرة يبدأ العمل: يـرن جرس البـاب، معلنا عن وصـول أول معالـج فـي اليوم، بعـد ذلك – ولسـاعات – يجلس جيـك على الطاولة الصغيـرة التي أعددناها في المطبخ ليشـجعه المعالجون على التواصل البصري، أو تسمية ما كان يفعله، أو ما كان يراه: «فم» أو «سمكة» أو «واحد»، وغالبا ما كانوا يستخدمون تقنيـة تسـمى: "يد على يـد»، عن طريق اسـتخدام أيديهم لشـرح كيفية القيام بمهام بسيطة مثل فتح صندوق.

كان بإمكانـي أن أرى كيـف كان كل هـذا محبطـا بالنسـبة لجيك.

لقـد علمـت أن العديـد مـن الأطفـال المصابيـن بالتوحـد ينزعجون أثناء العلاج، فيرمون الألعاب أو يصرخون أو يصابون

بنوبـات غضـب، غيـر أن جيـك لـم يفعل أيـا من ذلـك، فقد كان ببسـاطة غير مسـتجيب، ومشـغول كالعادة بالظلال على الحائط، ولكنـه من حين لآخر كان ينزعج عادة عندما يفعل المعالج شـيئا مختلفا عما عوده عليه.

كانت إحدى المرات القلائل التي أتذكر فيها أنه أظهر غضبه عندمـا طلبت منه معالجـة النمو ميلاني لوز تركيب إحدى ألعاب الأحجيات المفضلة لديه رأسا على عقب.

كان جيـك يبدو منزعجا ببسـاطة في معظم الأوقات، واليوم إذ أذكر ذلك أقول لنفسي: لا عجب!

فقـد كان التركيـز طـوال اليوم، وفي كل يوم فقـط على ما لم يكن جيك قادرا على فعله، فهو لم يكن قادرا على الإمساك بقلم رصاص بالشـكل الصحيح، ولم يسـتطع صعود الدرج مستخدما قدمـا تلو الأخرى، ولم يسـتطع تقليد التصفيـق، ولا تقليد تعابير الوجه أو الأصوات التي يصدرها المعالجون.

كان كل هؤلاء المعالجون المتعاطفون والمتفانون يجلسون هنالك على تلك الطاولة الصغيرة في مطبخنا مع جيك، ويعملون سـاعة بعد سـاعة، ولكن وعلـى الرغم من صبرهـم وتصميمهم، فقـد كان جيـك لا يعيرهـم اهتماما، كما لـو أنه لا وجود لهم على الإطلاق.

لـم يكن عملنا ينتهـي أبدا، فبعد أن يذهب جيـك إلى النوم، كنـت أنـا ومايـكل نقضي سـاعات فـي قـراءة الكتب أو تمشـيط الإنترنـت بحثـا عـن أبحـاث جديـدة أو علاجـات جديـدة أو مجموعات آباء ممن يعانون نفس مشـكلتنا، وكانت الأخبار التي تصلنا أكثر قتامة مما كنا نظن، ولا أنسى عندما أطلق مايكل لقب ParentsWithoutHope.com. أو «آبـاء بـلا أمـل» علـى إحـدى تلك المجموعات.

دائمـا مـا تذكرنـي تلـك السـنة بأننـا كنـا نحيى بداخـل ذلك التشـخيص؛ فمن الواضح أن الخسائر التي تلحق بالعائلات التي لديهـا طفـل مصاب بالتوحد تكون فادحـة، وأن التداعيات تكون موثقـة خطوة بخطوة، ومن المعـروف أن معدلات الطلاق ترتفع بشـكل كبير بين الزوجين بعد تشـخيص طفلهـم بالتوحد، بيد أنه ولحسـن الحـظ، لم نكن أنا ومايكل من بيـن هؤلاء الضحايا، بل على العكس من ذلك، فإن تشخيص جيك بهذا المرض بدا وكأنه زاد من تقاربنا.

لـم نكن طوال الوقت متفقين، لكـن كان أحدنا ملاذا للآخر في خضم هذه العاصفة.

كنـت أوجـه كل تركيزي على جيك، أفعل أي شـيء وكل ما

بوسعي من أجله، أما مايكل فكان يحول كل ما لديه من قلق إلى طاقة للاعتناء بي.

في بعض الأحيان كان يحضر العشاء إلى المنزل، وبعد أن يذهب جيك إلى النوم، كنا نفرش بطانية على أرضية غرفة المعيشة متظاهرين بأننا في نزهة ليلية رومانسية .. وباستمرار ودون كلل، كانت باقة من الزهور النضرة تصل باسمي كل أسبوع.

على الرغم من كل هذا؛ كان هناك المزيد من الأسى يتسلل إلينا، فجدي الذي كان في أوائل الثمانينيات من عمره، ذلك الرجل الذي لا يعرف الكلل، كان يخسر تدريجيا معركته ضد السكتات الدماغية التي أنهكت جسده خلال العام السابق؛ حيث انتقل إلى دار رعاية المسنين، وقد قضيت وقتا طويلا معه هناك، فغالبا ما كنت أتوجه لزيارته فور مغادرة آخر طفل في الحضانة، وأحيانا كنت أجلس معه أثناء نومه.

عندما كان يتحدث، كان يبدو كما كان دائما، فحسّه الفكاهي لا يزال حاضرا إلى حد كبير، وكان مسرورا بمضايقتي بشأن بطني الآخذ في التمدد، فقد كان حجم بطني بارزا مقارنة بما تبقى من جسدي الهزيل، فأنا بطبيعتي صغيرة الحجم، لكنني اكتسبت تسعين رطلاً مع هذا الحمل!

كان من الصعب بالنسبة لي أن أصدق أنه كان يحتضر، وأن داعمي القوي صاحب الحس السليم، وحصن طفولتي أصبح ضعيفا وهشا إلى هذه الدرجة.

بعد ظهر أحد الأيام؛ توجهت بالسيارة إلى الكنيسة التي بناها جدي لإيصال بعض المخبوزات لأمي، التي كانت تعد غداء الكنيسة في ذلك الأسبوع، وبينما كنت أنزل من السيارة، سمعت صوت جرار تشذيب الأعشاب.

لم يستأجر جدي أبدا أي شخص لتنسيق الحدائق، كان يفخر بالحفاظ بنفسه على جمال المكان عند مستخدميه، وبقدر ما كان دقيقا، كان بارعا في جعل العمل الروتيني ممتعا؛ فكان يرسم بالجرار على العشب رقم ثمانية باللغة الانجليزية وخطوط متعرجة حتى يسعد حفيده الذي يحمله على ركبته وهو يصرخ مبتهجا.

وقبل أن يستوعب عقلي، خفق قلبي بشدة، واستدرت، متوقعة تماما أن أراه يتجه نحوي على الجرار الذي كان قد أصلحه ألف مرة، لكني رأيت شخصا آخر كان يقود الجرار ويجز بروية حواف رقعة العشب في حديقة الكنيسة؛ حينها انكسر قلبي لذلك المشهد.

لقد كان جدي مثالا تعلمت منه قيمة أن أكون محبة للاستطلاع طوال عمري، وقيمة تحصيل المتعة من العمل الجاد، وقيمة وأهمية الأسرة، لقد رأيت فيه قوة الإحساس بالوصول إلى الهدف والذي كان يشعر به وهو يكرس حياته لمُثُل أكبر منه، ومن ذلك الرضا الذي يستمده من القيام بذلك، ووجدت أنني بقدر ما كنت حزينة لتداعي صحته، كنت أشعر بالامتنان العارم إذ أتيحت لي الفرصة لأخبره كم كان يعني بالنسبة لي.

في وقت متأخر من ظهيرة أحد الأيام، بينما كنت أقوم بتغيير الماء في المزهرية في غرفة جدي، سألني، «ما هذا التوحد؟»

لقد أذهلني السؤال؛ فلم أكن أريد أن أقلقه، حيث لم أكن قد أخبرته بعد عن تشخيص جيك الرسمي، وعلى ما يبدو، كان شخص آخر من العائلة قد أخبره، وكان عليّ وقتها أن أبحث عن أبسط طريقة للحديث عن ذلك.

فشرحت له قائلة: «جيك لا يستطيع التحدث إلينا الآن، ولا يعتقدون أنه سيفعل ذلك أبدا».

أومأ برأسه وصمت للحظات، ثم وضع يده المعروقة فوق يدي، ونظر إلى عيني مباشرة، وقال: «سيكون كل شيء على ما يرام يا كريستين .. سيكون جيك بخير".

أعتقد حقا أن هذه الكلمات كانت آخر هدية يقدمها لي؛ فهذا التعليق كان ليبدو ضحلا ومبتذلا لو جاء من أي شخص آخر، فمثل هذه التعليقات التي لا معنى لها يتفوه بها الناس عندما لا يعرفون ما يقولون، ولكن عندما أخبرني جدي أن جيك سيكون على ما يرام، قال ذلك بقناعة تامة، وقد صدقته.

وللحظة .. في تلك الغرفة بالمستشفى، عدت طفلة صغيرة مرة أخرى، وكان هو محور القوة، الرجل الذي يمكنه إصلاح أي شيء في العالم على منضدة عمله الطويلة في مرآبه، لقد سلمت نفسي للراحة التي بعثتها فكرة أن جدي ذلك الرجل القوي العبقري كان يعرف شيئا عن ابني لا يمكنني رؤيته.

نهاية وبداية

كان عزاء جدي رائعا، فلقد غمرهُ الناس والمجتمع بالحب، وكان في حياته ما يستحق الفرح والاحتفاء، ولكنني كنت مريضة من حزني عليه، فقد كان الشخص الذي يسمعني وأفضفض له بكل ما في خاطري، وترك رحيله فجوة كبيرة بداخلي، فأنا أشتاق إليه بشكل لا يوصف، وأكثر ما حطمني أنه لن يرى الطفل الذي أحمله في أحشائي.

بعد انتهاء العزاء؛ كان من المفترض أن توصلني أختي ستيفاني بالسيارة إلى بيت أجدادي لتناول الطعام وإحياء ذكرى جدي، وانطلقنا مع الموكب الموجود عند المقبرة، لكن عندما أوشكت ستيفاني على الانعطاف يمينا، أمسكت بذراعها وقلت لها: «انعطفي يسارا»، فنظرت إليّ باستغراب، فقلت: «أريد المستشفى حالا أشعر أن وقت ولادتي قد حان!»، وكان ذلك قبل موعد الولادة بشهر، ولكن لا مشكلة فقد شعرت بآلام الانقباضات الأولى حينما كانوا يدفنون نعش جدي تحت التراب.

ولدت «جون ويسلي» في اليوم التالي، وقررنا أنا ومايكل أن نسميه جون بعد رحيل جدي.

لقد نقشت تلك الأيام الأولى مع طفلي «ويس» في ذاكرتي، وبالرغـم من أنني كنت حزينة حزنا عميقا وفي حداد على جدي، ولكـن مـا خفف هذا العنـاء فرحتـي العارمة بقدوم هـذا المولود الجديـد إلـى حياتنا، لـم نكن نتوقف أنـا ومايكل عن شـمّ رائحة الحليب الشـهية على جسـده، وكنا نندهش من قدميه الصغيرتين ونتأمـل كل حركاتـه اللطيفـة والظريفـة وتعابير وجهه التي تشـبه تعابير الكبار.

أنـا على يقين بأن جـدي جون صاحب الإيمـان العظيم كان سـيقدر هذا التعادل والتناسـب؛ فهنا حياة انتهت، وأخرى بدأت، وكما فعلت بعد ولادة جيك، فتحت حضانتي Acorn Hill (جنة السـنديان) بعـد أيام قليلة مـن ولادة ويس، وأصبح للمـرة الثانية لدى أطفال الحضانة طفل جديد يلعبون معه.

كان جليـا مـن البداية بأن ويلسـي صبي بكل معنـى الكلمة، فـكان يحـب الطائـرات والقطـارات والسـيارات، وكان مايـكل يجلسه في مؤخرة إحدى شاحنات جيك الكبيرة وأنا أدور بها في الغرفـة، كانـت تلـك الحركـة تتسـبب له فـي نوبة ضحـك معدية

فكلمـا أسـرعت بالعربـة كلمـا ضحك ويـس أكثـر، وكان يصرخ ويتحمس كثيرا ويضحكنا في كل مرة يدخل فيها كلب الحراسـة الغرفة، ذلك الكلب الذي أراه لطيفا جدا، ولكنه حرفيا بلا منفعة ككلب حراسة، وكان مايكل يصر على مناداته «كيوجو».

بـدا جيك غير منزعج من قدوم ويسـلي إلـى حياتنا، رغم أن قدومـه كان مربكا بحد ذاته، ولقد كانت المرة الأولى التي أتمنى بلهفـة أن أرى فيهـا منافسـة بين الأخوين، ولكن وبعد شـهور من القلـق والتوتـر كنت ومايـكل ممتنين لكل اللحظـات الممتعة مع مولودنا الجديد.

ثم لاحظنا بعد ذلك أن ويسـلي يكـح ويتقيأ أكثر من المعتاد حين يرضع، فأصبحت متيقظة بشـدة، وأحمله معي في كل مكان فـي حمالـة الطفل، وذات مـرة كنت أعطيه الرضاعـة وكان عمره تقريبـا شـهرين ونصف لاحظـت أنه توقف عـن الحركة، وأصبح جسـده أزرق وكأنـه ميـت، فتركـت الحضانـة تحـت مسـؤولية مسـاعدتي روبـي التي كانت مذعورة مـن الموقف، وهرعتُ عبر الطـرق المغطاة بالجليد إلى غرفة الطوارئ في مستشـفى سـانت فنست كارمل حيث قابلني مايكل هناك.

لقـد رأينـا الكثير فـي حياتنا ولم نكن نخاف بسـهولة، ولكن

ذلـك الموقـف كان مفزعـا، وتصـادف أن طبيـب الأطفـال الذي نتعامل معه كان مسافرا، فجلسنا ننتظر ونراقب فريق الأطباء وهم يقومون بالفحوصات، ولكن لم يشـخص أحد منهم المشـكلة .. وأخيـرا أخبرنـا أحدهـم بـأن طبيبنا عاد مـن عطلته ليتحـدث إلينا شخصيا.

وبالرغـم من أن طبيبنـا عاصر وعانى معنا الكثير، إلا أنه كان حزينا جدا وهو يخبرنا مزيدا من الأخبار الحزينة، ثم شرح لنا أن ويلسـي يعاني من مرض الحثل الانعكاسـي الـودي، وهو مرض عصبـي قد يصيـب أو يؤثر على كل أجهزة الجسـم، وبالرغم من عـدم معرفـة أحد بأسـباب هـذا المـرض، إلا أن الطبيب قـال إنه يشـتبه بنسـبة كبيرة أن يكون بسـبب خلل في الجهاز العصبي، ثم أغلـق عينيـه وأكمـل توضيحـه، وقـال بأن هـذا المرض يـكاد لا يحـدث للرضع، وإن حدث فهي كارثة؛ لأنه سـوف يتعارض مع الجهاز العصبي اللاإرادي في جسـده وهو الجهاز المسـؤول عن القيام بالأنشـطة الأساسـية في أجسـادنا، مثل الحفاظ على درجة حرارة الجسم، وانتظام نبضات القلب، وتنظيم التنفس.

كان طبيبنـا يعلـم بأننـي ومايـكل مكافحيـن، ولكنـه قـال لنا بلطف بأنه وخلال حياته المهنية الطويلة، لم يعاين سوى حالتين

فقـط مصابـة بهذا المرض مـن الرضع، وكلاهما توفيـا قبل إتمام عامهمـا الأول، لا أعلـم حقـا كيـف تحملنـا وخرجنـا مـن مكتبه وعدنا للبيت، ولكننا سمحنا لأنفسنا بأن ننهار قليلا، ثم ما لبثنا أن تجاسـرنا مصممين أن نسـاعد طفلنا الجديد فـي معركته للتغلب على مرضه.

أصبـح ويلسـي يعانـي مـن ثماني أو تسـع نوبات فـي اليوم، وأصبـح جسـده الجميل هامدا طـوال الوقت، وكان يبـدو لنا بأنه يعاني من آلام مسـتمرة، فجلبنا لـه مجموعة معالجين خاصين به والذيـن أتـوا ليتولـوا عـلاج النمـو العصبـي، والـذي يتكـون من تمارين الشد المخصصة لتحسين حركته وتدريب عضلاته.

كنـت أعلـم بأن العلاج ضروري، ولكـن لا يوجد في الحياة أصعـب على الأم مـن أن ترى رضيعها يبكي، وهذا يعني أن تلك التمارين كانت بمثابة العذاب لكلينا.

يا لك من مسكين يا «ويس!».

فقـد كان يصرخ ولا يتوقف عـن الصراخ، وكنت أذهب إلى المطبـخ وكفـاي متعرقيـن، فأقبضهما معـا بإحـكام وقلبي ينبض بسرعة صاروخية! كنت أؤمن من أعماق قلبي أننا نساعد ابننا ولا نتعمد إيذاءه.

وذات يوم فاجأني مايكل بعودته من العمل في منتصف إحدى جلسات ويس ليطمئن عليه، وخلال الجلسة وكالعادة، كنت أقف في مطبخي شاحبة مرتعدة الفرائص، وأذرف الدموع، فأخبرته كم كانت الجلسة مؤلمة، ولكنه لم يتقبل الأمر، فنظر إلي وقال: «هذه ليست تمارين شد، بل تمارين صراخ»، ثم هاتف رئيسه تلك الظهيرة وأعاد ترتيب جدول أعماله حتى يتمكن من التواجد أثناء جلسات علاج ويلسي، وذلك يعني أنه سوف يعمل أيام السبت، ولكن ويس سوف يحصل على الرعاية التي يحتاجها، وسأتمكن أنا من العودة للحضانة بسلام بعيدا عن سماع صراخ ابني في تلك الجلسات.

كان وقتا عصيبا ومروعا بحق، فقد كنا نتردد على غرفة الطوارئ عدة مرات في الأسبوع ولمدة أشهر، فلم يكن ويس قادرا على بلع السوائل، لذلك كان يتغذى على تركيبة حبوب الرز، وكان من المستحيل أن أنام؛ لأنني كنت مقتنعة بأنه إن غفت عيناي فسوف يتوقف ويس عن التنفس، ولم أستطع الوثوق بأحد غيري في رعايته، فلن أسامح أي أحد ولن أسامح نفسي إن حدث له مكروه، كل ذلك كان يحدث بالتزامن مع كل ما يحدث جيك، وحينما كنت أذهب للحضانة كنت أحمل ويس مجددا كل ثانية في حمالة الطفل.

قوس قزح

لم تؤثر مشاكل ويسلي الصحية الحرجة والعلاج الذي يتلقاه بالطبع على احتياجات جيك، فكان لزاما علينا أن نستمر في جدوله وعاداته اليومية، وكنا نقضي ساعات طويلة على طاولة المطبخ الصغيرة، ولكننا لم نلحظ أي تحسن يمكن أن يقارن بحجم المجهود الجبار الذي نبذله.

كانت الحياة مرهقة جدا في تلك الأثناء بسبب الحضانة؛ لأنني محاطة بأطفال طبيعيين، وأتذكر حينما رأيت طفلا أصغر من جيك يركض ويرمي الكرة بسلاسة في الكوب، وقد أمضى معالجي جيك ستة أشهر يحاولون تطوير تلك المهارة لديه دون جدوى، وحاولت أن أتقبل أيضا أن فتاة صغيرة لم تعرفني سوى من أسبوع تحتضنني وتودعني في نهاية اليوم عندما تغادر الحضانة بينما ابني لا يلاحظ أنني متواجدة بالغرفة من الأساس، لقد كان كل ذلك قاسيا.

حينما كان معالجي جيك يغادرون، لم أمنع نفسي من ملاحظته وهو يلعب بمفرده وكان يبدو مندمجا بشدة، ربما يبدو

للآخرين فقط بأنه شـارد، ولكن بالنسـبة لي لم أر تركيزه كذلك، فكان يبدو متفاعلا بالكامل حينما يُقلّب الكرة بيده، أو يكرر رسم شـكل هندسـي، أو يلقي بعلب حبوب الإفطـار على الأرض، لا يمكـن أن يكـون تركيـزه ذلـك عشـوائيا أو مـن فـراغ، بـل يبـدو كشـخص منهمـك فـي عمل هـام وجاد جـدا، ولكن للأسـف لا يتمكـن مـن إخبارنا عن ماهيته .. لقد بـدت لنا بعض بوارق أمل، وكانت عظيمة.

كنـت أخـزن المئات مـن الطباشـير الملونة فـي علب لأجل الحضانـة، وكان جيـك يحـب أن يفرغها جميعـا على الأرض ثم يصفهم صفا كما يفعل بالضبط مع ألعابه السيارات، وعندما كنت أرتـب غرفـة المعيشـة ذات ليلـة فـي وقـت متأخـر توقفـت قليلا لأرتـاح، ونظرت إلى هـذا الكم من الجمـال والتناغم الذي تركه جيك على السجادة، إنها مصفوفة أخاذة حوّل فيها مئات الطباشير الملونة إلى قوس قزح.

وحين انحنيت لألتقطهم بيدي من على الأرض استحضرت فجأة ذكـرى علمية خاطفـة تعلمتها فـي المرحلـة الثانوية، وهي طريقة«ROYGBIV»لاستذكار ألوان الطيف أو ألوان قوس قزح باسـتخدام الحروف الأولى لكل لـون بالترتيب: أحمر، برتقالي،

أصفر، أخضر، أزرق، نيلي، بنفسجي .. شعرت حينها ببهجة؛ لأن الشكل الذي صنعه جيك لم يكن يشبه قوس قزح، بل كان بالفعل قوس قزح! فكان اللون الأحمر موضوعا بدقة إلى جانب البني المحمر والأزرق الكادي إلى جانب الأرجواني، ولم تكن الطباشير الملونة مصفوفة بدقة فقط، بل كان غير عاديا لطفل في عمر السنتين ونصف أن يصفهم بالتدرج الصحيح والدقيق لألوان الطيف!

في الصباح التالي كنا على طاولة الإفطار برفقة جيك وحينها أخبرت مايكل بقصة الطباشير الملونة وقوس قزح، في الحقيقة كنت خائفة قليلا وسألت مايكل: «كيف يمكن أن يعرف ترتيب ألوان الطيف فأنا بالكاد أتذكر حروف «ROYGBIV»؟»، فنهض جيك كما لو كان يجاوبني وأدار كأس المياه الزجاجي المزخرف الذي كان أمام مايكل حتى يمتص أشعة الشمس المنسابة من الباب الزجاجي عاكسا ألوان قوس قزح في غاية الجمال على أرض المطبخ، فالتفتنا ونظرنا جميعا إلى ألوان الطيف الواضحة،وقال مايكل: «أعتقد أنه عرف بتلك الطريقة».

وفي يوم آخر في نفس الفترة وقبل أن يبدأ ويسلي بالصراخ، ذهبت مسرعة إلى متجر الألعاب لأشتري هدية مناسبة، فانشغل

جيـك بأحد الرفـوف التي تحمـل صناديق موسـيقية يفتح ويغلق أغطيتهـا ويسـتمع إلـى الأغاني التـي تصدرها، وبينمـا كنت أدفع ثمن الهدية وكانت المرأة بجانب المحاسـبة تغلفها، إذ به يذهب إلى بيانو على شـكل سـجادة وضعها المحل بغرض الأداء عليها بمقابل مادي نقدي وبدأ يعزف عليها الألحان الذي سـمعها للتو بـدون أن يخطئ في لحن واحد! فتحت البائعة فمها مذهولة لأنه تمكـن مـن عزف كل أغنية بعد سـماعها لمرة واحـدة، كان الأمر صادمـا فعـلا، بل إن البائعة لـم تكن تعلم أنها المـرة الأولى التي يـرى فيهـا جيـك البيانو من الأسـاس .. كنت أشـعر أحيانـا بأنني الوحيدة التي ترى قدرات جيك الخاصة تلك.

أقلقتنـا تقارير العلاج أكثـر، وزادت الفجوة بيني وبين جيك ومايـكل، فأصبح طفلنا لا يتحـدث إلينا ولا يحتضننا ولا يعبر لنا عن حبه ولا حتى ينظر إلينا إلا بالصدفة إذا مررنا في طريق الظلال التي يحدق به.

مـع كل يـوم كانـت تقل عـدد الأنشـطة التي يود أو يسـتطيع جيـك القيـام بهـا، ولكننـي لم أتوقـف عنهـا كلهـا، وكان مايكل منشـغلا جـدا بسـبب عمله في تجـارة البيـع بالتجزئة، وسـاعات عملـه غيـر منتظمة، فمثـلا كان يخـرج أحيانا أثنـاء العطلات من

الساعة الثالثة عصرا وحتى الثالثة صباحا، وكان العمل يسلب منه وقتـه العائلي معنا، وكنت أوقظه أنـا وجيك بقبلة صباحية وعناق سـريع قبل أن نبدأ يومنا، وأعجز عن وصف مدى سعادتي حينما كنت أفتح باب غرفة نومنا وأرى وجه جيك مشرقا ومقابلا لوجه مايـكل وهو يبكي ويقول: «بابا»، وحينها ومع صوت جيك يفتح مايكل عينيه وذراعيه.

لم يعد يحدث كل ذلك بالطبع، ولكنني ما زلت مُصرة وكلي أمـل بأن تعود علاقـة جيك ومايكل ثانية كما كانت، فحينما كنت أمسـك بمقبـض الباب ذات صبـاح لأفتحه تذكـرت وجه مايكل المرهـق والمتعـب بالأمس، وفكرت لوهلة مـا إن كان من العدل أن أوقظه بلا جدوى ولكن في النهاية فتحت الباب لأنني أريد أن نستكمل العـادات اليوميـة التي مـلأت حياتنا بالحب والسـعادة ذات يوم، تلك العادات هي السـبيل لإبقاء تلك الشـمعة التي تُنير الطريق لجيك حتى يعود إلينا.

لم يكن الأمر سـهلا، فكنت كل ليلة بعد أن أنظف الحضانة وأنـزل الأطفـال أذهـب للاسـتحمام وأبكـي بشـدة مـن التعـب والإرهاق، ومن شـعور الخـوف واليأس، ومن معرفتي بأن الأيام تمـر سـريعا وأخشـى أنني لـم أفعل مـا يكفي، ومن شـعوري بأننا

سوف نستيقظ في اليوم التالي ونكرر كل ما فعلناه مرة أخرى، كانت تلك السنة صعبة جدا، كنت أبكي فيها في بعض الليالي أثناء الاستحمام حتى ينفد الماء الساخن، وكانت بعض الأيام قاسية لدرجة أنه من الصعب أن أحافظ على إيماني.

كان هناك صبي اسمه جوي في نفس عمر جيك تقريبا انضم للحضانة منذ ولادته وشخص بالتوحد في نفس الوقت مع جيك، ثم بدأنا العمل مع كليهما، بعدها سمعنا أخبار جيدة عن نظام غذائي خال من الجُبْنين والغلوتين فبدأناه معهما؛ لم يستجب جيك لهذا النظام بتاتا بينما استجاب جوي وبسرعة رهيبة كالمعجزة، وبعد أسبوعين بدأ جوي في التحدث مرة أخرى.

يحلم كل أب وأم لديهما طفل مصاب بالتوحد بأن يسمعا صوته مجددا، وحينما سمعت جوي للمرة الأولى سقطت دموعي من الفرحة، وفي نفس الليلة في وقت متأخر أدمعت عيني مرة أخرى من الحزن؛ لأن ابني لم يتحدث بعد، وكنت على وشك أن أصدق الخبراء والأخصائيين والمعالجين من حولي الذين يعتقدون أنه لن يتحدث أبدا.

تحسّن مفاجئ

يوافق موعد انتهاء برنامج فريست ستيب المموّل من الولاية عيد ميلاد جيك الثالث؛ حيث تتوقف جميع الخدمات المقدمة من البرنامج، ويمكن التقدم بطلب استثناء للاستمرار في تلقي بعض العلاج، لكن قائمة الانتظار طويلة، وقد سمعت ببعض الحالات أصبح فيها عمر الطفل اثني عشر أو ثلاثة عشر عاما عندما أصبح مستحقا للحصول على مساعدة إضافية.

يأتي عيد ميلاد جيك في شهر مايو، وكان يعني تشخيصه بالتوحد أنه سيكون مؤهلا لتلقي العلاج في مرحلة ما قبل المدرسة لذوي الاحتياجات الخاصة في الخريف، ولكن بعد انتهاء برنامج فريست ستيب أصبح لدينا وقت فراغ طوال الصيف قبل بدء المدراس، وأنا أنوي استثمار هذا الوقت.

تشير الأبحاث إلى أن أفضل وقت لدعم الأطفال المصابين بالتوحد هو قبل بلوغهم سن الخامسة، وكنا في سباق مع الزمن في كل يوم.

لقد سـمعنا كلنا قصة المرأة التي رفعت سيارة لتنقذ طفلتها، وهذا هو الحافز الذي أحسـه بداخلـي، حيث كنت أبذل قصارى جهدي للتأكد من أن جيك لم يبتعد كثيرا عن المسار الصحيح.

وكمـا هـو الحـال مع معظم الآبـاء كنت أعلم أنـا ومايكل ما يكفي للحفاظ على اسـتمرار وجود البروتوكول الأساسـي، لكننا نريد أن نضاعف ما نبذله من جهد، وقد أصبح بعض من معالجي جيـك أصدقـاء لنا أبدوا اسـتعدادهم للإجابة عن أسـئلتنا ومنهم: ميلانـي لاوس،كما لا يزال لدينا فرصة عظيمة للتعلم حيث كنت أسـهر أنا ومايكل لوقت متأخر كل ليلة لنقرأ كل ما يقع في أيدينا مـن كتـب، حتى بدت غرفـة نومنا كغرفة طالب وقـت الامتحان، فتجد المراجع والمدونات مبعثرة في كل مكان.

صممت في هذا الصيف بعد أن بدأنا العمل مع جيك وحدنا أن أجد طريقة للتواصل معه مرة أخرى، وللأسف - وبالرغم من تعلم جميع أفراد الأسرة للغة الإشارة - إلا أن محاولاتنا للتواصل معه عن طريقها باءت بالفشـل؛ فقد لاحظت أثناء مشـاهدة جيك في جلساته العلاجية أن ذلك لم يكن سوى إيماءات لا معنى لها عنده، وبعد أن اعتلاني اليأس مزّقت كل ملصقات لغة الإشارة.

قـرأت علـى إحدى مجموعـات الأخبار علـى الإنترنت عن

مجموعـة مـن البطاقـات التعليميـة المصممة لمرضى السـكتات الدماغيـة، لكـن هـذه البطاقـات التي يُطلـق عليها نظـام التواصل بتبادل الصور لم تسـتخدم اسـتخداما كبيرا مع الأطفال المصابين بالتوحـد، وقـد كانـت باهظـة الثمـن، ولكننـي ظللـت أفكـر فـي البطاقـات تعليم الحـروف الأبجدية التي أحبها جيـك كثيرا وفي الطريقة التي انجذب بها نحو الصور، واعتقدت أن نظام التواصل بتبـادل الصـور قد يفيـده، وقد تحقـق ذلك بالفعـل، ففي غضون أسـابيع قليلـة تمكّن جيك من الإشـارة إلى البطاقـة اليمنى حينما ذكرنا الكلمة التي تتوافق مع الصورة، وبدا الأمر وكأنه تقدم كبير ومفاجئ بعد مرور عام من انعدام التواصل العملي مع جيك.

سـارعت إلـى اسـتثمار ذلـك الأمـر، وأتذكر حينمـا دخلت المطبـخ ووجـدت مايكل سـارح الفكر وهو يقلّـب مجموعة من الصـور جلبهـا مـن خزانـة الأدويـة، وكانـت تضـم صور ويسـلي وجيـك في حديقـة الحيوان ومزرعة التفاح، وصـور قليلة لجيك وهو يصف السـيارات على طاولة القهوة مسـتمتعا بلحظاته، كما كان مايـكل يتأمـل بعض الصور التي طلبـت طباعتها على الورق الطويـل الـذي يسـتخدم في الصـور البانورامية ومنهـا: حزمة من أقـلام التلوين، وعلبة حليب بجوار كـوب به مصاصة، وطبقا من المكرونـة بالجبن، ومشـغل أقراص مدمجـة بجانبه مجموعة من

الأقراص، وكان مايكل يمسك بصورة كبيرة لمرحاضنا فضحكت وقلت موضّحة: «أحاول أن أصنع لجيك بطاقات تواصل خاصة به؛ حتى يتمكن من استخدامها للإشارة إلى ما يريد فعله».

كانـت ميلانـي في غايـة الاندهاش مـن مدى فعاليـة الصور ونصحتنـي أن أسـتمر فـي ذلـك وقالـت: «لنحـاول إعادتـه إلـى الأفضل هـذا الصيف، ولا ندعه يتراجع خطوة واحدة»، فصممنا سـويا برنامـج تواصلـي علـى أعلـى مسـتوى لجيـك، ولـم يكن بمقـدوري أنـا ومايـكل فعـل كل ذلك لوحدنـا؛ لذلـك طلبنا من أطفـال جمعيـة الواجـب الوطنيـة فـي مدرسـتي الثانويـة القديمة الحضور إلى منزلنا لتقديم المساعدة، والتقت رغباتنا إذ كانوا في حاجة إلى تسجيل ساعات تطوعية وكنّا في حاجة إلى متطوعين.

لقد كانوا أطفالاً رائعين، ولكنهم للأسف لم يشعروا بالكثير مـن الاسـتمتاع فلم يكن جيك يتحدث معهم، وشـعوره بالضجر كان أبلغ تفسـير لما كان يشـعر به حيال الأنشـطة التـي أجريناها، وفي بعض الأحيان كنا نضحك أنا وميلاني؛ لأنه كان يبدو كأحد المراهقين غير المكترثين بأي شي، خصوصا عندما يتدلى جسده الصغير بعيدا عن الطاولة وينحني رأسه بضجر على صدره، وفي بعـض الأحيـان عندما كانت ميلانـي تُحضّر لأحـد التمارين كان

يدير رأسه في غضب كما لو كان يقول: «ليس مجددًا!»، وكان إذا أدّى التمرين فإنه يؤديه مسايرة لنا على ما يبدو فيما تخاطبه ميلاني: «هيا يا جيك، تعاون معي هنا يا صديقي»، وهي تلاطفه وتحاول إقناعه، وأحيانا يتثاءب مباشرة في وجهها، ولكنني لاحظت مرارا أنه حينما كان يلعب وحده يكون شديد التركيز.

ليس بوسع أحد أن يُطلق الكثير من التعميمات على الأطفال المصابين بالتوحد، لكنني لا أجد مانعا في أن أطلق ذلك التعميم: إنهم يحبون الخيوط،وقد يتناول جيك سلة الحياكة الخاصة بي ويلعب لساعات بالخيط، فذات صباح حينما كنت في المطبخ لأشرب فنجانا من القهوة رأيت مشهدا جعلني في غاية الاندهاش، لقد نشر جيك كل الخيوط مختلفة الألوان في المطبخ، وكانت تتقاطع مع مقبض الثلاجة وحول سلة المهملات وأرجل الطاولة والكرسي ومقابض الخزانة ومقابض البوتجاز، ونتج عن ذلك سلسلة من الشبكات المتداخلة المعقدة بهية الألوان، ولم يحدث باستخدامه هذه الكمية من الخيوط فوضى، بل صنع تصميما يزخر بالتعقيد والتشابك والجمال، وكنت أشعر ببالغ الرهبة.

استمرت هذه المرحلة لشهور، وكان الأمر يبدو جنونيا بعض الشيء لأننا ندعه يتعامل مع المنزل بهذه الطريقة، ففي

بعض الأيام لم نكن تمكن مطلقا من الوصول للمطبخ، ولكن تصميماته المعقدة كانت مدهشة، وعندما تدخل أشعة الشمس من النافذة تتحرك ظلالها وتتغير حتى الغروب محوّلة الغرفة بأكملها إلى لعبة آسرة من الضوء والظلام.

لقد أثبتت لي هذه الإبداعات أن صغيري كان مشغولا بإعداد عمل مذهل، فمهّد ذلك لي الطريق وفتح نافذة على عالمه الخاص وعقله الخارق.

كان التناقض في سلوكه في العلاج واضحا؛ فعند التعامل مع الخيوط كان جيك متفانيا ومتيقظا، فلم تعجزه العقبات، ولم يكن أي شيء ليشتته أو يصرفه عمّا يفعل، فالتفاني كان حليفه القوي، وبدأت أكتشف أنه إذا كان لدى جيك وقت لغزل شبكاته من الخيوط في الصباح فلن يكون ممانعا لأي معالجة يتلقاها في وقت لاحق خلال اليوم.

كنت أضع راحته على رأس الأولويات حتى خلال فترة المعالجة نفسها، وكغيره من الأطفال المصابين بالتوحد يحب جيك أن يحشر أو يضغط نفسه في الأماكن الضيقة، وقد قرأت كل الأبحاث التي تبين أن الضغط يريح المصابين بالتوحد، وكنت أعلم بأمر الناشطة الرائعة في مجال التوحد وحقوق

الحيوان، د/ تمبل غراندين وآلة «الضغط» التي صممتها لتضغطها وهي طفلة؛ لذلك صنعت لجيك كيسا خاصا فقد طويت الأرجوحة القماشية وخيّطتها طوليا ثم علّقتها بالسقف ليكون جيك مطوّقا بها حينما يدخلها، ولأنها كانت منسوجة فقد كان بإمكان جيك الرؤية من خلالها، وكان ذلك مهما بالنسبة لي، حيث يعني أنه وإن كان مُطوّقا بالكامل في الكيس فلا يزال يشاركنا الغرفة، فأهزّه ثلاث أو أربع مرات وهو يحب ذلك، ثم أمسك بطاقتين من البطاقات التعليمية وأسمي شيئا على إحداهما وأطلب منه الإشارة إلى البطاقة الصحيحة لأكتشف دائما أن قدرته على التركيز على ألعاب التمييز كانت أفضل بكثير عندما يكون في كيسه.

كنا دائما نبحث عن الطرق التي تساعد في العلاج، حتى إنني أخذت صندوق ألعاب القطارات الخشبية من الحضانة، ولكنني لم أضع فيه قطارات، بل بطّنته ببطانية مخملية ووضعت فيه آلاف من حبّات الفاصوليا الجافة التي اشتريتها من قسم الحبوب بمتجر البقالة، حيث كان من ضمن الطقوس التي يفضلها جيك التنقيب في حبّات الفاصوليا وبيده كتاب الحروف الأبجدية، لاسيّما إذا واجه أحد عوامل الضغط كالتغيير في جدوله، وكنت أعلم أن الأطفال الآخرين في الحضانة يحبون

أيضًا اللعب في حبّات الفاصوليا، فقد كانت تشبه طاولة الرمل، غير أنه يسهل تنظيفها، وكن أريد أن أعطي جيك استراحة ليترك كتابه ويلعب بطريقة أخرى مع دمج بعض الأهداف الاجتماعية في لعبة منفردة.

أمّا التغيير الآخر الذي قمنا به هذا الصيف فكان أكثر براعة، ولكنني أعزو الفضل في ذلك من أعماق قلبي لخروج جيك من حالة التوحد، ففي ظهيرة أحد الأيام كان جيك يعمل مع أحد طلاب المدرسة الثانوية على طاولته الصغيرة في غرفة المعيشة، وكان أول أيام الصيف شديد الحرارة، لذلك قررنا تشغيل الرشاشات المائية للأطفال، فبعد مُضي شتاء طويل حبس فيه أطفال الحضانة عن الخروج، اندفعوا إلى الفناء حيث كانت أقدامهم الحافية تنزلق على العشب الرطب وهم يضحكون ويصرخون فرحا والرذاذ يتساقط عليهم، وقد كانت لحظة رائعة وتجربة من تجارب الطفولة المميزة، وأدركت من البداية وأنا أنظر إليهم من النافذة أن جيك لم يمر بها منذ تشخيصه بالتوحد.

منظر وصوت هؤلاء الأطفال وهم يتحررون ويتزلقون ويضحكون تحت الماء البارد جعلني أتسمّر مكاني من الدهشة، فطوال العام والنصف الماضيين كانت كل لحظة في حياة جيك

محورها التوحد: التمرينات والعلاج وتمييز الأنماط لتحسين مهاراته، وفي كل هذه التفاصيل المعروضة نسينا شيئا في غاية الأهمية: *الطفولة*.

إن التجارب الطفولية المحضة كمشاهدة أصابعك الباردة تتجعد تحت رشّاش الماء في أول يوم شديد الحرارة في العام أمر في غاية الأهمية للجميع، وليس للأطفال فحسب، ويجب أن يكون لكل أسرة تقاليد خاصة تحتفي بهم وبما يهمهم، وقد علمتني الحياة أن هذه التقاليد لا يلزم أن تكون معقّدة ليكون لها معنى؛ فأمر بسيط كتعبئة صندوق الرحلات بشطائر زبدة الفول السوداني، والذهاب إلى الشاطئ لإطلاق طائرة ورقية يمكن أن يجمع الأسرة معا لتصنع ذكرى مميزة، لكننا لم نفعل أي من هذه الأشياء مع جيك، وأدركت فجأة أنني إن لم أبذل قصارى جهدي لينعم طفلي بطفولته التي ستذهب بلا رجعة.

أمسكت بالهاتف واتصلت على مايكل في العمل: «زوجي العزيز .. أريد منك أن تعتني بويسلي وحدك الليلة فلدي موعد»، فبدت علامات الدهشة على مايكل، وقد كان ويسلي في مرض شديد لدرجة أنني لم أقضِ أكثر من عشر دقائق بعيدة عنه منذ ولادته، لكنني فعلت ذلك هذا المساء، فبعد العشاء وعندما بدأ

مايكل في إلباس ويسلي ملابس النوم وضعت جيك في السيارة وفتحت غطاء السقف لنستشعر هواء الصيف العليل، واتجهت إلى ريف إنديانا.

في بضع دقائق فقط تركنا حيّنا خلفنا، وكان الطريق الضيق الممتد أمامنا بمسار واحد، ويمر بصف من الذرة الطويلة في أحد جانبيه، وأميال من شجيرات فول الصويا الأخضر على الجانب الآخر، وبعد اجتيازنا الطريق المعبد سرنا على الحصى، كانت سيارتنا هي الوحيدة في محيط أميال، والضوء الوحيد الذي استطعنا رؤيته كان يأتي من منازل ريفية على مسافة بعيدة.

في العادة يقول الناس إنهم يذهبون إلى الريف للاستمتاع بالهدوء والسلام، ولكن الحقيقة هي أن ليل الريف صاخب بأصوات الصراصير الليلية والأصوات الخافتة لحفيف الرياح عبر سيقان الذرة.

كنت أتجه إلى الأرض المحيطة بكنيسة جدي التي تمتد لأميال، وتزخر بالمراعي المفتوحة حول البحيرة حيث أحب الجد جون الصيد، وكان خلال الصيف يحضر أحفاده الثلاثة عشَر، وعلبة من صودا العنب في شاحنته إلى جانب علب القهوة المليئة بدود الأرض الذي أرسلني وستيفاني لنستخرجها تحت زخّات المطر ونحن نرتدي معاطف البنشو.

لقد أمضيت العديد من الأيام الطويلة السعيدة مع أختي على تلك البحيرة، وكنا طوال اليوم نلاحق الفراشات والضفادع، وعندما تغيب الشمس كنا نصطاد اليراعات ونضعها في زجاجات المربى لتضيء أماكننا .. لقد ارتبط هذا المكان بطفولتي بشدة،حتى بدا لي أنه أنسب مكان يبدأ جيك طفولته فيه.

شغلت مصابيح الضباب ورفعت مستوى صوت إحدى محطات موسيقى الجاز إلى الحد الأقصى، وخلعت حذائي بالسيارة وأخرجت جيك من مقعده وضممته بذراعيّ، وبينما كنت أرقص معه في هواء الليل العليل على أغنية *Takes Two to Tango* للويس أرمسترونغ شعرت كما لو أنه مر وقت طويل لم نكن فيه معا للاستمتاع فحسب.

وعندما تعبت ذراعيّ استلقينا على غطاء محرك السيارة، وأخرجت مثلجات بأعواد خشبية من صندوق الرحلات الذي أحضرته، ولطّخت القطرات اللزجة المتساقطة من المثلجات أعناقنا ونحن مستلقون على ظهورنا ننظر إلى السماء الواسعة، ثم أشرت إلى الأبراج التي أعرفها، وعندما انتهيت من تسميتها استلقينا في صمت وأبصارنا إلى السماء، كان يمكننا أن نرى بعض الضوء يشع من مدينة إنديانا بوليس ونحن على مسافة بعيدة جدا في الريف، وفي هذه الليلة كانت النجوم قريبة جدا

وفي غاية السطوع لدرجة أنني شعرت أن أيدينا قد تطولها لتأتي بواحدة منها.

كان جيك في غاية الاندهاش من رؤية النجوم، فلم أره ينعم بهذه الراحة والسعادة منذ أن بدأ العلاج، وراودني ذلك الشعور أيضا، ومع أنني كنت مرهقة وخائفة، فقد شعرت للمرة الأولى بالثقة في أنني كنت أفعل الصواب.

وطوال ذلك الصيف كنّا نُتبع ساعات اليوم العلاجية الطويلة والشاقة والمرهقة ببضع ساعات من المرح الطفوليفي الليل، ولم أكن أرغب في البوح بذلك؛ فالحكمة السائدة المُجمَع عليها تقول أنه «حينما ينتاب الأطفال اليأس يحل العمل محل اللعب»، وكانت الأمهات الأخريات اللاتي أعرفهن ممن لديهن أطفال يعانون من التوحد بالإضافة إلى معظم الخبراء سيشعرون بالفزع إذا ما عرفوا أننا كنا نتسلل للعب، وكنت أسمع ردود أفعالهم التي تعكس الدهشة: «ولكن ماذا عن وقتك؟»هل تقومي بذلك في ساعات عملك؟!».

لقد حرصت على تحقيق الساعات المطلوبة للعلاج بكل تأكيد، لكنني كنت أعلم في نفسي أن جيك أراد أيضا فرصة للعب والشعور بأثر هذا اللعب، فصممت أن أمنحه كلا الأمرين،

وبالطبع يوجد أوقات كان من المهم فيها عدم إعطاء الأولوية لطفولة جيك، من أجل أن يمكث ساعة إضافية لتلقي المعالجة المهنية في صالة الألعاب الرياضية، أو قضاء المزيد من الوقت في جدول الجلسات العلاجية، ولكن إذا انحصر الأمر في الاختيار بين المعالجة الإضافية والاستمتاع بنفخ زغب نبات الهندباء في الفناء الخلفي؛ فسترجح كفة الاستمتاع في كل مرة، وأعتقد بشدة أن الإصرار كان عاملا مساهما في تمكين جيك من التفاعل مع محيطه مرة أخرى، وهذا ما قاد كل القرارات الصغيرة والكبيرة التي اتخذتها مع مايكل نيابة عن جيك في السنوات التي تلت ذلك.

يستمتع الكثير من الأطفال بصيفهم وهم يلعبون على الشاطئ، ولكن جيك لم يستطع فعل ذلك بالتزامن مع علاجه؛ لأن الشاطئ كان بعيدا، فبنينا معا القلاع الرملية في صندوق الرمل بالفناء الخلفي، وكان لدينا موقد صغير في الفناء الخلفي، وكان جيدا بما يكفي للسماح لجيك بالاستمتاع بلعق الشوكولاتة المذابة وحلوى المارشميلو اللزجة الذائبة بين أصابعه فيما يغزو البعوض كواحلنا.

سافرنا كذلك إلى أرض جدي مرات عديدة وكان الجد

جون حاضرا في أذهاننا هناك، فقد كنت أشعر كما لو كنا نزوره، وعندما كنت أشعر بالخوف والوحدة كما هو الحال غالبا في هذه الأيام كنت أُريح نفسي بتذكر كلامه عندما قال إنّ جيك سيكون على ما يرام.

لقد أحب جيك هذه الزيارات، ويبدو لي الآن أنه ربما لا يمانع أن يرقص تحت النجوم لأنه كان أيضا يفعل ما يحبه وهو النظر إلى السماء ليلا، لكنه لم يستطع أن يخبرني ذلك، وكنت أحاول فقط أن أضفي جوا مفعما بالمرح في وقت فراغنا.

لقد كان لهذا المرعى الريفي الفضل في عودة ابني طفلا، لكنه كان لا يزال غير قادر على الكلام أو التواصل البصري، ولكن في نهاية فصل الصيف كنت أتمكن في بعض الأحيان من سماعه وهو يدندن مع موسيقى الجاز التي أشغلها، وكان يضحك عندما كنت أحتضنه تحت النجوم الساطعة، وفي إحدى المرات وبينما كنا مستلقين على غطاء محرك السيارة ننظر إلى السماء، استدار جيك للبحث عن المثلجات وناولني الصندوق لفتحه، قد لا يبدو ذلك مهما، ولكنه كان أكثر تواصلا مما كنّا عليه قبل عام، وقبل أن يبدأ مرحلة ما قبل الالتحاق بمدارس ذوي الاحتياجات الخاصة شهدنا تقدما مفاجئا آخر.

يشتكي الكثير من الآباء من أنهم يجدون صعوبة في وضع أطفالهم في الفراش، لكننا لسنا مثلهم، فلم أكن أنا وجيك نخوض إحدى المغامرات الليلية حين يأوي إلى فراشه عند الثامنة في كل ليلة، وبصراحة كان ذلك مزعجا بعض الشيء أحيانا؛ ففي إنديانا تطول أيام الصيف ويلعب الأطفال ويتناولون المثلجات حتى التاسعة أو العاشرة في أمسيات العطلات الأسبوعية، بينما يتجاذب الكبار أطراف الحديث مع جيرانهم وهم يشوون الطعام في الهواء الطلق، لكن جيك ليس ذلك، فإذا كنّا في منزل أحدهم كان ينام على أرضيتهم، وفي أحد أعياد الهالوين نام جيك على فراش أليسون ابنة صديقنا جيل.

لم ندرك مدى دقة ضبط وقته حتى حاولت وضعه في الفراش مبكرا ذات ليلة، حيث كنا نتعزم الذهاب إلى حفل زفاف خارج الولاية، ويلزمنا ذلك القيادة مبكرا في الصباح التالي، وهو ما يعني أن كل الأسرة يجب أن تستيقظ وتكون خارج المنزل أبكر من المعتاد، وظنا مني أننا سننعم بساعات نوم جيدة وضعت جيك في فراشه ودُهشت حينما لم أتمكن من استدراجه إلى النوم، وناديت على مايكل وأنا مذهولة، فحاولنا أن نغري جيك بالنوم لكنه كالمعتاد تجاهلنا ونظر إلى الظل الموجود على

الجدار بدلا من ذلك، ولم تكن توجد ساعة في غرفة جيك لكنه كان معتادا أن يأوي إلى فراشه ويغطي نفسه عند الثامنة كل ليلة.

قلت لمايكل «يا إلهي، الظل على الجدار هو الساعة»، فاختبرنا هذه النظرية في الأيام التالية، فألقينا المناشف على ساعة المطبخ، وأدرنا ساعة المنبه الموجودة في غرفة نومنا إلى الجدار، وفي كل ليلة كان جيك يأوي إلى فراشه في تمام الساعة الثامنة بالضبط، وليس قبلها أو بعدها.

أصبح روتين وقت نومنا في غاية الدقة، وكالعديد من الأطفال المصابين بالتوحد أحب جيك أن تكون أحداث حياته متوقعة، وأن أقوم بالأمر ذاته بالضبط حينما أدخله إلى فراشه إذ أنحني إليه وأقبل جبهته وأقول له «ليلة سعيدة يا ملاكي الصغير، أنت ملاكي الصغير وأنا أحبك».

عندما كان جيك صغيرا كان يحضنني من الخلف، ولكن مع مرور الوقت أصبح غير مستجيب تماما.

يتساءل الناس عن أصعب شيء يواجهه من لديه طفل مصاب بالتوحد وإجابتي على ذلك بسيطة هو أن لا تسمع الأم من ابنها أنه يحبها، ولا تشعر بذراعيه حولها.

وذات ليلة؛ عند قرب انتهاء فصل الصيف بعد حوالي ستة

أشـهر من قيامنا بهذه الزيارات إلى الريف تحققت رغبتي؛ فبينما كنـت أضـع جيك في الفـراش وأنحني إليه لأقبلـه وأتمنى له ليلة سعيدة، نهض جيك واحتضنني من الخلف دون أي إشارة مسبقة بأنه سيفعل ذلك.

لن أنسـى هذه اللحظة ما حييت، لقد كانت أول علامة على الحب، أو حتى الاهتمام التي أبداها لي منذ أكثر من عام، وكنت في حالة ذهول تام، وكان جسمي يرتعش ودموعي تنهمر، وكنت وخائفة من أن يوقفه تحركي عمّا يفعله؛ لذلك كنت على استعداد أن أقف عنده إلى الأبد، ولا تفارق ذراعاه عنقي.

أحسسـت بعد ذلك بأنفاسـه الحارة في أذني، ليتحدث ابني لأول مـرة منذ ثمانية عشـر شـهرا ويقول لي «ليلـة .. ليلة، ملاكي الصغير».

ظهرت ضحكاتي من بين أنهار دموعي، ولـم أتمالك نفسـي بعدها.

خطوة إلى الوراء

كان كل ما حققناه في الصيف مشجعا بشكل مدهش، وممتعا بعض الشيء.

لكن الصيف انتهى، وبدأ التعليم الخاص، وذهب جيك إلى المرحلة التأهيلية التي تسبق دخول المدرسة.

لقد شعرت منذ البداية أن دروس المهارات الحياتية غير مناسبة.

تتضمن الأيام الأولى في مرحلة ما قبل المدرسة العادية يكون التركيز على مساعدة الأطفال على الاعتياد على الابتعاد عن والديهم للمرة الأولى، لكن مثل هذه الرفاهية لا تتوفر عادة في التعليم الخاص بذوي الاحتياجات الخاصة.

ظهرت الحافلة المدرسية الصفراء خارج منزلنا في اليوم الأول، واستقلها جيك، وبعد عدة ساعات أوصلته الحافلة نفسها إلى المنزل، لكن ما حدث في الساعات الفاصلة بينهما كان أمرا غامضا إلى حد كبير بالنسبة لي.

لكـي أكون منصفـة، افترضت أن قلق الابتعـاد كان يمثل لي مشـكلة أكبر ممـا كان يمثل لجيك؛ فباسـتثناء ذلـك العناق الذي يذيب القلب أثناء النوم، فهو بالكاد يستشعر وجودي عندما أكون في الغرفة، فكيف بي عندما أخرج من الغرفة وأتركه وحيدا؟

وبطبيعـة الحال ولأننـي أم؛ كان وضعه في تلك الحافلة أمرا مرعبـا، إنـه فـي الثالثة والنصف مـن عمره ولا يـزال صغيرا حقا، وعلى الرغم من أنه بدأ في التحدث بكلمات قليلةً هنا وهناك، إلا أن إجـراء محادثة حقيقية معـه كان لا يزال غير وارد، وبالتالي لن يستطع جيك إخباري عن يومه في المدرسة، أو ما حدث فيها أو وصف شعوره، كما لم يستطع مشاركة أي من مخاوفه أو مشاعر القلق التي تنتابه، ولم أتمكن في أي يوم من الأيام حتى من معرفة ما إذا كانت قد أعجبته الوجبة المقدمة له في المدرسة؛ لذلك لم يكن أمام أي خيار سـوى أن أضع ثقتي في نظام المدرسـة، ولكن للأسف، بدأت ثقتي في نظام المدرسة تتلاشى يوما تلو الآخر.

لـم تكن لدي أدنى مشـكلة في اسـتمرار جيـك الذهاب إلى المدرسة إلا بعد أن لاحظت تصرفاته في المنزل، وما رأيته جعل الشـك يتملكنـي، فهو لم يكن يتحسـن، بل في الواقـع بدا لي أنه كان يخسـر بعض مما حققه فـي الصيف، حين تجرأت لأول مرة

علـى تمنـي الشـفاء القريـب لجيـك، ودعـوت الله أن تعقُب تلك الكلمات القليلة التي تمكنا من انتزاعها منه كلمات كثيرة أخرى، وكنـت أكثـر تفـاؤلا بأنـه قـد يتحدث مـرة أخـرى، لكن مـع بدء الدراسة ومع مرور الأيام، عادت آمالي تتبدد مرة أخرى.

تزامنت بدايـة مرحلة ما قبل الروضة التعليمية الخاصة أيضا مـع سـلوكيات جديـدة وجدتها مقلقة، ومـن الجديـر بالذكر، أنه ذات مسـاء عندما طلبت منه أن يأتي إلى مائدة العشـاء، اسـتلقى جيـك على الأرض ولم يحرك سـاكنا، وعندما ذهبت لإحضاره، وجدت أن يرخي جسـده تماما، لذلك كان من المسـتحيل تقريبا حمله، ولم يكن يبكي أو يبدو عليه الانزعاج بشـكل واضح، لقد كان مرتخيـا فحسـب، وبمـرور الوقـت، لاحظـت أنـه يفعل هذا كثيرا، خصوصا عندما يُطلب منه القيام بمهمة لا يرغب القيام بها تحديدا.

جـاءت معلمتـه إلـى منزلنـا لحضـور الاجتمـاع الوحيد في الشـهر بتكليف مـن الولاية، وفـي المرة التالية التـي جاءت فيها، أخبرتها بهذا السـلوك الجديد، فضحكـت وقالت: «أوه، لابد أنه يقلـد أوسـتين، أحد زملائه في الفصل؛ يعاني أوسـتين من شـلل دماغي، وعندما لا يكون راغبا في التعاون، يقوم بإرخاء جسده».

كان بإمكانـي أن أرى أن الأمـر كان مضحـكا، ولكـن علـى الجانب الآخر شعرت بقلق حقيقي، فما مدى الاهتمام المخصص الـذي يمكـن أن يحصل عليه كل طفل إذا كانـوا جميعا في فصل واحد، بغض النظر عن الاحتياجات الخاصة لكل طفل؟

وعلى نحو أكثر تحديدا آثار سلوك الارتخاء قلقي؛ فلم يكن من المخطط أن يصبح جيك أقل استجابة.

كان مايـكل متعاطفا مع مخاوفـي إلى حد ما، وكان يتصرف بصبـر كصوت لأفكاري كلما أبديت شـكوكي بشـأن تقدم جيك في التعليم الخاص، لقد أصبح مايكل لسان حالي الهادئ لجميع المشـاعر التي كنت أكررها عندما لا يكون متواجدا: «إنهم خبراء يـا كريـس، لم نكـن لنغير طبيب قلـب أو طبيـب أورام مثلا، أفلا يجب أن نثق بهم لمعرفة ما هي أفضل خطة لابننا؟».

ظللـت في هذه الحيرة لأشـهر، وكانت تسـاورني الشـكوك حتـى يفيـض الأمـر بـي، وبعد ذلـك أعود لمـا كنت عليـه بحجة مايـكل المنطقية لمواصلة الثقة في الخبراء، لكن مخاوفي بشـأن المدرسـة وصلـت أخيرا لذروتها بعد أشـهر قليلـة، عندما طلبت منـي مُدرسّـة التعليـم الخـاص بجيـك بلطـف وبحـزم فـي نفس الوقت، التوقف عن إرسال جيك إلى المدرسة مصطحبا بطاقات الحروف الأبجدية المحببة لديه.

كان سـوء الفهم هذا بمثابة لحظة تجلّي للحقيقة بالنسبة لي، كنت أنا ومايكل نرسـل جيك إلى المدرسـة ليتعلم، لكن أساتذته وهم الأشـخاص المسـئولون عن تعليمـه، كانـوا يخبرونني الآن أنهـم يعتقـدون أنه لا يمكن تعليمه، وبقـدر ما كانت معلمة جيك لطيفة معي، كانت رسـالتها الأساسـية واضحة: لقد فَقَدَت الأمل في ابني.

في وقت لاحق من ذلك اليوم؛ بينما كنت أخرج دجاجة من وعاء الفخار لتناول العشاء، حاولت التحدث مع مايكل: «هو لن يقـرأ؟ أبدا؟ لماذا لا نحاول علـى الأقل؟ إنه طفل مهووس تماما بالأبجدية دون أي تشـجيع على الإطـلاق، لماذا نمنعه من القيام بما يفعله بشكل طبيعي؟».

كان مايكل ساخطا بعض الشيء «كريس! هؤلاء الأشخاص لديهم خبرة وتدريب أكثر بكثير مما لدينا، علينا أن نسمح للخبراء أن يقوموا بدورهم».

«لكن مايكل ماذا لو كان حمل جيك للبطاقات الأبجدية في كل مكان يذهب إليه هي طريقته للقول إنه يريد القراءة؟ ربما هو ليس كذلك، لكن ماذا لو كان كذلك؟ هل نبقيه مع أشـخاص لن يحاولـوا حتـى تعليمـه لمجـرد أن ذلـك ليـس جـزءا مـن برنامج المهارات الحياتية؟ لماذا يقولون لا لمن يريد أن يتعلم؟».

في الواقع أدركت أن جميع أسئلتي، وكل الشكوك المزعجة التي لم أتمكن من إخمادها في الأشهر التي تلت بداية جيك المرحلة التأهيلية للمدرسة يمكن تلخيصها في مشكلة أساسية واحدة كبيرة، وهي: لماذا يكون التركيز على ما لا يستطيع هؤلاء الأطفال فعله؟ لماذا لا ينظر أي شخص بعناية أكثر إلى ما يمكنهم فعله؟

لطالما نجحت حجج مايكل في تهدئة شكوكي بشأن استمرار جيك في التعليم الخاص، ولكن تلك الليلة وجدت أن شكوكي قد ترسخت، وتماما مثل أي أم تعرف بالفطرة كيف تنتشل طفلها من حافة نار المخيم، أصبحت على يقين بأنه عليّ أن أنتشل طفلي من التعليم الخاص.

شعر مايكل بما كنت عازمة على فعله وأثار ذلك انزعاجه، قال: «يا كريس، يا عزيزتي، أتفهم أنك محبطة ومنزعجة، ولكن عليك أن تكوني منطقية»، غالبا ما كان يثق بي عندما أتولى زمام القيادة، لكن هذه المرة رآني أبحر إلى أعماق لم يكن مطمئن لِخوضها، ليس وكل هذه المخاطر تحيط بنا، ولقد تفهمت موقفه تماما، فبعد كل شيء، لقد كنا متفقين تماما قبل أربع وعشرين ساعة مضت، ولكن الآن أصبح أنه من الواضح جدا بالنسبة لي

أن هذا الرأي الذي يعتبره هو الأكثر حكمة وعقلانية سيقود ابننا إلى كارثة.

ولو أن أحدا تأمل العلاقة بيني ومايكل لبدا له أن مايك هو الشخصية المتمردة، فقد كان هو الذي يقود سيارته بسرعة كبيرة، ويصنع المقالب المحكمة، ويرتدي بنطال جينز ممزق وسترة جلدية، غير أن تلك الفروق في شخصيتينا لم تكن تسفر دائما عما كان متوقعا، لقد كان مايكل من بيننا هو الذي يشعر براحة أكبر في الالتزام بالقواعد كما يقول المنطق، وهو الذي كان يحتاج للشعور بالأمان الذي يوفره الالتزام بمجموعة من القواعد المحددة على صعيد ضيق، وأصبح جليا أنني كنت الشخص الذي يميل إلى اختيار الطريق الصعب إذا اقتضى الأمر.

استمرت المحادثة بيننا لوقت متأخر من الليل، وعلى الرغم من أن مايكل أدرك في وقت مبكر أنني حسمت أمري، فعلى مدى سنواتي مع جيك، كنت أدرك تماما أنه عندما يغلق بابا فإن أبوابا أخرى تُفتح على مصراعيها، ولكن عندما كنت أتقلب قلقة في فراشي تلك الليلة، وصوت معلمته يتردد في رأسي، لم أكن على هذا القدر من المعرفة بعد لأهدأ؛ ولهذا السبب كان قرار إخراج جيك من التعليم الخاص هو أكثر الأشياء التي فعلتها

رعبا، وقد تطلب ذلك التحلي بأكبر قدر مطلق من الإيمان في حياتي.

نهضت بخفة من الفراش كي لا أزعج مايكل وسرت في الردهة إلى غرفة جيك الخضراء الصغيرة، والتي رُسم على جدرانها بستان ليتناسب مع ذلك الموجود بالخارج، كان لحافه مصمم على نمط كلاب لابرادور سوداء مستقلة شاحنات حمراء صغيرة عبر أشجار التفاح، وفي كل مكان، كالعادة، تناثرت مئات من بطاقات تعلم الحروف الأبجدية.

وضعت يدي على ظهره لأستشعر أنفاسه، لقد كان مميزا جدا وفريدا من نوعه، لكنه ومع ذلك مصاب بالتوحد، ونتيجة لذلك، شخّصته المدرسة ثم قررت مبكرا ما يمكنه القيام به وما لا يمكنه.

كان بحاجة لي لأكون محامية له، وبطلته؛ كان يريدني أن أكون صوته.

في اليوم التالي؛ لم أجعل جيك يستقل الحافلة المدرسية الصفراء الصغيرة، وبدلاً من ذلك مكث معي في المنزل.

استشاط مايكل غضبا:

«ماذا تقصدين بأنه لن يذهب إلى المدرسة؟ هل أنتِ مجنونة يا كريس؟ هل فقدتِ عقلك تمامًا؟».

«يا مايكل، سنفقده إذا استمر في الذهاب إلى المدرسة».

«هذه ليست مزحة يا كريس، المدرسة هي المكان الذي يتلقى فيه جيك العلاج، لا يمكننا تحمل تكاليف إحضار جيش من المعالجين الخاصين إلى المنزل، لا يمكننا تحمل حتى تكلفة واحد منهم! كيف سيحصل على المساعدة اللازمة؟».

«سأفعل ذلك بنفسي يا مايكل». «ماذا عن دار الحضانة؟ ماذا عن ويس؟»ز «لن يقوم أي أحد آخر بذلك يا مايكل، لقد تسبب الخبراء في تدهور حالة جيك، ولا أريد تضييع الوقت في محاولة تغيير رأيهم».

جلس مايكل ضاما شفتيه، عاقدا ذراعيه، ثم صمت.

حاولت مرة أخيرة «يمكنني القيام بذلك يا مايكل، يجب أن أقوم بذلك». أدار لي ظهره غاضبا، مشدود الأعصاب ولم أكن لألومه، فأنا لم أحصل على تدريب رسمي على منح جيك ما يحتاجه من علاج، ولكن مثل أي أم أخرى لطفل مصاب بالتوحد، كنت منخرطة مع معالجي جيك منذ اليوم الأول، بالإضافة إلى ذلك، كنت أعرف طفلي أفضل مما يعرفه أي خبير، ولقد رأيت شرارة في جيك في بعض الأيام، كان هناك بصيص خافت جدا، لكن بينما لم أستطع الادعاء بأنني أفهم تماما مشاعر جيك

واهتماماته، فلم أكن لأبرر إهمال هذه الاهتمامات فقط لأن أحدا غيري لم يفهمها، أو لأن اهتماماته لم تتطابق مع ما يسمى بالنموذج الطبيعي للتطور في فترة الطفولة، إذا أردنا مساعدة جيك يجب علينا التوقف عن التركيز على ما لا يستطيع فعله.

بعد بضع لحظات من الصمت المشوب بالقلق؛ استدار مايكل ليواجهني، استطعت أن أرى أنني لم أقنعه كثيرا، بالإضافة إلى أنني قد أنهكته، ثم إنه وافق بشرط أن نعيد التقييم في غضون أشهر قليلة.

كان يساورني الشك في أن النتيجة قد تكون مختلفة تماما، ولكن ذلك بالنسبة لمرحلة ما قبل المدرسة لا مرحلة رياض الاطفال.

«سترى يا مايكل، أعدك أنه عندما يحين وقت مرحلة روضة الأطفال، سيكون جيك مستعدا، ليس للتعليم الخاص، بل للمدارس العامة العادية، وسوف أحرص على ذلك».

البداية الطبيعية

كانت معي على الهاتف معالجة جيك ميلاني وحين أخبرتها ساد صمتها بشكل غير معتاد، ثم قالت: «هل أنت متأكدة؟».

جلستُ في غرفة المعيشة ذاك اليوم قبل أن أبادر بذلك الاتصال، وحاولت تهدئة نفسي وتذكيرها باستمرارية التنفس زفيرا وشهيقا لعدة مرات، فقد أفجعني كمّ المسؤولية الضخمة التي ألقيتُها بنفسي على عاتقي، فأنا من اتخذت هذا القرار وواجهت به مايكل وربحت، ولكن ما الذي سأفعله الآن؟ فلم يكن ينتظرني على الرف كتاب (الخطوات العشر البسيطة لعلاج طفلك المصاب بالتوحد الشديد)، ولم يكن لدي أدنى فكرة من أين سأبدأ.

لذا قررت أن أتواصل مع ميلاني لوز؛ لأنني أعلم أن بإمكانها المساعدة، ولكي تساعدني لابد أولا أن أقنعها بأنني لم أفقد عقلي بعد.

لقد عملت ميلاني - الأم الحنونة - مع جيك منذ البداية

وسرعان ما أصبحنا صديقتين، كما أنها بسهولة تفرض سيطرتها بدون بذل مجهود ويرجع ذلك لخبرتها حيث عملت مع المئات من الأطفال لسنوات بجانب تربية أطفالها السبعة، فشعرتُ بانتماء شديد لأخلاقياتها في العمل؛ لأنها تبذل دائما جهدا مضاعفا، الأمر الذي علمني جدي إياه، وعلمني أن أقدر أي شخص يقوم به، كما أن لديها حس فكاهة عال جدا حتى إن جيك في أشد حالات عناده يجعلها تنفجر ضاحكة.

كانت تحاول مع جيك أن يحل تمرين التوصيل على طاولته الصغيرة فلاحَظَت أنه وبلا أي تواصل بصري يستخدم إصبعا واحدا في التوصيل، فقالت بسخرية وهي تهز رأسها: «إنه لأمر صعب فعلا، سيتطلب مني مجهود مضاعف».

أهم ما في الأمر أن ميلاني كانت تعامل الأطفال «كبشر» وليس كمشاكل لابد من حلها، أو ككائنات مثيرة للشفقة، وأحد الأسباب الأخرى التي جعلتني أرى أن ميلاني هي أمثل شخص يمكنني التحدث معه أنها كانت تعمل كمعلمة قبل أن تصبح معالجة؛ الأمر الذي يعني بأنها تعلم جيدا الذي أحتاجه، وكيفية تأهيل جيك للدخول إلى حضانة عادية، ولكن صمتها أقلقني حين أخبرتها برغبتي في سحب جيك من التعليم الخاص؛ ويرجع ذلك بحسب ما أعتقد لأن لديها نفس تحفظات مايكل.

ثـم قالـت لي ميلاني: «لا أعلم إن كنـتِ على دراية كافية بما تُقدميـن عليـه! جيـك يحتـاج مسـاعدة جبـارة يا كريـس، جبارة! ولأكون صريحة معك، فإن تلك المسـاعدة تحتاج لشخص لديه سـنوات عديدة من التدريب وخبرة واسـعة في التعامل مع أطفال التوحد، ناهيكِ عن طفلك الصغير المريض الذي يشـغلك طوال الوقت».

فبدأت أشرح لها وجهة نظري باندفاع، في حين أنني لم أكن متأكـدة مـن رؤيتي لبـاص تلـك المدرسـة يأتي ويذهـب، ولكن قناعتـي الجوهريـة مـا زالت قويـة وأعلم أنها تصُـب في مصلحة جيـك، ولكن السـؤال هنا، هل قناعتي تكفـي؟ فقد كانت ميلاني شخصية مهنية، ولكنها لم تقتنع تماما كمايكل.

وبعد قليل من الشـد والجذب طلبـت مني ميلاني أن أمهلها بعـض الوقت للتفكيـر فيما لو كانت ستشـاركني هذا الأمر، وفي صبـاح اليوم التالي سـمعت صوت بوق سـيارة بالخـارج وإذ بها ميلانـي! وكانـت تنـزِل صندوقا تلـو الآخر من صندوق سـيارتها الخلفـي، ثـم نظـرت إليّ قائلة: «ألن تسـاعدينني فـي إدخال هذه الأغراض، أم ستقفين مكانك؟».

لم تكن حججي العاطفية ما أقنعها بتاتا، ولكنها وافقت لأن

تساعدني في أمر جيك، ثم أمضينا بقية اليوم سويا جالسين على الأرض في الحضانة، ويلعب الأطفال من حولنا بينما تُطلعني ميلاني على كافة الألعاب والأدوات والتدريبات التي تستخدمها في المعالجة، وركزت على الأشياء التي تراها مفيدة وفعّالة، وأحضرت لي كتبا وأوراق عمل وأدوات يدوية حتى أصورها، وكنت أسجل قائمة تلو قائمة.

ثم أخذتني في جولة تخيلية لكل دقيقة في اليوم الطبيعي للطفل في روضة الأطفال، بداية من قراءة القصة ورفع يديه ومن سؤاله عن استعمال دورة المياه إلى أغنية: «بطة، بطة، أوزة»، ومن وضع الطعام في الخزانة إلى أغنية: «الوداع»، فأنشأت قائمة أخرى ويشمل ذلك كل ما يحتاج الطفل معرفته وعمله حتى ينجح في روضة الأطفال العادية.

كنا مرهقتين تماما حينما استعدت لتغادر، ولكن ابتسامتها كانت لطيفة حين سألتني مرة أخرى: «كريس .. هل أنت متأكدة من قرارك؟».

قلت: نعم.

قمت بتجهيز عادات جديدة لجيك، ولكن بدلا من إجباره على فعل ما لا يرغب فيه من الأنشطة ومحاولتي الحثيثة بأن

أطـور تلـك المهارات المتدنية لديه، تركتـه يقضي وقتا طويلا في الأنشطة التي يحبها.

علـى سـبيل المثـال؛ انتقـل جيـك مـن مسـتوى الأحجيات الخشـبية البسـيطة إلى المعقدة، وكان يندمج مع أحجيات مكونة مـن آلاف القطـع فـي فتـرة الظهيرة، وفـي أحد أيام السـبت وقت الظهيـرة كنـا نحـاول جاهديـن أن نكمـل الجـزء الأخيـر المُرهق المتبقي من إتمام شـكل المنـزل، في تلك الأثناء ألقى مايكل كل الأحجيـات المكونـة مـن خمـس أو سـت قطع فـي علبة الفُشـار الكبيـرة التـي نسـتعملها أثنـاء مشـاهدتنا للأفـلام فـي السـهرات العائلية، ثم قال مايكل: «هذا سيشْغله»، ثم أردف: «نعم سيشغله، ولكن لفترة قصيرة».

كمـا أحب جيـك الأحجية الصينية التي تسـمى «تانغرام»، وهـي عبـارة عن سـبع قطع خشـبية مسـطحة غريبة الأشـكال يتم تجميعهـا سـويا لتكويـن أشـكال يمكنـك التعـرف عليهـا، وكان ترتيـب تلـك الأشـكال غيـر المنتظمة صعبـا جدا بالنسـبة لي كي أصنـع منها شـكل بيـت أو حيـوان، ولطالما كنـت أقلبهم في كل الاتجاهـات في محاولـة جاهدة لتجربة عدة أوضاع مختلفة حتى أركب الشـكل الصحيح، بينمـا كان الحال مختلف مع جيك ولم

يبد أنه يواجه أية مشاكل في تقليب تلك الأشكال في ذهنه، ثم ما يلبث أن يركبّها بكل سهولة كما لو أنها الطريقة الوحيدة الصحيحة في تركيب الشكل، ثم بعد ذلك تمكنا من تجميع الأجزاء وصنعنا أنماطا كبيرة أجمل وأصعب من تلك المُقترحة على بطاقات التعليمات الخاصة بالأحجية.

أمضيت مع جيك وقتا أطول في تركيب تلك الأحجيات ومنها: «تانغرام»، كما كنت أفعل سابقا أثناء العلاج، ثم بدأت رويدا رويدا ألحظ تغييرا في جيك؛ فقد كان مرتاحا ومتفاعلا أكثر من ذي قبل، وخلال الشهر التالي تقريبا بدأ جيك في استعادة بعض ما كنت أشعر أنه يفقده في المدرسة، وبدأ جيك تحديدا يستعيد اللغة والتي لم تكن محادثة - فلم أكن أسأله عن شيء وأنتظر إجابته - ولكن على الأقل كان يتحدث.

لطالما أحب جيك الأرقام، فكان أغلب الأوقات ينطق بسلسلة من الأرقام حتى إنه يمكن أن يحمل معه إيصال البقالة لمدة أسبوع يتحسس قائمة الأرقام فيه بأصابعه، وحينما كنا نفتح البوابة للخروج كان جيك حقا يثرثر؛ فلم يترك علامة رقمية في الشارع أو عنوانا إلا ويقرؤهم بصوت عال، وكان يقوم ببعض المهام معي في السيارة كأن يقرأ بصوت عال مجموعة من الأرقام وهو في المقعد الخلفي.

وكنت أعتقد في وقت من الأوقات أن بعض تلك الأرقام التي يقولها هي أرقام هواتف يقرؤها على جوانب الشاحنات التجارية والحافلات التي نمر بها في طريقنا، ولكن دائما ما أجد رقما زائدا في النهاية، وفي ذلك اليوم خرجت حرفيا عن مسار الطريق أثناء القيادة حين اكتشفت أن هذا الرقم الزائد لم يكن سوى مجموع العشرة أرقام الخاصة برقم الهاتف، وهكذا اكتشفنا قدرة جيك الفعلية على الجمع.

وذات مرة أثناء عودتي من موعد مع طبيب ويسلي، حاولت أن أستمع إلى ما يتمتم به جيك بينه وبين نفسه في المقعد الخلفي، فلم تكن أرقاما في تلك المرة، ولكنها كانت لوحات السيارات التي نمر بها، ثم أسماء بعض المحال التجارية فكان يقول: «مارش، ماريوت، ريترز»، وتمكن جيك من القراءة في عمر الثالثة بعد أشهر قليلة من إخبار معلمته لنا بأن لا نقلق على جيك بخصوص حروف الأبجدية، لا أعلم حقا كيف ومتى تعلمها! قد يكون من متابعته لفيلم: «Cat in the Hat»، وأيا كان فكل ما أعرفه هو أنني لم أطبق معه الخطوات النموذجية لبدء تعليم القراءة أبدا والتي كنت أطبقها مع العديد من الأطفال الآخرين في الحضانة بتعليمهم حروف الأبجدية وكافة الطرق لنطق الحروف، ولم يسبق لي أن نطقت بكلمة واحدة مع جيك، والآن

اكتشفنا مع بدء قدرته في القراءة بأنه لم يكن ضروريا فعلا أن أعلمه.

أما ذاكرته فكانت مفاجئة أخرى! فقد كان مغرما بلوحات السيارات منذ أن بدأ في المشي، واعتاد كل الأشخاص في منطقتنا على رؤيته في الممر أمام منازلهم وهو يلمس بأصابعه لوحات سياراتهم، وقد اندهشت ذات ليلة أثناء نزهتنا الليلية، حيث كانت الحروف والأرقام التي كان يتغنى بها بصوت خافت خاصة بسيارات أُدخلت الكراج بالفعل أثناء مرورنا بتلك الكراجات، فمن الواضح جدا أن جيك بات يحفظ جميع لوحات السيارات في الحي.

كانت تلك حيل بارعة وتُشير إلى إمكانية حدوث أشياء ممتعة أكثر.

كان يستغرق التسوق مع جيك في تلك الفترة وقتا طويلا جدا؛ فكان لزاما عليّ قبل أن أضع أي شيء في عربة التسوق أن أخبر جيك بسعره فيردد الرقم مرة أخرى، الأمر الذي كان يفقدني صوابي خصوصا أنني أحمل ويسلي المتضجر على صدري في حمالة الطفل، وبالتالي كان التسوق الروتيني يتطلب وقتا مهولا.

وفي إحدى الأيام بعد مرور ستة أشهر من إخراج جيك من

التعليم الخاص، كنت أقف عند المحاسب وأمرر بطاقتي الائتمانية لإتمام الشراء وإذ بجيك يصرخ ويقول: «واحد، سبعة وعشرون، واحد، سبعة وعشرون!».

لم أتمكن حينها من إخراجه بسرعة من المتجر، ولكن حين خرجنا وهدأت قليلا كي أركز وأراجع الفاتورة أدركت أنه كان يحسب مجموع أسعار الأغراض التي أضعها في عربة التسوق، حتى إن المحاسب أخطأ وضرب تسعيرة الموز مرتين بمبلغ 1.27 دولار، وبعد ذلك اليوم أصبح يحسب لي السعر الإجمالي عندما نقف في الصف لنحاسب على المشتريات.

اندهش متخصصو الرياضيات الذين نعرفهم حين رأوا قدرات جيك، ففي إحدى الأيام كنت أحتسي القهوة مع عمتي التي تعمل معلمة لمادة الهندسة في مدرسة ثانوية، بينما يجلس جيك بجوارنا على الأرض يلعب بعلبة حبوب الإفطار ومجموعة من الكرات الفلينية البيضاء كنت قد اشتريتها من متجر الحِرَف ليصنع منها أطفال الحضانة رجل الثلج، فكان يضع تلك الكرات في العلبة ويخرجها ويعيد ذلك مجددا وكأنه يعُدّها فحين رأته عمتي تساءلت عما يفعل ولكن جيك لم ينظر لها واكتفى بقول: «تسعة عشر كرة تصنع متوازي السطوح»، ولم أكن أعرف ما هو

متوازي السطوح، حتى إنني ظننت أنها كلمة من تأليفه ولكنه في الحقيقة شكل ثلاثي الأبعاد مكون من ستة وجوه من متوازي الأضلاع، وقد تعلمه جيك من أحد القواميس المصوّرة لدينا في المنزل، وبالفعل كما قال يمكننا صنع متوازي السطوح من علبة حبوب الإفطار، وحينها اندهشت عمتي، ليس من مستوى الكلمة التي نطقها فحسب، بل من المفهوم الرياضي المُعقد المرتبط بها.

ثم قالت لي: «إنها معادلة يا كريستين! جيك يخبرنا أنه من الممكن تعبئة هذه العلبة بتسعة عشر كرة»؛ فلم أستوعب أهمية ما كان يفعله حتى أفهمتني أن طلابها ذوي العشرة أعوام يجدون صعوبة يوميا في حل تلك المعادلة.

أدهشتنا قدرة جيك على تعلم بعض الأشياء بالتحديد، فكان شغوفا بتعلم الشطرنج وحين علمناه كيفية تحريك القطع أصبح خلال وقت قصير يباري البالغين من عائلتنا، وكان بعضهم محترفا جدا فيها.

اشترينا له مجموعة من حروف الأبجدية البلاستيكية التي يحبها دائما، وكالعادة أخذها معه إلى سريره، وفي اليوم التالي أثناء الإفطار لاحظتُ أنه يعبث بحبوب الإفطار، ويرتبها في

أنماط معينة لم أستوعبها إلا حينما وضعته في سريره لينام قليلا، ولاحظت بأن الحروف الأبجدية الجديدة تتميز بوجود نقاط صغيرة بارزة في منتصف كل واحدة منها، لقد علّم جيك نفسه طريقة برايل!

وكان مغرما أيضا في تلك الفترة بالخرائط، حتى إنه بالكاد يتمالك نفسه حين يرى كرتون «دورا المكتشفة» ويسمع أغنية شخصية الخريطة، ولم يكن يعشق شيئا مثلما يعشق تتبع الطرق المتداخلة ومسارات القطارات في خرائط المدن الكبيرة بإصبعه، وكان اهتماما مفيدا جدا لجيك، حيث تمكن في سن الرابعة من حفظ أطلس الطرق الخاص بالولايات المتحدة، فإن سألته عن كيفية الوصول من إنديانا بوليس إلى شيكاغو فسيخبرك أن تتجه 65-1 شمالا حتى تصل 90-1 غربا بالإضافة إلى كافة الطرق الفرعية والوصلات التي تسلكها.

وكانت قدراته لا تضاهى حين نذهب إلى المدن، وأهل مايكل من مدينة شيكاغو فكنا نذهب هناك كثيرا، ولا أخجل أن أعترف بأنني كنت أعتمد كليا على جيك ليرشدني أثناء القيادة في ازدحام وسط المدينة، فقد كان يعرف كل المباني وكافة الطرق المختصرة، يا لهذا الطفل ذي الأربعة أعوام الذي يُرشد والديه وسط زحام مدينة شيكاغو؟!

أحب جيك أن يرشدنا في الطريق حتى نال لقب «JPS»، وهي اختصار للحروف الأولى من عبارة: «نظام جيك لتحديد المواقع»، فقبل أن يعتمد الناس على نظام تحديد المواقع العالمي (GPS) في سياراتهم كان بسيارتنا نظام معتمد يسمى JPS.

تعجبنا أنا ومايكل من نضوجه المبكر، ولكن تلك البداية الطبيعية الجديدة ما تزال صعبة بالنسبة لنا، خصوصا أنه لم يتطور في جانب المحادثة الحقيقية، ولكننا كنا سعداء بتحدثه مجددا، ولكن التلاعب بالأرقام وقراءة أسماء المتاجر والإجابة على الأسئلة يختلف عن الانخراط في محادثة حقيقية، فلم يكن يفهم جيك اللغة كوسيلة للتواصل مع الناس، وكان بإمكانه أن يخبرني بعدد السيارات الزرقاء التي مررنا بها في طريقنا إلى كافيه ستاربكس، ولكنه يعجز عن إخباري كيف كان يومه، وكنت دوما ما أبحث عن عامل مشترك بيننا.

وعلى الرغم من قدرات جيك الأكاديمية الخارقة، لكنها لن تساعدنا في دمجه في المدرسة العامة ببساطة؛ لأن المهارات الاجتماعية أهم من الأكاديمية في مرحلة رياض الأطفال، لأن الأطفال في الروضة لديهم الكثير من أوقات اللعب، ولابد أن يتفاعلوا مع زملائهم ويتبعوا تعليمات بسيطة ويشاركوا في

الصف، فلو أمضى جيك يومه كاملا في الروضة منفردا في زاوية فسوف يعيدونه مباشرة إلى التعليم الخاص، حتى وإن كان يعلّم نفسه الجدول الدوري.

كان لزاما أن يتعلم جيك الاندماج جيدا في مجموعة، وكان محاطا بالأطفال في الحضانة، ولكن ميلاني تعتقد أنه سيكون أسهل عليه إن وجد أطفالا مصابين بالتوحد في المجموعة، وتمكنت بمساعدتها من إرسال رسائل بريد إلكتروني إلى أولياء الأمور من حولنا على أمل أن يوافق أحد منهم على الانضمام.

وكانت رسالتي تلك أول دليل حقيقي على انتشار وباء التوحد فقد كنت آمل أن يأتيني الرد من خمسة أو ستة أشخاص، بينما تلقيت مئات الرسائل من أولياء أمور لديهم أبناء في جميع المراحل العمرية، ذهلت من كمية اليأس في الرسائل، فقد كان هناك أشخاص مثلي تماما يشعرون بأن ما يقومون به لا يساعد أبناءهم على الإطلاق، حتى إن البعض نفدت منهم جميع الخيارات المتاحة فلم يعد هناك مكان يقبل بهم أو بأبنائهم، واعتبرتني معظم الحالات ملاذهم الأخير حتى إن إحدى الأمهات قالت لي: «ساعدينا من فضلك؛ فأنت أملنا الأخير».

وكانت تلك نقطة تحول كبيرة في حياتي، فألقيت نظرة على

بريـدي المكـدس بالرسـائل وفكرت وقلت: «لـن أتخلى عن أي منكـم، بإمكانكـم القدوم جميعا، فجيك سـوف يتعلم ما يحتاجه للدخول إلى روضة الأطفال، ونحن نستقبل أكبر عدد ممكن من الأطفـال»، فاعتقـدت بـأن نؤمـن فـي أطفالنـا وأطفـال الآخرين وسوف نحقق ذلك سويا.

ليحيا الأمل

«كريستين، يبدو أن لدينا حيوان لاما في غرفة المعيشة».

هكـذا تحدث إلـى مايكل بنبرة مستسـلمة، فبعـد عامين من إخراج جيك من برنامج المهارات الحياتية، أصبح زوجي معتادا علـى نطـاق وحجـم مخططاتـي، إلا أنه لم يكـن أبد يتوقـع هذا، بالطبع، لـم يكن من المفترض أن تكون اللاما في غرفة المعيشـة، بـل كان من المفترض أن تكـون في المرآب الذي أنهينا العمل به بعـد أن قمنـا بإلحاقه بـدار الحضانة، حيث أصبحنا نسـتغل تلك المسـاحة مرتيـن فـي الأسـبوع لنقيـم فيهـا معسـكر تدريبـي غير تقليدي للغاية بالنسـبة لمرحلة رياض الأطفال، وكنت قد أعددته خصيصا للأطفال المصابين بالتوحد.

مهمـا كان مـا توقعه مايكل عندما أخبرتـه أنني مصممة على دمـج جيـك في روضة الأطفـال، لـم يكن هذا ليخطـر بباله، ولقد كان تلقـي هـذا السـيل من رسـائل البريـد الإلكترونـي من هؤلاء الآباء اليائسـين تجربة رائعة بالنسبة لي، وفي المقابل؛ فقد قررت أنه بالإضافة إلى دار الحضانة، سـأبدأ برنامجا جديدا، وهو عبارة

عن سلسلة من الفصول المسائية للأطفال المصابين بالتوحد وعائلاتهم بهدف مساعدة الأطفال على الاندماج في المدرسة العامة، ولحسن الحظ، وافقت السيدة ميلاني مرة أخرى على المساعدة، واقترحت أن أسجل البرنامج كمؤسسة خيرية؛ لأنني كنت مصممة على عدم تقاضي أي أجر مقابل ذلك، فلم أستطع تحمل فكرة أن هناك أسرة قد لا تكون قادرة على تحمل تكاليف المجيء، أو أنه سيتعين عليهم التخلي عن علاج آخر للالتحاق ببرنامجنا.

لذلك وفي كل صباح، كنت أفتح الحضانة كالمعتاد وأعمل هناك لمدة تسع ساعات كاملة، لكن مرتين في الأسبوع، وبعد عودة أطفال الحضانة إلى منازلهم، كنت أفرغ الغرفة لأقيم روضة أطفال وهمية للأطفال المصابين بالتوحد، ولقد أسميت البرنامج: «ليتل لايت» أو «بصيص من النور».

منذ البداية؛ عرفت أنني أريد التعامل مع التوحد بشكل مختلف، فالعلاج الاعتيادي يركز على المهارات الأقل لدى الطفل، وكم أمضى معظم الآباء الذين التحقوا ببرنامج: «ليتل لايت» من سنوات في محاولة لجعل أطفالهم يقفزون إلى المهارة التالية على السلم دون أي نجاح يذكر، بيد أنني كنت قد

رأيت ما يكفي من هذه الجلسات حيث تهدر الساعات الطوال في محاولة لجعل طفل يضع ثلاث حلقات على وتد أو لإطعام دمية قطعة من البسكويت، وكل ذلك دون جدوى، وكنت أشاهد ابني يغفو في إحدى الجلسات، ولا يزال يحمل كرة المعجون العلاجية في يده؛ لذا بدلا من المعاناة مع كل تلك المهام التي لا يستطيع هؤلاء الأطفال القيام بها، فكرت أن نبدأ بما يريدون القيام به.

كان هذا النهج بعيدا عن الممارسة القياسية، فمعظم المعالجين قد ينقلون لعبة محبوبة أو أحجية بعيدا عن الطاولة حتى يتمكن الطفل من التركيز على أهداف العلاج الخاصة به، وقد يذهب البعض إلى حد إخفائها عن الطفل.

لقد فعلنا الشيء نفسه مع مجسمات حروف الأبجدية الممغنطة الخاصة بجيك أثناء تقييمه، مما جعل جيك ينجذب بكامل جسده نحو المجسمات وبعيدا عن المهمة التي يقوم بها، حتى رأيت العديد من ساعات العلاج تمر مع طفل مشتت للغاية بسبب لعبة مفقودة، حتى إنه لم يتمكن من تحقيق ولو مقدار ضئيل من التقدم في ذلك اليوم.

قد لا يكون استغلال شغف الأطفال هو الطريقة التقليدية

للعمل معهم، ولكنها كانت إلى حد كبير الطريقة التي كنت أعمل بهـا دائما مع أطفالي في الحضانة، وأعتقد أن هذا النهج له علاقة كبيـرة بالطريقـة التي نشـأت فيها أنـا وأختي سـتيفاني، فقد كانت ستيفاني، والتي تصغرني بأربعة عشر شهرا فقط، معجزة في الفن فـي طفولتها، ففي سـن الثالثة، بدت أعمالهـا الفنية وكأنها أعمال لشخص بالغ، وعندما كانت في السادسة من عمرها، أصبح لديها مهارات احترافية.

ولقـد فتحت موهبة سـتيفاني عوالـم إبداعيـة ضخمة لكلينا، فقـد كان لدينـا ألعـاب اشـتريناها من المتجـر، لكننا نـادرا ما كنا نلعب بها، كنا مهتمين أكثر بالألعاب التي صنعتها ستيفاني، كانت الدمى الورقية ومئات الملابس الملونة المعقدة التي صنعتها لهم عندمـا كانـت لا تـزال في مرحلة مـا قبل المدرسـة أفضل من أي شـيء يمكننـا شـراؤه، وكنت أبتكر سـيناريوهات متقنـة، ومن ثم تقوم سـتيفاني برسم خلفيات مصممة بالكامل ومفصلة لتتماشى مـع قصصـي مثـل: قـلاع سـاحرة، ومكتبـات مصطفـة بالكتـب، وغابـات مورقـة، وعندمـا كنـت أريـد بيـت دُمـى، لـم أكـن أخبر والدتي، بل كنت أخبر ستيفاني.

ولكن لسـوء الحـظ، تلك المهـارات الفنية الاسـتثنائية التي

كانت تملكها ستيفاني لم تساعدها كثيرا في المدرسة، فقد كان أداؤها سيئا في جميع فصولها الدراسية باستثناء الفنون، وكان لديها عدد قليل جدا من الأصدقاء، وكانت تشعر بالراحة غالبا عندما تكون بمفردها أو معي.

من اللافت للنظر أن والدتي لم تحاول أبدا تغيير أداء ستيفاني الأكاديمي المؤسف، ولم تكن تنكر المشكلة فقد كانت ستيفاني تنجح بالكاد؛ لذا لم يكن الإنكار خيارا واردا، لكنها ظلت متفائلة، وقالت لي ذات مرة: «إذا كنت لا تستطيعين إتقان الفن، فلا أحد يهتم، ولكن إذا كنت لا تستطيعين إتقان الرياضيات، فسيهاجمك الجميع».

تساءلت حينها: «ولمَ؟».

لقد وجدت التعليق مفاجئا بعض الشيء؛ نظرا لأنها كانت هي نفسها محاسبة ومحبة للأرقام، ولكنها كانت تعرف ستيفاني.

في الصف الثالث؛ ألقت ستيفاني نظرة واحدة على الأسئلة في اختبار الفهم القرائي وأدركت على الفور أنها كانت بعيدة عما كانت تريد أعماق نفسها، لقد رسمت وجها صغيرا عابسا على مقدمة الورقة، حيث ستضع المعلمة درجتها، ثم أنها قلبت ورقة الاختبار، وأمضت ما تبقى من الساعة في رسم مشهد طبيعي

مظلل بشكل جميل، وعندما علمت والدتي بما فعلته ستيفاني ضحكت.

شعرت بالحيرة من رد والدتي؛ كيف يمكن أن تأخذ هذا الأمر باستخفاف؟ قالت مشيرة إلى أسئلة فهم القراءة: «لأن عقلك يعمل بهذه الطريقة»، ثم قلبت ورقة الاختبار لتظهر رسمة ستيفاني واستطردت: «ويعمل عقل ستيفاني بهذه الطريقة، وتعلمين ماذا؟ كلاكما ستكونان على ما يرام».

في ذلك الوقت لم يكن لدي بالطبع أي فكرة عن مدى روعة رد فعل والدتي حول اختلافات ستيفاني، لقد ظلت الأمور تجري في أعنتها، لكنني أعتقد أنني تعلمت مما فعلت أمي أن كل شخص لديه موهبة جوهرية، ومساهمة يجب القيام بها، حتى لو كانت في شكل غير متوقع، وبدأت أعتقد أن قدرة كل فرد على تحقيق أشياء عظيمة تعتمد على الاستفادة من تلك الموهبة أثناء طفولته.

ربما كانت والدتي لتشعر بمزيد من القلق إذا كانت مواهب ستيفاني أقل وضوحا أو أنها استغرقت وقتا في الظهور، وفي الحقيقة، لقد كانت أعمال أختي الفنية تذهل الكبار من شدة جمالها، ولكم اغرورقت أعين مراقبيها بالدموع، وعلى أية حال،

بدلا من التصارع مع ستيفاني بسبب إخفاقاتها، ركزت والدتي على ما لديها من مواهب، واختارت أن تفعل ما في وسعها لتغذية شغف ستيفاني.

كان جدّاي كرماء، لكنها لم يكونا مسرفين؛ لذلك لم يكن لدينا الكثير من المال الزائد عن حاجتنا، ومع ذلك، لم يكن لدى ستيفاني فرشاة طلاء واحدة فقط؛ بل كان لديها العشرات من كل الأحجام والأنواع، بالإضافة إلى علبة ضخمة من أقلام الرصاص الملونة الأوروبية باهظة الثمن.

عندما بلغت ستيفاني الثامنة؛ كان لدى والدتي بعض خزائن المطبخ مثبتة في غرفة الغسيل في الجزء الخلفي من المنزل، وأصبح ذلك المكان استوديو ستيفاني، وهي منطقة يمكن أن تخزن فيها مستلزماتها الفنية وترسم وتلون بقدر ما شاءت، والأهم من ذلك، أن هذه الهدايا قد أعطيت لها طواعية ودون أي توقعات في المقابل.

لم تشعر ستيفاني أبدا أنها مضطرة لإنتاج روائع في الاستوديو الخاص بها، وكانت والدتي ببساطة تمنحها مساحة لتكون على طبيعتها.

واليوم صارت ستيفاني فنانة، وهي تعمل في تدريس هذه

المادة لكسب عيشها، كما اعتبرت تلك الصور التي رسمتها لأولادي من بين أغلى مقتنياتي.

لقد أظهر لي نهج والدتي في مواجهة تحديات ستيفاني كيف أن موقفا ما ربما يبدو لنا قاتما، ولكن إذا ما نظرنا إليه من زاوية مختلفة قد يكشف لنا عن هبة.

لطالما شجعت الأطفال في حضانتي على الانغماس في شغفهم، ولقد رأيت على مر السنين كيف يمكن أن تكون النتائج مذهلة عندما تتاح لهم الفرصة والموارد للقيام بذلك، وعندما لاحظت كيف يضع إليوت وهو أحد أطفالي في الحضانة، أصابعه في فتحات المسامير في الجزء الخلفي من تلفزيون مايكل الجديد تماما، توجهت مباشرة إلى أقرب متجر لإصلاح الإلكترونيات وأخبرت الرجل الذي يقف خلف المنضدة أنني سآخذ جميع الميؤوس منه من أجهزة الراديو والتلفزيون والتي لم يستطع إصلاحها، وقلت له: «طالما أنها ليست مشعة أو مكسورة أو خطرة، فسوف آخذها»، وما بدا حينها وكأنه كومة ضخمة من الخردة بالنسبة لمعظم الناس تحول بالنسبة لإليوت إلى ساعات من المرح، خاصة عندما قدمت له مفك براغي جديد بلون أحمر لامع وستة رؤوس حيث شرع في تفكيك كل شيء.

تحولت عادتي في البحث عن الأغراض إلى نكتة عائلية، فبعد عامين من إدارتي للحضانة، كان الجميع يعلم أنه لا يمكنني المرور على معرض للأغراض المستعملة في مرآب أحد المنازل أو أحد متاجر التوفير دون أخذ بعض الهدايا منها للأطفال، وكان مايكل يقلب عينيه ثم يتوقف جانبا بالسيارة قبل حتى أن أسأله، ومن متجر تابع لمنظمة جيش الخلاص الخيرية، أحضرت منبهات قديمة لإليوت كي يفككها ثم يعيد إصلاحها، ومجموعة ألوان مائية جديدة وباهظة الثمن لطفلتي الفنانة كلير.

لقد رأيت الاهتمام الذي أولاه الأطفال في الحضانة للأنشطة التي أحبوها والطريقة التي ازدهروا بها عندما تم منحهم الوقت والمساحة لمتابعة هذه الاهتمامات؛ لذلك لم يكن مفاجئا أن أتلقى مكالمات من أمهاتهم الممتنات بعد سنوات لأسمع أخبارهم الرائعة.

هكذا علمت أن الكثير من أطفال الحضانة قد ازدهروا مع تقدمهم في السن، فكلير، على سبيل المثال؛ انتقلت إلى دروس الفن واشتركت في برنامج تدريبي في متحف في إنديانا بوليس، وبدأ إليوت في بناء أجهزة الكمبيوتر من الصفر في سن العاشرة وقد قضى فترة المدرسة الثانوية يعمل في مرآب والديه، مستخدما

أجـزاء من أجهزة الكمبيوتر لبناء آلات هجينة تدير نظام تشـغيل: «أبـل» (Apple)، وأثنـاء فتـرة تدريبه فـي أحد العيـادات بالحي، صمم قطعة من المعدات الطبية المتخصصة التي لا يزال الأطباء هنـاك يسـتخدمونها حتـى اليوم، ولقد فعل كل هـذا قبل أن يغادر المدرسة الثانوية.

لطالما لاحظت كيف أدت ممارسـة الأطفال لما يحبونه من أنشـطة إلـى رفع مسـتوى مهاراتهـم الأخرى أيضـا، فحتى عندما كانـت لوريـن طفلة صغيرة جدا، كان الشـيء المفضل لديها أثناء وجودهـا في الحضانة هو: «لعبة المنزل»، وكانت تحب معاونتي بـكل سـعادة فـي طـي الملابـس أو وضـع الأطفـال الصغـار في أسرتهم لفترة القيلولة، لكنها لم تكن مهتمة جدا بما يمكن اعتباره أمورا أكاديمية، مثل: القراءة أو العد، وكانت والدتها قد استمرت فـي إرسـالها لي لمجالسـة الأطفال بعد المدرسـة حتـى مع تقدم لورين في السـن، وبدأت في تعليمها صنع بعض المعجنات التي تعلمنا أنا وستيفاني صنعها في مطبخ جدتي، لقد أمضينا ساعات معا في معايرة المواد وتقليبها، وصنع المزيد من أنواع البسكويت والكعك أكثر حتى مما يمكننا تناوله.

ثـم خطرت لوالدة لوريـن فكرة أخذ بعض الحلـوى الزائدة

عن حاجتنا إلى مستودع لبيع الطعام ذات يوم، ولكن كانت فكرة لورين أن نبدأ العمل التطوعي هناك، وكانت والدتها قلقة من أن تمضية الوقت في الخبز والخدمة في مطبخ الحساء سيعيق عمل لورين المدرسي، لكنني شعرت بالثقة في أن مهاراتها الأخرى ستتحسن بشكل طبيعي إذا تم تشجيعها على فعل ما تحب، وهكذا استطعت إقناع والدتها، وفي سن الحادية عشرة، كانت لورين عضوا أساسيا في مطبخ الحساء في عطلات نهاية الأسبوع، كما وقد فازت بعدد من جوائز خدمة المجتمع، كل ذلك مع الحفاظ على الدرجات العليا في المدرسة، بالإضافة إلى دور البطولة في المسرحيات المدرسية وفي الإنتاج المسرحي المحلي.

أعتقد جازمة أن هذا النهج كان فعالا لأنه ساعدنا في بناء علاقات مهمة مع الأطفال، وقبل فترة طويلة من ابتكار برنامج: «ليتل لايت»، انضمت جيني البالغة من العمر ثماني سنوات إلى الحضانة في الصيف، وحذرتني والدتها عبر الهاتف من أن جيني تواجه صعوبة في الانتباه والقيام بما يطلب منها القيام به، وكانت حضانتي، كالعادة، هي الملاذ الأخير، بعد أن أعاد المخيم جيني إلى المنزل بعد يومين فقط.

في اليوم الأول، وصلت جيني ووالدتها متأخرتين جدا، وبدأت والدتها، التي كان من الواضح أنها في حالة من المعاناة، في الحديث مباشرة: «هذا الصباح، أرسلتها إلى غرفتها لتحضر حذاءها الرياضي، وبعد نصف ساعة، أتت تهذي عن أقزام الجن وخاتم السحر، وهي لا تزال غير منتعلة لأي حذاء! لهذا السبب تأخرنا، إنها لا تستمع لي أبدا».

في ذلك الصباح، سمحت لجيني أن تفعل ما يروق لها، ولكن عندما كانت مساعدتي في دار الحضانة تضع الأطفال الصغار لقيلولة الظهيرة، طلبت من جيني أن تنضم إلي في غرفة المعيشة، وكانت والدتها رافضة للغاية بشأن قدرات جيني في سرد القصص، ولم أعتب عليها في ذلك.

بدا الأمر كما لو كان صباحا محبطا، ومع ذلك، كنت أعلم أن هذه الطفلة لديها خيال خصب بشكل لا يصدق، وبمجرد أن تثق بي وتأتمنني على موهبتها، لن يكون هناك مشكلة في جعلها تستمع أو تلتزم بمواعيدها.

أريتها صورة توضيحية في كتاب أطفال قديم كنت قد اشتريته بمقابل زهيد في ساحة بيع، وكانت الصورة عبارة عن غابة مشمسة، وهناك امرأة جميلة بشعر طويل منسدل تحمل

رضيعا، وكلاهما يجلسان بين جذور شجرة ضخمة مغطاة بالطحالب، كانت الصورة جميلة، ولكن الأهم من ذلك أنني كنت أريد تفسيرا لها: من هي هذه المرأة الغامضة، وماذا كانت تفعل مع طفلها في هذا المكان القديم والساحر؟

عندما عرضت على جيني الصورة، تغير وجهها بالكامل، ومدت يدها بشكل غريزي لتلمس الصفحة، أعطيتها الكتاب لتمسكه وأغمضت عيني. قلت: «ترى هل تودين إخباري قصة عن تلك السيدة؟».

جلسنا هناك لبعض الوقت في صمت، ثم بدأت جيني في الحديث، شعرت بها تتفحص وجهي، محاولة توقع ما إذا كنت سأبدأ في كبح جماحها، لكنني أبقيت عيني مغمضتين وابتسامة خفيفة على وجهي، وبينما كانت الأفكار تتسارع إلى رأسها وبدأت القصة تتبلور وتتشكل في مخيلتها، نسيت جيني أن تقلق بشأن ما كنت أفكر فيه.

كانت القصة التي نسجتها لي جيني مليئة بالسحر والوحوش والمغامرات البرية والمصائب الرهيبة، فكان هناك أشرار خائنون، وسوء فهم تسبب في عواقب وخيمة، وبالطبع حب حقيقي، وفي غضون عشر دقائق، ابتكرت جيني عالما خياليا للغاية، ولكنه

مقنـع للغاية أيضـا لدرجة أنه كان بمثابة صدمة لـي أن أفتح عيني وأجد نفسي مرة أخرى في غرفة المعيشة الخاصة بي، بينما شاشة التلفـاز تعـرض قنـاة CNN فـي وضـع صامـت، وشـطيرة الخبز المحمـص البـاردة التـي صنعهـا مايـكل مازالـت علـى الطاولـة الجانبية.

كنت أسـجل قصة جيني على هاتفـي، وفي تلك الليلة قمت بكتابتها على الكمبيوتر، ولكن قبل أن أضغط زر الطباعة، ذهبت إلـى خزانـة الأدوات الحرفيـة وأخرجـت بضـع أوراق مـن ورق الكتابة الفاخر الثقيل كريمي اللون والذي كنت أحتفظ به لمناسبة خاصة، كتبت اسم جيني على صفحة الغلاف بخط كبير، وثقبت ثلاثـة ثقـوب على طـول إحدى الحـواف، ثم ربطـت: «الكتاب» بشـريط ذهبي من السـاتان كان متبقيا من إحـدى علب هدايا عيد الميـلاد، وفـي اليـوم التالـي، عندمـا دخلـت، قلـت: «أردت أن أشـكرك يـا جيني علـى القصـة التي حكيتهـا لي بالأمـس، كانت طوال الوقت في مخيلتي، لذلك فقد صنعت منها هذا الكتاب».

لـم أجد أي مشـكلة في حمل جيني علـى ارتداء حذائها بعد ذلك.

وفي ذلك الصيف، كنت أحضر لها كل يوم أي صورة أجدها

سواء من صفحة مزقتها من مجلة، أو صورة كنت قد التقطتها لشيء اعتقدت أنه قد يثير اهتمامها، أو صورة توضيحية من كتاب، وكانت هي تؤلف القصة.

لقد ازدهرت موهبتها، وبعد أن تعلمت والدتها أن ترى تأليف جيني للقصص كهبة بدلا من كونها عائقا، لم تعد هناك مشكلات سلوكية في المنزل، كل ما تطلبه الأمر هو القليل من التشجيع والقدرة على التعرف على هذه الموهبة الثمينة على حقيقتها.

علمي بأن الآباء يشعرون أن دار الحضانة المتواضعة كان لها عميق الأثر على قدرات أطفالهم وإنجازاتهم الحياتية فيما بعد كان أمرا مثيرا حقا بالنسبة لي؛ فلقد كنت أعتقد لسنوات أنه باستطاعة أي طفل أن يفوق توقعاتك إذا تمكنت من إيجاد طريقة لإشباع شغفه، وكانت كل القصص التي تشبه قصص لورين وإليوت وجيني وكلير تغذي إيماني بأن هذا النهج يمكن أن يكون له نفس التأثير على الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، كما أثر على جميع الأطفال الطبيعيين الذين عملت معهم على مر السنين، ولقد كانت تلك الأمثلة القوية في ذهني عندما شرعت في مساعدة أطفال: «ليتل لايت» على الالتحاق برياض الأطفال.

كان لكل واحد من الأطفال في برنامج: "ليتل لايت" والذين تم تصنيفهم على أنهم: «قضية خاسرة» منطقة أو مجالا يثير شغفه، وغالبا كان هناك أكثر من مجال!، وكنت بحاجة فقط إلى العثور على العدسة المناسبة لتكبيرها، تماما كما فعلت مع أطفال الحضانة.

كان هذا المفهوم مصدر إلهام لاسم المؤسسة الخيرية، وكنت عازمة على العثور على ذلك البصيص من النور داخل كل من هؤلاء الأطفال، ومن ثم نطلق له العنان ليتألق.

في كثير من الأحيان، كانت هذه الهبات الخاصة هي أول ما حكى الوالدان عن طفلهما عندما أحضروه إلى: «ليتل لايت»: «أوه، بيلي يعرف متوسط الجري المكتسب لكل رامي في البطولات الكبرى في لعبة البيسبول»، أو «أتمنى أن لا تمانعين أن تحتفظ فيوليت بجناحيها؛ فهي تحب الفراشات!»، ولكن على الرغم من أن الآباء ربما يدركون موهبة طفلهم أو شغفه، إلا أنهم لم يفكروا بالضرورة في الأمر على أنه وسيلة للتواصل معه أو لتعزيز تقدم الطفل.

كانت ميغان تحب أي شيء يشغل حواسها، وكانت تدفن وجهها في الغسيل الذي أخرجته من المجفف كما كانت تحب

أن تملس بيديها على البطانية فائقة النعومة التي كنت أفرشها فوق الأريكة، وكنت أتساءل كيف يمكنني استخدام اللمس لإخراج موهبتها إلى النور؟

فكرت كيف ساعد الخبز لورين، وهكذا قدت ميغان إلى المطبخ، وعلى الرغم من أن معدل ذكائها يبلغ درجة خمسين فقط، إلا أنها كانت تعاير معي مكونات عجينة اللعب التي نصنعها بأيدينا ثم تلعب بالكتلة الضخمة التي صنعناها، بينما كانت لا تزال دافئة عند اللمس، ثم نذهب سويا لاختيار أحد قوالب قاطع البسكويت من بين القواطع الكثيرة التي أحتفظ بها في درج عميق في مطبخي، وكانت تختار لونا، ونخلطه في العجين، ثم نضيف رائحة.

«بطاريق أرجوانية مصنوعة من زبدة الفول السوداني! عليك أن تخبريني القصة وراء ذلك» قلت لها ذات مرة، وقد فَعَلَت.

صنعت أنا وميغان عجينة لعب برائحة القرفة والتفاح، وأخرى برائحة إكليل الجبل، وأخرى برائحة اللافندر، وأضفت حبات صغيرة من الخرز إلى واحدة من قطع العجين بحيث يكون لها ملمس متعرج مثير للاهتمام، وقطعنا العجين بأشكال الحروف الأبجدية معا ثم كونا منها بعض الكلمات القصيرة،

كأسمائنا وأسماء الأطفال الآخرين الحاضرين معنا جلسة: «ليتل لايت»، واكتشفنا كيف يمكن أن يتحول مستطيلان إلى مربعين عندما يتم سحقهما معا، أو كيف يمكن لمثلثين أن يشكلا نجمة عند وضع أحدهما فوق الآخر، واستخدمنا قواطع البسكويت لصنع كائنات حية مثل الكلاب، ثم قمنا بمقارنتها بأشياء غير حية مثل القوارب، لقد عملنا بجد طوال الوقت، وكنا نستمتع بقضاء الأمسيات الممطرة جالستين على طاولة المطبخ وغارقتين حتى المرافق في عجينة اللعب الدافئة برائحة اللافندر.

كنت أذهب للتسوق كل ليلة أحد، ثم أستخدم ما اشتريته لتحويل المرآب الصغير وتغييره تماما، وفي ليلة الاثنين، لم يكن أطفال: «ليتل لايت» وأولياء أمورهم يستطيعون الانتظار لرؤية ما فعلت في غيابهم، حتى مايكل لم يعرف أبدا ما الذي كان سيجده أيضا، فذات مرة صنعت حفرا للتنقيب عن الآثار، بطبقات من الرمال ذات ألوان مختلفة لتمثل العصور الجيولوجية المختلفة، ودفاتر يوميات مغلفة بالجلد لتسجيل ملاحظاتنا ورسم القطع الأثرية، ودلاء من بودرة الجبس في الفناء حتى نتمكن من صنع قوالب لعظام الديناصور التي اكتشفناها، وهي في الأصل عظام عشاءنا من الدجاج بعد سلقها وتبييضها.

من المؤكد أن الأطفال الذين لم يكونوا من عاشقي الديناصورات حد الجنون قد أصبحوا كذلك بعدها، أما من يعشق الديناصورات منهم فقد كان في الجنة تلك الليلة.

كانت «كثرة» مخططاتي المفرطة جزءا كبيرا من الطريقة التي أعمل بها، وربما كانت جزءا من طفرلتي، فقبل سنوات من: «ليتل لايت» كان لدي طفل صغير اسمه فرانسيس في الحضانة.

أحب فرانسيس اللعب بمجموعة من كتل الكرتون العملاقة المصممة لتبدو مثل قوالب الطوب الأحمر، ولكن سرعان ما أدركت أنه محبط من حقيقة أن المجموعة تحتوي على خمسة عشر كتلة فقط، وهو ما يكفي لإنشاء جدار قصير وليس هيكلا مناسبا، وعندئذ فهمت المشكلة على الفور.

في ورشة جدي، كانت البواقي والفُضَل المتبقية من أعمال النجارة؛ قد تم صقلها وصنفرتها وتحويلها إلى كتل لنلعب بها نحن الأحفاد، ولم تكن هذه المكعبات مملة أبدا، فلقد كان لدينا مثلثات وأقواس وأنصاف أقمار وأسطوانات وألواح طويلة ومستطيلات مكتنزة، إلى جانب الكثير من الأشكال غير التقليدية وغير المنتظمة حتى تظل اللعبة ممتعة، كما صنع لنا الجد جون أيضا قطعا مصغرة ذات طابع معماري مثل: الحواف،

والجملونـات، والنوافـذ البـارزة، ودعامـات النوافـذ، وبوصـول الحفيد الثالث عشر، كانت المجموعة قد أصبحت كبيرة جدا من جميع الأحجام المختلفة، بدءا من حجم مكعبات السكر الصغيرة إلـى حجـم قوالـب الطـوب الأسـمنتية، وكان عددها كافيـا لبناء هيكل كبير بما يكفي للمكوث داخله.

لـم تكن هذه الكتل تصلح لتكديسـها وبناء برج صغير فقط، بل كانت كتلا يمكن البناء باستخدامها، وقد لعبنا بهم لفترة طويلة إلى أن كبر أقراننا من الأطفال وتجاوز معظمهم اللعب بأمثالها.

ربمـا لم أكن قد ورثـت جين النجارة من جدي، لكنني كنت مـا أزال واثقـة أنني أسـتطيع مسـاعدة فرانسـيس؛ لذلـك أخذت بعض النقود من جرة البقالة واشتريت سبع مجموعات أخرى من تلـك الكتل الضخمـة المصنوعة من الورق المقـوى، وقد كانت كثيـرة لدرجـة أننـي لـم أسـتطع وضعهـا جميعـا داخل سـيارتي، وعندمـا تمكنت أخيرا من أخذها إلـى المنزل، عرفت على الفور أننـي قـد فعلت الشـيء الصحيـح، وأصبح لدى فرانسـيس أخيرا كِتل كافية للعمل معها، فصنع جسورا وأهرامات، وقام ببناء أبراج علـى طـراز تصاميـم جينجـا تصـل إلـى السـقف ومنـازل طويلة منخفضة ناتئة على غرار تصاميم فرانك لويد رايت.

كان فرانسيس طفلا آخر في دار الحضانة يسعى خلف أحلامه.

بعد سنوات، شاهدت برنامجا على قناة ديسكفري حول كاتدرائيات العصور الوسطى وأدركت أن فرانسيس كان «يكتشف» نظام الدعائم الطائرة باستخدام تلك الكتل الكرتونية، وفي الحال قمت بإرسال بريد إلكتروني إلى والدته لمشاركتها هذا الخبر، ولقد ردت علي برسالة أخرى لتخبرني أنه قضى للتو الصيف في برنامج تدريب معماري مرموق وتنافسي للغاية في إنجلترا.

وتماما كما كان الحال في الحضانة، أصبح «الإكثار» سمة مميزة لبرنامج: «ليتل لايت».

كان الأمر منطقيا بالنسبة لي في كيف يمكن لحديقة حيوانات أليفة أن يكون لها نفس التأثير على طفلة محبة للحيوانات كوجود حيوان لاما حي حقيقي، مستعار من مزرعة قريبة، يقف بجوار الطاولة حيث عادة ما تتناول وجبتها الخفيفة؟

الشيء الوحيد الذي طلبته من الآباء فيك «ليتل لايت» هو أن يبقى أحدهما ويعمل مع طفله خلال كل جلسة، إن إظهار الوالد لطفله أنه يأخذ شغفه على محمل الجد ويرغب في

المشاركة فيه لهو بمثابة أقوى محفزات العالم، فكان من الضروري بالنسبة لنا العمل مع الأسرة ككل حتى يتعلم الآباء كيف يتعرفون على مواهب أطفالهم الفريدة.

يركز العديد من الأطفال المصابين باضطرابات طيف التوحد بشكل عميق على نواح محددة من مجالات مختلفة، ولكن نظرا لأن الجميع غير مهتم بتلك النواحي، على سبيل المثال، بأرقام لوحات الترخيص أو التاريخ الجيولوجي لنظام الكهوف في إنديانا، فإنهم لا يحصلون على الكثير من التقدير، وبالمثل، أعتقد أن الأطفال المتوحدين يسمعون والديهم يتحدثون معهم عن لعبة التصفيق على الإيقاع «باتي كيك»، أو يطلبون منهم عناقا، لكنهم ليسوا مهتمين بهذه الأشياء.

هل سبق لك أن وجدت نفسك محاصرا في إحدى الحفلات مع شخص يتحدث عن شيء لا تهتم به بشكل خاص كالرياضة، ربما، أو السياسة أو السيارات الكلاسيكية؟ أعتقد أن هذا هو شكل الحياة بالنسبة لشخص مصاب بالتوحد، بالتأكيد، الأشخاص المصابون بالتوحد موجودون في عالمنا.

إنهم أشخاص لا يفكرون في الأشياء التي نريدهم أن يفكروا بها.

تخيل أنك تعيش في منزل شجرة داخل غابة جميلة، والمكان الوحيد الذي تشعر فيه بالأمان والهدوء هو منزل الشجرة هذا، لكن الناس لا يوقفون عن التطفل، وطيلة الوقت يهتفون بك: «هيا اخرج من الأشجار! من الجنون أن تعيش في شجرة، عليك القدوم إلى هنا».

ثم ذات يوم تأتي إحداهن إلى الغابة، وهي لا تهتف بك أو تحاول تغييرك، ولكنها بدلا من ذلك تتسلق إلى منزل الشجرة الخاص بك وتظهر لك أنها تحبه بقدر ما تحبه أنت، ألن تكون لك معها علاقة مختلفة تماما عن علاقتك بأي شخص آخر؟ وعندما تطلب منك النزول لبضع دقائق؛ لأن لديها شيئا رائعا لتريك إياه، ألن تكون أكثر ميلا لرؤيته؟

كان هذا هو التشبيه الذي استخدمته لشرح ما كنا نفعله في: «ليتل لايت».

كنا نلتقي بالأطفال فنوصلهم إلى حيث يريدون أن يكونوا.

نظرا لأننا جميعا أمضينا الكثير من الوقت معا، فقد بدأ الآباء الذين يعملون مع أطفالهم في: «ليتل لايت» في تكوين مجتمع متقارب ومهتم، وبدأن الأمهات في التعرف على بعضهن البعض، والثقة في بعضهن البعض، وأحيانا تبادل المزاح، ولم يمر وقت

طول حتى كانوا يتطلعون إلى الجلسـات الأسـبوعية بقدر ما كان أطفالهـم، فبالنسـبة للكثيريـن منـا، كان الوقـت الـذي نقضيه معا بمثابـة البلسـم لمشـاعر الخوف والعزلـة التي عشـناها منذ أن تم تشخيص أطفالنا بالتوحد.

أمـا عـن أول شـتاء يمـر علينا بعـد افتتاح «ليتل لا يـت» فإني أجده ضبابيا في ذاكرتي.

كنت أفتح الحضانة كل صباح في الساعة السادسة والنصف صباحا، وبعد عمل يوم كامل أغلقها في الخامسة والنصف مساء، وكنـت آخذ نصف سـاعة مـن الوقت لتنظيـف الغرفـة وتغييرها، ومن ثم أقوم بعقد صف: «ليتل لايت» لمدة ساعة لخمسة أطفال، بما فيهم جيك، ثم أخذ اسـتراحة لمدة نصف سـاعة لتناول عشاء عائلي سريع، وبعد ذلك يكون مايكل مسؤولا عن حمام ويسلي، وبعـد ذلـك يصل خمسـة أطفال آخـرون لحضور الجلسـة الثانية من: «ليتل لايت»، وبعد أن يغادر الجميع، كنت أقرأ قصة لجيك وويسلي قبل النوم، ثم أمنح جيك حمّاما وأضعه في الفراش.

لقد كنا نفعل ذلك كل ليلة.

مـرت علـيّ بعـض الليالي كنت أسـقط على سـريري، متعبةً جـدا دون أن أفـرش أسـناني، ولكـن مقارنـة بمـا كنا عليـه بالعام

السابق، فقد كانت هذه مشكلة كبيرة؛ فبعد أن عملنا على برنامج: «ليتل لايت» لمدة عام تقريبا، بدأت دار الحضانة الأصلية تجتذب المزيد من الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة ممن لديهم مشاكل في النطق، وكان لدي مزيج من الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، والأطفال الطبيعيين أثناء النهار، والأطفال المصابين بالتوحد في المساء وفي عطلات نهاية الأسبوع؛ مما جعلني أتخذ من مرآبي مختبرا بحيث يمكنني سريعا تحديد ما يصلح للأطفال، وما لم يكن يصلح، وفي بعض الأحيان كنت أندهش من نوعية الحيل التي تنجح في ذلك، لكنها غالبا ما كانت تتلخص في بناء علاقة مع الأطفال.

كان الطفل جيرود في الحادية عشرة من عمره عندما قابلته، لم يكن يستطيع النطق، ولقد ظل على هذا النحو منذ أن بلغ الثالثة من عمره، وعلى مر السنين، جرب والديه جميع العلاجات التقليدية، وكل طبيب رآه أخبر والدته، راشيل، أن جيرود لن يتحدث أبدا.

ارتجفت شفتا راشيل عندما أخبرتني هذا: «يقولون أنه لا يوجد ما نستطيع فعله».

إن مجرد فكرة أن يدلي شخص ما بتعليق مثل هذا عن طفل

جعلنـي أشـعر بالتقـزز، وبعـد أن قضيت عشـر دقائق مـع جيرود عرفـت أنهـم مخطئون، نعم، لقـد كان لا يتحـدث، واتضح على الفور أن التوحد لديه شديد، كما أن سن الحادية عشر بدون نطق أي لغـة علـى الإطـلاق كان يعني أنهـم بالفعل قد تأخـروا كثيرا، ولكن كان هناك شيء آخر بداخله.

حتـى خـلال ذلـك الاجتمـاع الأول، وبينمـا كانـت والدتـه تخبرني يائسـة بكل الأشـياء التي لا يسـتطيع القيام بها، ظل يلقي علـيّ نظرة خاطفة من خلفهـا، كان بإمكاني أن أرى روح الدعابة هنـاك، ونـوع مـن الفضـول، وقـد دفعني ذلـك إلى الاعتقـاد بأن جيرود كان قادرا على تحقيق أكثر بكثير مما كان يسمح بإظهاره، عندمـا كنت أبتسـم لـه، كان يلقي نظـرة خاطفة علي مـرة أخرى، وطوال الوقت الذي كانت تجري فيه لعبة بيكابو (أو لعبة اختلاس النظر) المضحكة، ظلت والدته تخبرني كيف طُلب منها أن تفقد الأمل في طفلها.

ذكرت راشـيل أن جيرود يمكنـه أن يصدر بعض الأصوات، لذلك سـألتها أي الأصـوات يمكنه أن يصدرهـا، (بعبارة أخرى، هل كان هنـاك تأخير جسـدي أو عصبي؟)، سـألتها: «هل يمكنه إصـدار صوت حرف (الـكاف) واضح، مثل صوت(ك) في كلمة «كات»(قطة بالإنجليزية)؟».

فـي تلـك اللحظة، بدأ جيـرود بإصدار صوت عـال: «آه، أه، أه،»، وبدأ يضرب على السجادة براحة يكفه: «اه، اه، اه، اه».

بـدأت والدته تعتذر: «آسـفة حقـاً!» وقالـت - وهي تحاول تهدئتـه -: «صه يا جيرود، من فضلـك، نحن نتحدث»، ثم مدت يدها إلى حقيبتها، وهي لاتزال تعتذر: «اسمحي لي أن أعطيه هذه وسيكون على ما يرام».

أخرجت علبة من قطع الدجاج، وأخرج جيرود واحدة وبدأ فـي تناولها بطريقة مألوفة على الفور لأي شـخص قضى وقتا مع أطفـال مصابيـن بالتوحد، فقد أخذ يدورها بيـن أصابعه، ويقضم حـول الحـواف، ثم يأخذ قضمات ضئيلة كمـا تفعل يرقة الفراش الصغيرة، وهو لـم يزل يسترق النظرات الخاطفة لوجهي من حين لآخـر، وكنـت أبتسـم لأننـي علمـت أن جيـرود كان يجيب على سؤالي، لقد كان يريني ما يمكنه وما لا يستطيع فعله.

بالنسبة لي كان الأمر برمته مضحك بشكل هستيري، وبدأت أضحـك، ثـم بـدأ جيـرود يضحـك أيضـا، أما راشـيل المسـكينة فكانـت مندهشـة وهـي تمسـح الدمـوع مـن عينيها، وتحـاول أن تجمع شـتات نفسـها، وهناك كنت أنا وجيرود ننفجر ضاحكين، وهكـذا عندمـا غـادرا الحضانة، كنـت متأكدة تماما أنني سـأكون قادرة على اتخاذ خطوات كبيرة مع جيرود.

في المرة التالية التي وصل فيها جيرود وراشيل، وجدا المئات من بطاقات الأبجدية منتشرة في كل مكان، وبعد انزعاجها من الفوضى، حاولت راشيل تقديم المساعدة قائلة: «هل تودين أن أساعدك في التقاط هذه الأشياء؟»

قلت «لا، شكرًا»، ومن خلال الاتصال بالعين مع جيرود، تابعت: «في الواقع، هذه من أجل جيرود».

كان هناك نوعان من التفاصيل الهامة حول هذه البطاقات كنت أعرف أن جيرود سيقدرها: الأول: كان عددها الهائل؛ فلقد بدت الأرضية كقاع كرة ثلجية، والثاني: هو شكل تلك البطاقات؛ فمعظم بطاقات الحروف الأبجدية تتميز بألوان زاهية أو شخصيات كرتونية؛ لأنها مصممة للأطفال الصغار جدا الذين يتعلمون القراءة.

كنت قد جعلت هذه البطاقات صغيرة وبسيطة عن عمد وبأحرف سوداء داكنة على خلفية بيضاء، وكان المقصود منها كبادرة احترام، حتى لو لم يكن جيرود قادرا على القراءة أو الكلام، فهو لم يكن طفلا، ولم يكن يستحق مواد تعليمية طفولية، وكما كنت أتمنى، أضاءت عيناه حينما رآها.

في ذلك اليوم عندما كنا جالسين معا وضعت الحرفين A

وT على لوحة إعلانات زرقاء من مادة لاصقة وطلبت من جيرود أن يجد لي الحرف الناقص لتهجئة كلمة «CAT»، فنظر حوله، ووجد حرف C، وعاد إليّ، كانت والدته تنظر منبهرة وأنا ألصقه على اللوح لتكتمل الكلمة، وقلت «ممتاز»، ثم مزقت حرف C من اللوحة وألقيته من فوق كتفي لأظهر له أننا لن نمر به مليون مرة، فعلنا نفس الشيء مع «HAT» (قبعة) و «SAT» (جلس).

باختصار؛ كان ما أحرزناه من تقدم في غضون ساعة يفوق مما حققه في السنوات الثمان الماضية.

وفي آخر الساعة؛ قلت: «اسمع يا جيرود، أريدك أن تفعل شيئا مهما جدا بالنسبة لي، لا يهمني كيف يبدو صوتك، ولكن أريد أن نقرأ الكلمات التي أتهجاها معا»، فجمعت مجموعة كاملة من تلك البطاقات الأبجدية الصغيرة وبدأت في انتقاء ما أريد منها حتى وجدت كل الحروف التي أحتاجها، ثم استخدمتها لتهجئة: «أنا أحبك يا أمي» على اللوح.

قلت: «حسنا، يا جيرود، سنفعل ذلك معا، هذا عمل هام حقا، حسنا؟» مددت يدي لألمس فمي، ثم مددتها لألمس شفتا جيرود: «لا يهمني كيف يخرج الصوت، سنمضي ببطء حقا»، وبعد ذلك، ولا يمكنني تذكر هذا دون أن أبكي، وأنا أتذكر وجه

راشيل الذي بدا مصدوما، قرأت أنا وجيرود الكلمات التي تهجيتها على اللوح.

من خلال مراقبة الأطفال في برنامج: «ليتل لايت» والاستماع إليهم حقا، أدركت أنه يمكننا الحصول على لمحة عما بداخلهم، وبعد ذلك كل ما كان علينا فعله هو الابتعاد عن طريقهم، وكنت أعلم أن الآباء الذين شاركوا في البرنامج كانوا يقدمون لي دفعة ثقة كبرى، وكنت آمل فقط أن أتمكن من مكافأتهم على ثقتهم؛ لأنه وخلف تلك الشجاعة التي أظهرتها، كنت خائفة بصدق من أن معسكر رياض الأطفال لن يجدي نفعا؛ فالأطفال ذوو الاحتياجات الخاصة لا يتحسنون على الفور، وبدلا من ذلك، يبدو الأمر أشبه بالتقدم خطوتين للأمام والتراجع خطوة للخلف إذا كنا نريد تحقيق أهدافنا، وبالنسبة لجيك، فإن هذا يعني الاستعداد لرياض الأطفال بحلول سن الخامسة، فلن نتمكن من تحمل خسارة أي من المكاسب التي حققناها بشق الأنفس، وكنا بحاجة إلى التعزيز القوي لأي تقدم يحرزه الأطفال، وإلا سيختفي مرة أخرى.

وكانت اللاما التي استقرت في غرفة المعيشة هي القاعدة أكثر من الاستثناء، لم يعرف مايكل حقا ما الذي سيجده عندما

يعود إلى المنزل، لأنني كنت أصنع الكثير من الأشياء التي استخدمناها في برنامج: «ليتل لايت» بنفسي.

على سبيل المثال، لاحظت أن جيك كان يحب حمل أكياس الفاصوليا واللعب بها، لذلك خطرت لي فكرة استخدامها لعمل تمرين قائم على الحواس لبرنامج: «ليتل لايت».

ذهبت إلى آخر صندوق متبقي في متجر الأقمشة وقمت باستعارة أكبر عدد ممكن من أنواع القماش التي يمكن أن أجدها من المخمل الناعم، والسترات القطنية، والحرير الصناعي الزلق، والخيش الخشن، وقمت بقص القماش إلى مربعات، وخياطته من ثلاث جهات لعمل جيوب، ثم ملأتهم ببذور دوار الشمس، والتي كانت غير مكلفة عندما اشتريت كميات كبيرة منها، وآمنة أيضا في حال وجدت طريقها إلى فم طفل ما، ثم إني تركتها هكذا في المطبخ، عازمة على خياطة الجانب الأخير من كل جيب بعد أن يذهب جيك وويسلي إلى النوم.

لابد أنني قد صنعت خمسين من أكياس القماش هذه، من جميع الأحجام والأقمشة، وعندما عاد مايكل إلى المنزل من العمل سمعته يهتف من المطبخ: «كريس، ما الذي يحدث بحق السماء؟».

عندما ذهبت لأرى ما حدث، رأيت أن جيك كان قد أخرج كل بذور عباد الشمس من كل جيب، وألقاها في مجموعة من المزهريات الزجاجية الأسطوانية، وبالطبع، كانت مهاراته الحركية لطفل لم يبلغ من العمر أربع سنوات تعني أن هناك الكثير من بذور دوار الشمس على الأرض بقدر ما كان في المزهريات، وبالفعل كانت هناك بذور في كل مكان، وقد تعرضنا لحادث مماثل قبل بضعة أشهر مع حشوات العبوات من حبوب الفلين والتي تشبه الفول السوداني، فقد تركت العنان للأطفال في الحضانة كي يلعبون بها كما يريدون، وما زلنا حتى الآن نجد قطعا صغيرة منها في كل مكان.

وكان الدرس المستفاد أنه على الأقل بذور دوار الشمس قابلة للتحلل.

رفعت يدي في الهواء مستسلمة، وفتح مايكل الباب المنزلق، ثم شرعنا نكنس البذور خارجا إلى الفناء مباشرة.

في الحقيقة لا يمكنني التأكيد بما فيه الكفاية على مدى أهمية دعم مايكل لي، فعلى الرغم من أنه كان يعارض الفكرة بأكملها في البداية، وعلى الرغم من أن عملي في: «ليتل لايت» كان يعني أنه كان كثيرا ما يعود إلى المنزل ليجد نفسه وسط

فوضى من نوع أو آخر، إلا أن أيا مما كنت أفعله لم يكن ممكنا بدونه، وفي الواقع، لقد سيطرت أعمال الحضانة والجمعيات الخيرية على حياتنا تماما.

فعلى سبيل المثال، كنا نضطر أحيانا إلى التسوق لشراء الأغراض المنزلية في منتصف الليل؛ لأنه لم يكن هناك وقت آخر للقيام بذلك.

بعد ظهر أحد الأيام، وأثناء جلوسه في السيارة خارج البنك ليملأ بعض الاستمارات قبل أن يغادر، لاحظ مايكل وجود طفل صغير يقف بمفرده على عتبة باب الحضانة المجاورة، ذهب الصبي إلى جانب المبنى، ينظر من خلال السياج بينما كان زملاؤه يلعبون خلفه، ولاحظه مايك لأنه كان يرفرف بذراعيه، وهي علامة مميزة للتوحد، حينها نسي مايك كل شيء الأوراق، ثم جلس وأخذ يراقب لمدة نصف ساعة، ثم نزل من السيارة وذهب إلى داخل تلك الحضانة لاقتراح طرق لجعل الصبي أكثر انخراطا مع زملائه في الفصل، وعندما عاد إلى المنزل، قربني إليه قائلا: «طوال الوقت الذي كنت أشاهده فيه، لم يأت إليه أحد»، «ربما كان هناك بودرة لماعة في كل مكان في دارنا يا كريستين، حتى على السقف، لكن لا أحد من الأطفال الذين

يأتـون إلـى: «ليتـل لايـت» يشـعر بالوحدة كمـا كان يشـعر ذلك الصبي الصغير اليوم، لم أكن لأدرك ذلك لولاك».

كان تفاهمنا المشترك ضروريا، خاصة لأنني لم أتقاض شيئا مقابـل برنامـج: «ليتل لايت» سـواء للجلسـات نفسـها أو للمواد المستخدمة، مما حملنا عبئا ماليا شديدا.

في تلك السنوات الأولى؛ عمل مايك في شركة: (تارغيت)، وكسبت أنا بعض المال من خلال دار الحضانة، لم يكن لدينا أي نقود إضافية لإنفاقها على شراء حلوى مصاصات الخواتم، على الرغـم مـن كونهـا أدوات رائعة لتمارين اللسـان والفـم للأطفال المصابين بتعذر الأداء النطقي، لكننا كنا نجد دائما طريقة لإنجاح ذلك.

في بعض الأحيان كانت بعض العائلات تحاول أن تدفع لي مـالا، لكننـي لم أسـتطع قبوله منهم، هؤلاء الناس كانوا يعيشـون بالفعـل نوعـا مـن العذاب الـذي لا يمكنك فهمـه إلا إذا كنت قد عايشت ذلك بنفسك، وأنا لن أساهم في ذلك، شعرت حينها وما زِلت أشـعر أن مهمتي في الحياة هي جلب الأمل لهذه العائلات والمسـاعدة فـي تحقيـق الإمكانـات الكاملـة للأطفـال، سـواء الطبيعيين أو من ذوي الاحتياجات الخاصة.

كانت الساحة الخلفية لمنزلنا الصغير ضئيلة الحجم، وكثيرا ما كنت أقول إننا كنا محظوظين لأنها لم تكن أكبر من ذلك لأنه في تلك المرحلة من حياتنا، لم يكن لدينا الكثير من الوقت لقضائه في صيانة الأرض، ومع ذلك، عندما جاء الربيع، فوجئت برؤية البقعة الصغيرة خارج المطبخ ممتلئة بالكامل بالأعشاب الضارة.

سألت مايكل ذات صباح بينما كنت أحاول إقناع جيك بتناول قضمة أخرى من فطوره: «ما خطب تلك الحشائش؟».

خرج مايكل ليتحقق من الأمر، ثم سمعته يضحك قائلا: «هذه ليست أعشاب ضارة يا كريس. إنها نباتات دوار الشمس!».

فكرت: آه، صحيح، بذور دوار الشمس، وليست كرات فلين.

لقد ترسخت جذور البذور المهملة التي جرفناها بطريقة انتقامية في الفناء في الخريف، ولسعادتي بها، فقد نمت أزهار دوار الشمس إلى أكثر من ستة أقدام على مدار ذلك الصيف، وبحلول شهر أغسطس، كان علينا أن نكافح في حقل من تلك الزهور العملاقة لنتمكن من الدخول إلى الفناء الخلفي، وكانت جميعها تدير وجهها ببطء نحو الضوء.

نافذة على الكون

كان خبر حملي مرة أخرى بمثابة صدمة لي؛ فرغم حديثي الدائم مع مايكل عن رغبتنا في بيت مليء بالأطفال، كانت مرات حملي السابقة صعبة للغاية، فضلا عن مرض ويسلي الشديد حين ولادته، لذا بدا من المستحيل الاعتقاد باحتمالية أن يسفر هذا الحمل عن نهاية سعيدة، كذلك لم يكن رد فعل الطبيب مشجعا حينما سمع الخبر، فأحالني على الفور إلى أحد المتخصصين في حالات الحمل عالية المخاطر قائلا: «لا أجيد التعامل مع الحالات الطارئة».

لكننا ببساطة لم يكن لدينا الكثير من الوقت للتوقف والتفكير طويلا في مخاوفنا، فقد كان وقتنا مقسما بين ويسلي وجيك والرعاية اليومية وبرنامج: «ليتل لايت»، وكلما تسلل الخوف إلى نفسي، كنت ومايكل نقول: «أيا كان ما سيحدث، سنتعامل معه سويا ساعة حدوثه، بذات الطريقة التي تعاملنا بها مع كل شيء آخر».

في الواقع، كان هناك شعور بتفاؤل حذر بشأن أولادنا قد أخذ يسري في نفسي أنا ومايكل.

كان مايكل يصطحب ويسلي للعلاج المائي، وهو أشبه بالعلاج بإطالة العضلات الذي كنا نتّبعه معه، غير أن الأول يتم في حوض سباحة بالمستشفى، وقد بدا العلاج فعالا، وبالرغم من أن ويسلي كان لا يزال غير قادر على المشي في عمر عامين ونصف، لكنه بدا أكثر مرونة وأقل شعورا بالألم إلى حد كبير، كما قلّت نوبات شعوره بالاختناق، وبرغم كونه بعيدا عن القدرة على أكل الأطعمة الصلبة، فقد بدأ يستسيغ السوائل، وعلى الأقل لم أعد مضطرة للسهر طوال الليل للتأكد من أنه لا يزال يتنفس.

حينما دخل برنامج: «ليتل لايت» عامه الثاني، لم يكن هناك من يمنحنا شعورا بالطمأنينة أكثر من جيك، فلم يمر وقت طويل على إخراجنا له من التعليم الخاص، حتى بات واضحا أن شغفه الخاص يتعلق بعلم الفلك والنجوم، وببلوغه العام الثالث من عمره، صار قادرا على تسمية كل الأبراج والكثير من النجوم في السماء باسمها، وأعتقد أن اهتمام جيك بالكواكب يعود إلى هوسه بالضوء والظلال الذي لاحظناه حتى عندما كان رضيعا.

بعدما شرعنا في برنامج: «ليتل لايت» مباشرة، لاحظت أن

جيك صار شغوفا بكتاب عن الفلك للمستوى الجامعي كان أحد الأشـخاص قد تركه على أرضية مكتبـة: «بارنز اند نوبل» الواقعة بجـوار منزلنـا بدلا من أن يعيـده إلى الـرف، كان الكتاب ضخما بالنسـبة لطفـل صغير مثلـه، لكنه جرّ الغلاف الضخـم وفتحه، ثم جلس مستغرقا فيه لأكثر من ساعة.

بالتأكيد لم يكن كتابا لطفل في الثالثة من عمره.

وبنظـرة خاطفـة علـى الكتاب من فوق كتف جيك، شـعرت بالانزعـاج مـن صغـر حجـم النـص وغمـوض المحتـوى، كمـا سيطرت على غالبية الصفحات خرائط لأجزاء مختلفة من النظام الشمسـي، ولـم يكن هناك أي نوع من السـرد على الإطلاق، كما لـم أجد أي شـكل من أشـكال الإسـقاط على الأسـاطير اليونانية التي أطلقت على الأبراج أسماءها المعروفة، بل لـم أجد حتى أية تفسيرات علمية، لمجرد خرائط فقط.

تحدقـت عيناي وأنا أتصفح الكتاب وقلت في نفسـي: «ماذا يريد جيك من هذا الكتاب؟».

لكـن عندما كان يحين وقت مغادرة المكتبة، لم يكن الصبي لينفصل عن الكتاب، فكنت أعيد الكتاب إلى مكانه وأمسـك بيد جيـك كـي نغـادر، لكنـه كان يفلت مـن يـدي وينطلق عائـدا إلى

الكتـاب، وبعـد تكـرار الأمر بضـع مـرات، أدركتُ أننـا لن نصل لشـيء إن لم يـأتِ الكتاب معنا، فرفعت هذا الشـيء الضخم بين ذراعيّ، وأخذت بيد جيك، ووقفت في الصف .. على الأقل كان عليه خصم كبير.

وحتـى تكتمـل دهشـتي، أضحى ذلـك الكتـاب الثقيل رفيق جيـك الدائـم، كان ثقله يعني أن الوسـيلة الوحيدة لنقله من مكان لآخر في المنزل هي فتح الغلاف وجرّه بكلتا اليدين، وبعد فترة، أصبح مهترئا للغاية، مما اضطر مايكل لتقوية ظهر الكتاب بشريط لاصـق. لا أسـتطيع تصديـق أن هـذا الدليل المتخصـص للغاية، والـذي مـن الواضـح أنـه موجـه لطـلاب الفلـك فـي المراحـل المتقدمة، قد يكون ذا أهمية لطفلي الصغير.

لكنه كان كذلك بالفعل، بل تبين أن له تأثيرا وسطوة، فلطالما شـعرتُ بطريقـة أو بأخرى وكأنني شـرطية سـرية أثناء مباشـرتي لبرنامـج: «ليتل لايت»؛ فكل ما كان يجذب الأطفال، كان يدفعنا لتقفي أثره حتى نكتشـف شـيئا فشـيئا حقيقة وطبيعة شخصيتهم، وقد أدركت أن افتتان جيك بذلك الكتاب والذي كان أمرا مبهما، كان مفتاحا مهما لحل اللغز؛ لذا عندما قرأت إعلانا فيه أن مرصد هولكومب، وهو عبارة عن قبة سماوية قريبة من منزلنا تقع داخل

حرم جامعة باتلر، سينفذ برنامجا خاصا عن كوكب المريخ، سألت جيك عن ما إذا كان يودّ الذهاب لرؤية كوكب المريخ عبر تلسكوب، ربما كنتم ستعتقدون أني سأسأله عن ما إذا كان يرغب في تناول الآيسكريم على الإفطار والغداء والعشاء، وقد أخذ يلح عليّ ويزعجني بلا رحمة بالسؤال عن هذا الأمر حتى ظننت أن ذلك اليوم لن يأتي أبدا.

في غمرة حماستنا، وصلنا مبكرا للغاية، كان الاعتناء بالأراضي المحيطة بالقبة واضحا بصورة جميلة، وأبصرنا تلا ضخما مغطى بالعشب يمكن التدحرج عليه بجوار موقف السيارات الخاص بالقبة السماوية مباشرة، وفي الأسفل، وبجوار بحيرة صغيرة، وجدنا مئات من ثمار كستناء الحصان (الكستناء الهندي) بين العشب تحت الأشجار، وبينما كانت الشمس تميل للغروب، سرنا ببطء حول البحيرة، والتقط جيك من ثمار كستناء الحصان هذه أكبر عدد استطاع حمله، وأخذ يعبئها في جيوبه ويملأ بها حقيبة الظهر المغطاة بالوبر والمصممة على شكل كلب، والتي يأخذها معه أينما ذهب.

كانت ثمار كستناء الحصان مستديرة وناعمة بصورة محبَّبة للنفس، ورأيت جيك وقد راقه ملمسها في يديه، وبحلول وقت

فتح أبواب القبة السماوية، كانت جيوب بنطاله منتفخة كخدود سنجاب.

بدا البهو رائعا، لكني تمنيت على الفور لو أن عدنا إلى الخارج، كنت أعتقد أن بوسعنا الدخول بسرعة وإلقاء نظرة سريعة من خلال التلسكوب دون إزعاج أحد، لكني اكتشفت أن علينا القيام بجولة في القبة السماوية حتى يمكننا النظر من خلال التلسكوب، بل الأسوأ من هذا، وكما علمت بعدما انتظرنا بالفعل في طابور واشترينا تذاكر، أن الجولة تشمل ندوة للمستوى الجامعي مدتها ساعة يلقيها أحد أساتذة جامعة باتلر، وما إن بدأ البهو في الامتلاء بالأشخاص، حتى اشتد غضبي وتوتري؛ فلم يكن حضور عرض تقديمي للمستوى الجامعي في قاعة صامتة مزدحمة يمت بأي صلة لما تصورته، بل كان هذا آخر مكان على وجه الأرض يمكن لشخص عاقل أن يصطحب إليه طواعية طفلا مصابا بالتوحد في الثالثة من عمره.

لكن كان عليّ الالتزام بوعدي، وكان جيك بلا شك فرحا متحمسا لوجوده هناك، وقد أخبرته بأنني ارتكبت خطأً، وأوضحت له كل شيء بشأن الجولة والمحاضرة، وسألته عن ما إذا كان يفضل الذهاب لتناول فطيرة بيتزا بدلا من البقاء في

المكان، غير أنه كان عنيدا، واختار البقاء، وبينما كنا بانتظار بدء العرض، اصطحبني من يدي حتى انتهى بي إلى السلم الرئيسي المقوس، الذي عُلقت بطوله صور للفضاء السحيق، وأخذ يجرني صعودا وهبوط على السلم وهو يثرثر معي بالكلام، بينما كنت أزحف خلفه وأحاول قدر الإمكان احتواءه والسيطرة على حركته، ولملمة ثمار الكستناء المتفرقة التي كانت تتساقط من جيوبه وتتقافز في كل اتجاه على درج السلم الرخامي الفخم.

ورغم تشتت انتباهي بمطاردة حبات الكستناء، بدا لي وكأن جيك كان يلقي محاضرة مُقْنِعة عن كل صورة، كان يتمتم بألفاظ ولغة غير مألوفة بالنسبة لي، ورغم عدم استطاعتي تحديد ما إذا كان يختلق أشياء، أم يقلد شخصا ما، فقد تأثرت بالموقف وأثار بالغ إعجابي.

أخيرًا، فُتحت أبواب قاعة المحاضرات، وانساب الجمهور إلى داخلها في طابور منظم، وبمجرد دخولنا، قلت في نفسي: *آه يا ولدي، يوشك هذا الأمر برمته أن يأخذ منحى سيئا.*

كانت القاعة صغيرة وخافتة، وقد أوشك عرض تقديمي على برنامج باور بوينت على البدء، كانت أول شريحة تتناول مدى دقة الرؤية في تلسكوبات القرن التاسع عشر، ولم تكن هناك مقاعد خالية إلا في المقدمة مباشرة.

بدأت أفتش في حقيبتي في تلهف لأن أجد شيئا - كمقرمشات أو قلـم تلويـن أو بعـض العلـك - مما قـد يجنبني الانهيـار التام، وبحلول وقت صعود المحاضر إلى المنصة، كنت في حالة أقرب إلـى الذعـر، وكان الأمـر يزداد سـوءا، ومع بدء عرض الشـرائح، أخـذ جيـك يقرأ بصوت عال للغاية بعضا مـن الكلمات التي كان تظهر على الشاشة مثل: «سنة ضوئية!» و «نهاري!» و»ملاح!»

أسـكته وأنـا علـى يقيـن أن مـن حولنـا سـوف ينظـرون إلى ويهمسـون بإخـراج ابني من هـذا المكان الذي بـدا جليا أنه ليس لدينا ما يدعونا للتواجد به، بالتأكيد، كان المحيطون بنا يلاحظون مـا يجـري ويتهامسـون، لكـن سـرعان مـا تبين أنهـم لـم يكونوا منزعجيـن كثيـرا؛ لأنهم كانوا مسـتمتعين بالأمـر ومرتابين بعض الشيء.

سـمعت أحدهم يتسـاءل: «هل يسـتطيع هـذا الطفل الصغير القراءة؟» «هل قال الحضيض الشمسي؟»

بعـد ذلك، ألقـى المحاضـر نبـذة تاريخية عـن الملاحظات العلميـة حـول إمكانية وجود الماء على سـطح المريـخ، بدءا من عالـم الفلـك الإيطالـي جيوفانـي سـكياباريلي في القرن التاسـع عشر، والذي اعتقد أنه رأى قنوات مائية على سطح الكوكب.

بدأ جيك في الضحك عندما سمع ذلك، وفي ظل توتري، اعتقدت أنه سيفقد صوابه، لكن عندما نظرت إليه، رأيت أنه كان يضحك بصدق، وكأن فكرة وجود قنوات على المريخ كانت أكثر نكتة مضحكة سمعها في حياته. (كانت نفس ضحكته المبهجة التي كنت أسمعها في كل مرة قامت فيها المستكشفة دورا بإيقاف الثعلب اللص سنقر).

قمت بتهدئته مرة أخرى، لكني رأيت أن هناك تموجات تسري بين الحضور حيث بدأ الناس يمدون أعناقهم ليشاهدوا ما يجري.

ثم طرح المحاضر سؤالا على الجمهور قائلا: «قمرنا مستدير الشكل، فلم تعتقدون أن الأقمار حول المريخ بيضاوية الشكل، مثل البطاطس؟».

لم يجب أحد من الحضور، ربما لأنه لم يكن لدى أي منهم أدنى فكرة عن ذلك، وأنا لم أجب بالطبع. عندئذٍ رفع جيك يده: «معذرة، هل يمكن من فضلك أن تخبرني عن حجم هذه الأقمار؟».

كان ذلك من أطول الحوارات التي سمعتها من جيك طوال حياته، لكني، من جهة أخرى، لم أجرب مطلقا التحدث معه عن

أقمار المريخ، أجابه المحاضر الذي كان متفاجئا بشكل واضح، وقد أثارت إجابة جيك دهشة الجميع، بما فيهم أنا، عندما قال: «الأقمار حول المريخ صغيرة، لذا فإن كتلتها صغيرة، ما يعني أن تأثيرات الجاذبية للأقمار ليست كبيرة بما يكفي لسحبها إلى كامل مجال الجاذبية».

لقد كان محقا.

ساد الصمت الغرفة، واتجهت كل الأنظار صوب ابني، فقد طار صواب الجميع، ثم توقفت المحاضرة لبضع دقائق.

في النهاية، استعاد الأستاذ السيطرة على الغرفة، لكن عقلي كان في مكان آخر، لقد كنت مذعورة، فقد أجاب ابني ذو الثلاث سنوات على سؤال كان صعبا للغاية بالنسبة لأي شخص آخر في الغرفة، بما في ذلك طلاب جامعة بتلر وجميع البالغين الحاضرين.

شعرت بدوار شديد لدرجة أنني لم أستطع التحرك.

في نهاية المحاضرة تجمع الناس حولنا، وقال أحدهم لزميله: «احصل على توقيعه، سترغب في ذلك يوما ما!» بينما دفع شخص آخر ورقة باتجاه جيك ليوقعها، لكنني دفعتها للوراء.

تعامل جيك، الذي كان غالبا محاطا بالجمهور، مع الأمور بهدوء، وأخذ يحدق برضا في الشريحة الأخيرة من العرض، والتي كانت عبارة عن صورة قمر صناعي مُكبرة لجبل ضخم على سطح المريخ.

لم أرغب في شيء سوى الخروج من هناك، لكن عندما حان الوقت لكي يصعد الجميع إلى الطابق العلوي للنظر في التلسكوب، حدث شيء مذهل؛ تراجع الجمهور ليسمح لجيك بالصعود أولا. وبدون تنسيق مسبق اتفق جميع من في القاعة على نفس الهدف: لندع هذا الطفل يصعد للطابق العلوي ليرى المريخ! أعلم أن كلامي سيبدو غريبا، لكن كانت هناك حالة سائدة من مشاعر التبجيل.

صعدت أنا وجيك السلم، تدعمنا طاقة الجمهور وتفاؤله ونيته الحسنة، لقد شعرت وكأنهم يحملوننا على أعناقهم.

عما قريب سيصبح المرصد منزلا لي ولجيك رغم بعده عن منزلنا، وبرغم أنني ترددت على المرصد مرات عديدة منذ ليلتنا الأولى تلك، لم يفقد المكان سحره أبدا بالنسبة لي؛ فهو يبدو لي تماما كنافذة على الكون.

سقف القاعة المقبب يفتح بضغطة زر، ويوجد تحت هذا

الجزء من السماء سُلم معدني طويل بعجلات، ينتهي أعلاه بمكان مسطح، ولكي تنظر إلى السماء، فإنك في الواقع تنظر إلى أسفل من خلال آلة تشبه المجهر، تتصل بإسطوانة معدنية بيضاء ضخمة تشير إلى النجوم.

ربما كان جيك أول من صعد السلم، لكنه كان أقصر من أن يتمكن من النظر في عدسة المجهر، فقام الغرباء من الجمهور مرة أخرى بمد يد المساعدة بلطف، أحضر أحدهم سُلّما متنقلا، بينما حافظ آخران على ثبات جيك حيث أمسكا بالسلم الصغير أثناء صعوده، حتى إن أحدهم أمسك بيده أثناء نظره للأسفل في التلسكوب، ومع أنه استغرق في النظر لفترة طويلة، لم أشعر أن أي شخص آخر في الطابور قد نفد صبره أو تضايق، وأحسست أن مشاعري مخدرة.

بدا الأمر كما لو أن كل من في تلك القاعة كان يقول: «خذ وقتك، هذا المكان ملك لك».

أثناء عودتنا إلى المنزل في تلك الليلة، لم يستطع جيك التوقف عن الحديث عن الفضاء، وتمكنت أخيرا من فهم ما كان يقوله، لكن ذلك زاد من مخاوفي، إذ كيف يتسنى لطفل مثله معرفة الكثافات النسبية والسرعات النسبية للكواكب؟

بعد أن وضعتُ جيك في فراشه تلك الليلة، اتصلت بصديقتي أليسون، التي عرفتني بها ميلاني، حيث كان جاك ابن أليسون مصابا أيضا بالتوحد وفي نفس عمر جيك، وأصبحنا أصدقاء أعزاء منذ ذلك الحين.

أخبرتها بكل ما حدث خلال أمسيتنا في القبة السماوية، وعند استرجاعي لما حدث انتابتني قشعريرة.

سألتها: «ماذا يُفترض بي فعله مع هذا الطفل؟»، «هل يجب أن أفعل شيئا آخر، شيئا مختلفا؟ وبكل جدية، هل يجب أن أرسله إلى وكالة ناسا أو شيء من هذا القبيل؟».

لقد فكرت في تلك اللحظة مرارا وتكرارا على مدى الأعوام التالية، وكانت تلك اللحظة نقطة تحول، مثل قرار إخراجه من المدرسة الخاصة.

كان من الممكن أن نسير في طريق مختلف تماما، أرى الآن بكل وضوح أنه كان يمكن أن يكون خطأ بالنسبة لنا، وأنا ممتنة جدا لأليسون ولحسّها الجيد حين قالت لي: «افعلي ما تفعليه الآن بالضبط»، «العبي معه، وعامليه كما هو، كولد صغير».

وعندما غفوت، علمت أن أليسون كانت على حق، إن الأشياء التي جعلت جيك مميزا ستظل كما هي.

وفـي نهايـة المطـاف سـوف يترك بصمتـه، فلقـد أصبح هذا الأمر واضحا، لكنه الآن بحاجة إلى أن يكون مرتاحا وسعيدا في المنـزل معنا، وهو بحاجة إلى الذهاب إلى المدرسـة، وأن يكون لديـه أصدقاء، وأن يشـارك في الفعاليـات العائلية، مثل: الخروج لتناول الفطائر وصنع حلوى «سمورز» في الفناء الخلفي، ويجب أن نأكل حلوى الدببة المطاطية، ونشـاهد أفلام كرتون «حكايات الخضروات».

نعم، في الوقت الحالي، سيكون جيك طفلا عاديا.

وبعـد أن مضـى الكثيـر من الوقـت المؤلـم فـي البحث عنه، تمكنت أخيرا من التقاط أنفاسي، فقد وجدت ابني.

ذات مساء في القبة السماوية، تغير شيء ما بالنسبة لي، كنت أعلم أنا ومايكل أن جيك أكثر من مجرد طفل ذكي، لكنه أذهلني أنا والمحاضر وكل شخص آخر في القاعة بمستوى من المعرفة، وكان مبهرا حقا في النظام الشمسي .. فجأة، تمكنت من رؤية كل الأشـياء الذكية واللافتة للنظر وأحيانا الغريبة التي اسـتطاع جيك أن يقوم بها لأنها كانت أشياء «استثنائية».

لـم يسـبق لي قط الشـعور بحالة من الرهبـة والاحـترام كالتي أحسسـت بهـا مـن قِبـل الجمهـور فـي قاعـة المحاضـرات، لقد

صدمنـي ذلـك الشـعور، إلى حد ما، أكثر مـن إجابة جيك، أو أي شـيء آخر قاله لـي ونحن في طريقنا إلى المنـزل مثل نصف قطر نجم منكب الجوزاء.

هؤلاء الأشخاص في القبة السماوية ألهِموا ونُقلوا إلى مكان أفضل، وكان جيك من أوصلهم إليه.

في تلك الليلة، كان لدي شـعور مميز ولـم يفارقني منذ ذلك الحين، بأن جيك سيستعمل عقله المذهل لتقديم إسهامات كبيرة للعالم.

في تلك الأثناء، كان عليّ أن أدخله إلى حضانة الأطفال.

كوب من حساء الدجاج

لـم تكن الفصـول التمهيدية فـي الحضانة سـهلة على جيك رغـم معرفته بجميع الأقمار المحيطـة بكوكب زحل، وبالتحديد كان يصعـب عليه البقاء في أي مجموعـة، خصوصا حينما يكون النشـاط ذا طابـع اجتماعـي، فتجده يحاول أن ينأى بنفسـه خارج المجمـوع، وحتـى محاولـة إقناعـه بالجلوس بجانـب طفل آخر لعشر دقائق تأخذ وقتا طويلا وكأنه دهر.

في هذه اللحظة كنت قد بلغت مرحلة متقدمة مع جيك، ولا يمكننـي مجرد التفكيـر بالتراجع للخلف ولو خطـوة واحدة؛ لذا يجب أن أكمل الطريق.

نسـتعد أنـا وجيـك كل ليلة للحضانـة بكفاح وصبـر، وأيضا ببعـض الحيـل، فلقـد اشـتريت مجموعة مـن أغطيـة المرحاض مختلفـة الألـوان واسـتخدمتها كعلامات بصريـة للأطفال بحيث تساعدهم لتحديد مكان جلوسهم أثناء جلسات العلاج الجماعي، وأصبحـت تمارين التواصل الاجتماعي أسـهل قليلا لجيك مثل باقـي كل الأطفـال فـي الحضانـة، ومـع التكرار أصبحت أنشـطة

الجلوس بجانب طفل آخر خلال تمارين التواصل الاجتماعي عادة مكتسبة عنده، وحتى شعوره كان مختلفا عن تدريبات العلاج التقليدي المرهقة، ذلك لأنه يقضي وقتا أطول بمتابعة ما يحب القيام به.

في إحدى الليالي بحثت عن مايكل لأراه واقفا أمام باب المرآب حاملا ويسلي بين ذراعيه، وقال لي في صوت يعلوه الفخر: «اعتقدت بأننا يجب أن نتابع مع الأخصائيين لأنهم يعرفون ما هو الأفضل، لكنني كنت مخطئا يا كريس، وكنت أنت المحقة».

عدت إلى غرفتي ولأول مرة يمكنني أن أرى ما قمنا بإنجازه، لقد نجح مايكل بتلخيص أفكاري حينما قال: «تبدو تماما مثل حضانة الأطفال».

أصبحنا أنا وجيك أعضاء منتظمين في مرصد هولكوب، وبنهاية الصيف كنت قد حفظت أسماء معظم العاملين فيه، فساعد ذلك جيك في التغلب على انطوائيته، وكلما تعلم أكثر عن علم الفلك أصبح أكثر انفتاحا ولديه قدرة على التفاعل معي ومع الآخرين فقد وفّر المرصد بيئة تفاعلية لنا جميعا.

لقد شعرت بالسعادة الغامرة لرؤية ذلك، وعلى سبيل

المثال؛ كان جيك بدلا من تجاهله المعتاد لحملي بأخيه ويسلي يتحدث عن فضوله بالطفل القادم؛ مما شجعني أن اصطحبه معي لأحد المواعيد الخاصة بي للتصوير بالموجات فوق الصوتية، حيث كان يوما مميزا بالنسبة لنا؛ لأننا نريد أن نعرف جنس المولود القادم، وكما توقعت، فقد كان جيك منبهرا بالمعدات الطبية في العيادة.

تعالت دقات قلبي بشكل كبير عندما أخبرني الأخصائي: «أنه مولود ذكر آخر!».

لفترة طويلة كان الجميع يضايقني لإنجابي الطفل الثالث، وكنت كثيرا ما أسمع نكات بأن أبدأ فريقي الخاص للبيسبول، وأبني منزلا بجدران مبطنة وسهلة التنظيف.

كنت أتمنى بصدق أن يكون المولود القادم فتاة، ليس لأنني أريد أن أضع لها طلاء الأظافر فحسب، ولكن لأن الإحصائيات تقول أن مولودا ذكرا آخر قد يكون عرضة للإصابة بالتوحد بشكل كبير.

ومن المفارقات أن جيك هو من صرف ذهني عن التعمق في هذا التفكير، حين صرخ في الأخصائي: «لماذا تنادي أختي بالصبي؟».

على ما يبدو كان مثلي، يريد أن يكون المولود فتاة.

لقد ساعدنا قضاء الوقت في المرصد بشكل غير متوقع؛ فأصبحت الآن أجلس على العشب وكأنني في نزهة منتظرة تلك القبة الفلكية أن تفتح أبوابها، وكانت تغمرني مشاعر الأمومة مع جيك، والتي ظننت أن التوحد سرقها مني، وكنت أطالع كتاب علم الفلك معه وأداعب خدّه بلطف بينما هو يقلب صفحات الكتاب بيديه الصغيرتين السمينتين وأنا أشم رائحته الطفولية وأشعر بثقله على ساقي.

لقد اشتقت إليه كثيرا، لكنه عاد الآن إلى أحضاني.

قد لا يبدو الأمر كبيرا أو استثنائيا لشخص عابر، لكن الجلوس على العشب لنصف ساعة بهذا الشكل كان غذاء لأرواحنا.

بعض الأمهات في الحضانة كانوا منهكات جدا، لدرجة أنهن لم يعدن ينظرن إلى أطفالهم على الإطلاق، ويمكنني أن أتفهم ذلك؛ لأن عليهم مواجهة متطلبات الحياة مع طفل مصاب بالِتوحد، وهو بالتأكيد ليس بالأمر السهل، فقد جربت هذا بنفسي خلال إجازة الصيف الأولى مع جيك .. لم يكن جيك وحده بحاجة للتعلم من تجاربه؛ أنا أيضا كنت أحتاج ذلك!

بدأ جيك يتكلم ويفصح عما يدور بخلده أكثر فأكثر، حتى إنه بات يخبرنا بما كان يفعله ويفكر به، وكنت أقول ولازلت أفعل أنني بحاجة إلى الجلوس وتناول كوب من حساء الدجاج لأستمتع عندما يفاجئنا بإحدى درره، فعلى سبيل المثال؛ واحدة من ألعاب جيك المفضلة دائما هي الدوران، حيث كان يمشي في الحضانة ويختار شخص ما ويقوده لمكان محدد للغاية، ثم يدفعه للدوران حول نفسه، ويشترط على الشخص الدوران في رقعة صغيرة مع المحافظة على سرعة الدوران، ومن ثم يقود شخص آخر لمكان مختلف ويعيد القيام بالشيء نفسه مرة أخرى، حتى وصلت أصداء هذه اللعبة إلى جميع الأطفال في الحضانة، والذين باتوا يعتقدون أنها لعبة مسلية جدا لدرجة أنه في بعض الأحيان يقوم الأطفال بالدوران حول نفسهم بسرعات مختلفة في الفصل من تلقاء نفسهم.

كان دائما هناك ربط بين السلوك المتكرر الذي ليس له معنى عندنا، ولكنه يشعر المصاب بالتوحد بالسعادة.

في أحد الأيام عندما كان جيك في الرابعة من عمره بدأ يتواصل معنا بشكل أفضل، فكنت أدور مع جيك، وعلى الرغم من أني لم أكن بأحسن أحوالي، إلا أنني واصلت الدوران ببطء

ليعـود جيك ويصحح حركتي بشـكل متكرر، حتـى أنزلت قدمي أخيرا وقلت له: «سـأدور يا عزيـزي، ولكن علي أن أبطئ قليلا»، ورد على باستياء « أمي لا يمكنك التباطؤ؛ فالقريبين من الشمس يدورون بسرعة».

لقـد كنـا مثل الكواكـب، أدركت بعد البحث فـي جوجل أن جيك كان يسـتخدم الأطفال في الحضانة ليحاكي الكواكب التي تدور بسرعات مختلفة حسب موقعها من الشمس.

لقد عرف جيك هذا بالحدس، وليس من خلال طرق التعلم التقليديـة، وبطريقـة مـا، وبينمـا كان متوحـدا منطويـا علـى ذاتـه اكتشف قوانين كبلر لحركة الكواكب.

كلمـا عرفت المزيد عـن جيك كلما أدركت أن الحظ حالفنا بأننـا لـم نمنعه من كل شـيء كان يحفزه في أيامـه الأولى؛ فرقائق الـذرة التـي كنـت أجدهـا علـى أرضيـة المطبـخ كان يسـتخدمها لإيجـاد أحجـام علـب التخزين الخاصـة بها، أما كـرات الصوف الملونة التي كانت تُصعّب علي المشـي على أرضية المطبخ فقد كان يسـتخدمها لحسـاب معادلات التوازي التي اخترع لها نظاما في مخيلته.

شـعرت بالارتياح بعد سـنوات من العنـاء والضبابية، وكنت أرى بصيص الأمل دائما، ولا أحد يراه غيري.

الآن نعلـم أنه عندما يكون جيك غارقا في مخيلته فإنه يشـق طريقه بثبات نحو إحراز سـبق في الاكتشافات العلمية، وبوسعك أن ترى ما أعنيه عندما أقول أنني بحاجة لكوب من حساء الدجاج لأتخلص من عناء ما أشعر به.

لقـد مـررت بشـيء أثار دهشـتي وأعطانـي دليـلا على مدى إبداع جيك، كنت قد قرأت عن الأشخاص ذوي الذاكرة الصورية بأنـه يمكنهم تذكر معلومة سـمعوها أو شـاهدوها لفترات طويلة جدا، ويطلق عليهم لقب الآلات الحسابية البشرية.

جيـك لـم يكن يردد ما يقرؤه في أي مكان فحسـب، بل كان يفهـم ويحلل المعلومات التي يتعلمها، ويـدرك معناها حتى قبل أن يتعلـم القـراءة، وعندمـا كنا نعتقـد أنه يحدق فـي الظلال على الحائط، كان جيك يتوصل لاكتشافات علمية حقيقية بمفرده.

كان مبهرا أن نعرف أنه كان يمتلك كل تلك المهارات طوال الوقت، لم يكن ابني العزيز مفقودا أو غائبا، بل كان يفكر ويتأمل.

بدأنـا للتو في فهم قدراتـه الحقيقية مما يجعل مجرد التفكير في فقدانه إياها أمرا مرعبا بحق.

أنـا مؤمنة بـأن بعض أعمال جيك الحالية فـي مجال الفـيزياء المتعلقـة بالموجـات الضوئية وكيفية انتشـارها لـم يكن بمحض

الصدفة؛ فهو يعتقد أن أبحاثه ستؤدي لنقل الضوء إلكترونيا بكفاءة كبيرة جدا، ولهذا السبب أسال دائما الآباء الذين أعمل معهم عن اهتمامات أبنائهم المبكرة وعن أكثرها استمرارية، أما في حالة الآباء الذين يبقون أطفالهم داخل المنزل، فإنني أسالهم عن أنواع الأنشطة التي يمارسها أطفالهم قبل بدء حالة التوحد.

لدينا صديق حميم وهو مهندس عبقري، تقول عنه أمه أنه بدأ بتفكيك الأجهزة المنزلية بمجرد أن أصبحت أصابعه كبيرة لحمل مفك البراغي، ولذلك فإن مهاراتنا ونقاط قوتنا موجودة منذ نعومة أظفارنا، ولكنها بحاجة للتحفيز حتى تنمو وتتطور.

أود الإشارة لنقطة مهمة، بسبب التوحد وبسبب أننا لم نستطع التواصل مع جيل، فقد كان لديه الكثير من الوقت والمساحة للقيام بما هو منجذب إليه بشكل فطري، ولأنه كان منطويا ومنعزلا، كان لديه وقت كبير خلال اليوم أكثر من أغلب الأطفال الآخرين للتركيز على الأشياء التي يهتم بها مثل: الأضواء والظلال والزوايا والأحجام والطريقة التي تتحرك بها الأجسام في الفضاء، لم يعلم أحد بطريقة تعلم جيك كل هذا؛ لأنه لم يتصور أحد أن بوسعه القيام بذلك، وبالتالي فقد أهدى التوحد جيك هدية غير مألوفة.

نحـن نعتقـد أن هـؤلاء الأطفـال تائهـون داخل أجسـادهم، وبحاجـة للعـلاج، ولكنني أؤمـن أن الباحث عن عـلاج للتوحد كمـن يبحث عن علاج للفـن أو العلم، ولطالما أخبرت الآباء في الحضانة بأن لا ينتظروا من أطفالهم التواصل معهم، بل عليهم أن يبـادروا بالدخـول إلـى عوالـم أطفالهـم، وحينهـا سـيجدون مـا يسرهم، إن الأمر متروك لنا لكي نبني جسورا للتواصل مع أطفالنا حتـى يسـتطيعوا أن يطلعونـا علـى مـا يرونـه، وبذلـك يمكننـا أن نجذبهم لعالمنا.

بالنسـبة لجيـك فإن علـم الفلك والنجـوم كان حلقة الوصل التـي كنـت أبحث عنها وأتمناها بشـدة، فقد كنـت أرى الكواكب كأنهـا كـرات مملة قبـل ذهابنا للمرصـد، ولكن عندمـا بدأ جيك يعطينـي لمحـات عن هـذا العالم الـذي أراه في عينيـه، أصبحت أراهـا مذهلة، وبعـد فترة من بلوغه الرابعة، دعانـي لغرفته ليريني بعـض الصـور للأجـرام السـماوية على الحاسـوب؛ فقـد أصبح مهتمـا بفحـص الضوء والألـوان كيمائيـا، وأذهلتنـي الصور التي رأيتها، حيث بدت الأجرام السماوية مثل الألعاب النارية أو نوافذ زجاجية مزخرفة.

لقـد كان إلهامـا بالنسـبة لـي رؤيـة ابنـي الصغيـر يشـير إلـى

البصمات الكيميائية للغازات، وقد أدركت أن هذا هو مجاله الإبداعي وفنه الخاص .. في تلك اللحظة، شعرت وكأنني مهندس معماري يرى كاتدرائية شارتر لأول مرة في حياته، أو عاشق للفن الانطباعي تُرك وحيدا في غرفة مليئة بلوحات مونيه.

بدأ الأطفال بالازدهار في عامهم الثاني في الحضانة، وكان الجميع يتساءل: «كيف فعلتها؟» بالتأكيد هناك وصفة سحرية؛ فقد كانت الإنجازات هائلة بالنظر إلى ضآلة ما كنا نفعله في بعض الأحيان، وبالطبع قمنا بالعديد من جلسات العلاج مع الأطفال، ولكن ليس بالقدر الموصى به.

لم يصدقني أحد عندما قلت لهم أننا كنا نقضي الوقت معا بشكل طبيعي! فقد قضيت ست ساعات في المتحف مع أحد الأطفال وهو ينظر للوحة واحدة معلقة هناك، واشتريت لطفل آخر طاولة رسم مستعملة وأوصلتها لمنزل والدته، إضافة إلى ذلك، قمت بتعليم طفلة أخرى القراءة بطريقة غير اعتيادية، حيث خبزنا معا المئات من قطع الكعك، ورسمنا الحروف الأبجدية عليهم بواسطة سكر الزينة.

لقد كان ناتج عملنا في الحضانة مذهلا بحق، وذاع صيتنا في جميع أصداء ولاية إنديانا، وولاية إلينوي، حتى بدأ الأهالي

بإحضار أجداد الأطفال والأخصائيين العلاجيين ليشاهدوا ما يمكنهم القيام به الآن، وما ظنوا أنهم لن يستطيعوا الوصول إليه يوما ما.

في الواقع، بدا المشهد وكأنه موسم الحجيج، حتى إن أحدهم قاد سيارته لأكثر من ثلاث ساعات لحضور ساعة واحدة في إحدى الحصص المسائية، كان هذا بالنسبة لي ضربا من الجنون! لم يكن لدي علم بما يتوقعه هؤلاء بعد رحلتهم الطويلة هذه، ولكنني كنت متأكدة من أنها ليست مجرد حضانة تقع في مرآب إحدى الضواحي في نهاية طريق مسدود، فجميع الأطفال كانوا يرتادون أفضل العيادات الطبية، وكان أولياء أمورهم يدفعون مقابل أحدث التقنيات العلاجية، ويتواصلون مع أروع الأطباء، ومع ذلك ها هم هنا يجلسون على أرضية مرآبي الصغير.

أثناء تقدم حملي كنت لا أشعر بالراحة، تماما مثل كل حالات حملي السابقة، زاد وزني وأصبحت لا أستطيع النهوض أو النزول على الأرض مع الأطفال، وهذا الأمر يزداد صعوبة مع الوقت لدرجة أنني في أحد المساءات في شهر يوليو وبينما كنت أقوم بترتيب بعض الألعاب في الحضانة، وقعت على ركبي وشعرت بألم مبرح، شعرت حينها بأن شيئا خطيرا قد حدث.

تم نقلي بسرعة لغرفة الطوارئ وبقيت في المستشفى، حينها اعتقدت أن الجنين بين الحياة والموت، لقد شعرت أنني أموت، وكنت خائفة من إيذاء طفلي، لذلك أعطوني أكبر جرعة مسكنات ممكنة.

وبعد أيام من الفحوصات والألم المستمر، أخبرنا الطبيب أنا ومايكل أنهم وصلوا لطريق مسدود ولم يتم يتمكنوا من تشخيص سبب الألم، وبناء على ذلك، كان لزاما عليّ أن أخضع لعملية جراحية استكشافية وأنا في شهري الثامن من الحمل.

لقد كنت متعبة جدا، وأزال الجراحون المرارة والتي كانت ملتهبة جدا، وبعد أسبوعين ونصف ولد ابننا إيثان .. لا أحد ينصح بالولادة بعد ثلاثة أسابيع من الخضوع لعملية جراحية في البطن، ورغم هذه الصعوبات، وصل طفلنا الجميل.

بعد معرفتنا بأنه سيكون لدينا صبيا آخر، كنا نتحدث أنا ومايكل كيف ستبدو حياتنا، وقال مايكل وهو يتأملني: «سيواجه هذا الطفل أياما عصيبة يا كريس»، فقلت: «بغض النظر عما سيأتي به، فإنني لا أعتقد أنه سيأتي بشيء جديد علينا، لقد عايشنا التجربة مرتين مع أخويه الآخرين، ليس عليه إلا أن يأتي بشيء لطيف خاص به وسنتعامل معه، وكنوع من المزاح أصبح مايكل

ينـادي بطنـي المنتفخة «جوزيف الخطر» وكأن اسـمي الأوسـط «خطر».

كلمـا اقتـرب موعد ولادتي قل مزاحي ولا أسـتطيع حتى أن أفتـح عينـيّ، ولكي يغير مزاجـي طلب مني مايكل تسـمية الطفل الجديـد: (جوزيـف دينجـر «خطـر» بارنيـت)، وبعـد التفكيـر؛ اعتقدت أنه مجرد اسـم أوسـط، فإن لم يتقبلـه عندما يكبر يمكنه تغييره.

ولكن عندما وضع الأطباء إيثان بين ذراعي، كلانا كان يعلم أن: (جوزيـف الخطـر) لـم يكن الاسـم المناسـب لـه، يمكن أن يكـون هـذا الاسـم مناسـبا لأخيه ويسـلي، ولكـن ليـس لإيثيان، وللوهلـة الأولـى لـم نر أي شـيء خطير فـي هذا الطفـل الصغير الجديد، وفي غضون أيامه الأولى حصل على لقب ظل عالقا في عقلي في العامين الأولين: «المسالم».

دائمـا يظـن الآباء أن مولودهم الجديد مثالي، لكن إيثان كان كذلـك بالفعل؛ فهو لا يبكـي ولا يقلق، ويأكل جيدا، وينام طوال الليل، ويبتسم إن أضحكته، حتى إن لم أفعل ذلك لقد كان هادئا وسـعيدا، لدرجـة أنني اعتقدت بالفعل أن هناك شـيئا مريبا، حتى أقنعني طبيب أطفالي بأنني أعذب نفسي بهذه الأفكار التي لا داع

لهـا .. وعلى النقيض من إخوته فقـد ولد إيثان وهو يتمتع بصحة جيدة منذ البداية.

فـي الواقـع كنا علـى الدوام نترقـب وقوع مشـكلة ما؛ فنحن نعرف الإحصائيات، ولأكثر من مرة كنت قد لاحظت من معالجي ويسـلي أنهم يتفحصون عضلاته وقدرته علـى التواصل البصري عند حضنه أو لعب الغميضة معه، ولم يجدوا أي مشكلة معه.

ولكن إيثان طفل سعيد ولطيف وهادئ ويتمتع بصحة جيدة.

بعـد السـنة الأولـى؛ وصل جيـك حالـة متقدمة مـن التوحد حيـث أنـه لم يكن يسـتطيع حضني، وكان ويسـلي يعانـي من ألم شـديد وفجأة تحول لكتلة من النشاط، لكن «إيثان المسالـم» كان جل ما يفعله احتضاني والغرق في سبات عميق، لقد كانت حمالة الأطفـال الخاصـة بإيثـان دائما متسـخة بطـلاء الأظافـر، وعجينة البسكويت بسبب أنشطتنا في الحضانة، لكنني لم أكن أهتم ألبتة، فأينما أكون سيرافقني إيثان.

محترفو الحضانة

يُحب مايكل أن يقول لي أنني أدخلت جيك إلى الحضانة خلسة، إنه محق في ذلك نوعا ما.

بحلول موسم تخفيضات العودة للمدارس في أغسطس ٢٠٠٣، بدا أطفال مجموعتي في الحضانة وكأنهم مخضرمون، حتى الأطفال الأقل أداء فاقوا كل ما كان متوقع منهم عند دخولهم الحضانة، لقد شعرت بكل تأكيد أننا جاهزون، لكن السؤال الأكبر: هل المدارس جاهزة لاستقبالنا؟ كل عام قبل بدء الدراسة، يحضر أطفال الحضانة الجُدد نشاطا ترحيبيا في المدرسة، حيث يلتقون بمدرسيهم ويشاهدون فصولهم الدراسية لأول مرة.

لقد كانت ليلة مختلفة بالنسبة لنا، إنها فرصتي لكي أوضح لجيك أوجه التشابه بين ما كنا نفعله في الحضانة وبين الفصل الدراسي الذي سيلتحق به العام القادم، همست لجيك قائلة: «ستجلس هنا أثناء تمرين التواصل الاجتماعي»، «وهذا الصندوق هو حجيرتك الجديدة» كما كنا نسميها في الحضانة.

أوما برأسه مشيرا أنه يعرف، لكنني كنت سعيدة لمقابلة مُدرسّته السيدة هوارد، لقد أحببتها بسرعة لذكائها ولطفها وشخصيتها الودودة، وشعرت بالامتنان لسنوات خبرتها الطويلة، حيث يمكنك أن تستشف أنها قد تعاملت مع العديد من الأطفال على اختلاف أعراضهم وأساليبهم في التعلم على مدار هذه السنين.

أخبرت السيدة هوارد عن حالة جيك وأشعرتها بالاطمئنان بأنني واثقة من أنه سيكون على ما يرام: « كنا نقوم بالأنشطة التعليمية كل ليلة في الحضانة لمدة عامين»، ردت السيدة هوارد وهي تضع يدها على كتفي قائلة: «لنعطيه القليل من الوقت ونرى كيف تسير الأمور».

كنت ممتنة أنها لم تبحث عن عذر لكي تعامله بصرامة، لكنني أعرف أيضا أن لديها خمسة وعشرين طفلا في الفصل، وجميعهم جديرون بالاهتمام، ولا أحد يمكن أن يكون صبره بلا حدود؛ لذلك إذا أراد جيك أن يواصل دراسته في مدرسة اعتيادية، عليه اجتياز هذا الاختبار.

بالنسبة للسيدة هوارد، يعد جيك طفلا مثل كل الأطفال الوافدين من الحضانة، لكن إدارة المدرسة كان لها رأي آخر،

فبينما كنت أسير أثناء حفلة المدرسة الترحيبية، استوقفتني المديرة قائلة: «سيدة بارنيت، من فضلك هل يمكنني رؤيتك في الردهة؟»، لقد كانت تريد التحدث معي بخصوص برنامج التعليم المنفرد لجيك.

بعد عرض أحدث التقييمات للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، قاموا بعرض ملف يحتوي على تحديد للأهداف الأكاديمية والسلوكية والاجتماعية المحددة من قبل المدرسة للأطفال في العام القادم، حيث يتضمن هذا الملف تفاصيل مثل: ما هو الوقت الذي سيقضيه الطفل في التفاعل مع الأطفال الطبيعيين؟ وما أنواع الخدمات الإضافية والمساعدات التي سيتلقاها الطفل في الفصل الدراسي؟

في هذه اللحظة، كان جيك مُصنفا كطفل من ذوي الاحتياجات الخاصة.

جيك البالغ من العمر ثلاث سنوات كان متهورا ولا يتكلم ولا يستجيب، ولم يكن مثل أي شخص يبدو عليه أنه سيتعلم القراءة والكتابة أو حتى يكون له أصدقاء يوما ما.

لم يعتقد المُشرفون على حالته بأنه سيتعلم أبدا؛ لذا كانت المدرسة تتوقع أن يبقى عالقا ذهنيا في سن الثالثة حتى عند بلوغه

الخامسة، وبالتأكيد هو لم يكن كذلك، فلقد بذلنا جهدا عظيما عندما كان في الحضانة التمهيدية، ولكن مدراء المدرسة لم يعرفوا ذلك بعد، ولم أرغب بالمواجهة معهم، كل ما كنت أريده هو أن يمنحوني الفرصة لأريهم قدرات جيك؛ ولذلك، وكما قالت لي السيدة هوارد: «كل ما نريده هو بعض الوقت»؛ لذلك اعتذرت للمديرة ولم أتفوه بكلمة، وأخبرتها أن لدي مولودا جديدا وسأكون منشغلة معه خلال الأسابيع القليلة القادمة.

لم يكن لدي حتى دقيقة فراغ واحدة لمقابلتها حتى الأسبوع الثالث من شهر سبتمبر، وكل ما كنت أريده هوا إعطاء جيك بعض الوقت ليعرفوه على حقيقته ويثبت أنه ليس ذلك الطفل الصغير الذي يرونه الآن.

نظرت بسرعة لمفكرتي لأراها مليئة بالمواعيد: (الحضانة، ثم موعد ويلسي الأول مع طبيب الأسنان، والعديد من المواعيد)، وحددت موعد لقائي مع المديرة بعد ثلاثة أسابيع.

لكي أكون محقة، لا يوجد من يحل محلي في الحضانة ليوم واحد، ولحسن الحظ لم تكن المدرسة تكترث بتأخري عن المواعيد قليلا، فالمدراء لديهم عدد كبير من الأطفال ولا وقت لديهم لتقييم جيك ورؤية أنه وصل لذيل القائمة في صفه، وفي

نهاية المطاف، إذا ساء الأمر كثيرا في المدرسة العادية، كانوا يعلمون أنه يمكنهم إلحاق جيك ببرنامج التعليم المنفرد لذوي الاحتياجات الخاصة.

كان دخول جيك للحضانة يوما عظيما بالنسبة للعائلة، ففي تلك الليلة، أعد مايك العشاء لنا، وشكرني لأنني منحت جيك حياة جديدة، وفي الحقيقة أنا التي يجب أن تكون ممتنة لمايكل، حيث من السهل أن تساند شخصا عندما نكون على اتفاق معه، ولكن الأروع هو مساندتك له وأنت لست متفقا معه تماما، وأنا أعرف كم كان صعبا على مايكل أن يتحلى بالإيمان بي، ولكن كل جزء من كيانه كان يؤمن بي. وكان هذا سببا إضافيا لكي أتوسل إلى الله بأن لا تحدث كارثة عندما أخرجت جيك من التعليم الخاص.

كانت استشارة هؤلاء الخبراء مهمة جدا لمايكل أكثر مما هي لي، ومع ذلك، لم يسمح لي بالمخاطرة فقط، ولكنه ساندني بكل خطوة أخطوها في طريقي.

لم يعط جيك الفرصة لأي أحد لكي يتذمر، فعندما اتصلت لاحقا بالمدرسة لمعرفة عما إذا كنا بحاجة للاجتماع بشأن برنامج التعليم المنفرد، قالت لي المديرة بنبرة حائرة أنه يمكننا التأجيل قليلا، وقالت مُمازحة: «هل هذا هو نفس الطفل؟».

لـم يكـن جيك وحـده قصة النجـاح في الحضانـة، ففي أول ذلك الشـهر، رن الهاتف لأسـمع صوت أولياء أمور الأطفال في الحضانـة مـن أنحـاء الولايـة وخارجهـا، معربيـن عن سـعادتهم الغامرة، فالأطفال الذين أكد الأطباء أنهم لن يتكلموا أبدا تكلموا ودخلـوا الفصـل التعليمـي العـام، وأيضـا أولئك الأطفـال الذين جاؤوا وهم يعانون من مشاكل سلوكية خطيرة وأُخبر آباؤهم أنهم لـن يخرجـوا مـن الفصـول التعليميـة الخاصـة، دخلـوا الفصول التعليمية العامة، والآباء الذين قيل لهم أن أطفالهم يجب أن يبقوا فـي البرامج العلاجية رأيناهم يذهبون للمدارس، وحتى الأطفال من ذوي المستويات المتدنية، احتاجوا قدرا ضئيلا من المساعدة بعكس ما كان يتصوره أي شـخص، وأصبح لديهم أمل، لقد كان هناك العديد من المدراء المصدومين في أنحاء ولاية إنديانا ذلك العام.

لقـد كنـت فخورة بالمجتمـع الذي بنيناه مثلمـا كنت فخورة بالأطفال، ولم ننتظر من أي جهة أن تأتي وتنقذ أطفالنا، لقد فعلنا ذلك بأنفسنا، فعلناه سويا بالعمل الجاد والمرونة.

عندما أرى طفلا أحدث تطورا رغم حالة التوحد، أعرف أن شخص ما حارب بشراسة من أجله.

لا تهم ماهية تلك الإنجازات، سواء تدرب على استخدام المرحاض، أو التحق بالمدرسة الثانوية، أو إذا تحدث متأخرا، أو حصل على وظيفته الأولى، ما أعرفه هو أن هناك شخصا كان يقف خلفه، ويؤمن به، ويحارب من أجله.

يجب على كل الآباء في وقت من الأوقات أن يقاتلوا بالنيابة عن أطفالهم، وليس فقط الآباء الذين لديهم أطفال مصابون بالتوحد أو اضطرابات النمو، وهذا يجعل كل والد يواجه خيارات صعبة طوال حياة طفله، بالرغم من أن هذه الخيارات ليست بصعوبة خياراتي، وسواء كان التعامل مع مرض جسدي، أو إعاقة، أو تنمر، أو تعامل مع الفتيات اللئيمات، أو سياسة فريق البيسبول، أو لجان القبول الجامعي ذات التنافسية العالية، فيجب على كل والد أن يتغلب على هذه الصعاب نيابة عن ابنه أو ابنته.

أعلم أن كلا منا يعاني الألم والخوف، ولكنه بحاجة لأن يستجمع قوته، فنحن نحارب من أجل أطفالنا، ونفعل ذلك بكل حب ورغبة، وأنا أؤمن أن هذا ما يجعلنا آباء.

من السهل القول: «ما الذي أعرفه؟» عندما أواجه بكل هؤلاء الخبراء والآباء المعاصرين الذين يتعاملون مع العديد من الخبراء؛ فأنا مجرد شخص بسيط يجيد إعداد طبق المعكرونة

بالجبن، ولكنني نموذج يحتذي به الكثير من أولياء الأمور في الحضانة، وخصوصا الأمهات، فأنا أقول لهم: «افعلوا ما تمليه عليه قلوبكم».

إن حدسي الأمومي مثل بوصلة تشير بشكل صحيح إلى جهة الشمال، وتجاهل هذا الحدس لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة جيدة، ففي بعض الحالات عندما تنحرف البوصلة بعيدا عن المكان الذي يريدني الخبراء الذهاب إليه، كان يجب عليّ أن أثق بما يُسمى: «حدس الأم»، وقد عرفت أنني إذا أبقيت جيك في مركز التعليم الخاص، فإنني سأفقده، وهذا الضوء الساطع سينطفئ للأبد.

بمجرد دخول جيك الحضانة كان واضحا أن مهاراته الأكاديمية متقدمة مقارنة ببقية الأطفال، فعلى سبيل المثال؛ معظم زملائه لم يكن بمقدورهم القراءة ألبتة، ولا سيما قراءة كتب المرحلة الابتدائية بكل تأكيد، لكننا اتفقنا مع جيك أن لا يبوح بهذا السر لأحد في المدرسة.

لقد بذلنا جهدا عظيما لإدخاله لمدرسة عادية، وأردنا فقط أن يكون مجرد طفل آخر في الفصل.

والحق يقال؛ فإن مهارات القراءة الأساسية لديه كانت في

مستوى الصف الثالث أو الرابع عند دخوله الحضانة، وأظن أننا لو فهمنا بالضبط ما يدور في رأسه، لرأينا أنه يُحلل ويفهم مسائل الرياضيات والفيزياء بمستوى طلاب المدرسة الثانوية أو الجامعة.

لم ينته عملنا التربوي بعد، فما يزال لدي أنا ومايكل ما نقوم به وهو تعليم جيك التواصل مع العالم المحيط به.

وفت السيدة هوارد بوعدها وأعطت جيك فرصة، كما أن جيك كان طفلا هادئا، وهذا ساعده كثيرا حسب اعتقادي.

هل كان مشتتا؟ نعم، أحيانا، لكنه لم يكن فوضويا أبدا، وبكل تأكيد ما هذا جعله يتجنب لفت الانتباه.

لا يزال جيك بحاجة للتنبيه من حين لآخر، ففي الحضانة لم نكن نفصل طابور البنات عن طابور الأولاد كما يفعلون في المدرسة؛ لذا، أظن أنه كان لابد للسيدة هوارد أن تذكره بلطف، وربما لأكثر من مرة بالطابور الذي يجب أن يقف فيه، ولكن لم يكن لدى جيك أي مشكلة سلوكية، حتى في ذروة حالة التوحد، ولم يكن يتشاجر مع أي طفل لأي سبب كان، وعلى سبيل المثال؛ كان معظم الأطفال يتشاجرون غالبا على الاستحواذ على إحدى الدراجات الهوائية في فناء المدرسة، أما جيك لم يكن

ليفعل هذا أبدا، ولم يكترث لذلك، حتى عندما كان ديفين وصديقه إيدن يتشاجران على ركوب الدراجة الكبيرة، حيث كان يختبئ في أخر الطابور، وكان يلعب مع كوري بسعادة وصمت على لوح الطين، أما إذا استدار كوري ليمد يده مخربا الطين، فإن جيك ببساطة سيترك كوري مع الوعاء ويذهب بعيدا.

لم يكن جيك ليثير غضب أحد، أو ليبدأ شجارا طالما لا أحد يحاول أخذ كتبه الغالية التي تتحدث عن الصخور ونظام الطقس، وغالبا لم يكن هناك أي أحد يهتم بذلك، لقد كان سعيدا جدا، أما السيدة هوارد، فقد واصلت تذكير جيك من حين لآخر بكل هدوء، ومع إعطائه القليل من الوقت والمساعدة الإضافية، أتقن جيك الأنشطة الروتينية في فصله الجديد.

في الحقيقة، يصبح جيك صعب المراس عندما يحدث شيء خارج عن المألوف، واحتمال استدعائه لمناقشة برنامجه للتعليم الفردي الخاص يلوح في الأفق؛ لذلك عملت بجد لإعداده وتهيئته لأي اختلاف قد يطرأ على الجدول الزمني المعتاد.

كنت أصطحب جيك كل صباح لنتناول وجبة الإفطار، وبينما يأكل قطعته من كعكة القرفة، كنت أقوم بتنبيهه بأفضل ما

أستطيع لأي شيء غير متوقع يمكن أن يحدث، كأن نقوم بجولة داخل المدينة، أو نشاهد فيلما مميزا عندما نتناول الغذاء، أو تجمع لكل الأطفال في المدرسة في صالة الألعاب الرياضية، أو مغادرة الفصل باكرا بسبب العطل يوما ما.

بالنسبة لي كانت وقت وجبات الإفطار بمثابة اجتماع المدرب بفريقه قبل بدء المباراة، وكان جيك هو البطل وأنا مدربته.

قلت لجيك قبل يومين من عيد الميلاد: «أرجوك لا تخبر الأطفال الآخرين أن سانتا كلوز ليس حقيقيا، حتى وإن كنت تميز أنه الأستاذ أندرسون، أرجوك، لا تناده باسمه الحقيقي، بل سانتا كلوز، وقم باللعب معه، وقد تضطر للجلوس في حضنه وتسأله عن الهدية التي ترديها بينما يلتقط أحدهم صورة لكما، اتفقنا؟».

مع تلك التهيئة والتمهيد استطاع جيك تحمل ذلك.

ومن المفارقات، أنه لا يوجد ما يُنفر جيك أكثر من الأنشطة المبتذلة التي تقوم بها المدرسة لجذب الأطفال في مثل عمره، فهو لم يستطع فهم حسهم الفكاهي السخيف، وهذا كان يربكه.

لم يفهم جيك أبدا ما هو الهالوين؟، والتي هي أقرب العطلات لقلبي على المستوى الشخصي؛ لأن ارتداء أزياء غريبة

لم يكن له معنى بالنسبة له، وكان يسألني أسئلة كثيرة على سبيل المثال: لماذا تتظاهرين بشيء عكس ما أنت عليه؟ لماذا يعطوننا الجيران الحلوى بينما يوجد العديد منها في الدلو البلاستيكي الكبير على شرفة منزلك؟

لا يمكنني أن أنسى أبدا تعابير وجهه عندما أخبرته عن النشاط التقليدي العريق في الحضانة.

«خمّن ما الذي سترتديه غدا جيكي؟» «بيجامتك؟»؛ نظر إليّ بقلق كبير وكأنه خائف من أن الجنون قد أصابني، وقال: «ماما، أنا لا أرتدي بيجامتي خلال النهار، أرتديها فقط عند النوم».

أصررت على رأيي وفعل هو ذلك أيضا:» أنا لا أرتدي بيجامتي في المدرسة»، وظل يشرح بصبر ليس له حدود: «أنا أرتدي بيجامتي عند النوم»، بالرغم من أن نقاشنا كان ممتعا، إلا أنني شعرت أنه يجب أن يتعلم درسا مهما.

أعرف أن العديد من الآباء يذهبون للمكتب ليحصلوا على رسالة إعفاء لطفلهم المصاب بالتوحد من المشاركة في هذا التقليد، ولكن كما اعتاد جدي أن يقول، لا يمكنك الهروب من مشاكل الحياة بالحصول على إعفاء، وعوضا عن ذلك، يجب أن

نساعد جيك بكل الأدوات المتاحة ليتغلب على شعوره بعدم الراحة، وحتى يتمكن من العيش في هذا العالم، فإنه يحتاج أن يرتدي البيجاما أحيانا.

ليس واضحا أن ما فعلناه سوف ينجح مع جميع الأطفال المصابين بالتوحد، لكنني أملك ما يكفي من الخبرة في مع جيك لتوقع ما يمكن أن تكون ردة فعله للأحداث غير المتوقعة.

قبل بضع سنوات، جاء معي إلى قسم ترخيص السيارات: (دائرة تسجيل المركبات)؛ لكي أقوم بتجديد رخصتي، ولكنهم كانوا يصلحون واجهة المبنى، لذلك ذهبنا إلى الباب الخلفي، لكن جيك لم يستطيع الدخول من الباب «الخلفي»؛ فقد كانت قواعد قسم ترخيص السيارات محددة بوضوح، وكانت هناك أسهم مرسومة على الأرض توضح لك مكان الوقوف إذا كنت بحاجة لصورة عن رخصة قيادتك المؤقتة، وهناك أيضا علامات مخصصة في أي طابور تنتظر فيه إذا كنت بحاجة إلى هوية تعريف لغير السائق، كنت أتخيل أن جيك سوف يفهم دلالات هذا المكان، ولكن لم يحدث ما توقعت، كنت أحاول إقناعه بالدخول من باب يحمل لافتة كبيرة مكتوب عليها «مخرج»، ولكنه لم يستطيع فهم ما يحدث في تلك اللحظة.

اعتقدت لوهلة أنني سأضطر للعودة مرة أخرى لحين إصلاح الباب الأمامي، لكنني كنت بحاجة لرخصتي، فأخذت نفسا عميقا، وحملته، وخطوت خطوة جرئية ودخلنا من الباب: «الخلفي»، ومع الوقت، استعاد قوته، ولكن الحادثة منحتني نافذة داخل عقل جيك، فالمرور من الباب الخطأ كان أمرا محزنا للغاية، وسبب له الكثير من الألم.

في نهاية ذلك اليوم كانت المكافأة الحقيقة عندما شاهدته يلعب مع ويسلي على الشرفة الأمامية؛ حيث كان لدى جيك لعبة غسيل سيارات من مستويين حيث يمكنك قيادة السيارة داخل العلبة، كلاهما أحب اللعب بها، ولكنهم لم يتمكنوا من مشاركتها، وبمجرد أن بدؤوا اللعب معا، بدأ الشجار، فأدركت سبب ذلك، خصوصا بعد الحادث الذي وقع في قسم ترخيص السيارات.

كان جيك يقود السيارة عبر الباب الذي يحمل علامة: «دخول»، ويغسل السيارة، ثم يدفع السيارة النظيفة عبر المنحدر الذي يحمل علامةك «مخرج» قبل ركنها بشكل منظم بالخارج، إما ويسلي فقد كان أقل اهتماما إلى حد ما في تنظيف السيارة، وكان يقذف السيارة في الهواء وينزلها على السطح، ويدفعها للخلف في العلبة بسرعة فوضوية، أو يقوم بتشغيلها بعيدا عن

المنحـدر، أو ينزلهـا تدريجيـا لتصطـدم بعشـرات السـيارات في الأسفل.

كان ويسـلي يثيـر جنـون جيك، فهـو لـم يأخـذ القوانين على محمل الجد؛ ولذلك أجلسـته وشـرحت له: « أنت شخص دقيق يا جيك، ودائما تغسـل السـيارة بالطريقة الصحيحة، لكن ويسلي طفـل فوضوي ويحب أن يلعب بحماقـة بهذه اللعبة عندما يحين دوره، لا بـأس يـا عزيزي، يمكنـك أن تلعبها أنـت بجدية؛ فهناك أكثر من طريقة للعب هذه اللعبة».

بعـد ذلـك فهـم جيـك الفكـرة وأنِ النـاس يلعبـون بشـكل مختلـف، وأنـه لا بأس بأن يتصرف أحدهـم بحماقة عندما يحين دوره، وكان شـرح هـذا له مفيدا بشـكل مدهـش مثلما حدث في يـوم البيجاما، وبالطبع، كان الأمر سـخيفا عنـده، ولكنه يجب أن يتحمله تماما كما يجب أن يتحمل الطريقة التي يلعب بها ويسلي مع غسيل السيارات.

كنـت حريصـة دائما أن يقـوم جيك بدوره، وهـذا مهم جدا، وكان حين يسـري إلى سـمعي أن جيك سـيواجه تحديا كبيرا في المدرسة أبذل قصارى جهدي لأطمئنه خلال تناول وجبة الإفطار المعتادة؛ لكي يشعر أنه قادر على فعل ما يريد لاحقا، على سبيل

المثـال؛ لـو كان مـن المفترض أن يشـاهد فيلمـا تتخلله أصوات مرتفعـة وقت الغذاء، فسـأخبره مثلا، بأننا سـنقوم بعـدّ كل القطع المعدنيـة الموجـودة فـي غرفته عندما نعود للبيـت، ولو أنه ذهب للفصـل الدراسـي مع مـدرس آخر لـكان بإمكانه العـودة للمنزل وتركيب أحجية الصور المقطوعة المكونة من خمسة آلاف قطعة أو سـنذهب في نزهة لينظر إلى لوحات أرقام السـيارات، فطالما أراد ذلك.

لـم تكن هذه الوعود مجرد رشـاوي مثلمـا تقول لأي طفل: «افعل ذلك، وسـأعطيك الحلوى»، فهذا لـم يكن ليفيد مع جيك، فكانت رسـالتي له: «إن تخطي هذا ربما لا يكون بالأمر السـهل، لكـن لاحقـا أعدك أنه يمكنـك أن تكون على طبيعتـك وتفعل ما تريد».

كان لدى جيك الكثير من الوقت للقيام بالأشياء التي يحبها، وفي نفس الوقت، كان لديه ما يكفي من الوقت لكي يفعل الأشياء المهمة بالنسبة للآخرين ولي أو للمدرسة.

لـم أخبـره بأنه لا يسـتطيع حل ألغازه، بـل يمكنه ذلك طالما شـاء، ولكن فقط بعدما يرتدي الزي الموحد الذي يشـبه البيجاما فـي المدرسـة، وكان عليـه أن يتحمل ذلك اليـوم، ولكن لـم يكن لزاما عليه أن يغير حقيقة نفسه لفعل ذلك.

ثلاث رسائل

«لا يكلف الله نفسا إلا وسعها»، هذه المقولة هي ما يخطر ببالي دوما عندما أتذكر كيف كان إيثان طفلا هادئا ومرحا خلال عامه الأول.

لم تكن صحتي على ما يرام، ولم يحدث أن أخذت إجازة لأكثر من ثلاثة أيام بعد ولادتي لأي من أطفالي؛ وذلك لأن هناك العديد من الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة في الحضانة بحاجتي، وحقيقة أنني لم أحصل على قسط من الراحة بعد إجرائي عملية جراحة البطن عندما كنت حاملا في الأشهر الأخيرة مما كانت سببا في جعل فترة شفائي بطيئة ومؤلمة جدا، ومما زاد الطين بلة أنه بعد ولادة إيثان وبداية دخول جيك الحضانة في الخريف، بدأت أعاني من نوبات ألم قوية على جانب وجهي، كل هذه الأحداث أشعرتني بالعجز تماما، وشعرت كأن آلاف الإبر الملتهبة تنغرس على امتداد فكي وصولا لمحجر عيني، وحتى نفحات الهواء الباردة كانت تؤلمني، أما أكثر ما كان يزعجني هو أنني لم أعرف سبب كل هذا الألم.

كنت مرهقة طوال الوقت بشكل لا يصدق، وعلى الأقل بدا هذا منطقيا؛ فالجميع يشعر بالتعب خلال الأشهر الستة الأولى من ولادة طفل جديد، لكن بغض النظر عدد حبات الفيتامينات التي أتناولها والوقت الذي أذهب فيه للفراش مبكرا بعد نوم الأطفال بدقائق في معظم الليال، فلا يبدو أنني أحصل على ما يكفي من الراحة أبدا.

استيقظت صباح عيد الميلاد متعبة جدا لدرجة أنني بالكاد استطعت النهوض من السرير، وحتى حمل كاميرتنا الرقمية الصغيرة لالتقاط صور للأطفال وهم يفتحون هداياهم تطلب مني جهدا كبيرا.

في الصباح دخلت المطبخ لأعد البيض المخفوق للإفطار، وسحبت علبة البيض من الثلاجة، ووضعتها فوق المنضدة، وفكرت في أنني سأضطر للجلوس لكسر هذا البيض، وسحبت الكرسي وجلست عليه، وخطرت على بالي فكرتين.

الفكرة الأولى: ما هذا؟ هل يجب أن أجلس لأصنع البيض؟

اليوم العادي بالنسبة لي يعني مطاردة اثنى عشر طفلا لمدة ثلاث عشرة ساعة على الأقل بينما أحمل طفلي الصغير بالحمالة على صدري والآخر على فخذي.

عندما تعمل في الحضانة أنت لا تحتاج للاشتراك في صالة الألعاب الرياضية، لأنك عادة لن تأخذ استراحة حتى السابعة والنصف ليلا عند عودة الأطفال لبيوتهم؛ لذا حقيقة أنني لا أستطيع جمع قواي لخفق البيض كان أمرا غريبا بالفعل.

أما الفكرة الثانية كانت: لماذا لا يمكنني تحريك يدي اليسرى؟ هذا مثير للغرابة.

ببساطة، لم يكن الأمر مخيفا أو مؤلما، ولكن لا يمكنني تحريك يدي أو حتى أي جزء آخر من الجانب الأيسر في جسدي.

جلست للحظات حتى أتى مايكل، وحملني للسيارة متجها بي للمستشفى، لقد أصبت بجلطة في الثلاثين من عمري.

ذلك اليوم وأنا أنتظر في المستشفى، شعرت بالعجز لأنني لم أستطع العودة للمنزل، فإذا لم أكن هناك، فمن سيفعل ما يجب فعله؟ كنت أدرب جيك خلال أيامه في الحضانة، وتلك المسرحيات في نهاية اليوم ليست مهام سهلة يمكن أن يتكفل بها شخص آخر، كنت أفكر في ابني ويسلي الذي لا يستطيع حتى أن يتحرك بنفسه، والذي قد يختنق ويموت لو أن أحدا أعطاه السوائل بطريقة غير التي أوصى بها الأطباء، ناهيك عن ضرورة ترتيب المواعيد مع المعالجين، وعلاوة على ذلك كان هناك إيثان، طفلي الجديد الذي يحتاج أمه.

شعرت بالخوف حقا تلك الليلة، ماذا سيحصل للأطفال إن لم أكن معهم؟ ماذا سيحصل لو أن أحد مقدمي الرعاية قليلي الخبرة أعطى نانسي - تلك الطفلة في الحضانة - الأدوية الخاطئة، أو الأسوأ من ذلك إذا لم يتذكر الجرعة مطلقا حيث يمكن أن تصاب بنوبة قاتلة، كما أن المصاب بالتوحد كالعدّاء، وهذا يعني أنه إن غاب عن نظرك فإنه سيهرب، وإذا لم تراقبه كل لحظة فسيختفي بلمح البصر، فالعديد من الأطفال المصابين بالتوحد يموتون بهذا السبب.

ثم راودتني فكرة أخرى مرعبة: ماذا لو أصابتني جلطة دماغية أخرى؟ ماذا لو أنني لم أستيقظ أبدا؟ ما الذي سيحدث لمايكل والأطفال؟

بدلا من أن أنام في تلك الليلة جلست وكتبت رسائل لأطفالي، بدا الأمر وكأنه ألبوم صور يضم كل اللحظات الرائعة والعادية التي أريدهم أن يتذكروها: حين لامست أصابعنا الماء خلف القارب الذي كنا نجدف عليه في البحيرة، وحين شوينا حِلوى المارشملو وأكلناه مع البسكويت في الفناء الخلفي، وحين تسللنا إلى السرير وشاهدنا فيلما ونحن تحت البطانية ومعنا وعاء كبير مليء بالفشار.

لكنني عندما انتهيت كانت الرسائل ,كأنها سرد لكل شيء أحببته فيهم.

طلبت منهم أن يستخدموا هباتهم لمساعدة بعضهم البعض، وطلبت من جيك الحذِر والمُفكر أن يعتني بأخيه المتهور: «دع ويسلي يشتري سيارة المازيراتي التي أحبها، ولكن تأكد أيضا من أنه قد وضع خطة لتقاعده»، وطلبت من ويسلي الودود أن يحرص على أن يستمتع جيك بحياته، وأن يبقى بجانب شقيقه في اليوم الذي لا مفر منه عندما لا يصيب جيك في حل مسائله بشكل متقن، وكتبت ببساطة لإيثان: « لا تخف أن تكون على سجيتك، اكتشف ما تحب أن تفعله، وافعله».

أخيرا ذهبت للسرير حوالي الساعة الرابعة صباحا وأنا أشعر بإحساس عميق بالسلام؛ فأنا، حتى لو لم أكن حاضرة لمساعدة أبنائي على التمسك بما هم عليه، فعلى الأقل ستكون الرسائل التي كتبتها حاضرة.

استيقظت في صباح اليوم التالي وبدأت حياتنا من جديد، حتى بعد أن سُمح لي بالعودة للمنزل إلا أن حالتي لازالت تتطلب رعاية كبيرة من الجميع، فقد كان الجانب الأيسر من جسدي مشلول، وفمي متدل، ولا يمكنني إمساك الأشياء بيدي

اليسرى، وكنت أجر رجلي اليسرى خلفي، وفي كثير من الأحيان يتحتم على مايكل أن يساعدني حتى أتمكن من المشي.

حتى إن بعض الكلمات التي استخدمها في المنزل بشكل دائم مثل: « الأريكة» أو «السيارة» تكون على طرف لساني، لكنني لم أكن قادرة على نطقها، وفي بعض الأحيان أستبدلها بكلمات أخرى مختلفة تماما عن الكلمة التي قصدتها: «المشتريات لا تزال في المصعد» أو «هل أخذت طعامك من الخزانة يا جيك؟» ولأنه جيك فسوف يذهب ويفتش الخزانة بحثا عن الطعام.

أصبح مايك العصا التي أتكئ عليها لكل مواعيد الأطباء، وكان لزاما عليه أن يحصل على إجازة من عمله ليتمكن من المساعدة في الحضانة، لكن وصلته أخبار مفجعة، فقد تم تشخيص مديره ومعلمه توم بحالة متقدمة من سرطان الرئة، وقيل: إنه لن يعيش سوى بعضة أشهر أخرى، لقد كان توم أول الأشخاص في حياة مايكل المهنية الذين ساندوه ودعموه، إنه بمثابة الأب والبطل بالنسبة لمايكل، وفقدان توم سيكون صدمة عاطفية مفجعة له.

وللأسف، كان هناك أيضا عواقب أخرى؛ حيث استبدل توم

وحل محله رجل أصغر سنا، وأقل تعاطفا مع الأشخاص الذين شجعهم توم؛ لذا في الوقت الذي كان فيه مايكل يحتاج للكثير من المرونة والسخاء من مكان عمله، كان بدلا من ذلك قلقا من خسارة وظيفته، بالإضافة لمساعدته في الحضانة، واصطحابي لمواعيد الأطباء، ومتابعة عمله، كان مايك لا يزال يذهب مرتين في الأسبوع إلى مستشفى الأطفال لمتابعة علاج ويسلي المائي، وكان يدير المنزل ويقوم بجميع الأعمال المنزلية التي كنت أفعلها دائما، مثل: التسوق لشراء البقالة، وإعداد الطعام وغسل الملابس، كنت أعطيه التعليمات وأنا على الأريكة، لكنني لم أستطع قيادة السيارة، أو التسوق أو أي شيء يمكن أن يساعده فعلا؛ فقد كان يقوم بكل شيء بمفرده.

في ذلك الوقت كنت أرى مايكل بطلا خارقا، فقد احتجت لسنوات للتكيف مع العمل في الحضانة، ومع الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة هناك، والمتطلبات الصارمة لجداول المعالجين، فأنا لدي خبرة كبيرة في إدارة المنزل، لكن مايكل لم يكن لديه أي من ذلك، ومع ذلك لا يمكنني أن أصدق كم كان قويا وصبورا.

لقد سُحرت من طاقته، وكوني ضعيفة جسديا جعلني هذا أكثر امتنانا لمايكل كل يوم.

لكـن هـذا كان لا يحتمـل، ولا أحـد منا أدرك هـذا في ذلك الوقت، ويبدو أن مايكل متجه نحو أزمة شخصية.

فـي نهاية المطاف؛ أنا لا أعتقـد أن الجدول الزمني المروع، والقيـام بما هو مطلوب من أوصله لذلك، لقد كان شـيئا أكبر من ذلك بكثير.

فهـم مايـكل بالتأكيد عظمـة التحديات التي تواجهنا بسـبب حالـة التوحـد لجيك، إضافة إلى شـدة مرض ويسـلي، لكنه كان قـادرا علـى الابتعاد عن هـذا العمـل اليومي المنهـك بذهابه إلى عملـه، وكان جليا أن مايكل له الدور الأعظم في أن تمضي أيامنا في الخمس سـنوات الماضية بالشـكل الذي كانت عليه، فهو لم يتوقف أبدا عن تفهم ما نواجهه من صعوبات، وكان كل يوم أشبه بمعركـة فـي سـاحة حرب يبـدو الانتصار فيهـا بعيد المنـال .. ما الذي يمكن أن يحدث لتتجه الأمور نحو الأفضل؟

أخـذ مايـكل عهـدا على نفسـه بـأن يهتم بـي عندمـا أنجبت جيـك، وأنا مؤمنة أنه أخذ هـذا العهد بجدية أكثر من العهد الذي قطِعه كل منا للآخر عندما تزوجنا، في ذلك اليوم عندما كان يرقد بجانبي على السـرير، قال لي بأنه سـيفعل كل ما بوسـعه ليجعلني سـعيدة ومرتاحـة مهمـا حدث وها هـو يفي بوعده؛ لقد سـاندني

خلال حالة توحد جيك وعلاجه، وعندما أخبرني الأطباء أن ويسلي قد يموت، وخلال لحظات شكي في انعدام الأمل، لكنني الآن أنهار أمام عينيه، وبالنسبة له كان هذا يعني أنه أخلف بوعده لي، إنه يشعر بالفشل لأنه يعتقد أنه خذلني.

كان التوتر يزداد بداخله، ولم أدرك ذلك حتى ليلة شتوية ماطرة، بعد أن ذهب الأطفال إلى فراشهم وكنا نشاهد التلفاز على الأريكة معا، وحينها غفوت قليلا، وفجأة، سمعت مايكل يقول بصوت عالٍ: «لا يمكنني إصلاح ذلك»، ثم نهض وأمسك مفاتيح سيارته وغادر.

لم يكن لدي أي فكرة عما يحدث، فنحن لم نتشاجر، بل في الحقيق كنت أشعر أننا أقرب لبعض في هذه الفترة أكثر من أي وقت مضى، بالإضافة لذلك بدأت أشعر بتحسن جسدي، وأصبح بإمكاني المشي دون مساعدة أحد والمشاركة في الأعمال المنزلية مرة أخرى.

كنت حقا خائفة، كانت الشوارع جليدية ورطبة، وبدا مايك مرتبكا للغاية وليس على طبيعته عندما غادر، كنت قلقة جدا فهو ليس في حالة جيدة لكي يقود سيارته، شعرت بالذعر، اتصلت بأخي بن لكي يذهب ويبحث عنه، لم أشعر بخطورة الوضع إلا

بعد أن أغلقت سماعة الهاتف: لقد غادر مايكل، وليس لدي أدنى فكرة عما إذا كان سيعود.

جاءت أمي واتصلنا بكل أصدقاء مايكل وسألناهم عما إذا كان أحد منهم يعرف مكانه، لكن لا أحد رآه أو سمع عنه، أنا أعرف أننا لا نملك النقود لكي يذهب للفندق، لذلك لن نجده في فندق.

قاد أخي بين سيارته طوال الليل باحثا عن مايك، وبحلول الساعة الثالثة صباحا لم يكن قد وجد أي أثر له، فبدأ البحث في الوديان عن أي آثار لسيارته، وأخذت أمي هاتفها للغرفة الأخرى واتصلت بالمستشفيات المحلية، وجلست أنا على الأريكة وشربت إبريقا بعد إبريق من الشاي العشبي الذي أعدته أمي لي.

عاد بن عند شروق الشمس، حضنني وقال لي بهدوء: «لقد بحثت عنه في كل مكان، قد لا يكون في المنطقة بعد الآن يا كريس، أعتقد أننا يجب أن نتقبل احتمال عدم عودته».

لم أتقبل ذلك، وأقنعت بين أن يقود سيارته مرة أخرى ويصطحبني معه، بينما تبقى أمي مع الأولاد. أخيرا، شاهدت سَيارة مايك الكوغار في ساحة انتظار أحد الفنادق بالقرب من منزلنا، لقد قضى ليلته هناك، في البرد القارس على بُعد ميل واحد من المنزل.

كنت أرتجف وأعرج بشدة عند ما نزلت من شاحنة بين، واقتربت من سيارة مايكل، انتظرنا بين في الشاحنة وقد أدار وجهه بعيدا ليمنحنا بعض الخصوصية.

كانت ليلة طويلة، وفكرت كثيرا لأعرف الأسباب التي جعلت مايك يغادر، السبب الأول والأهم: هو عجزي عن المساعدة في الفترة السابقة، لم أكن عاجزة عندما تزوجني، ولكن الآن، فمي منكمش على جانب واحد، ولا أستطيع معانقته بكلتا يدي، ربما أصبحت نسخة مشوهة بالنسبة له، وبمجرد أن رأيت الحسرة على وجهه، عرفت بالتحديد ما تسبب في عجزه، لقد استطعت أن أسمع ما يفكر به وهو يجلس وحيدا في سيارته طوال تلك الليلة الطويلة الباردة، لقد وعدتك أن أحافظ على صحتك وسعادتك، ولم أستطع أن أوفي بوعدي، لقد فشلت في كل شيء، حتى في المحافظة على سلامتك.

كان مايك دائما الشخص الشجاع والمتزن الذي يمكنه أن يجعل كل شيء يسير على نحو أفضل، لكن في ذلك اليوم كان عليّ أنا فعل ذلك، جلست في المقعد الأمامي وأخذته بين ذراعي وقلتك «سنذهب للمنزل».

وفعلنا ذلك، تغيرت علاقتنا منذ تلك الليلة، لم أكن لأظن

أننا يمكن أن نقترب أكثر مما كنا عليه، لم أكن أعتقد أن هناك شيئا لا أعرفه عنه، لكن ربما لم أفهم حقا التزامه الكبير تجاه أسرتي وتجاهي، فقد كنا غرباء عندما تزوجنا، ولم تكسرنا كل الصعاب التي واجهتنا، ولا زلنا معا رغم كل الخلافات، ولا زال حبّنا جنونيا، لكن بعد تلك الليلة، شعرت كما لو أننا أخيرا عرفنا كل شيء كان يجب أن يعرفه كل واحد منا عن الآخر، أخيرا بدا واضحا لنا بشكل جلي: أنه لا توجد قوة على الأرض يمكن أن تفرقنا.

بعد حوالي شهر شخّصني أحد الأطباء بمرض الذئبة، وهو اضطراب ذاتي مزمن، يبدو من السخيف القول أنني ارتحت عندما اكتشفت أنني مصابة بمرض تنكسي ليس له علاج، ولكنها الحقيقة؛ فالآن أصبح لدينا تفسير لحالتي الصحية المتردية، وذلك الألم العصبي الرهيب الذي جعل وجهي يشعر بأن شخصا ما وخزه بإبر ملتهبة، ولماذا حتى الهواء العادي كان يؤلمني بشدة، وبالطبع لماذا أصبت بجلطة دماغية في مثل هذا السن المُبكِر.

أوضح لي طبيبي أن الذئبة مرض يخف في الصيف ويزداد سوءا في الطقس البارد، ولهذا السبب كانت الأعراض تتفاقم مع

اقتراب الشتاء، كما أوضح أيضا التشخيص أن الذئبة تفسر حالات حملي الصعبة، وكيف أن جهازي المناعي كان يحاول رفض الأطفال، لقد كانت معجزة أن أنجبهم جميعا.

التشخيص ساعد مايكل أيضا على أن لا يشعر أنه نكث عهد رعايته لي؛ فقد كان يعرف أنه لا يستطيع علاج الذئبة.

اليوم لا يزال مايكل يفعل كل تلك الأشياء الصغيرة التي تجعل مرضي أخف، مثل: إعداد القهوة لي دون أن أسال، أو إحضار كوب من الماء البارد عندما أشاهد التلفاز، وأعرف أنه عندما يذهب للبقالة، فإنه يختار طابور الدفع التي توجد به شوكولاتة: «رولو» المفضلة لدي، كما لا يمكن لمايكل منع الشتاء من القدوم، ولكنه كان يحرص على شراء زوج من الأحذية السميكة لتبقى أقدامي دافئة.

وكالعادة كان يحضر لي الورود كل أسبوع.

أصبح منزلنا مليئا بالورود المجففة، تجدها فوق خزائن المطبخ، وفي منعطف الدرج، وفي المزهريات وفي جميع أنحاء المنزل، ومع كل باقة جديدة، كنت أشعر بالامتنان؛ لمعرفتي ما تعنيه هذه الباقات لي ولمايكل.

الحلوى الهلامية

حتى يستعيد الجسم عافيته فإنه يحتاج إلى وقت طويل؛ لذلك كان شفائي من الجلطة الدماغية التي تعرضت لها بطيئا جدا، وحتى الآن يدي اليسرى ليست قوية؛ لذا كثيرا ما أنادي الأولاد لمساعدتي في حمل الصناديق الثقيلة أو الكتب.

في العام التالي لإصابتي بالجلطة الدماغية، عادت حياتنا تدريجيا إلى طبيعتها، أو بالأصح ما كان طبيعيا بالنسبة لنا.

ترك مايكل عمله السابق في تارجيت وحصل على وظيفة جديدة في شركة سيركويت سيتي، واستمر إيثان المسالم في نموه بما يوافق تطلعاتنا، لقد بدأ المشي في الوقت المحدد، وأصبح يتحدث في الوقت المحدد، وبقي لطيفا (ربما هذا هو الأهم)، أما بالنسبة لي فإنني أتنفس الصعداء في كل مرة نستطيع فيها تخطي واحدة من هذه العقبات ونحولها لإنجاز.

لكن الأخبار الأهم كانت تخص ويسلي الذي واصل علاجه المائي، وأصبح جسده الصغير المتيبس أكثر مرونة، وأصبح

يتحرك بشكل أسهل، وأخيرا بدأ بالمشي في عيد ميلاده الثالث، ثم بدأ يعدو ويقفز ويركض مسرعا ويقع أرضا، كما كان ويسلي لا ينهض من فراشه بطريقة اعتيادية، بل يقفز منه مثل النمر في فيلم الرسوم المتحركة: «ويني ذا بوه» وهو ممسك بقطعة من الأثاث أو أحد أخوته، وإذا طلبت منه إحضار الشريط اللاصق من المطبخ، يتحول إلى سيارة سباق للقيام بذلك، فيصرخ عند الانعطاف مقلدا صرير العجلات على الأرض، وفجأة، يصبح البيت بأكمله أشبه بساحة للرياضات الخطرة.

لا يمكن لويسلي اجتياز الأريكة دون القفز عليها، أو رف الكتب من دون تسلّقه، أو الدرج من دون أن ينزلق بسرعة على الدرجات الست الأخيرة، كما لا يمكنه البقاء في الغرفة لأكثر من عشر ثوان لوحده دون أن نسمع صوت انفجار، لقد أصبح ابننا الأوسط يتحرك كثيرا، ولم يكن بوسعنا أنا ومايكل إلا أن نضحك على تصرفاته الغريبة، واستسلمنا للجروح والخدوش والكدمات التي لا مفر منها، ولرحلات غرفة الطوارئ بين الفينة والأخرى؛ فماذا يمكننا أن نفعل؟ لقد فات ويسلي الكثير من الوقت فيما مضى، والآن يجب عليه تعويضه، ولا يوجد شيء في العالم يمكن أن يوقفه.

أما جيك فقد واصل التطور بشكل رائع أيضا، وفي الوقت الذي انتهت فيه الحضانة، كان واضحا للجميع أنه اندمج بشكل مبهر، وكانت المدرسة تتفقده بشكل دوري، تحسبا لأي اضطراب أو نوبة غضب، ولكن أيا من ذلك لم يحدث.

أما الفخر الذي شعرت به في اليوم الأخير من المدرسة كان أكبر بكثير من الإنجاز الفردي لجيك؛ ربما لأننا غيرنا مفهوم الناس عن التوحد، ولو بشكل طفيف.

أدركت شخصيا أنه لا يزال لدينا بعض المواضيع لمناقشتها، وكان الحديث مع جيك أحد المسائل الشائكة.

في ذلك اليوم عندما سألت الأطفال عن يومهم المدرسي، أغلبهم أجاب: «لا شيء»، ولكنني كنت أعرف أنهم سيحدثون أسرهم عن مجريات يومهم في نهاية المطاف، فعندما يصطحب مايك ويسلي معه في مهمة، مثل: ملء السيارة بالبنزين، كان يخبرني بالتفصيل عن أنواع السيارات التي شاهدوها، والمحاسبة ذات الشعر الغريب، والحلوى التي قدمتها له، ويظل لأسابيع يحدثني عن ذلك.

لم يكن جيك كذلك، وكنا نخرج كل يوم عندما يعود من المدرسة وهو ممسك بذراعي ليقرأ لوحات السيارات حتى

موعد العشاء، ولو سألته كيف كان يومه الدراسي، فسيجيب بقراءة الجدول المدرسي: حصة التواصل الاجتماعي، وقت القراءة، ثم الطعام، ...إلخ، ولو كان جيك هو من مصدر معلوماتي الوحيد؛ لما عرفت اسما واحدا من أسماء أصدقائه في الفصل، ناهيك عن أي تفاصيل أخرى عنهم، إنه يتبع القول السائد: «لا شيء سوى الحقائق يا سيدتي»، فكان يخبرني أن الفصل بدأ متأخرا بسبع دقائق، لكنه لا يذكر تفاصيل أن سبب هذا هو أن أحد زملائه في الفصل أصيب بنزيف في الأنف.

شعرت بالحزن لأنه لا يمكنني الدخول لعالمه، خصوصا عندما رأيت مدى مشاركة الآباء الآخرين لأبنائهم.

صادفت ذات مرة في الصيدلية سيدة مع ابنتها من صف جيك، وسمعتها تتحدث لبعض الوقت: «ما كل هذا الصراخ في الملعب؟، سمعت أن والد إلياس جاء للتحدث مع المدير حول الطريقة التي دفعه بها جيرمي، أليس كذلك؟ أليس لطيفة تلك الطريقة التي يمسك بها أوليفر وماديسون بأيديهما طوال الوقت؟ منِ المؤسف أن عائلتها ستنتقل إلى شيكاغو العام القادم».

يا إلهي كيف عرفت كل هذه الأشياء؟ هل فاتني اجتماع أولياء الأمور؟ هل كانت هناك نشرة إخبارية؟

قالت لي السيدة: « أوه، أنت تعرفين كيتلين، إنها ثرثارة»، ثم استدارت نحو جيك الذي كان يجلس في الجزء الخلفي من عربتي، وهو يقرأ كتابا عن تشكّل السُحب وقالت له: «أخبرتني كيتلين أنك تقضي الكثير من الوقت في الركن المخصص لحل الألغاز، وتختار دائما الكتب التي تتحدث عن الطقس والصخور في المكتبة، أليس كذلك؟».

بالطبع، لن تحصل على إجابة من جيك، ولأول مرة لم يكن لدي ما أقوله، تماما مثل جيك.

يبدو أن هذه الفتاة لديها معلومات أكثر مني عما يفعله جيك في المدرسة، وبينما وضعت جيك ومشترياتنا في المقعد الخلفي للسيارة، شعرت أنني مهزومة، ولحسن الحظ ليس من طبيعتي أن أبقى هكذا لفترة طويلة، أعرف أن جيك سيكون لديه ما يناقشني به يوما ما.

بالرغم من أن كل شي في المدرسة يسير على ما يرام، إلا أنني لازلت أدرب جيك كل صباح حتى يتمكن من التعامل مع أي حالات خارجة عن المألوف في يومه، لم أتمكن من تدريبه على كل شيء؛ لذا انتقل تركيزي على إعطائه كل الأدوات التي يحتاجها للتكيف مع كل ما قد يطرأ.

بحلول عيد القِدّيسين في صف جيك الأول، أحضرت معلمته وعاء ضخما مليئا بحلوى الهلام البرتقالية والسوداء، وأخبرت الفصل بأنه من يُخمن الرقم الصحيح سيأخذ الإناء معه إلى المنزل، بالطبع، كان جيك منذ طفولته يحسب حجم صناديق الحبوب، والمعلومة الوحيدة التي لم يكن جيك متأكدا منها هو حجم المساحة التي تركتها المعلمة في أعلى الإناء تحت الغطاء، لكنه كان واثقا أن الجواب الصحيح هو عشرين حبة من حلوى الهلام.

لم ينجح الأمر، فالرقم المعلن كان أقل بكثير من الرقم التقديري الذي توصل إليه جيك، وإناء حلوى الهلام انتهى به المطاف في بيت الطفل الذي صاح مبتهجا بأول رقم عشوائي خطر بباله.

عندما عاد جيك للمنزل، كان غاضبا جدا ولم أتمكن من مواساته، حتى عندما وعدته بأن أحضر له كل الحلوى الهلامية الموجودة في المتجر، بالطبع لم يكن السبب هو الحلوى؛ بل الرياضيات، واعتقدت أنه سيفقد صوابه بسبب حلوى الهلام، ففي تلك الليلة لم يأكل أو يفعل أي شيء سوى التحقق وإعادة فحص الأرقام؛ ليتأكد أن هناك تفسيرا منطقيا جعله يبقى بعيدا جدا عن الإجابة الصحيحة.

وفي اليوم التالي وجد ذلك التفسير المنطقي، لقد وضعت المعلمة رزمة ضخمة من ورق الألمنيوم في وسط الإناء، ربما لأنها لا تريد أن تدفع الكثير لشراء المزيد من الحلوى الهلامية، أو أنها لم ترغب في إرسال الكثير من الحلوى إلى المنزل مع طفل واحد، وأيا كان السبب، فقد قامت بالغش في اللعبة ولذلك لم تنجح معادلات جيك بالطبع من غير قصد؛ لأنه من الذي سوف يشك في أن طفلا في الصف الأول سيستخدم معادلة لتحديد الحجم التكعيبي لإناء الحلوى الهلامية! لكن جيك لم يتوقف عن ذلك.

قمت باستخدام حادثة الحلوى الهلامية منذ ذلك الحين كمقياس مع أطفالي وكل الأطفال الذين أتعامل معهم، وقلت لجيك: «أعرف أنك غاضب، لكن يجب أن تتبع مقياسا للغضب، فعندما يموت شخص تحبه فلتعطه عشرة على المقياس، والعدد عشرة يعني أنه يحق لك أن تغضب بشدة، كما يحق لك أن تفعل أكثر من ذلك كأن تزحف إلى السرير وتبقى فيه، وسأكون معك ممسكة بعلبة المناديل لتمسح دموعك، أما وعاء الحلوى الهلامية يقع على الطرف الآخر من هذا المقياس، فهو لا يشبه شخصا كُسر ذراعه أو انقطعت يده، إنه مجرد وعاء بالحلوى يمكننا أن

نشتريه من المتجر، فلتعطه اثنين على المقياس، وسوف تكون ردة فعلك بقيمة اثنين لهذا الحدث، وليست عشرة».

استخدمت هذه الاستراتيجية لمساعدة الأطفال، وخاصة الأطفال المصابين بالتوحد لتكون الأمور أوضح لهم، فعلى سبيل المثال: «شخص ما اصطدم بسيارته، وأنت خُدش حذاؤك، فأيهما العشرة؟»؛ عندما يحين الوقت لتستخدم المقياس عشرة فاستخدمه، ولكن لا تفقد المقياس عشرة بسبب أنك تشعر بالحكة لأن قميصك يلامس رقبتك.

كان جيك يحتاج في بعض الأحيان لتذكيره بردة الفعل المناسبة لحدث يمثل المقياس اثنين، ولكن بشكل عام فوجود قاعدة عامة للتحقق من سلوكه الاجتماعي ساعده على الاستجابة بشكل مناسب، وكان ذلك فعالا لدرجة أن الناس كانوا يسألونني عما إذا كان جيك قد تعافى، وبالطبع لا ولن يتعافى أبدا، فحالة توحد جيك هي شيء نتعامل معه بشكل يومي، وكان هناك دائما بعض الأحداث التي تجعله: «رجل المطر» صاحب القدرات العقلية الاستثنائية من الفيلم السينمائي، لكن كنت ومايكل نحاول أن نقدم له كل الأدوات التي يحتاجها لاتخاذ الخيارات المناسبة له، وعموما كان يفعل ذلك.

كنا نذهب معظم أيام السبت إلى مكتبة بارنز آند نوبل، حيث أسمح لجيك وويسلي باختيار كتابين في الأسبوع، (بالرغم من أنني أوجههم نحو قسم التخفيضات)، ومن ثم نتناول وجبة خفيفة في المقهى، وأنظر إلى مشترياتهم، ولم يكن يهمني عدد الكتب التي قرأتها؛ لأنه كان هناك دائما شيء رائع عندما أبدأ بقراءة كتاب جديد، وأقضي المساء كله وأنا غارقة فيه، يمنحني هذا الشعور المتميز الذي أحب مشاركته مع أولادي.

ومن غير المستغرب أن جيك كان يذهب مباشرة إلى قسم الكتب المرجعية، فهي كتبه المفضلة حتى وإن كانت مليئة بالخطوط الزمنية والخرائط والرسوم البيانية والمخططات، وأحب كذلك كتب تاريخ العلماء العظماء، وأيضا تاريخ العالم، ولكن لا شيء يتفوق عنده على الكتاب الجامعي المتخصص في العلوم البيئية.

لقد توصلت لمعرفة أن جيك يحفظ الحقائق العلمية كوسيلة لتهدئة وراحة نفسه، لقد كان تأثير قراءة قوائم طويلة من الحقائق العلمية مشابها لتأثير مشاهدة مسلسلا كوميديا قصيرا، أو تصفح مجلة أزياء، أو ثرثرة عابرة مع أحد الأصدقاء بالنسبة لي، تماما مثل ما فعلت مع أختي ستيفاني التي ساعدتني تجربتها على

ملاحظة الموهبة حينما يراها الآخرون عجزا، وأيضا كما ساعدتني مراقبة طبع زوجي في تفهم طبع جيك الذي يشبهه.

كان مايكل أيضا يحفظ الأمور المسلية من أجل راحته، فعندما أساله من الذي لعب دور البطولة في بعض الأفلام المغمورة من السبعينات، أو من لعب في القاعدة الأولى لفريق كاردينالز في عام ١٩٨٣، كان يخبرني دون تردد، وبعد ذلك سوف يحدثك عن كل ما فعله ذلك الممثل أو اللاعب منذ ذلك الحين، وعندما عمل في شركة تارجيت، أطلقوا عليه لقب: «المايكرفون»، وخلال فترة الصيف التي قضاها في تفريغ الشحنات، تعلم كل أرقام المنتجات في وحدة إدارة المخزون في المتجر؛ لذا إذا فقدت علامة السعر لأي من المنتجات فإن الموظفين الآخرين يتصلون على جهاز الاتصال اللاسلكي ويسألون «مايك»؟ ما هو رقم شامبو جوز الهند بدلا من القيام بالتحقق من خلال السجل، لقد كان يوترني وأنا أشاهده ينجح في الإجابة على كل أسئلة برنامج المسابقات المسائي: «جيوباردي»! وقد رفضت بشكل قاطع مشاهدته معه مرة أخرى؛ لذا فإن رؤية جيك منهمكا في قراءة قائمة من الكواكب الخارجية أو الكوكيبات لم يبد غريبا بالنسبة لي، كما قد يكون للآخرين.

لقد كانت اهتمامات جيك متنوعة للغاية كذلك، فقد كان يقرأ كل كتاب يقع بين يديه عن التاريخ الأمريكي، وتعطشه للمعلومات لا حدود له، وذاكرته لا تنضب، حيث يمكن لجيك أن يخبرك أن جيمس بيوكانان الفقير الغامض كان الرئيس الأمريكي الخامس عشر للولايات المتحدة الأمريكية، و يزودك بمعلومات عن التواريخ التي عمل بها، وتاريخ ميلاده، ومن تزوج ومتى توفى، لدرجة أنه كان يعرف النسبة المئوية من الأصوات الانتخابية الكلية التي حصل عليها بيوكانان في ولايته.

وكان لا يفارق أي كتاب مدرسي يحتوي على اختبار، وقد أكون الأم الوحيدة على وجه الأرض التي تحتاج أن تواسي ابنها عندما يلغى الامتحان.

أتذكر أن جيك في أحد الأيام في المكتبة اكتشف قسم الامتحانات التحضيرية الذي يحتوي على اختبار الكلية الأمريكية، واختبار التأهل الأولى لمنحة الاستحقاق الوطني، واختبار سات، واختبار القبول في كلية الطب، واختبار القبول للدراسات العليا في مجال إدارة الأعمال، واختبار القبول في كلية الحقوق! والعديد من الصفحات المليئة بالأرقام والكثير من رياضيات، حينها نظر إلي معاتبا، كما لو أنني تعمدت إخفاء هذه

الهدية الرائعة عنه، وفي الصف الأول كان كتابه المفضل هو دليل إعداد اختبار تطوير التعليم العام، ولم يكن مهتما أبدا بأقسام اللغة؛ ولذلك لا يمكنني أن أجزم باجتيازه الاختبار الكامل، ولكن في نهاية ذلك العام، حصل بانتظام على درجات رائعة في اختبارات الرياضيات.

والغريب أن الأشخاص في المدرسة لم يلاحظوا كل هذه الأشياء الجنونية التي كان يفعلها جيك، وحتى وإن لاحظوا، فلم يقل أحد أي شيء.

في بداية الصف الأول، أعطي الأطفال كتيبا كبيرا لمسائل الرياضيات، كان يحتاج إلى عام كامل لحل مسائله، لكن جيك انتهى من حل كل المسائل في الكتاب بحلول اليوم الثاني من الفصل الدراسي، وعندما عرفت المدرسة ما قام به، أخبرته بأنه يمكنه الجلوس في الزاوية وقراءة كتبه الخاصة خلال الحصة الدراسية، وبدلا من ذلك، قام بإنشاء لغة الرياضيات المرئية الخاصة به، والتي لا يزال يستخدمها لتعليم الأطفال الآخرين، تِستخدم هذه اللغة الألوان والأشكال لتمثيل الأرقام ووصف المعادلات، ولك أن تتخيل اجتماع لوح العد (المعداد) والمشكال.

هو يقوم الآن بوضع ورق شفاف بألوان وأشكال مختلفة أعلى صندوق ضوئي ليقوم بقص هذه الأوراق لأشكال تركب فوق بعضها البعض ليتمكن من إجراء حساباته المعقدة، في حين أنه سابقا كان يجمع الآلاف من القطع الورقية وبدقة متناهية، ولكن لا أحد أخبرني أو أخبر مايكل أن جيك قد اجتاز مادة الرياضيات في الصف، بما فيهم جيك نفسه.

بينما كنت أفتش في الأوراق القديمة، وجدت بعضا من أعمال جيك من تلك الأيام، لا أتذكر متى، لكنني عندما رأيت الأطفال الآخرين يرسمون مربع مع مثلث في الأعلى لتمثيل بيوتهم، كان جيك يستخدم أقلام التلوين الخاصة به لرسم نماذج أكثر كفاءة لمحطات الطاقة الكهرومائية، كما وجدت دفتر يوميات الصف الأول في أحد الصناديق، وقد كان المعلم أعطاهم واجبا يسلم خلال أسبوع لمدة أسبوع عن: ماذا ستفعل لو كنت رئيسا؟

كانت إحدى كتابات جيك ذلك الأسبوع: «لو كنت رئيسا، سأطلب من الناس أن لا يأتوا إلى نيو أورلينز، ولو كنت رئيسا كنت سأبنيها في مكان آخر، وسأطلب من أحد المهندسين أن يرسم ويبني مدينة ترفيهية، وعندما ينتهي أو تنتهي، سأذهب إلى هناك وأقضي وقتا ممتعا».

ذلك اليوم لم أر شيئا فاتنا أكثر من استخدامه مفردات :"ينتهي أو تنتهي" في تلك الجملة، بعد بضع صفحات في دفتر اليوميات، كانت هناك خاطرة أخرى: «لو كنت رئيسا، سأذهب إلى فلوريدا وأحذر الناس من الأعاصير»، لم نفكر بشيء كهذا، ولم تكن تلك الأخبار جديدة بالنسبة لنا لأننا نعلم أن جيك مهوس بعلم المناخ وتغيراته، وحتى انشغاله بالطقس كان مسليا في منزلنا، فكنا نقول أن جيك لن يتذكر أحداث عيد ميلاد العام الماضي، لكنه عندما يبلغ الثمانين، سيظل يتذكر تساقط الثلج على الأرض، وبالفعل هو لا يستطيع تذكر اسم أي من زملائه في حضانة الأطفال التي تخرّج منها، ولكنه يستطيع أن يصفه وصفا دقيقا، كما يمكنه تذكر الأمطار الغزيرة واختبائه أسفل الدرج عندما كان ينتظر الحافلة في يومه الأول.

ما يخطر ببالي، وما أراه الآن هو أن تلك المذكرات مؤرخة في كانون الثاني / يناير، أي قبل سبعة أشهر من إعصار كاترينا المدمر جنوب الولايات المتحدة.

جنة الأطفال

كانـت الأمـور فـي مدرسـة جيك تسـير علـى ما يـرام عندما أصبـح جيـك بالصـف الثانـي، لكـن لطالمـا رأيت شـبح توحده يطارده، وقد يتسلل إليه خفية ويختطفه مرة أخرى إن سمحت له بذلك، وكنت أشعر بالقلق تجاه تكوينه للصداقات، تماما كما هو الحال إن احتاج دروسا خصوصية في مادتي الرياضيات والقراءة .. في الحقيقة كان يحتاج بعض المساعدة لتكوين صداقات.

جاء عيد الهالوين الذي أحبه، ولكن مايكل يسخر مني دائما بسـبب المـدة الطويلـة التـي أمضيها سـاكنة، والمدة التـي أجعله يمضيها أيضا، كل ذلك في سبيل قضاء عطلة هالوين مميزة؛ لأنه من المتعارف عليه في الحي الذي نعيش فيه أثناء عيد الهالوين أن الشـخص الـذي يجلس سـاكنا لفتـرة طويلـة كافية، نصمـم له أو نلبسه زيا تنكريا.

وعلـى سـبيل المثال؛ في أول عيد هالويـن لجيك، لم أكتف بحياكة زي تنكري كامل له على شكل اليقطين، بل حولت عربتنا الحمـراء الصغيرة إلـى عوامة من اليقطين، حيث أجلسـتُ جيك

فيها وهو يرتدي زيه التنكري اليقطيني الصغير، وأحطته بعدد من حبات اليقطين المضيء، وبضع حبات من القرع، وسحبت العربة في الحي بأكمله.

وحينما كان جيك في الصف الثاني، قدتُ سيارتي إلى مزرعة مجاورة لأجمع بعض حبات اليقطين حتى نفرغها ونزينها على شكل يقطين مضيء مع الأطفال في الحضانة، وفي طريق عودتي بالسيارة، مررت بمنزل جارتي ورأيت أولادها السبعة في فناء منزلها، وكم شعرت بغصة حين رأيتهم يلعبون كرة القدم مع بعض الأطفال الآخرين، وحين وصلت إلى منزلي، أوقفت السيارة ومكثت داخلها في سكون لبعض الوقت وأنا أشاهد جيك الذي كان بالخارج أيضا، ولكن المقارنة بين بيتنا وبيت جارتي غير عادلة.

من بين الأنشطة التي كان يحبها جيك في تلك السنة، صُنع الأشكال الهندسية متعددة الأبعاد مثل: المكعبات، والدوائر، والاسطوانات، والأقماع، وبالطبع متوازي المستطيلات الذي يعشقه، وقد وجد تلك الأدوات من بين مجموعة أدوات بجوار المنزل، وكذلك اللفائف الكرتونية التي تحمل المناشف، ولعبة تركيب المنزل الخشبية: «لينكولن لوجز»، وأعواد القطن، والعصي الخشبية، وكل شيء يصلح كلعبة.

وفي ذاك المساء، كان منهمكا في ترتيب بعض من تلك الأشكال في الشرفة الخارجية، وقد صفهم صفا على طول الدرابزين الأمامي.

خرجت من سيارتي ودخلت المنزل ووضعت قدرا فيه ماء على النار لأطبخ المعكرونة، ثم ذهبت برفقة جيك وأمضينا بضع دقائق لطيفة تحت الضوء الخريفي الخافت نزين الشرفة سويا، هو يزينها بأشكاله الهندسية متعددة الأبعاد، وأنا أزينها بالقرع المزين بشبكة العنكبوت، وكذلك آلة صنع الضباب وشبح أو اثنان يصرخان؛ في تلك اللحظة، سمعت جارتي تنادي على أولادها لتناول العشاء، فراودتني فكرة!

لطالما كنت أرغب بأن يكون لجيك أصدقاء، ولكنني كنت أعلم أنني لن أتمكن من إرساله للعب الكرة مع أبناء الجيران، فذلك لن يُفلح؛ لأن تأخر استجابة جيك الجسدية تجعله يبدو بطيئا وأحمق، وحتى إنني لست متأكدة من معرفته بقوانين كرة القدم، بل إنني شبه متأكدة أنه لا يكترث لها، وبالطبع أريد أن أجد مساحة مشتركة بينهما.

وفكرت حينها، ماذا لو جعلت من منزلنا وبالأخص غرفة جيك مكانا يجذب الأطفال؛ بحيث إن رأوا الغرفة تأسرهم فيحبون المجيء إلى جيك؟

ذهبت إلى التسوق في اليوم التالي، وكالعادة لم يكن لدنيا المال الكافي، ولكنني قدمت مصلحة جيك واعتبرته استثمارا فيه، فاشتريت له سريرا بدورين، وسجادة ذات فرو، وبعض الكراسي القماشية الدائرية الوثيرة ووضعتها بجانب السرير، واستعنت بمايكل وأحد الجيران في نقل شاشة التلفزيون إلى الأعلى، فلم يتبق لنا إلا شاشة صغيرة فقط في غرفة المعيشة، واشتريت لجيك لعبة: «بلايستيشن» وبعض الألعاب الخاصة بها والتي شجعني على شرائها ذلك الفتى المراهق الذي كان يقف بجانب المحل عندما أخبرني أنه كان ليشتريها لنفسه، واشتريت كذلك رقائق البطاطس: «دوريتوس» بكل النكهات والبهارات المتوفرة في المتجر، كما أنني خبزت كمية كبيرة من أقراص البسكويت الدائرية المحلاة المقرمشة مع حبات الشوكولاتة: «كوكيز»، باختصار؛ صنعت الغرفة المثالية التي يتمناها أي طفل، وكانت بمثابة: «جنة الأطفال».

فتحت الغرفة وكان جيك مرتبكا قليلا من إعادة الترتيب التي قمت بها، ولكن بمجرد أن رأى صورا على الجدار للمجموعة الشمسية، لم يكترث لأثاث الغرفة، وقد ساهم التغيير الجديد للغرفة في دعم نقاط القوة لدى جيك.

كان جيـك ومـا زال مبدعا فـي ألعاب الفيديـو وذلك بفضل مهاراتـه الحركيـة- البصريـة المذهلـة -؛ حيـث كان النـاس يتجمهـرون من حوله في متجر: (سـيركويت سـيتي) حين يلعب المسـتوى المحتـرف من لعبـة (Guitar Hero) أو ملـك القيثارة والتي تحيط وحدة التحكم فيها برأسه.

جاء الأطفال وجلسوا، ويجدر بالذكر بأن جيك ما زال مقربا مـن أولاد كثيريـن عرفهم في تلك السـنة، خصوصا لوك، صديقه المفضل، حتى إنني أصبحت أشعر بتفاهم خفي بيني وبين والدة لـوك، فطالمـا تمنـت أن يُحب لوك الدراسـة مثلمـا يحبها جيك، ولطالمـا تمنيـتُ فـي نفسـي أن ينتقل حب لـوك لكرة القـدم إلى جيك.

كانـت الأمهات بمثابة سـلاحي السـري، خاصـة بعد حلول عطلة الشتاء حيث يشعر أولادهم بالملل ويجن جنونهم، والأهـم أنهن أحببن جيك.

قالـت إحداهن: «كريسـتين، أنقذيني من فضلك، إن الأولاد يلقـون بوحـدة التحكم في القمامـة، هل بإمكانـك إحضار جيك ليلعـب معهـم»؟، وكانـت والـدة أي صبـي بعدمـا توصـل جيك للمنـزل بعـد اللعب مـع ابنها، تمدحـه كثيرا، وتقـول لي: «جيك

مهـذب جـدا، لا أعلم حقا كيـف علمتيه تلك الأخـلاق العالية»، ولكنني لا أعتقـد في قرارة نفسـي بأن جيك مهـذب أكثر من أي طفل بعمر السبع سنوات، كل ما في الأمر أنه كان هادئا.

بل كنت مستمتعة وسعيدة حين استفزه ويس فسمعته يصرخ بجملـة: «تعذيـب الدغدغـة»، فتمنيت من كل قلبـي أن لو أمضى وقتا أطول مع أصدقائه ليصبح شقيا مثلهم.

وفي حين كانت جميع الأمهات الأخريات يراقبن اللغة التي يتفوه بها أولادهن، كنت أنا أقفز من السعادة والفخر حين سمعته تلـك الليلـة يصـفُ الفيلـم الذي شـاهده بعـد ظهيرة ذلـك اليوم بكلمـة: «أحمق وسـخيف»، ومع أنني حاولـت أن لا أظهر ذلك، ولكن أثناء تنظيفه لطاولة الطعام لم أتمالك نفسـي من النظر إلى مايك والابتسام بشدة، فقد كانت أول كلمة عامية يتلفظ بها على الإطلاق.

كان جيك وأصدقاؤه يلعبون الشطرنج أحيانا، ولكنهم غالبا يشـاهدون الأفلام، أو يتبارزون بسيوفهم المضيئة ويأكلون رقائق الشـيبس بالمنزل عن بكرة أبيها، وأذكر حين صدرت ثلاثية أفلام حِرب النجوم «Star Wars»، حفظها جيك عن ظهر قلب، وكانت المرة الأولى التي لم يكن متفردا في ذلك، فمعظم الأولاد تقريبا في مثل عمره حفظوا تلك الأفلام أيضا عن ظهر قلب.

كنتُ أبتهج حين أراه يتنزه مع أصدقائه، واستمريت في شراء رقائق الشيبس وألعاب الفيديو، ولم أتضجر كثيرا حين حطم أحد الأولاد أحد مصابيح غرفة المعيشة أثناء لعبهم مطاردة شخصية دارث مول «Darth Maul».

كان يستلزم عليّ أحيانا أن أوقف جيك أحيانا وأقول له: «ألا يكفي الحديث عن مادة الرياضيات الآن؟»، وكان يستجيب لي بسرعة، وأصبح هؤلاء الأولاد أصدقاءه الحقيقين.

منذ ذلك الحين ونحن نُفعّل دور الحضانة في حياتنا، وكنا نطبق معظم الأنشطة التي نفعلها بالمرآب في المنزل، وغالبا ما كانت تلك الأنشطة ممتعة ومرحة لدرجة أن الجميع يندمج وينخرط فيها، فعلى سبيل المثال، أمضينا أسبوعين ونحن نصمم لوحة جدارية ضخمة من الحلوى الجيلاتينية بكل الألوان التي يمكنكم تخيلها، نعم كان مجهودا شاقا، ولكننا كنا نغني الأغاني ونسرد القصص أثناء العمل، وحين انتهينا كانت لوحة فنية بديعة، وأعطى حجمها الضخم انطباعا للأولاد بأنهم حققوا إنجازا كبيرا، وأكاد أجزم أننا أكلنا كميات كبيرة من حلوى الجيلاتين كتلك التي ألصقناها على الجدار.

في تلك الأثناء؛ جاءتني أم جديدة كانت ستعود للعمل بعد

أسبوع، وكانت طفلتها في المرحلة التي يصعب فيها فصلها عن أمها، وبدا لي أن الأم كانت قلقة من أنها ستترك طفلتها أكثر من بقاء الطفلة نفسه، ولكنني بالطبع تفهمت ذلك تماما؛ لأنني جربت ذلك بنفسي، وظللت أفكر وأنا ذاهبة إلى النوم، كيف يمكننا إسعاد تلك الطفلة في أول يوم لها معنا ونجعله مميزا بقدر المستطاع؟

في اليوم التالي؛ اصطحبت الأطفال الاثني عشر جميعا بما فيهم إيثان إلى الحضانة، وكذلك ويسلي وجيك حينما عادوا من المدرسة إلى المنزل، وصنعنا جميعا فراشات ضخمة بشرائط من القماش الرقيق بكل الألوان المتوفرة في متجر الزينة والحفلات، وقمنا بلصقهم معا، ثم ثبتهم مايكل على إطار معلق بالسقف، وقال لي مازحا العبارة التي يكررها: «إما أن تُبدع وإلّا فنَمْ».

لقد كان منظر الفراشات معا وهي تغطي السقف بأكمله وترفرفُ مع نسائم الهواء العليلة أخاذا ومدهشا.

كانت الأطفال في المجموعة التي أرعاها يقومون بأنشطة ومشاريع قد يراها البعض تفوق أعمارهم، ولكنني لا أفهم حقا لماذا نعيق الأطفال من فعل شيء ما، إذا كان بمقدورهم أو

برغبتهم فعله؟ لماذا لا نعطيهم المجال والحرية؟ وكنتُ أتعجب وأندهش يوميا من القدرات الأصيلة التي يتمتعون بها؛ فلم أتمكن أنا من أن أصبح خبيرة إلكترونيات مثل إليوت، أو فنانة مثل كلير.

بل كان أجدادي يكلفونني وأختي بأعمال يسيرة حينما كنا صغيرتين، وبمجرد أن تعلمنا المشي أحببنا تنظيم الأدوات الفنية في مدرسة الأحد، وكانت وظيفة حقيقية بالنسبة لنا، كما كنت أنا وستيفاني مسؤولتين عن تنظيم توزيع الشاي في الكنيسة، بأن نغسل ونلمع كل الصواني، ثم نضع عليها الكريمة المُبيضة، وسُكّريّة، وكوب زجاجي صغير مليء بالملاعق اللامعة، ولم يكن يكترث أحد بشأن كسرنا لأحد الأكواب الزجاجية، ولا أذكر حتى إننا فعلناها.

علمتنا جدتي منذ نعومة أظفارنا كيفية قص الأوراق وعمل تحفة فنية منها، وذلك قبل أن يسمح لمعظم الأطفال بإمساك المقصات الآمنة، كما تعلمنا حياكة ملابسنا الشخصية بمجرد أن تمكنا من الإمساك بالإبرة، وكانت جدتي خياطة ماهرة وخبيرة، وكانت الغرز الدقيقة التي تحيكها بالكاد تظهر مع حجم نسيج الثوب القماشي الذي تُخيطه، وذلك يعيدني لأحد أقدم ذكرياتي،

حين كنت أختبئ تحت الطاولة الكبيرة المخصصة لصنع اللحُف، والتـي كانت تضعها جدتي في الغرفة الأمامية إذا كان هناك حفلة خطوبة أو حفلة استقبال مولود، كنت حينها في الثالثة من عمري وكانت تمنحني الحرية لأن ألعب تحت تلك الطاولة لأنني وبكل فخر شاركت في صنع اللحُف بنسج مربع مزخرف على اللحاف بدقة فائقة.

وعلمتنـي جدتـي الخبـز أيضا، بـدون وصفـات ولا مقادير، ولكن بالاعتماد على حواسـنا، فكنا نعرف أنا وستيفاني أن الخبز قـد نضـجَ بمـا يكفـي حيـن نـرى خيـوط الجلوتين علـى أطراف الوعـاء، وكنـا نعـرف أن الكعك قـد نضج تماما مـن رائحته، ولـم نتعلم ذلك في مرحلة المراهقة، بل ونحن طفلتان صغيرتان نقف على كرسي حتى نصل لسطح رخام المطبخ.

فكنـتُ بطبيعـة الحال أطبق ذلك مع الأطفـال الذين أرعاهم فـي الحضانـة وأشـعرهم بتحمـل المسـؤولية أكثـر ممـا يفعـل الآخريـن، علـى سـبيل المثـال؛ كان إيثان يحـب المعكرونة وهو صغيـر، وكان يحـب الخبز والطبخ دائما، فاشـتريت له أداة يدوية زهيدة الثمن لصنع المعكرونة، لم تنجح محاولاته الأولى، ولكنه تعلـق بتلـك الأداة وأحبهـا، وبعد شـهر فقـط، كان إيثان صاحب الأربعة أعوام يصنع معكرونة شهية.

وكان نـوح أيضـا يحـب الرياضيـات، فصنعت له إطـار العد بتثبيـت كـرات كبيـرة علـى عيـدان خشـبية، وكانـت كليـر تحب الخياطة، فصنعت حيوانات صغيرة على شـكل وسائد من اللُباد، ووزعناها كهدايا للأطفال المرضى في مستشفى الأطفال.

من خلال تجربتي، أرى بأن منح الطفل الاستقلالية والفرصة للإبداع والابتكار من المستحيل أن يذهب سدى، إن كان بإمكان هؤلاء الأطفال فعل ما يحبون.

من أكون؟

«أتمنى أن يكون بإمكاني التعلم في العام المقبل.»

هكـذا رد جيك علـى معلمته في الصف الثاني عندما سـألته عـن أقصى مـا يتطلع إليه فـي الصف الثالـث. كان جيك يتعطش للمعرفة ويتوق إليها، بطريقة كانت تبعث على القلق وتثير الخوف بعض الشيء أحيانا.

لم نعد نتفاجأ أنا ومايكل مما يتمتع به جيك من عمق معرفة، وسـعة اهتمام ،وذاكرة خارقة، وقـدرة فائقة، أو بقدرته على رؤية الأنماط والربط بينها، لكننا كنا نجد صعوبة في إيجاد القدرة على مواكبة ذلك، لقد دعمنا عطشـه الشـره للمعرفة والتعلم بأفضل ما أوتينـا من قوة، وذلـك من خلال رحلاتنا إلى بارنز ونوبل وقضاء وقت طويل على الإنترنت، لكن يبدوا أن ذلك لم يكن كافيا على الإطلاق، وقد عبر مايكل عن ذلك بشكل أفضل حين قال: «كان جيك يشبه باك مان Pac-Man» إذا عرض له شيء أمامه فلا ريب أنه سـوف يتعلمه، بل سـيلتهمه ويجعل منه مصدر طاقة لما يأتي بعده.

كان جيك يتمتع بقدر هائل من المرونة بحيث إنه إذا واجهته صعوبة في أحد مسارات تعلمه، فقد كان ينوع بين مساراته لكي يبحث عن شيء آخر ليتعلمه.

عندما كان جيك في الصف الثالث، كانت هيذر، التي ساعدتني في الحضانة، وهي في السنة الثانية من دراستها الجامعية هي من أعادت اكتشاف طريقة جيك لتعلم اللغات، وقد رأينا أنا ومايكل لمحات من ذلك عندما تعلم جيك اللغة اليابانية وحده من خلال الأقراص المدمجة عندما كان رضيعا.

كان عليها أن تأخذ محاضرات في اللغة الإسبانية لتلبية متطلباتها اللغوية، وذات ليلة نسيت قاموسها من الإسبانية إلى الإنجليزية في منزلنا، وفي اليوم التالي اكتشفت أن جيك قد علم نفسه مجموعة من الكلمات الإسبانية.

بعد فترة وجيزة؛ أحضرت هيذر له كتابا للمبتدئين، حيث كان يملؤها الفضول لمعرفة ما سيفعله، وبعد أسبوعين، تمكن من تصريف الأفعال، وهو نفس ما فعله مع اللغة الصينية عندما أحضِرت له كتابا للمبتدئين وجدته في متجر للأشياء المستعملة بالقرب من الكلية.

لا بد أن أعترف أنني لم أشجع جيك على مواصلة تعلم

اللغات الأخرى، حيث كان جل اهتمامي ينصب على مساعدته على التحدث باللغة الإنجليزية، وعندما كان يتمتم ببضع كلمات باللغة الإسبانية، لم أستطع فهم كلمة مما قاله، فقد كانت اللغة الإنجليزية كافية بالنسبة لي.

كانت هيذر تساعدني بين الحين والآخر لفترة طويلة، لذلك كانت تعرف جيك جيدا، وقالت له ذات مرة: «يوما ما ستفوز بجائزة كبيرة، وستحدث والدتك الكثير من الضجيج في سبيل الاحتفال بذلك، لدرجة أنها ستؤدي إلى طردكم جميعا من المطعم».

وجد جيك أن مجرد التفكير في مطعم فاخر أمر مضحك بشكل لا يصدق؛ لذلك تم اعتبار الأمر على سبيل المزاح بينهما، وعندما كانت هيذر تصل إلى العمل، كانت دائما ما تسأل: «مرحبا، جيك، هل تسببت والدتك في طردك من هذا المطعم حتى الآن؟».

في بعض الأحيان؛ كانت هيذر أكثر قربا إليه من أقرانه من الأطفال في صفه، وعندما كانت تدرس لاجتياز امتحاناتها، كان جيك يتشارك معها ويدرس أيضا، وعندما سألتها عما إذا كان جيك يمثل مصدرا للتعب، كانت تقول، «لا، بل إنه يساعدني!»،

وعندما كنت أشاهدهما معا، كان يتضح لي ما ذكرته بالفعل؛ فقد كان يُذَكرها بإصبعه الصغير الذي يشير إلى معلومة ما على الرسم البياني: «لا تنسي هذا».

ذات ليلة، قالت لي هيذر وبينما كانت ترتدي معطفها للمغادرة: «كان سيحقق نتيجة أفضل في الامتحانات النهائية، لو كان خاضها، أكثر من معظم الأطفال الذين سيخوضونها».

كان الشيء المذهل في الأمر هو ما فعله بالمعلومات التي حفظها، والطريقة التي استوعبها وطبقها واستخدمها من خلالها، بالإضافة إلى الاستنتاجات التي توصل إليها، فعلى سبيل المثال؛ أصبح مولعا بالجيولوجيا، وإذا تُرك له المجال سيظل يتحدث، بدون توقف، عن الصفائح التكتونية وخطوط الصدع والفتحات الحرارية الأرضية والزلازل والجزر البركانية، وربما كانت الفائدة من وراء ذلك محدودة، ولكن الطريقة التي استفاد بها من معلوماته لم تكن كذلك.

في ظهيرة أحد أيام الأحد عندما كان في الصف الثالث، اسِتولى على طاولة غرفة الطعام، وغطى كل شبر منها بالكتب المدرسية حيث جعلها مرتبة من جميع أطرافها، وعندما حان وقت تنظيف الطاولة لتناول العشاء، همس لي مايكل بصوت

خافت لأنظر .. كان أحد الكتب الضخمة مفتوحا على رسم تخطيطي لصدع وادي واباش، تلك المنطقة الزلزالية التي تمر عبر ولاية إنديانا، وبجانبه كانت هناك صورة ثلاثية الأبعاد للصدع، كما أظهر كتاب مفتوح آخر إعادة بناء مخيم صيد تستخدمه قبيلة كلوفيس، وهم من البدو الرحل الهنود الذين احتلوا المنطقة خلال حقبة ما قبل التاريخ، بينما أظهرت صورة أخرى رسما توضيحيا لأمريكي من السكان الأصليين وهو يرشد مستكشفا فرنسيا عبر إنديانا في أوائل القرن الثامن عشر، أما الكتاب الرابع فكان مفتوحا على خريطة جغرافية وإحصائية للدولة يعود تاريخها إلى عام ١٨١٢، وخريطة طبوغرافية رسمها الجيش الأمريكي في أربعينيات القرن الماضي بجوار صورة حديثة للدولة تم الحصول عليها من خلال القمر الصناعي إستِر، وفي إحدى الكراسات قام جيك بحساب خط الطول ودائرة العرض لمنزلنا بكل دقة، بالإضافة إلى نظام الإحداثيات السماوية المقابل، وبجوارها كان هناك كتاب عن خرائط النجوم مفتوحا على منطقة الأبراج التي ستكون أكثر وضوحا من وسط إنديانا في ذلك المساء.

لقد كان الأمر مذهلا: قطاع عرضي للزمان ولمكاننا، ولقطة تاريخية متعددة الطبقات، تمتد من عصور ما قبل التاريخ إلى

الوقت الحاضر، ومن نواة الأرض إلى أبعد نطاقات النظام الشمسي .. لم أشك، ولو للحظة، في أن جيك لم يحفظ فقط كل حقيقة قد أكون رأيتها في تلك الكتب المفتوحة، بل كان يعمل أيضا على الاستفادة مما تعلمه حيث كان ذلك أشبه بنسيج من شأنه أن يجمع كل تلك التفاصيل العشوائية من تخصصات متعددة، وهو ما قد يمثل نظرية تتفوق بكثير في محصلتها على مجموع أجزائها .. لقد أعطتنا تلك التفاصيل نظرة خاطفة على المصفوفة المعقدة التي تشكل الكون الجميل الموجود في عقل جيك، فوقفنا، أنا ومايكل معا، لأخذ كل ما كان على الطاولة، ثم وجدت نفسي مضطرة إلى أن أصرخ ناحية الطابق السفلي لأجعل جيك يصعد إلى الطابق العلوي ويأخذ كل هذه الأشياء بعيدا حتى يكون لدي مكان لوضع اللازانيا.

أحيانا، كنت أعتقد أنه إذا توقفت لفهم حقيقة ما كنت أراه تماما فسيصبح من الصعب أن أكون أما له، ولكني أنا ومايكل كنا نقول لبعضنا البعض: «إنه طفلنا جيك، ليس إلا»، ولكننا لم نتوقف أبدا عن التفكير في مدى حقيقة أن قدراته كانت في ذلك الوقت لا تصدق، وأعتقد أن هذا ربما كان شيئا جيدا.

لا أعرف على وجه التحديد متى أدرك جيك لأول مرة أنه

معجـزة، لكنـه فـي النهاية أدرك مـدى اختلافه وتميـزه عن غيره، وكان دائما ما يحب الاسـتلقاء تحت الأشـجار في الفناء الخلفي لمنزلنـا، وفي بعض الأحيان، كنا نسـمعه يضحك ويقول: «أربعة آلاف وخمسمائة وستة وتسعون»، أو أي عدد كبير آخر، كان هذا هو عدد الأوراق على الشجرة، بطبيعة الحال لم يكن جيك يصل إلـى تلك الأرقام مـن خلال عد الأوراق، على الأقل لم يكن يَعُد واحـدة تلـو الأخـرى بالطريقة التي كنا سـنتبعها فـي الغالـب، لقد كان الرقم واضحا له عن طريق معادلة، بحيث إذا سقطت إحدى تلـك الورقـات مـن فـوق الشـجرة، فسـيقوم بتعديـل المجموع: «أربعة آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون».

عندمـا بدأ جيك يدرك كم كانت هذه السـلوكيات غير عادية جعله ذلك أكثر وعيا بذاته.

«حسـنا، كان هـذا تقريبا مئتين وسـتة وأربعين عود أسـنان»، قـال ذلـك بضحكة خافتة، مشـيرا إلى المشـهد الأيقوني من فيلم رجـل المطـر (Rain Man)، أمـا أنا فقد كرهت خجلـه من ذاته، ولـم أكن أريده أن يشـعر بالحـرج من المواهب التـي جعلت منه شخصا مميزا، لكن الصف الثالث كان صعبا، حيث يميل الأولاد فـي سـن الثامنـة إلى التجمـع معا لممارسـة رياضتهـم المفضلة،

فتراهم يجتمعون في فريق البيسبول وفريق كرة القدم، لكن جيك لا يزال يعاني من الكثير من التأخير في الاستجابة الجسدية، لقد كان عداء بطيئا ويعاني من عدم تناسق أعضاءه في هذه الرياضة، وكانت السباحة بالنسبة له نوعا من الصراع؛ لذلك عندما أرسلت المدرسة ورقة الاشتراك في الألعاب الرياضية إلى المنزل، لم يضع اسمه على أي منهم، بل سجل في نادي الشطرنج، وهي مجموعة من الطلاب كانوا يلتقون للعب الشطرنج قبل موعد المدرسة، وكان معظم اللاعبين لا يزالون يتعلمون طريقة تحريك القطع، لذلك لم تكن هناك منافسة حقيقية بالنسبة لجيك.

لقد احتفظ بأشياء ممتعة لنفسه من خلال التضحية بعدد من قطعه المهمة مثل: الوزير، وأحد الفيلين، وخمسة من البيادق في وقت مبكر من كل لعبة، تاركا لنفسه قطعا أضعف فقط للدفاع عن ملكه، ولم يلاحظ أي من الأطفال أن هذا كان متعمدا، على الرغم من أنه كان يتخلى عن نفس القطع في كل مرة، وبينما كان الأطفال الآخرون يتعلمون اللعبة، كان جيك يطور مهارات اجتماعية مهمة، مثل: كيفية التحلي بالصبر بينما يأخذ شخص آخر دوره وكيفية الأخذ والرد في العلاقات بين البشر.

لقد أقام الكثير من الصداقات مع الأطفال في المدرسة

والحي، لكن كانت لديه من الدراية والوعي الاجتماعي ما يكفي ليعـرف أنه يختلف إلى حد ما عـن أصدقائه وعن جميع الأطفال الآخرين في فصله، فكم أراد الأطفال الآخرون إطلاق النار على السـلال أو مشـاهدة الألعاب الرياضية علـى التلفزيون، وقد فعل جيك هذه الأشـياء أيضا، لكنه أراد في الواقع قضاء بعض الوقت في العمل على الرياضيات المتقدمة، أو تحديث خريطته السياسية للولايات المتحدة.

كان هنـاك جزء مـا لدى جيك لا يمكنه مشـاركته مع الصبية الآخريـن، فلـم يكن تقسـيم الدوائـر الانتخابية أو دراسـة كيمياء التربة أو أيا مما كان يشغل باله في ذلك الأسبوع ضمن اهتماماتهم بشكل عام، وهو ما جعله يدرك شعوريا حجم الفارق بينه وبينهم، وحينهـا، وجـد جيـك أنه مـن الأسـهل النـزول بمسـتوى تفكيره وتبطئـة تصرفاتـه والتظاهـر بـأن الأمـر اسـتغرق عشـرين دقيقـة للوصول إلى ورقة عمل لجدول زمني، كما حدث مع أي شخص آخر.

التعايش الاجتماعي يعني أن جيك كان عليه أن يحتفظ بجزء من نفسه في طي الكتمان.

أشار أحد الخبراء في مجال المواهب الخارقة الذين تحدثنا

إليهم إلى أنه عندما يتمتع شخص ما بنفس معدل ذكاء جيك فإنه سيركز في فعل أي شيء، حتى لو كان يتصرف مثل طالب عادي في الصف الثالث، ومع ذلك فقد تسببت الحياة المزدوجة التي كان يعيشها في إحداث نوع من أزمة الهوية، وكان عليه أن يعرف من يكون؛ لأنه لم يكن يعرف حقا.

قضيت أنا وجيك الكثير من الوقت على الإنترنت في مشاهدة مقاطع فيديو للعلماء المصابين بالتوحد والأطفال الخارقين للعادة، العديد من المعجزات الطفولية على يوتيوب ممن كانوا بارعين في الموسيقى، وهو ما كان له فائدة غير متوقعة تتمثل في إلهام جيك ليصبح موسيقيا، فقد كان جيك يستمع لبضع دقائق لمقطوعة موسيقية كلاسيكية وضغط على زر الإيقاف المؤقت، وجلس على البيانو، وبدأ يعزف على الفور ما سمعه للتو بشكل مثالي، وكان من الرائع مشاهدة ذلك حيث بدا الأمر مريح بالنسبة له.

لم يكن جيك شخصا يحب الصباح فلم يعتد الاستيقاظ في الصباح، لكن سماع العزف على البيانو لبضع دقائق في الصباح أصبح إحدى طرقه المفضلة للاستيقاظ.

وجدنا مقاطع فيديو لكيم بيك، ذلك الموهوب المصاب

بالتوحد الذي ألهم شخصية داستن هوفمان في فيلم رجل المطر، كان بيك معروفا بحساب التقويم ضمن أشياء أخرى، وكان بإمكانه أن يخبرك على سبيل المثال، ليس فقط بتاريخ ولادة ونستون تشرشل ولكن أيضا في أي يوم من أيام الأسبوع ولد تشرشل، بناء على سنة ميلاده.

سمعنا جيك يقول وهو يشاهد المقطع: «حقا؟ وهل الأمر بهذه الصعوبة؟ يمكنني فعل ذلك».

فأجبته في دهشة: «هل يمكنك ذلك؟» كيف لم أدرك هذا؟»؛ من المعلوم أن مهارة من هذا القبيل لا تظهر بشكل عام أثناء الحديث، ثم سألته: «إذن أخبرني في أي يوم من أيام الأسبوع ولدت؟»؛ قال دون أن ينظر بعيدا عن الشاشة: «في عام ١٩٧٤، كان السابع عشر من أبريل وكان يوافق يوم أربعاء».

بالطبع كان على حق.

لم تكن لدي أية فكرة أيضا عن مدى جودة ذاكرته البصرية إلى أن شاهدنا فيلما وثائقيا على الإنترنت يتحدث عن الفنان ستيفن ويلتشير، وهو عالم مصاب بالتوحد يُطلقون عليه: «الكاميرا البشرية» لقدرته على رسم مشهد شبه مثالي لمنظر طبيعي رآه مرة واحدة فقط.

في الفيلم الوثائقي الذي رأيناه، استأجر صانعو الفيلم طائرة هليكوبتر لتحلق به فوق روما، وبعد المرور على المدينة لمرة واحدة، تمكن ويلتشير من رسم المدينة بأدق التفاصيل المعمارية، مثل: عدد الأعمدة الموجودة في البانثيون.

قال جيك: «هكذا أرى أيضا»، وهو مندهش من وجود شخص آخر يرى العالم بنفس الطريقة، ويستطيع تذكره بنفس القدرة، وأيضا من حقيقة أن الجميع لا يستطيع أن يتذكر بدقة عدد النوافذ الموجودة في ناطحة سحاب رأوها مرة واحدة فقط، لم تكن لدى جيك قدرة ويلتشير الفنية، لكنه أيضا يمكنه أن يتذكر بدقة عدد السيارات التي كانت موجودة في ساحة انتظار بست باي التي مررنا بها بسرعة خمسة وخمسين ميلا في الساعة، وكم من تلك المواقف كانت شاغرة، إلى جانب مئات التفاصيل الدقيقة الأخرى.

كانت مشاهدة جيك للعلماء الآخرين المصابين بالتوحد على يوتيوب مصدر ارتياح له، لكنها لم تكن حلا للعزلة التي يشعر بها في حياته اليومية، ففي بعض الأحيان كانت معرفة جيك بأن هناك من يشبهه من العلماء والأفذاذ تزيد من شعوره بالوحدة.

هناك فرق كبير بين أن تعرف أنك لست وحيدا لأنك شاهدت

شخصا ما على يوتيوب، والشعور بأنك لست وحدك؛ لأن لديك شخصا على أرض الواقع يمكن أن تتحدث معه، كان يمكن لجيك أن يخبرني عن كل شيء يتعلق باهتماماته، لكن لم يكن يدور بيننا أي نقاش حولها؛ فلم تكن لدي معرفة بموضوع مثل: تدفقات الحمم البركانية لكي أجذب انتباهه لمجاذبتي أطراف الحديث، ولكن أفضل ما كان يمكنني فعله هو الاستماع وطرح الأسئلة، وهذا بحد ذاته غير كاف.

بناء على إلحاح جيك؛ اتصلت بالدكتور دارولد تريفيرت، وهو طبيب كيم بيك، وأحد الخبراء الرواد في مجال العلماء المصابين بالتوحد.

في ذلك الوقت؛ أظهر موقع الدكتور تريفيرت معلومات شخصية لعدد من العلماء، وشعر جيك على الفور بأن عليه التواصل مع أصحاب تلك المعلومات، وبالنسبة لشخص كان يحب طرح الأسئلة، كان السؤال الأمثل: «ما هو المكان الذي يناسبني»؟ و» إلى أين أنتمي؟».

بدا موقع الدكتور تريفيرت وكأنه هدية لي من السماء؛ لذلك اتصلت به.

في عالم التوحد، قد يستغرق الأمر عاما للاتصال بخبير في

مثل حالتك، لكن ما بعث دهشتي أن الدكتور تريفيرت أجاب على هاتفه فورا، فأخبرته عن ابني غير العادي، وأبدى اهتمامه بهذا الأمر على الفور، وبعد أن تحدثنا لفترة، قال لي عبارة ما زلت أفكر فيه كل يوم تقريبا .. قال: «انتظري وانظري، فسوف يفاجئك ابنك».

في ذلك الوقت، لم أفهم تماما ما كان يقصده، فأجبت ضاحكة: «أوه، لقد فاجأني كثيرا بالفعل، لقد اعتاد على مفاجئتي كل يوم»، وكان ذلك صحيحا، فلم تكن لدي أدنى فكرة عن أنه يستطيع حساب التقويم، لكن في السنوات التي تلت تلك المحادثة، أدركت مدى صحة هذا التنبؤ حقا، لقد عرف الدكتور تريفيرت؛ لأننا لم نر إلا غيضا من فيض، ولقد فهم أن قدرات جيك ستزداد أضعافا مضاعفة مع تقدمه في السن، وأنها ستتجاوز أي شيء كان يمكننا توقعه.

خلال تلك المكالمة الأولى؛ أخبرت الدكتور تريفيرت عن الشعور بالوحدة الذي يعاني منه جيك، فعرض علي أن نقدم إلى جيك معجزة أخرى تبلغ من العمر ثماني سنوات.

كان الصبيّان موهوبين في مجالات مختلفة، لكنهما يشتركان في العديد من نفس الاهتمامات ولديهما أنماط تطورية متشابهة،

لقد اعتقد الدكتور تريفرت أنهما قد يتماشيان ويتكيفان مع بعضهما البعض، وأن تكون لديهما القدرة على التواصل مع بعضهما البعض بطريقة لا يستطيع أي منهما التواصل بها مع الآخرين ممن هم في نفس أعمارهما، وبالكاد كان بإمكاني الانتظار لإغلاق الهاتف للاتصال بالأم الأخرى، لكن اتضح أنها لا تريد تحديد موعد للأولاد، وشرحت لي أن ابنها مشغولا للغاية ولا يرغب في تكوين صداقات جديدة، حيث لم يكن جدوله المليء بالموسيقى والقيام بالجولات يسمح بذلك.

لقد صدمني الرد، حيث لا أحد يعرف أفضل مني أن الطفل الموهوب لديه دوافع ذاتية، وأنا لم أجعل جيك يوما ما يقوم بحل تمرينات مادة الرياضيات أو يتعلم الفيزياء أو علم الفلك، وأنا متأكدة من أن أم الطفل الآخر لم تضطر أبدا إلى إجباره على التدرب على آلته، فأنا أكبر مؤيد للسماح للأطفال بفعل ما يحبون، وذلك التصرف مني يمثل حجر الزاوية في كل ما أفعله، ولكن يجب أن يكون هناك توازن في كل شيء.

كنت دائما ما أقول لجيك: «سيكون المستقبل للفيزياء، فهذه الرياضيات لن تؤدي إلى شيء، وهو ما ينطبق على الشطرنج أو الموسيقى أو الفن.

أنا متأكد من أنه لا أحد كان يجبر بوبي فيشر على لعب الشطرنج في كل دقيقة عندما كان طفلا، قد يكون هذا هو ما أراد أن يفعله أكثر من أي شيء آخر في العالم، ولكن عندما يكون الأمر كذلك، أعتقد أن مهمة الوالدين تكمن في إغلاق رقعة الشطرنج وإرسال الطفل إلى خارج حدود المنزل للعب، حيث يحتاج إلى التعرف على أصدقاء في نفس عمره، فهو لا يستطيع اكتشاف ذاته في عالم يعيش فيه وحده.

ورغم كل جهودنا، فقد وصل الشعور بالوحدة والملل حدوده لدى جيك في الصف الثالث، لقد كان يائسا من التعلم، وبدت المدرسة وكأنها تمثل له عائقا في طريقه، لقد كان يظل مستيقظا طوال الوقت يقرأ في السرير بغض النظر عن عدد المرات التي نطفئ فيها الضوء، ثم عندما يستيقظ في الصباح نجده لا يريد الذهاب إلى المدرسة، إن المعادلة التي طلبنا منه أن يتقبلها حول ما يتوجب عليه فعله، وما يحب فعله لم تعد تبدو موزونة؛ فالطفل المفعم بالحيوية وحب المشاركة والحماس والذي تحدث عن الكويكبات من المقعد الخلفي للسيارة بدا مثل ظله، لا أجد فيه لا حياة ولا روح عندما أقبّله مودعة له في محطة الحافلات كل صباح.

وكان عندما كان يعود إلى المنزل قادما من المدرسة يحشر نفسه في أحد المكعبات في رف الكتب الذي كان لدينا في الحضانة، بدلا من اللعب مع أصدقائه في الحي، وكان الآباء عندما يصلون لاصطحاب أطفالهم يجدونه محشورا هناك، حتى إن البعض منهم اعتقد أنه كان يفعل ذلك على سبيل التسلية، ولكن لم يكن في ذلك التصرف ما يدعو للمتعة، أما أنا فقد كنت قلقة للغاية على جيك ابن الثمان سنوات، حيث كان هذا سلوكا توحديا حقيقيا، وهو ما جعلني أشعر وكأنني أفقده مرة أخرى.

النجوم تنقذنا

اتصلت بستيفاني ويستكوت، عالمة النفس التي كانت أول من شخّص جيك على أنه مصاب بالتوحد، كانت منصتة وأنا أخبرها بما يجري، بعدها أجابتْ دون أن تنمق الكلمات قائلة: «يبدو أنه يشعر بالملل، يا كريستين، عليكِ إشراكه في أي نشاط، هل أبدى اهتماما بأي شيء خلال الفترة الأخيرة؟».

كان جيك يثير حفيظتي ويضايقني بسبب اهتمامه الزائد عن الحد بعلم الجبر لأكثر من عام، وللأسف كانت الرياضيات في الصف الثالث تعني جداول الضرب والقسمة المطولة، وليس الجبر الذي كان يائسا من تعلمه، ولم أستطع مساعدته حيث كان بوصوله إلى هذه المرحلة قد تجاوز تماما أية معلومات في الرياضيات كان قد تعلمتها من قبل؛ ونظرا لأن الرياضيات والعلوم التي كنت أحبها أصبحت أكثر تعقيدا من ذي قبل؛ فلم يعد جيك يعتمد علي في تقديم أية مساعدة له، وكانت المساعدة الوحيدة التي يمكنني تقديمها هي الاستماع بينما كان يتعامل مع المسائل ويحاول حلها بنفسه، وقد كان التدريس في المدرسة هو

كل ما فعلوه مع جيك، وهذا أقصى ما يمكنهم تقديمه، لذا كان جيك بحاجة إلى معلم، ربما كان هناك ناد للموهوبين في الرياضيات يمكنه الانضمام إليه؟

لقد دعتنا المدرسة لحضور اجتماع لمناقشة بعض الخيارات.

بمجرد أن رأيت عدد الأشخاص الذين حضروا الاجتماع، بدأ الشك المشوب بالحذر يراودني؛ فلماذا قد نحتاج إلى الأخصائي النفسي مادام الحديث عن الرياضيات؟

بدأ الاجتماع بشكل رسمي، حيث شرحت أنا ومايكل كيف كان جيك يائسا من تعلم الجبر، وشاركناه نفس المشاعر بسبب عدم قدرتنا على تقديم المساعدة له.

فأجابوا: «سيكون لديه متسع من الوقت لتعلم تلك المواد عندما يبدأ برنامج الموهوبين في الصف الرابع، ولكن حتى ذلك الحين قد نتمكن من تقديم بعض المساعدة الإضافية له إذا أعدنا فتح برنامج التعليم الفردي».

انتابتني الدهشة والذهول من هذه العبارة: «برنامج التعليم الفردي!».

لقد اعتقدت أننا تخطينا تلك المرحلة في حضانة الأطفال، ولم تكن رغبة جيك في التعلم تمثل أي دليل على حاجته إلى الخدمات الخاصة، فهو لم يكن يحتاج إلى مساعدة إضافية؛ لأنه لم يستطع الجلوس على الكرسي، بل كان طالبا بكل ما تعنيه الكلمة .. أجبتهم: «هو لا يحتاج إلى مساعدة خاصة، بل يحتاج إلى مصادر للتعلم».

قالوا: «قد يكون برنامج التعليم الفردي هو السبيل للحصول على هذه المصادر»، ما زلت لا أفهم: «لماذا نتحدث عن التعليم الخاص؟ هل جيك طالب مزعج في الفصل؟ هل هو غير قادر على التواصل؟ ألا يلعب مع أصدقائه في فترة الراحة؟».

«لا، لا، بالطبع لا، إنه طالب مثالي ولديه الكثير من الأصدقاء، لم تكن هناك مشكلة مع جيك في هذا الجانب على الإطلاق».

فقلت: «هل يحتاج إلى علاج وظيفي؟ علاج بدني؟ تخاطبي؟» مرة أخرى كان الجواب: لا.

«إذن ما الأمر؟ لماذا نتحدث عن برنامج تعليم فردي؟».

إنها بطاقات الأبجدية مجددا! لقد جئت إلى المدرسة لأن ابني كان يتوسل وعلى مدى عامين لمعرفة المزيد حول إحدى

المواد الدراسية، ولم أستطع مساعدته فيها، لقد احتاج إلى الحصول على مصادر للتعلم، وقد جئت إلى مدرسته للحصول على هذه المصادر، لكنهم كانوا يقولون: إنه يتعين علينا إعادة جيك إلى دائرة الاحتياجات الخاصة، فقلت لهم: «أعتقد أن هذه هي نقطة النهاية لحديثنا، معذرة، وخرجت من الغرفة».

خرج مايكل خلفي وهو مصدوم من ردة فعلي وقال: «كريستين! تعالي، لنكمل الاجتماع»، قلت له: «لن أعود إلى هناك مرة أخرى، لقد انتهى الأمر. لا أريد الحديث عن أي شيء يتعلق بابني أو بالتعليم الخاص، هذا ليس سبب وجودي هنا، سألتقي بك في السيارة».

لم أوجه اللوم إلى مدرسة جيك أو معلميه، بل في الواقع كنت ممتنة لهم على عملهم وتفانيهم، فقد كانوا يحاولون فعل الشيء الصحيح لجيك، ولكن في قرارة نفسي كنت على يقين بأن فتح برنامج التعليم الفردي الخاص لم يكن هو السبيل للوصول إلى حل، وكنت أعلم أنني قد أكون بذلك أرتكب خطأ، تماما كشعوري عندما أخرجته من برنامج المهارات الحياتية، ولأنني أعتقد أن قلب الأم دائما ما يكون على حق، وأن حدْس الأم يصدق دائما، فقد كان المسار واضحا بالنسبة لي.

استعنت بعمتي وهي مُدرسة الرياضيات في المدرسة الثانوية من أجل أن تُدرس الجبر لجيك، وعندما تجاوز جيك كل ما علمته إياه بشكل مريح وسريع، أدركت أن القليل من الدروس الخصوصية في الرياضيات لن يحل المشكلة الأكبر، لقد كانت ستيفاني ويستكوت على حق عندما قالت إن جيك يشعر بالملل، لقد كان يحتاج إلى شيء أو شخص ما يفهم ما يدور بمخيلته، ويشجعه، ويواجه التحديات معه. كانت محاضرات علم الفلك المتقدم في مرصد هولكومب مفيدة؛ حيث سبق أن ساعدت على إخراجه من عزلته، لذلك عدنا إليهم مرة أخرى، ولكن هذه المرة مع الأسرة كلها بما فيها ويسلي والطفل الرضيع إيثان.

كان التغيير في جيك دراماتيكيا، وقد شكلت تلك الأيام التي قضيناها نحن الخمسة معا في القبة السماوية ذكريات جميلة حقا، فقد كان الأولاد يأكلون زبدة الفول السوداني وشطائر الجيلي، ثم نحضر العرض الأسبوعي، وكنت أحضر أكبر عدد من دفاتر ملصقات السيارات يمكنني وضعه في حقيبتي حتى يظل ويسلي وإيثان مشغولين دائما، أما بالنسبة لجيك فقد كان منهمكا، وكان الأمر ينتهي بنا دائما إلى العودة للتلسكوب العملاق أعلى المبنى، حيث كان جيك ينظر إلى النجوم.

لقد أصبحت تلك الرحلات إلى المرصد تقليدا عائليا جديدا، حيث كان يمثل أحد أنواع السعادة، وتجربة مفيدة أردت للأولاد أن يعيشوها ويستمتعوا بها.

كان إيثان صغيرا بعض الشيء، لكن ويسلي تأقلم مع الوضع بسرعة، وكلما تعلم أكثر، زاد اهتمامه أكثر، ولم يمض وقت طويل حتى كان هو وجيك يقضيان طريق العودة إلى المنزل في الحديث عن قضايا وأمور تتعلق بعلم الفلك المتقدم كما لو كنا في مؤتمر للمختصين في هذا العلم، حتى إنه كان بإمكاني أن أرى نظرات مايكل إليهما وكأنه يقول من هؤلاء؟

كنا جميعنا سعداء حيث شعرنا كما لو أننا قد أنقذنا جيك؛ فتقريبا بعد استئناف زياراتنا للمرصد مباشرة عاد جيك لممارسة حياته الاجتماعية مرة أخرى، فبعد المدرسة كان يذهب بسعادة لركوب دراجته، أو اللعب مع أصدقائه.

بالنسبة لي لقد تعلمت الدرس؛ فطالما تمكن جيك من الحصول على جرعة جيدة من علم الفلك الجاد، فسيتمكن من مواكبة الحياة الاجتماعية في المدرسة، ووفقا لما لاحظته مرات عديدة مع الأطفال العاديين في الحضانة، والأطفال المصابين بالتوحد في: «ليتل لايت»، وكذلك مع جيك نفسه، فإن جميع

مهارات الطفل الأخرى ستأتي بشكل طبيعي طالما كان يفعل ما يحبه.

أغلق المرصد أبوابه استعدادا لفصل الشتاء، وكان لابد من وجود طريقة أخرى لإثارة اهتمام جيك، فلا يمكننا أن نفقد المكاسب التي حققناها مؤخرا، ومشاهدة مسلسل كوزموس على قناة بي بي إس، والتواجد على موقع ناسا لن يكون كافيا، فقد كان جيك بحاجة إلى الانغماس في أي شيء بديل بعد أن أغلق المرصد أبوابه، لذلك بحثت عن قبة فلكية أخرى.

كانت جامعة إنديانا - بوردو إنديانابوليس على مقربة من جامعة بتلر، حيث يقع مرصد هولكومب، وعلى الرغم من أن جامعة إنديانا لم يكن لديها قبة فلكية، إلا أنها كانت تقدم دورات في علم الفلك، لذلك سرعان ما وجدت نفسي أتصل بالبروفيسور إدوارد رودس، الذي كان يقدم دورة جديدة حول النظام الشمسي هناك.

لم يكن لدي من الشجاعة ما يكفي لأطلب خدمة لنفسي، ولكن لأنني كنت أدافع عن جيك فلم أكن أشعر بأدنى خوف .. أخبرت البروفيسور رودس أن لدي ابنا مصابا بالتوحد ويحب علم الفلك، وأننا حققنا الكثير من النجاح معه على المستوى

الاجتماعي، وفي مجالات أخرى بسبب إشراكه في الأنشطة التي أحبها، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي، هل سيفكر البروفيسور رودس في السماح لجيك بالجلوس في فصله الدراسي؟ ثم أجبت على نفسي محاولة تفسير الأمر على النحو الذي يرضيني ويبث الطمأنينة في قلبي، حيث تهيأ لي أن السماح لجيك بالجلوس من عدمه لا علاقة له بما إذا كان جيك مهتما بدراسة علم الفلك أم لا، ولا علاقة له بمنح جيك المزيد من التعليم، كل ما كنت أفكر فيه هو أن حضور جيك لهذا الفصل سيجعله سعيدا، وسيساعده بشكل غير مباشر في تنمية مهاراته الاجتماعية.

كنت أعلم أن ما أردته من البروفيسور رودس هو طلب مجنون، لقد كانت هذه الدورة تستهدف طلاب المرحلة الجامعية، بينما كان جيك في الثامنة من عمره فقط، لكنني علمت أيضا أن الحصول على إذن له لحضور هذا الفصل الدراسي لمدة خمسة أسابيع كان أفضل فرصة لي لإبعاده عن رف الكتب، وفي إحدى مراحل حديثي مع البروفيسور رودس، اقترحت أنه ربما يمكننا الجلوس في قاعة خارج الفصل والاستماع إلى المحاضرة من القاعة دون الحاجة إلى الحضور، حيث لم أكن أرى ذلك ضروريا من وجهة نظري، وبكرم غير اعتيادي وافق البروفيسور رودس على السماح لجيك بحضور الدورة التي عقدت للطلاب

الجامعيين حيث كان موضوع الدورة يتعلق بكوكب زحل، لكن موافقته تلك كانت مشروطة بأن أخرجه من الفصل الدراسي بمجرد أن ألاحظ إنه على وشك القيام بأي سلوك تخريبي.

كان محاضرة البروفيسور تعقد بعد الظهر، مما يعني أنه كان لزاما عليّ أن أخرج جيك من آخر حصة في المدرسة قبل موعد المحاضرة بحوالي عشرين دقيقة، فأخبرت معلمه أن لديه سلسلة من المواعيد مع الأطباء المعالجين لحالته، على أمل أن لا تطلب إشعارا بذلك، وبينما نحن نستقل السيارة، إذ قال جيك: «حسنا، أنا ذاهب إلى الطبيب».

لقد كانت مزحة تقريبا، وهي إحدى المرات الفكاهية النادرة لجيك الذي لم يستغل هذا الجزء من شخصيته بعد، فاعتبرت ذلك علامة جيدة.

كانت جامعة إنديانا - بوردو إنديانابوليس بمثابة كلية لكبار السن؛ حيث كان العديد من طلابها من كبار السن الذين يحضرون لجزء من الوقت، بينما كنت أنا وجيك نشق طريقنا إلى الفصل الدراسي الصغير حيث ستُعقد الدورة، كنت أظن أن معظم الحاضرين ينظرون إلي على أنني طالبة فشلت في رعاية طفلها، وعلى الرغم من أنني كنت متأكدة من أنني أفعل الشيء الصحيح

لـجيك، إلا أنني لم أزل متوترة بشأن ما سيحدث بعد الظهر؛ فقد يشعر جيك بالملل، أو يسحب كرسيه عبر الأرضية ويحدث ضجة، أو سيصدر الكثير من الضوضاء بطريقة ما، وإذا فعل، فلا مكان للاختباء من البروفيسور حيث سيكون الرد على ذلك هو إخراجنا من الفصل؛ لذلك كان قلبي يخفق بقوة عندما أخذ البروفيسور رودس مكانه في مقدمة الفصل .. كان يبدو أشعث ومنطويا ومتحمسا لموضوعه، وكان ذلك بمثابة أفضل نموذج لصورة البروفيسور شارد الذهن، حيث ذكرني قليلا بـجيك.

لحسن الحظ، بمجرد أن بدأ البروفيسور رودس في الكلام، لاحظت استرخاء جيك وشعوره بالراحة، وعندما نظرت إليه، كان بإمكاني أن أرى أنه كان في أسعد لحظاته منذ شهور، حيث كان مركزا، وكله عزيمة وإصرار، وفي نفس الوقت هادئا.

كان لدى البروفيسور رودس مجموعة من الشرائح، معظمها صور لكوكب زحل تم التقاطها من خلال تلسكوب هابل الفضائي، لقد كانت الصور ساحرة وتأسر بجمالها .. أثناء الشرح؛ طلب من الفصل تفسير ما رأوه، حيث سأل الفصل قائلا: «ما هذه النقطة السوداء أمام زحل؟» إلا أن أحدا لم يجب، فسحب جيك دفتر ملاحظاته ودفعه لي بعد أن كتب عليه في

الهامش: «إذا كنت أعرف، هل يمكنني أن أجيب؟»، فرددت عليه بالكتابة أيضا: «إذا لم يُجب أحد يمكنك أن تقول، ولكن بعد أن ترفع يدك».

انتظر جيك للحظة، ثم رفع يده. التفت إليه البروفيسور وأومأ برأسه. قال جيك «إنه ظل القمر تيتان».

تبادل الطلاب الآخرون في الفصل النظرات، أما بالنسبة إلي، فقد فاجئني جيك، لم أكن متفاجئة لأن جيك كان يعرف الإجابة، حيث أنه لم يعد شيئا يفاجئني من جيك في تلك المرحلة، ولكن ما كان مصدر المفاجئة بالنسبة إليّ هو أسلوبه في الإجابة، حيث لم يكن متوترا، ولم يكن يشعر بالخجل من المشاركة في مثل هذا النقاش في فصل دراسي بالجامعة، بل بدا وكأنه يمتلك الثقة الكاملة بالنفس، وأنه معتاد على المكان.

خلال الفصل الأول، أجاب جيك على سؤال أو سؤالين آخرين، وكان دائما ما ينتظر للتأكد من عدم رغبة أي من الطلاب في الإجابة .. يمكنني القول إن البروفيسور رودس بدأ يدرك أن هذا كان أكثر من مجرد رغبة من جانبي، وأن جيك كان أكثر من مجرد طفل صغير حصل على بعض الدروس حول الأقمار والأجرام السماوية.

كان جيـك الذي عدت معه إلى المنـزل في تلك الليلة طفلا مختلفـا تمامـا عـن الطفل الذي اعتـاد التواجد أمـام رف الكتب، وكانت الأيام التي قضيناها في حضور الفصل الدراسي هي الأيام الوحيـدة التي لـم يكن عليّ أن أحاول جاهدة إيقاظه في الصباح؛ حيـث كانـت عبـارة: «لدينـا دروس الليلة» تعمل مفعول السـحر أكثر من أي منبه.

أثناء توجهنا إلى الفصل، كان جيك يميل بجسده إلى الأمام في مقعده كما لو أنه يتعجل ولا يستطيع الانتظار لنصل إلى هناك.

عندمـا اقتربنا من نهاية المحاضرة، كتب جيك ملاحظة على هامش دفتر ملاحظاته: «لدي سؤال».

كتبت مرة أخرى: «احفظها حتى النهاية، وليكن سؤالا هامًا، فإنني لا أريدك أن تضيع وقت البروفيسور في شيء يمكننا البحث عنه في المنزل».

بعـد انتهـاء المحاضـرة كان جيـك ينتظر، بصبـر، حتى طرح بقية الطلاب أسـئلتهـم على البروفيسـور رودس إلى أن جاء دوره أخيرا، كان بإمكاني أن ألاحظ جيك وكأنه يرقص فرحا في إشارة يمكن لكل أم التعرف عليها على الفور، ولحسـن الحظ، لم أكن الوحيدة التي لاحظت ذلك، وربما كان هناك أثر لابتسامة خفيفة

على شفاه البروفيسور رودس عندما قال: «العلم مهم يا جيك، لكن هناك بعض الأشياء أكثر أهمية من العلم، إذا كنت ترغب في الذهاب إلى دورة المياه، فإنني أعدك بأن أنتظرك حتى تعود للإجابة على سؤالك».

يتعلق سؤال جيك بانخفاض الجاذبية على قمر إنسيلادوس، أحد أقمار كوكب زحل، وما يعنيه ذلك من إمكانية العيش هناك، بالنسبة لي فلم أكن أعلم حينها أن إنسيلادوس يعتبر أحد أكثر البقع في نظامنا الشمسي التي يحتمل وجود حياة عليها، حيث يوجد به محيط، لكن يمكنني أن أستنتج من الطريقة التي أجاب بها البروفيسور رودس على السؤال الذي مفاده أن جيك فعل ما اقترحته عليه حيث جعل سؤاله هادفا ومهما.

أصبحت مشاركة جيك نوعا من المزاح، فإن لم ترتفع يد أحد عندما كان البروفيسور رودس يطرح سؤالا، كان ينتظر بضع لحظات ثم يلجأ إلى جيك طالبا منه الإجابة، وفي كثير من الأحيان، كانت إجابة جيك صحيحة، وبحلول انتهاء الفصل الدراسي، كان جيك يشارك بشكل علني وواضح في المناقشات التي تدور في الفصل، ولم يكن جيك بالنسبة لي طفلا أصغر ممن حوله من طلاب الكلية نظرا لما يقوم به على السبورة أمام

هـؤلاء الطلاب، بـل كان يضاهيهم، فعندما أعلن البروفيسـور أن الفصل سينقسم إلى مجموعات لعمل عرض تقديمي نهائي، كان الجميع يطالب بالعمل مع جيك حيث رأى الجميع أنه تعامل مع العـرض التقديمي بكل جدية واجتهاد، وأجرى جميع الأبحاث، ووضع عرضا تقديميا رائعا باستخدام بوربوينت، وكان هذا أول تعامل له مع طلبة الكلية، ومع ذلك، بدأ يشعر بالقلق عندما أدرك أن شركاءه لم يشاركوا بأي نشاط في هذه المهمة، لم يفهم ما كان يدور حوله، ولم يستطع تفسير عدم مشاركة الطلاب له، إلا أنني اضطررت إلى أن أشرح له أن السبب في ذلك هو أنهم رأوا أن ما فعله يمثل أفضل السيناريوهات، لذا فقد بدا لهم أن تقديم إسهاماتهم لن يجدي نفعا إذا ما قورن بما قدمه جيك، وهذا هو السبب في أنهم كانوا ينتظرون حتى اللحظة الأخيرة حتى يقدموا أعمالهم إذا رأوا في ذلك فائدة، سألني جيك : «لنفترض أنني لم أقدم العرض الجيد»؛ فأجبته قائلة: «حسنا، عزيزي، لكنهم يرون أنك قمت بعمل جيد من خلال عرضك التقديمي، وأن كل شيء جاهز للعمل»، «وربما يكون هذا هو السبب في أنهم يعتقدون أنه ليس عليهم فعل المزيد على الإطلاق»، فكر جيك في ذلك لوهلة، ثم قرر إخبار زملاءه الطلاب أنه يمكنهم الحصول على مجموعة شرائح بوربوينت الخاصة به، ولكن سيتعين عليهم

إجراء البحث بأنفسهم لمعرفة ما يعنيه ذلك؛ لأنه لن يشارك في العرض، ثم كتب للبروفيسور رودس رسالة بريد إلكتروني يشرح له فيها سبب عدم تواجده أثناء العرض، لقد كان ذلك تصرفا أخلاقيا رائعا من جيك؛ حيث لم يُرد أن يحرج زملاءه، فابتسمت بيني وبين نفسي عندما خطر ذلك ببالي.

كنت أظن أنها لن تكون المرة الأخيرة التي يحاول فيها طلبة الجامعة المراهقون ومحبو السهر أن يصعدوا على أكتاف جيك، ولكن ربما يكون حظه مع المجموعة التالية أفضل من حظه مع هذه المجموعة.

الخبز المحمص وعلم الفلك

كان الخبز المحمص بالفراولة يباع في منافذ البيع بجامعة إنديانا - كلية بوردو إنديانا بوليس، وأصبح تناوله أثناء انتظار فصل علم الفلك من أبرز أحداث الأسبوع لدى جيك.

عندما انتهى فصل البروفيسور رودس، حضر جيك دورة أخرى لطلاب آخرين، وكان موضوع هذه الدورة يدور حول النظام الشمسي وألقاها الدكتور جاي بيهل، الذي أحببته فور أن رأيته، حيث كان وجهه ودودا، ويداه مغطاة بالطباشير، وكان معروفا بحمل منديل محشو بالحلوى في جيبه.

كان فصل الدكتور بيهل أكبر بكثير من الفصل الذي درس فيه جيك مع البروفيسور رودس، حيث يعقد في قاعة ضخمة.

لقد قمت سلفا بإرسال بريد إلكتروني لأسأل عما إذا كان بإمكاننا الحضور أم لا، فكان رد الدكتور بيهل أنه طالما لم نزعج أحدا، فلا توجد مشكلة في ذلك.

أصبح جيك شغوفا بالحضور مرة أخرى بعد الفصل الأول،

ولكننا وللأسف لم نتمكن من حضور الفصلين التاليين لأن مايكل مرتبطا بالعمل، ولا يمكنه رعاية بقية الأطفال، ولأنني أعلم مدى أهمية الحضور بالنسبة لجيك، فقد قمت في الأسبوع التالي بإحضار جميع الأولاد الثلاثة معي، وبينما كان جيك حاضرا في الفصل، اصطحبت الطفلين الصغيرين في نزهة، وكان من الغريب مشاهدته يبتعد عني وهو ذاهب إلى قاعة المحاضرات، فلقد كان جسمه أصغر بكثير من الآخرين الذين احتشدوا حوله وكان أمامهم كالقزم، واستطعت أن أرى أن حذاءه غير مربوط.

لم أترك جيك في أي مكان من قبل، باستثناء المدرسة الابتدائية أو منزل أحد الأصدقاء، وبدا هذا مختلفا جدا بالنسبة لي، وقبل عشرة دقائق من موعد انتهاء المحاضرة، ذهبت إلى القاعة لاصطحابه.

خلال الفصول الأولى التي حضرها جيك مع الدكتور بيهل، لم يكن جيك يتحدث مطلقا، كان حريصا فقط على الاشتراك في الفصل التالي في منهج علم الفلك والنجوم والمجرات الذي يدرسه الدكتور بيهل أيضا.

في وقت مبكر من الفصل الثاني، رفع جيك يده قائلا: إنه من المعروف أن النجوم الثنائية تتبادل الغازات، وينتقل الغاز من

نجم إلى آخر ويسبب تغيرات في النجم الثاني، ولكن بما أن النجم الثاني يكبر، تساءل جيك، هل من الممكن أن تعود بعض الغازات إلى النجم الأول وتسبب المزيد من التغييرات هناك؟

بدا أن الدكتور بيهل يفكر بعمق قائلا: «في الحقيقة، لم أفكر في ذلك أبدا»، لم يكن الجواب على هذا السؤال موجودا في أي من الكتب المدرسية أيضا، وفي وقت لاحق ساعدني الدكتور بيهل في رؤية أن هذا الميل عند جيك للحصول على تصور أو مفهوم واضح، والانطلاق من خلال هذا المفهوم هو المحرك وراء تعزيز ما يتمتع به من إبداع هائل، إنه يدفع بكل نظرية أو مفهوم قرأه أو تعلمه خطوة إلى الأمام.

خاض جيك جميع التمارين القصيرة والاختبارات في تلك الفصول مع الدكتور بيهل، وقد اجتازها جميعا بتفوق، وأتذكر أن الدكتور بيهل كان يخبره بمن يتوجه إليه بعد أن وجد خطأ في الكتاب المدرسي، وعندما انتهت محاضرات النجوم والمجرات، سجل جيك لحضور الدورة التدريبية الأولى حول النظام الشمسي مرة أخرى .. لقد انتهى من جميع دورات علم الفلك التي تقدمها جامعة إنديانا - كلية بوردو إنديانابوليس.

من أجل إبقاء نفسه مشغولا أثناء انتظاره لطرح أسئلته

الحتمية على الدكتور بيهل في نهاية الفصل، كان جيك يتحرك ببطء وهدوء عبر الصفوف ما بين المقاعد الموجودة في القاعة الكبيرة، ويلتقط فناجين القهوة الملقاة على الأرض، والأوراق المهملة، وكان يضع علب الكولا الملقاة على الأرض في سلة المهملات، أو يضع الآلة الحاسبة التي ينساها الطلاب في حقيبة ظهره، ويحتفظ بها ليعيدها لصاحبها في الأسبوع التالي.

كان الأمر يبدو وكأن جامعة إنديانا قد استأجرت أصغر عامل نظافة في العالم، وبحلول الوقت الذي يشق فيه طريقه إلى المنصة، يكون الطلاب الآخرون قد انتهوا من طرح أسئلتهم على دكتور بيهل، ثم يتقدم هو بأسئلته إلى الدكتور.

وبعد أن أخذ الدروس في الجامعة لمدة قاربت العام، طرح جيك فكرة، وهي نظرية بديلة كان يفكر فيها .. لا أعلم هل اعتقد الدكتور بيهل أنه هذه الفكرة يمكن أن تفيد؟ ولكنه قال: «ليست لدي أدنى فكرة عما إذا كان جيك سينجح في طرح فكرته أم لا»، ثم جلس في الصف الأمامي وألقى بقلم على جيك قائلا: «هذا قلم، وهاك السبورة، تفضل اشرح لنا كيف نعرف عما إذا كنت ستنجح في إقناعنا بنظريتك أم لا»، جلسنا نحن الاثنان خلال الخمس عشرة دقيقة التالية وشاهدنا جيك وهو يتألق ويحل المعادلة بعد الأخرى.

كانت هذه هي الأولى من بين العديد من جلسات في الفصل الدراسـي، لكنها مثلت نقطة تحول بالنسبة لي، مع شعور حقيقي بالصدمـة مـن جانبي، فقد خطر لي أنني لـم أر جيك يتحدث عن الأشـياء التـي كان أكثـر شـغفا بهـا مع شـخص يعـرف بالفعل ما يقصـده، ولكن هنـا وأخيرا، وجد جيك شـخصا يمكنه أن يتبادل معه الأفكار، ويطرح عليه أسئلته، ويصحح له مفاهيمه وتصوراته، ويزيل من أمامه التحديات، ويعطيه ما يستحقه من التقدير.

رأيت مدى سـرعة اسـتيعاب جيك للمادة، وكيف أن سرعته الفائقـة فـي التعامل مع الرياضيات قـد أفادته .. لقد أدركت كيف يمكـن لتوجيهـات الدكتور بيهل أن تركز عقل جيك الشـره، وقد كان هنـاك الكثيـر من موضوعـات مادة الرياضيـات التي لم يكن يعرفهـا .. وهـذا كله وجيك في التاسـعة من عمره فقط، لكن هذا لـم يمثل سـوى عائـق مؤقت لـجيك، فهو على عكـس الطلاب الآخريـن مكنه تدوين الملاحظات، والعـودة إلى المنزل، وتعلم مـا يحتـاج إلى تعلمه، ثـم يبني على تلك الملاحظة في الأسـبوع التالي.

ذات مرة، قال لي الدكتور بيهل وهو يهز رأسـه: «إنه في كل مرة يحقق طفرة تختلف عن سابقتها».

كانت لدى جيك الكثير من الأفكار، وكانت البيئة الجامعية تغذي تلك الأفكار، ففي نهاية كل محاضرة، كان جيك يتناول عشرات النظريات على السبورة البيضاء، بينما يجلس الدكتور بيهل في الصف الأمامي ويشاهده أثناء قيامه بذلك.

كان جيك أفضل من معظم الناس في رؤية الأنماط، والتي تعتبر أساسية في الرياضيات والعلوم، ولم يكن خائفا من الربط بين تلك الأنماط، حتى لو كانت قد حدثت في أماكن غير محتملة، وإذا رأى أية صلة بينها فسوف يتكيف معها، أما إذا تبين له خطأ تلك الصلة، فسيتركها ويمضي قدما إلى غيرها.

لقد شجع الدكتور بيهل جيك على جرأته، وكان يخاطب جيك ضاحكا: «امض في طريقك ولا تهتم يا جيك، فلن يتذكر أحد خطأ ارتكبته عندما كنت في التاسعة من عمرك».

أثناء مشاهدتي جيك في مقدمة ذلك الفصل الدراسي، تأثرت مرة أخرى بمدى ثقته بنفسه ومرونته، فلم يكن جيك يأخذ الأمر على محمل شخصي إذا أشار الدكتور بيهل إلى وجود أية مشكلة محتملة في أحد أفكاره، أو سأله عن كيفية حل أي تعارض يظهر فيها، ولم يكن هناك غرور منه، ولم يكن يقول: «لا يمكنك مراجعتها، إنها نظريتي» أو ما شابه ذلك من عبارات، بل بدلا من ذلك كان يقول: «هذا لغز آخر! سأفكر في ذلك لثانية».

إنني، وبكل صدق، أقدر دعم الدكتور بيهل، لقد صدم بقدر ما كنت أشعر بالصدمة عندما أخبرته أن الناس كانوا مستعدين للتخلي عن جيك، وكان بين الحين والآخر يلتفت نحوي، بعينين واسعتين، وهو يقول: «هذا هو الطفل الذي لم يعتقد أحد أنه سيقرأ عنه!»، لقد كان مصرا على تقديم الدعم، في إحدى المرات وبعد أن حضرت الفصل، ناولني الدكتور بيهل ورقة اختبار اليوم وسألني قائلا: «أخبريني، من أين حصل جيك على هذه الموهبة، من المؤكد أنه حصل عليها من مكان ما»، أجبته قائلة: «هذا لا يهم، المهم الآن أنه تخطى أفكار جيل بأكمله، ولكن ذلك لم يكن مني، فقد قضيت معظم حياتي المهنية أغني مع الأطفال»، لكن الدكتور بيهل أصر على موقفه، لذلك قمت بإجراء الاختبار، حيث أجبت على أحد الأسئلة الأربعة بشكل صحيح، وحصلت على خمسة وعشرون درجة من أصل مئة، لم أكن ممن يختلقون لأنفسهم الأعذار، وبالتأكيد في هذه الحالة لم أكن مضطرة لذلك، لكن الدكتور بيهل كان يلتمس لي الأعذار قائلا: «عذرك أنك لم تتوقعي هذا الاختبار؛ لذا انتبهي جيدا الأسبوع المقبل، وسنحاول مرة أخرى».

لم أكن أعرف كيف أخبره أنني كنت منتبهة! لكنني كنت على استعداد لمواجهة التحدي، وفي الأسبوع التالي خضت

الامتحـان، ولكـن هذه المـرة لم أجب على أية أسـئلة، فحصلت علـى صفر بالمائـة، وحاول دكتـور بيهل مواسـاتي: «يمكن لأي شـخص أن يمر بيوم سيء»، ولم يزل يشـجعني، واستطرد قائلا: «دعونـا نرى ما سـيحدث الأسـبوع المقبل»؛ لذلك في الأسـبوع التالي، ركزت بشدة، وبحلول وقت الاختبار كنت أتصبب عرقا، وكنـت علـى وشـك الاستسـلام إلى أن سـمعت صوتـا رقيقا في أذني: «ب، الإجابة على السؤال الثاني هي ب».

اعتقـدت أن جيـك هو السـبب في وقوعي في هـذا المأزق، وكان الدكتـور بيهـل هـو من أنقذنـي من الموقف الـذي كنت فيه حيث كان يبتسم ويهز رأسه، لقد رأى أنني في حالة ميؤوس منها، لذلك فقد كان يشعر بالشفقة علي.

ذات مرة، وعندما شـكرت الدكتور بيهل لاهتمامه بــجيك، أدلـى بملاحظة ما زالت عالقة في ذهني: «العقل العظيم هو عقل عظيـم بمعنـى الكلمة، فلا داعـي للقلق حول ما يـدور فيه»، وقد كان لدي سـبب للتفكير في هذا التعليق عندما انحنت سـيدة أثناء الاستراحة لتُثْني على طريقة تصرف ابني الصغير أثناء المحاضرة، إن ذلك يمنحنا تصور عن مدى ما وصلنا إليه، فسرحت أفكر في عبـارة الدكتور لوهلة، ولم أكـن أعرف حقا ما كانت تتحدث عنه

تلـك السـيدة، لقـد قضى جيـك الوقـت الفصل في ملء كراسـته بالمعـادلات التـي ترتبـط بشـكل عرضـي بالموضوع الـذي كان الدكتور بيهل يحاضر فيه، وكنت أتطلع إلى سماع ما قاله الدكتور بيهـل عن أفكار جيك العديدة بعد الفصل، وفي حين كان ما رأته تلـك المـرأة طفلا صغيرا يبلغ من العمر تسـع سـنوات بوجه غير نظيف، يرتدي حذاء كروكس، ويخُط بعض الرسومات في دفتره، أدركـت أنني لـم أعد أنظر إلى جيك كطفل صغير أو كطالب، لقد بدأت أنظر إليه كعالم، لقد وجدنا أخيرا المكان الذي يستطيع فيه جيك أن يعبر عن نفسه.

فطيرتان

بعد أن استمر جيك في حضور دورات علم الفلك في جامعة إنديانا - كلية بوردو إنديانابوليس، تم دمج معظم الأطفال في حضانة: «ليتل لايت»، وبدأت في حضور فصول دراسية ليلية حول تنمية المهارات لدى الأطفال الأقل مهارة من أقرانهم، وشعرت بمسؤولية كبيرة لمساعدة الآباء على ملاحظة ما يمكن لأطفالهم فعله حتى لا يتخلوا عنهم.

في المرة الأولى التي دخَلت فيها كاتي إلى منزلي، تلك الفتاة التي تبلغ من العمر سبعة عشر عاما ومصابة بحالة متقدمة من التوحد حتى إنها لا تنطق بكلمة، رأيتها تسلك أقرب الطرق إلى المطبخ، ففتحت كل الخزانات، ونظرت إلى كل الأواني والمقالي، وعندما وصلت إلى الخلاط قامت بمداعبته كما لو أنها قد التقت مع حيوان أليف افتقدته لفترة طويلة، كانت لديها أسنانا جميلة، وكانت والدة كاتي تحتفظ لها دائما بعلبة من بسكويت ويفر الفراولة في حقيبتها، لقد ذكرتني كاتي بـ ميغان ومدى إعجابها بعجينة اللعب، فقمت بتحضير كمية كبيرة من

الكريمـة المثلجة، وأعطيت لـكاتي أداة لتفرد بهـا هذه الكريمة، وأريتهـا كيـف يمكنها أن تضعها على البسـكويت قبـل أن تأكله، وفـي اليـوم التالـي اسـتقبلتها بوعـاء عمـلاق يحتوى علـى نفس الكريمة، بالإضافة إلى صندوقين من الألوان الاصطناعية لتلوين الطعام، في ذلك الأسـبوع، تعلمت كاتي أن اللون الأصفر عندما يضـاف إلى اللون الأحمـر ينتج عنه اللـون البرتقالي، وأن إضافة المزيـد مـن اللـون الأصفر، تجعـل اللـون البرتقالي أكثر إشـراقا ونصاعة، وعلى مدار الأسـبوعين التاليين، صنعنا كل لون ممكن باسـتخدام الألوان المحدودة المتاحة لدينا، وفي الأسـبوع الذي يليـه أعطيت كاتي كيسـا لتشـكيل الكريمة حتـى تتمكن من صنع نجـوم وأزهـار بنفسـها، وبمـرور الأسـبوع تلو الآخر، شـاهدت زخارفهـا تـزداد تطورا وتصبـح أكثر إتقانـا، ثم ذهبـت إلى متجر خاص لمسـتلزمات الخبز واشـتريت كمية أكبر مـن ألوان الطعام والمعجنـات حتـى تسـتخدمها كاتـي، ومـن بيـن الألـوان التـي أحضرتها ألوان الجواهر اللامعة وألوان الباسـتيل الجميلة، لكنها كانـت باهتـة مقارنـة بالألـوان التـي صنعتهـا كاتي والتـي لم أكن أعـرف أسـماءها إلا من خـلال الكتالوجات: البنفسـجي الداكن والقرمزي والأزرق الداكن والسماوي والذهبي ولون الغزلان.

ثم بدأت مع كاتي في صنع الكعك وتزيينه، ولن أنسى كعكة

الزفاف التي نسختها من إحدى المجلات، مع فطائر السكر التي كنت أخشى وضعها في فمي في حقيقة الأمر.

لقد سررت للغاية عندما اتصل بي والدها بعد شهرين من بدء العمل معا ليخبرني أنها حصلت على وظيفة، حيث تعمل في قسم المخبوزات في متجر مجاور، شأنه في ذلك شأن الكثير من آباء الأطفال المصابين بالتوحد، فلقد كان والد كاتي يشعر بالقلق من أنها ستعتمد عليه وعلى والدتها لبقية حياتها.

لقد قطعت كل طريقها من خلال نظام التعليم الخاص، ولم يكن لديهم إلا القليل من الخيارات الأخرى ليعرضوها عليها، وبالطبع لم يكن هدفي هو أن تحصل كاتي على وظيفة، ولكن كان هدفي من وراء ذلك هو أن تعثر على نشاط يمكنها الاستمتاع به خلال اليوم، ولقد تطورت بشكل جيد وسريع لأنها أحبت ذلك.

أتذكر أنني قلت لوالدها: «لقد كانت كاتي حاضرة معك في كل لحظة في هذا العالم منذ أن رزقت بها، لقد كانت تدرك تفاصيل كل حفلة حضرتها، وكانت تستمع إلى كل محادثة».

لقد كنت أؤمن بذلك، تماما كما اعتقدت أن جيك كان معنا في حفل: «كليفورد الكلب الأحمر الكبير» الذي حضرناه منذ

فترة طويلة عندما كان طفلا صغيرا، حيث فقد الحروف الهجائية لأنه لم يكن قادرا على تلبية المتطلبات الاجتماعية، فلم يستطع إخباري ما هو لون البالون الذي أعجبه، أو نوع الكب كيك الذي يريده، حينها اختبأ خلف ذاك الكتاب، ولكنه كان موجودا طوال الوقت.

بدأت في العمل كمحامية لعدد من أطفال حضانة: «ليتل لايت» المتواجدين في المدارس العامة، فقد كنت أذهب إلى اجتماعات برنامج التعلم الفردي مع أولياء أمور أولئك الأطفال، وأحضرت معي مجموعة من الأعمال التي أنجزناها معا، وأتذكر أحد الاجتماعات لطفل صغير اسمه روبن انضم إلينا في ثاني أعوامنا في: «ليتل لايت»، وقام ببعض دروس تنمية المهارات معي.

كان روبن مهووسا بالقوارب؛ لذلك أمضينا شهورا نتعلم المزيد عن اليخوت والمراكب الشراعية والقوارب، كنا نصنف القوارب، ونكتب تقارير عنها، وصنعنا نماذج لها، تماما مثل تلك التي اعتدت أن أشاهد جدي يقوم بتجميعها في مرآبه حتى يلعب بها الأحفاد في البحيرة، وخلال تلك الفترة، تعلم روبن القراءة، وكان محفزه كتابا يحتوي على رسوم توضيحية عن

السفن الفاخرة في أوائل القرن العشرين، ثم تحسن خطه في الكتابة وتطورت مهاراته الحركية بشكل كبير للغاية بسبب الحروف الصغيرة التي استخدمها لكتابة الأسماء على جوانب القوارب التي بنيناها معا.

اجتمع كل من له علاقة بعلاج وتعليم روبن حول طاولة كبيرة لحضور اجتماع برنامج التعليم الفردي، لقد تواجد معالجوه الفيزيائيون والمهنيون والتطويريون، جنبا إلى جنب مع معلمه في الفصل الدراسي، ومعلمه التربوي الخاص، والأخصائي النفسي في المدرسة.

أخذ كل شخص دوره في تقديم آخر تقييم لقدرات روبن، ثم استخدمت تلك التقديرات لتحديد نسبة الوقت الذي يتعين على روبن حضوره يوميا في فصل دراسي عادي، وعندها أعلن عن استنتاج لا يتجاوز نسبة العشرون في المائة، فتظاهرت بأنني لم أعرف النتيجة، واستطلعت رأي معالجه المهني الذي قال إنه لا يستطيع رسم دائرة رغم وجود حرفي o و a في كلمة «Boat» والتي تعني: «قارب» ، ثم أثبت أنه يستطيع كتابتها بشكل جميل، وبالفعل يمكن لروبن أن يفعل أكثر بكثير مما اعتقدوا، لقد استعرضنا ملفه بالكامل وتمكنا من زيادة نسبة الاستنتاج هذه بشكل كبير.

كان جيرود، ابن راشيل، يحضر فصول تنمية المهارات التي أعقدها، وقد أحرز الكثير من التقدم معه أيضا، وأصبحنا أنا وراشيل أصدقاء، وقد جن جنونها لأنني لم أقبل الحصول على مال مقابل العمل الذي قمت به، فحاولت أن أشرح لها بكل بساطة أنني تربيت على ذلك.

عندما كنت صغيرة كانت جدتي إيدي تخبز فطيرتين كل صباح، وتعودنا أن تستخدم الفطيرة الثانية في أحد أعمال الخير بأن تهديها إلى أحد سكان الحي، وكنا دائما ما نعثر على الشخص الذي يستحق ذلك المعروف كأن يكون أرمل، أو أسرة تتواجد مع أحد أفرادها في المستشفى، أو زوجان لديهما طفل حديث الولادة، وكان الجميع يشعر بالامتنان والسعادة عند الحصول على هديته.

والحقيقة هي أننا لم نكن ننظر إلى الفطيرة الثانية على أنها «عمل جيد»؛ فقد كان العمل الخيري جزءا لا يتجزأ من حياتنا اليومية، لدرجة أننا لم نكن نفكر في الأمر تقريبا، فلم يتطلب الأمر الكثير من العمل لصنع فطيرتين، بينما كان الجميع يحتاج إلى واحدة فقط ويشرع في صنعها، في حين أنه كان من السهل عمل واحدة أخرى لاستخدامها في عمل الخير ومساعدة الآخرين.

لـم نكـن ننظر إلى مسـاعدة الآخريـن الذين يمـرون بأوقات عصيبة على أنه نوع من المُثُل العليا التي تستحق الكثير من الوقت في الحديث عنها أو التفكير فيها، لقد كان الأمر بالنسبة إلينا عملا عاديا.

كانـت هذه هي طريقتـي التي أتعامل بها فـي: «ليتل لايت»، وبمنتهـى الأمانة أسـتطيع أن أقول أنني كنـت محظوظة؛ فكم من الناس يأتون إلى هذه الحياة وهم يتساءلون عن أهدافهم فيها؟ أما أنـا، فلـم يخطـر هذا السـؤال علـى بالي أبـدا، حيـث علمت منذ طفولتي أن رسالتي في هذه الحياة هي مساعدة الأطفال.

وما بين الحضانة ودار: «ليتل لايت»؛ كنت أعلم أنني يجب أن أتصرف على سـجيتي وأن أقوم بالعمل الذي أحببته، نعم لقد كان عملا شـاقا، ولكنه كان ممتعا بشـكل لا يصدق أيضا، وكنت أشـعر بالرضا والسـرور في كل يوم عندما أعلم أنني كنت أسـهم في فكرة هي أكبر مني.

ولـم أكـن بحاجة حتـى لمغـادرة المنزل! حيـث كان جرس البـاب يرن، فأفتح لأجد الأطفال هناك، كان هذا هو العمل الذي أحببتـه طـوال حياتي؛ فمـا الذي يمكـن أن يكون أكثـر أهمية من هؤلاء الأطفال؟

ولأنني لـم أتقاض أيـة نقود منهـا، كانت راشـيل تحضر لي السندويشـات، إلـى أن زاد وزني خمسـة أرطال، حينها توسـلت إليهـا أن تتوقـف عـن إحضـار السندويتشـات، ووعدتهـا بأننـي سـأخبرها فـي حـال كانت هناك طريقـة أخرى أكثر فائـدة يمكنها مسـاعدتي من خلالها، حيـث كان ذلك هو الحل الذي تخلصت به من تلك السندويتشـات؛ فتساءلت هل هناك أي برنامج أرغب فـي القيـام به، ويمكنني أنـا وهي القيام به؟ نعم، كان هناك شـيء شـعرت أنـه مفقود من الخيـارات المتاحـة للعائلات التـي لديها أطفال مصابون بالتوحد، وسـيؤدي البرنامج الذي كنت أفكر فيه إلى منح هؤلاء الأطفال مكانا للاحتفال بهم، مع مساعدتهم أيضا على تكوين شبكة من الأصدقاء، وسيسمح لهم كذلك بالحصول علـى تجارب الطفولـة العادية التي يعيشـها وينظـر إليها الأطفال الآخرون على أنها أمر مسلم به.

واصلنـا أنـا ومايـكل منـح الأولويـة للتجـارب التـي تجلب السـعادة لأطفالنـا، حيث كان مرادنا مـن كل أب وأم لديهم طفل مصـاب بالتوحد أن يصنع لهؤلاء الأطفـال ذكريات يفكرون فيها باعتـزاز طوال حياتهـم، وأن يعودوهم على القليـل من العادات، علـى سبيل المثال؛ الأطفال يحبون الذهـاب للصيد في البحيرة، تمامـا كما كنت أفعل عندما كنت طفلة، كنا نصطاد الضفادع (في

الواقع، كنت أصطاد الضفادع بينما يشمئز الأطفال الآخرون كما لو أنهم على وشك التقيؤ)، وكنا نلعب لعبة المطاردة بمسدسات الليزر، ونذهب إلى حمام السباحة، لقد كنت أخطط للحصول على بيض عيد الفصح، والإمساك بالأرانب، وصنع الشوكولاتة، وتلوين البيض، وكنا نأخذ الكعكات المصنوعة يدويا ونضعها في سلة النزهات ونذهب بها إلى مرصد هولكومب ونأكلها في الفناء الخلفي للمرصد. ومع ذلك؛ فقد كان أحد الجوانب المهمة للطفولة مفقودا بالنسبة لجيك، وهو عنصر أساسي للحصول على طفولة صحية، ألا وهو الرياضة.

خطرت لي فكرة أن أنشئ دوريا رياضيا للأطفال المصابين بالتوحد عندما كان جيك في الثانية من العمر، وفي ذلك الوقت، كان الأطفال الآخرون ممن هم في مثل سنه يحضرون دروسا في الرقص والموسيقى، وعلى الرغم من أنه كان لا يزال حبيسا نوعا ما في عالمه الخاص، فقد أخذته إلى فصل تجريبي في إحدى صالات الألعاب الرياضية للأطفال، حيث كنت أعتقد أنه قد يحب الأنفاق العملاقة المبطنة بمادة الفينيل، والسلالم الإسفنجية، وممرات العوائق المبطنة وهو ما حدث بالفعل، وما لم يعجبه هو الجلوس في دائرة ليغني الأغاني في بداية الفصل ونهايته، ولم يكن جيك يعلم بعد بوقت دائرة الأغاني تلك؛

لذلك كان يستمر في التجول وزيارة كرة عملاقة قابلة للنفخ احتفظوا بها في إحدى الزوايا، ومع ذلك؛ لم يكن السلوك مزعجا، وبمجرد السماح للأطفال بمغادرة الدائرة، كان ينضم مرة أخرى إلى المجموعة.

كنا حينها للتو قد افتتحنا دار: «ليتل لايت».

وبينما كان جيك يقفز على المنصة البهلوانية: «الترامبولين»؛ أجريت محادثة مع صبي يقارب عمره ستة أو سبعة أعوام، حيث كان مع والدته ينتظران أخته الصغيرة التي كانت في فصل التمارين، كان يرتدي زي كاراتيه جميل، وعندما أثنيت عليه نفخ صدره الصغير بفخر؛ ليتأكد من أنني رأيت الحزام الأصفر عند خصره، وبنهاية الفصل، كان من الواضح أن جيك يقضي وقتا رائعا، وكنت سعيدة جدا بالتقدم الذي أحرزه، ومع ذلك؛ عندما أخبرت المدرب بأننا نرغب في التسجيل، أخبرني بعد صمت محرج، أنه لا يعتقد أن جيك مستعد للمشاركة.

قال المدرب: «إذا لم يتمكن من البقاء مع المجموعة، فلا يمكنه البقاء في الفصل».

قد يبدو الأمر ساذجا، لكن كانت هذه هي المرة الأولى التي أدركت فيها أن إصابة جيك بالتوحد تعني أنه لن يكون قادرا على المشاركة في الأنشطة الرياضية.

ربما لم يكن ذلك ليؤثر عليَّ بشدة لو لم أكن التقيت للتو بطفل الكاراتيه الصغير هذا، وعندما كنت أمسكت بيد جيك لعبور ساحة انتظار السيارات كنت أشعر بالإحباط.

ألن يعرف ابني أبدا كيف هو شعوري عندما أسمع أحدهم يصرخ: «هددددددددف!»، أو عندما أرى الطفل الذي فاز بالمباراة؟ ألن يعرف أبدا؟ هل التوحد الذي يعاني منه يعني أنه لن يتأقلم مع البيئة التي يعيش بها، أو أنني لن أراه يأتي وقد تبقع زي كرة القدم الخاص به ببقع العشب؟

حتى بعد خمس سنوات، ظلت مخاوفي التي شعرت بها في ساحة الانتظار حاضرة، لقد نجح جيك في الاندماج في المدرسة العامة العادية، وكان لديه الكثير من الأصدقاء هناك وفي منطقتنا، لكنه استمر في رفض الرياضة السائدة التي يمارسها الكثيرون حوله إلى حد كبير، كما هو الحال بالنسبة للعديد من الأطفال المصابين بالتوحد.

كانت الصالة الرياضية هي المكان الوحيد الذي يشعر فيه جيك بالإعاقة بسبب توحده، فعندما كانوا يلعبون كرة اليد، كان يضيع الأهداف السهلة، وغالبا ما يشعر بالخوف عندما يتجمهر ضده زملاؤه في الفصل.

كان مجرد التفكير في أن يوافق على المشاركة في رياضة جماعية مع أطفال في مثل سنه تفكيرا غير واقعيا تماما، ولأن الأطفال الذين يلعبون الكرة - وآبائهم في الغالب - يريدون تحقيق الفوز؛ فقد يتسمون بالقسوة تجاه أحدهم عندما يرتبك في التعامل مع الكرة، أو ينسى المكان الذي يتعين عليه الركض فيه، وخاصة الطفل المصاب بالتوحد الذي يعاني من تأخر في النمو الجسدي أو ضعف في السمع.

علمت من قصص الآباء الآخرين أن تجربة جيك لم تكن غير عادية، بل معتادة لمن هم في مثل حالته، ومع ذلك، فإن كل الأشياء التي تجعل ممارسة الرياضة أمرا صعبا بالنسبة للأطفال المصابين بالتوحد هي أيضا سبب أهميتها؛ حيث تعتبر الرياضة فرصة لمنح الأطفال المصابين بالتوحد وقتا لتذوق متعة اللعب، بصنع هدف أو إضاعته، أو إمساك كرة طائرة في الهواء، أو تسديد رمية حرة، لقد كانت تجارب طفولية لم أكن أريد من جيك أن يفقدها أو يفوتها.

والحقيقة أنني لم أكن أفكر في الرياضة كثيرا، إلى أن طرحت راشيل سؤالها عن البرنامج الذي أرغب في القيام به، حينها لم أستطع التوقف عن التفكير في الأمر.



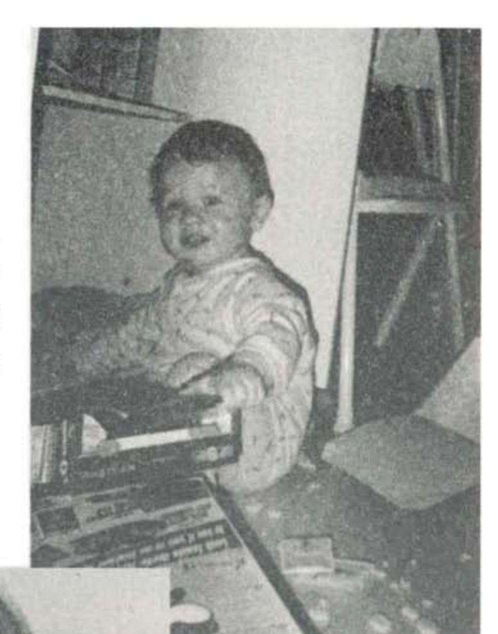
الجد جون يعمل على صنع مركب شراعي. كان يحب اصطحابنا في رحلات الصيد.

جدي جون وجدتي إيدي يوم زفافهما.

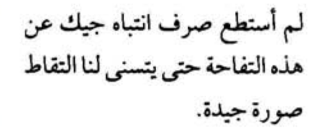
كانت لدينا أنا ومايكل أحلام كبيرة لهذا الطفل الصغير.



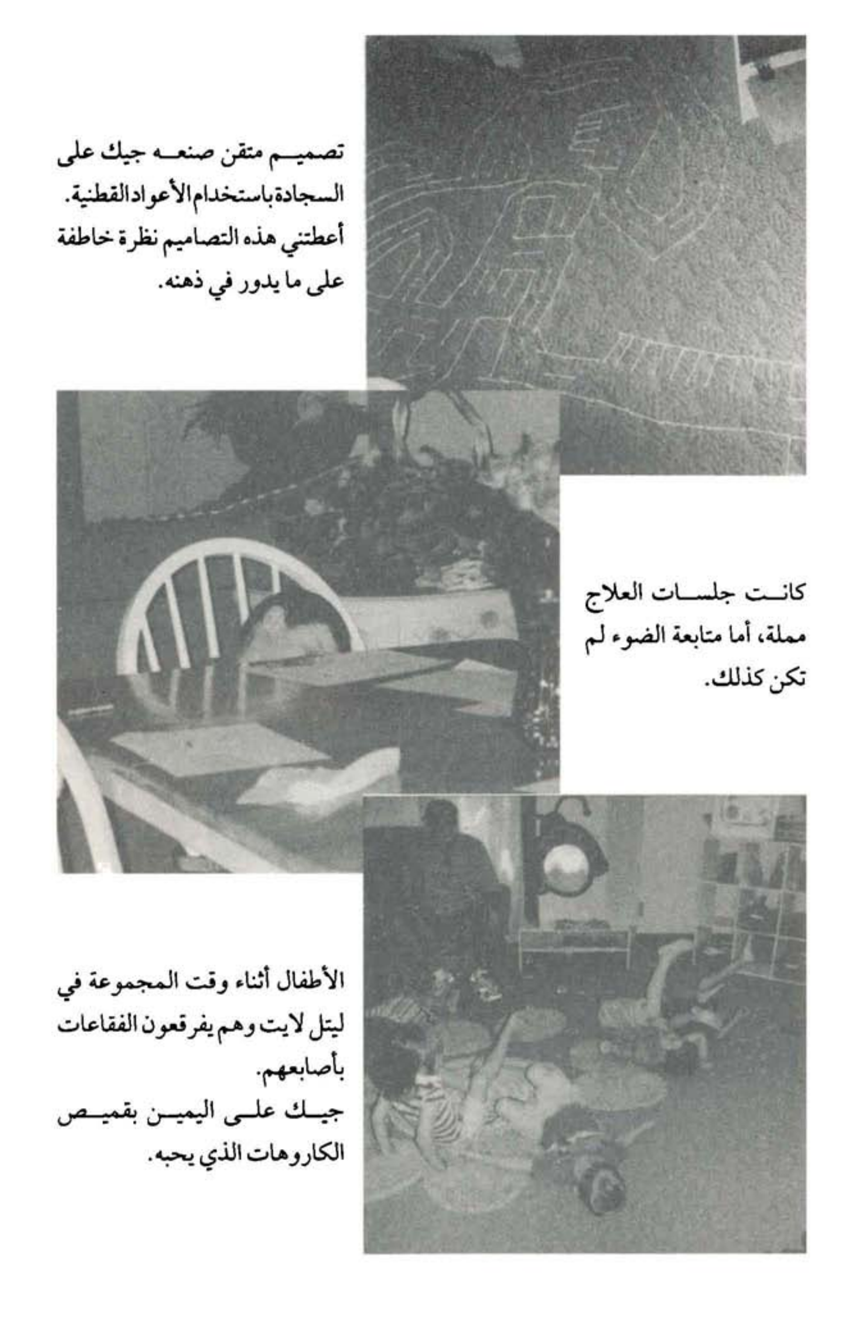
كان جيك يقضي ساعات في مشاهدة حركة الضوء والظلال.



جيـك يعبـث بعلـب حبوب الأطفال.
لم نكن نعـرف أنـه كان يتعلم الحساب عن طريقها!



لم أستطع صرف انتباه جيك عن هذه التفاحة حتى يتسنى لنا التقاط صورة جيدة.



تصميم متقن صنعه جيك على السجادة باستخدام الأعواد القطنية. أعطتني هذه التصاميم نظرة خاطفة على ما يدور في ذهنه.

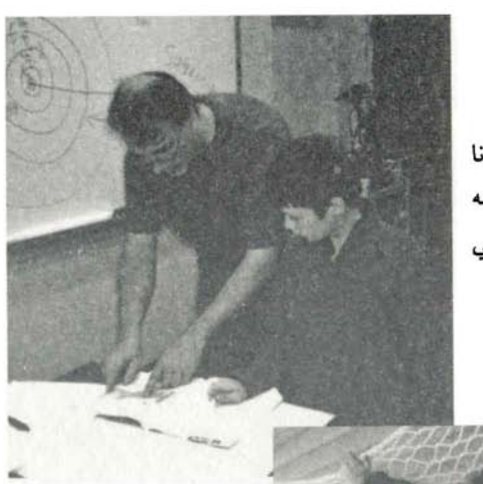
كانت جلسات العلاج مملة، أما متابعة الضوء لم تكن كذلك.

الأطفال أثناء وقت المجموعة في ليتل لايت وهم يفرقعون الفقاعات بأصابعهم.
جيك على اليمين بقميص الكاروهات الذي يحبه.

ويسلي في سنته الأولى، حين اعتقدنا أننا سنفقده.



علاقة جيك وكريستوفر الصادقة، علاقة لم أر جيك يبني مثلها مع صديق آخر.



جيك بعد الفصل في جامعة إنديانا بوردو إنديانابوليس مع معلمه الأول الدكتور بيل، الذي ساعدني في رؤية جيك كعالم.

هنـاك دائما الكثير من العمل، ولكن هناك أيضا وقت للمرح، وهذا ما يريده الإخوة!
في هذه الصورة جيك وويسلي وإيثان على الأرجوحة.



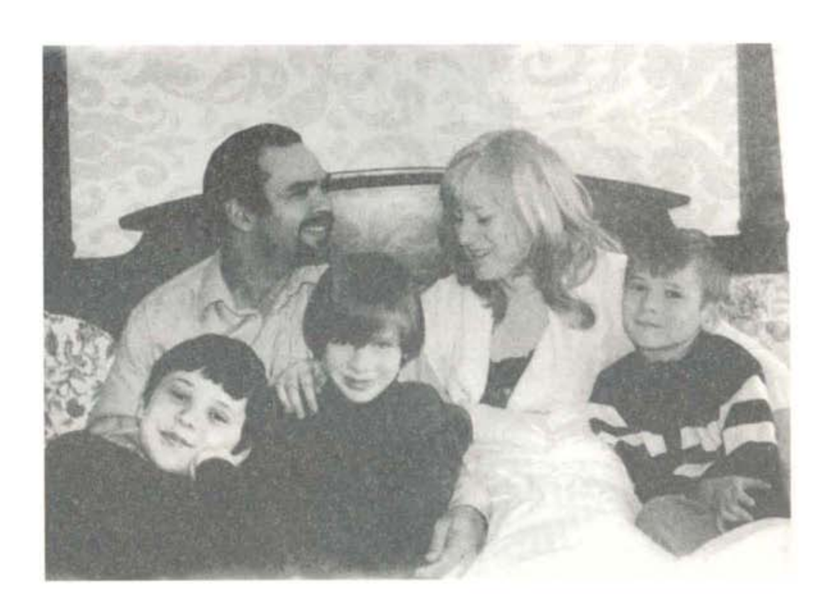
جيـك فـي كليـة هونـورز "منزلـه الآخـر"، محاطًـا بأقرانــه، وهو يبادر لحل مسألة.



جيك يكتب معادلة على نافذة تطل على مبنى كرايسلر.

جيك وهو يناقش بحثه، يبدو صغيرا جدا في البدلة الرسمية.

جيك وإيغور في أكاديمية بارنيت الشهيرة، موطن حيوان الموظ المقاتل "منزلنا". الورود في الصورة من مايك.



جميع أفراد العائلة

فرصة للعب

في عام ٢٠٠٥، قررت بمساعدة راشيل أن أشرع في برنامج رياضـي للأطفـال المصابيـن بالتوحـد، لكننـا لم نسـتطع أن نبدأ خطتنا بشـأن الأنشـطة الرياضية للمصابين بالتوحد؛ لأننا لم نجد مقرا مناسـبا، ولم نكن لنفعل ذلـك في منطقة الحضانة بالمرآب؛ فمسـاحتها بالكاد تكفي لخمسة أطفال صغار مع أولياء أمورهم، كما أن مسـاحة الفناء الخلفي صغيـرة؛ فلجأت إلى دفتر الهاتف، وابتدأت من الحرف (أ)، وشرعت في الاتصال بكل كنيسة ومبنى بلديـة تصادفنـي في دائرة نصف قطرها سـتين ميـلا لمعرفة ما إذا كانت لديهم أية مساحة للإيجار.

كان الـرد علـى كل مكالماتـي الهاتفيـة التـي تتعلـق بهـذا الموضوع هو: «نعم»، لديهم بعض الغرف وهم يفضلون تأجيرها صبـاح يوم السـبت، ولكن بمجرد أن أذكر كلمـة: «التوحد»؛ يرد الشـخص الموجود على الطرف الآخر من الخط قائلا: «أوه، لم أكـن أدرك أنك تريديهـا للأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة، فـي الحقيقة ليـس لدينا تأمين لهذه المسـؤولية»، أو «المكان غير

مناسب للدخول بالكراسي المتحركة»، أو «سأحتاج إلى عرض هذا الأمر على مجلس إدارتنا»، وكنت أترك اسمي ورقمي لديهم، ولكن لم يصلني أي رد منهم.

في الواقع لم نكن بحاجة إلى تلك الكراسي المتحركة، ولم يكن من بين الطلاب أو أولياء الأمور من يتعاطى الكحوليات .. لقد كنت على يقين من أنني لو كنت اتصلت كممثلة لفرقة فتيات الكشافة، فلم يكن الأمر ليحتاج إلى مراجعة مجلس الإدارة، ولكن ما الذي يمكنني فعله؟

كنت على وشك الاستسلام عندما وصلتني نشرة بالبريد يعلن مرسلوها عن إقامة مهرجان ربيعي في كنيسة قريبة، حيث ستكون هناك ألعاب في المساحات المفتوحة، وتشمل: ألعاب القفز، وخطر ببالي أنه إذا كان لديهم مساحة لكل تلك الألعاب، فسيكون لديهم مساحة لممارسة الرياضة أيضا، فأخذت نفسا عميقا، والتقطت الهاتف، وجربت أن أتصل مرة أخرى: «مرحبا، أحتاج إلى منزل لبرنامج رياضي لمجموعة من الأطفال المصابين بِالتوحد، هل تسمح لي باستئجار بعض المساحة؟».

وبعد شهور طويلة من سماع كلمة: «لا»؛ لم أصدق نفسي عندما قال مدير المبنى: «نعم، لدينا مكان»، وعندما توجهت إلى

مواقف السيارات الخاصة بهم، لم أصدق ما رأته عيناي؛ فإذا كنت قد وضعت قائمة أمنيات بكل ما كنت أريده أو أحتاج إليه لممارسة الرياضة مع هؤلاء الأطفال، فلن ترتقي لما وجدته في كنيسةك «نورثفيو كريستيان لايف» التي وجدت فيها كل ما أتمنى؛ فخلف الكنيسة الضخمة والحديثة، كان هناك مبنى خارجي كبير، وسقفه منخفض، ويحتوي على جناحين، أحدهما بمطبخ بسيط وأريكتين؛ حيث يمكن لأولياء الأمور والمرافقين الجلوس، بالإضافة إلى غرفة كبيرة فارغة يمكن أن تستوعب بسهولة مجموعة من الأطفال النشطين، وفي الخارج كان هناك تل منحدر يؤدي إلى ملعب كرة قدم ومضمار وملعب للبيسبول، بالإضافة إلى ملعبين لكرة السلة، أما أفضل ما في الأمر هو ذلك العشب الممتد، حيث يمكن للطفل أن يستلقي على ظهره ويطلق العنان لخياله، لقد كان ملعب البيسبول مغطى بالعشب، وبه مساحة مفتوحة تكفي للعدو لمسافة طويلة، ولا شيء فوقنا سوى سماء إنديانا الزرقاء الواسعة والجميلة.

لقد كان كل شيء مثاليا.

سمحت لنا الكنيسة بالحضور مرة واحدة فقط في الشهر، وكانت خطتي أن نمارس رياضات مختلفة مع تكييفها في كل جلسة حتى تناسب المصابين بالتوحد.

بالتأكيد سأقضي الأسبوع في شراء كل ما نحتاجه لجلسة هذا الأسبوع الرياضية.

عندما أشارت الساعة إلى الرابعة من صباح يوم السبت لم يكن لدي ما أفعله سوى تحميل الشاحنة بالأدوات اللازمة لنشاط اليوم والتوجه إلى نورثفيو؛ حيث سألتقي راشيل التي ستساعدني في تجهيز القاعة، فعند التاسعة تقريبا يبدأ الأطفال في الوصول، وفي معظم الأيام كنا نظل في المكان حتى تغيب الشمس.

كان على الآباء البقاء مع أطفالهم كما هو الحال في ليتل لايت، وكانت ممارسة الأنشطة الرياضية المخصصة للمصابين بالتوحد تسمح للأطفال بالانطلاق، ولم يكن بإمكاننا السيطرة عليهم، مما استدعى مشاركة الأسرة بأكملها في النشاط؛ من أجل مساعدتنا في السيطرة على أطفالهم، وللمرة الأولى منذ أن بدأت العمل مع الأطفال رأيت الآباء يرتدون بنطلونات رياضية وقبعات بيسبول ويلعبون مع أطفالهم، لقد كانت تجربة مختلفة لم يتوقع الكثير منهم خوضها.

الشيء المهم الذي أخبرت به أسر الأطفال: أنه بعد أسبوع من العلاج المهني والبدني والتنموي والتخاطبي المتواصل ينبغي أن يكون يوم السبت هو وقت المتعة بالنسبة لهم، وبالفعل

كنا نقضي الوقت في اللعب والاستمتاع والقيام بجميع الأنشطة التي تمارسها الأسر العادية خلال عطلة نهاية الأسبوع؛ لذلك كانت الدهشة تظهر على الآباء وهم يتساءلون: «هل هذا حقيقي؟ هل نحن ذاهبون للعب فقط؟ ألا يوجد جلسات علاجية؟، كنت أقول لهم «بالفعل، لا يوجد جلسات علاجية، سنلعب فحسب».

عندما يكون لديك طفل مصاب بالتوحد، فسيكون عليك أن تجاريهم في أن لا تفكر في بعض الأحيان في ممارسة أي عمل جاد، ولست متأكدة مما إذا كانت نشأتي في ولاية إنديانا هي ما صنعت هذا الفارق؛ لقد كنا نتندر ونمزح في بعض الأحيان حين يأتي ذكر نشأتنا وكأننا كنا نعيش وسط حقل ذرة، وهذا الأمر صحيح نسبيا، فقد كانت أقرب المناطق المأهولة بالنسبة لنا هي بناية تبعد عنا مسافة ليست بالقليلة، وبدلا من ذلك فقد كانت تحيط بالمكان الذي نشأنا فيه الكثير من الحدائق، وبغض النظر عن مشاهدة الأبقار و الخنازير، لم يكن لدينا الكثير لرؤيته سوى ضوء الشمس الساطع، والسماء من فوقنا، والعشب من حولنا، وهو ما يجعل إنديانا مميزة للغاية.

في صباح أحد أيام السبت، كان لدينا هدف واحد فقط، وهو الاحتفال بأطفالنا وإنجازاتهم بغض النظر عن الطريقة التي ينظر بها العالم الخارجي إلى تلك الإنجازات.

لـم تكن هنـاك أية توقعات لمسـتوى أداء الأطفال حين تتاح لهم الفرصة لممارسة رياضة ما، ولكن كانت هناك قاعدة واحدة فقـط، وهي أنـه عندما يحين دور أحد الأطفال، كان على الجميع أن يهتفـوا لـه كيفمـا كان أداؤه، فلم يكن هـؤلاء الأطفال بالتأكيد هم الأسرع، أو الأفضل من حيث المستوى الرياضي، ولكننا كنا سنهتف لهم حتى لو أسقط أحدهم كرة البولينج وهو ممسك بيد والده، وحتى إذا قام طفل ضعيف الأداء مثل ماكس بركل الكرة، كنـا سـنركض خلفه في كل مـكان ونهتف له ونشـجعه كما لو أن فريقنا قد فاز ببطولة العالم، وكنا في كل الأحوال سـنرفع جيرود على أكتافنا كما لو أنه فاز بكأس هايسمان، حتى وإن سجل هدفا في المرمى الفارغ الذي لا يوجد به أحدا ليعترض الكرة.

فـي اليـوم الأول بـدأت بأحد أنشـطة عبـور الحواجز، حيث وضعت حاجزا أمام الأطفال، مع مراعاة أن يكون كل منهم قادرا علـى تخطـي ذلك الحاجز، كان على الأطفال أن يشـقوا طريقهم عبـر خمسـة أطـواق ملقاة علـى الأرض، ثـم يمرون على بسـاط طُبِعـت عليه أربعة أقدام عملاقـة بألوان زاهية، إلى أن يصلوا إلى الهدف، وهو كيس قماشـي كبير الحجم (ذلك الكيس في الواقع هو وسادة عنق وكتف)، ثم يعودون به إلى باقي أفراد الفريق.

لقد اشتريت الكثير من الميداليات المذهّبة زهيدة الثمن من متجر وول مارت، وهي من النوع الذي كنت أضعه في حقائب الهدايا عند الاحتفال بعيد ميلاد أحد الأطفال، لقد توجب علي التأكد من أن لدي من الميداليات ما يكفي للجميع؛ لأننا كنا نعد الطفل الذي يدوس على الأطواق دون ملامسة الأقدام العملاقة على البساط فائزا، وبالتالي فإنه يستحق الحصول على ميدالية.

بعد بضعة أسابيع لاحظت أن آدم، ذلك الصبي الفاقد للنطق ذو الثلاثة عشر عاما دائما ما يمسك بهذه الميدالية في اليد الذي لا تمسكه منها والدته، فقمت بوضع ميداليتين إضافيتين في حقيبة والدته؛ حيث لم تكن الميداليات مصنوعة من خامة قوية، وتتهالك عند الارتداء لفترة طويلة، حينها التفتت أمه لتشكرني بينما اغرورقت عيناها بالدموع قائلة: «لا يمكنكِ تخيل كم يعني له أن يحصل على ميدالية لينام معها».

كان العديد من خريجي ليتل لايت يشاركون في تلك الأنشطة، وإلى جانب ذلك كانت هناك الكثير من العائلات التي لم نكن نعرفها تحضر أيضا، وقد لاحظت أن جميع العائلات كانت تتوق لبرنامج مثل هذا لأطفالهم.

أحد هؤلاء الأطفال صبي في السادسة من عمره اسمه

كريستوفر، كان أصغر من جيك بسنة، إلا أنه كان أطول منه قليلا، وكان لاعب كرة سلة جيد جدا، وقد شارك كريستوفر وجيك في النشاط الرياضي على الفور.

لم يرغب كريستوفر في مغادرة المكان عند انتهاء النشاط في أسبوعه الأول، وقد علمنا لاحقا أنه يتعرض للتنمر في المدرسة، فاضطر جيك للبقاء معه حيث كان ينتظرني حتى أنهي بقية الفصول الدراسية.

أمضى الاثنان فترة ما بعد الظهيرة وهما يلعبان الغميضة، ويعبثان بالأدوات الرياضية المتناثرة خلال الوقت الذي نقوم فيه بجمع الكرات والحصائر لنضعها في الشاحنة، لقد أصبح الاثنان صديقين مقربين بسرعة.

كان كريستوفر يكثر احتضاني وهو يقول: «إلى اللقاء»، وفي إحدى المرات أعتقد أنه عانقني ثماني مرات. لقد كان سلوكا استثنائيا جدا لطفل مصاب بالتوحد، وهو ما أظهر لي على الفور مدى أهمية هذا البرنامج للأطفال.

بحلول نهاية الشهر، كان جيك وكريستوفر رفيقين دائمين، ولا يبتعدان عن بعضهما البعض.

أمر كهذا جعلنا ندرك أن الجهد الذي بذلناه في البرنامج كان مجديا وآتى ثماره.

من خلال تعامل جيك مع غيره من الأطفال الذين تعرف عليهم سواء في الحي أو المدرسة، فقد أصبحت عزلته أقل بكثير مما كان عليه، ورغم ذلك فقد كانت علاقته مع كريستوفر أقوى بكثير من غيره، وكان هناك اتصال عاطفي بينهما، بالإضافة إلى رابط لم يكن يشعر به مع أي صديق آخر.

نظمت دوريا رياضيا لجميع الفئات العمرية بعد أسابيع قليلة، وكان العديد من الأطفال الذين حضروا أكبر سنا من جيك بكثير، حيث كانت أعمارهم تتراوح بين منتصف سن المراهقة وآخره، وكان هدفي أن يشعر كل طفل يأتي كما لو كان جزءا من فريق، ولتحقيق ذلك كان علي إجراء بعض التعديلات.

علق مايك ذات مرة على ما كنت أفعله قائلا بأنني لا أجعل الرياضة صديقة لمرض التوحد فحسب، بل كنت أعيد تشكيل الصورة العامة للأنشطة الرياضية؛ حيث كنت أختار أوقاتا غير مألوفة لممارسة الألعاب، فعلى سبيل المثال: لم يكن هناك جليد مع لعبة الهوكي، لكنني كنت أقول لهم: «حسنا، سنلعب الهوكي على السجادة هذا اليوم»، ولكننا لم نتمكن من استخدام مضارب الهوكي الحقيقية، وإلا سيكون لدينا ضحايا من اللاعبين، لذلك كنا نستخدم عصي المكانس بدلا من المضارب، وكان السؤال:

كيف تجعل طفلا مصابا بالتوحد ينجذب إلى عصا المكنسة؟ كان الحل في أن نلف العصا بشريط رغوي لجعله إسفنجي الملمس، كما استخدمنا كرة عادية بدلا من كرة الهوكي الحقيقية، وجعلنا أبعاد المرمى تتناسب مع أطوال الأطفال، وطلينا المكان بطريقة جذابة.

بطبيعة الحال لم يكن لدي أنا ومايك الكثير من المال ليساعدنا في تنفيذ ما نريد، ولكن كالعادة كان جدي المبدع وواسع الحيلة بمثابة مصدر إلهامي.

لقد كان الرجل الذي صنع غواصة مانعة للماء مخصصة للأطفال، ولكن خوف جدتي من أن يغرق شخص ما، جعلها تتصل بتاجر الخردة؛ لتتخلص من تلك الغواصة بينما كان جدي يصطاد السمك.

«إذا قدر الله لك عملا ما، فسوف يمنحك كل ما تحتاجه لإنجاز مهام هذا العمل»، اعتاد الجد أن يقول هذه العبارة، لقد كان يرددها عندما يركن شاحنته بجانب الطريق لالتقاط بعض الأخشاب أو المعادن الملقاة في أكوام النفايات، وغالبا ما كنت أفكر في عبارة الجد عندما أتجول في وول مارت بحثا عن أشياء يمكنني إعادة استخدامها للأنشطة الرياضية، كما أنني اشتريت

لفات ضخمة من العشب الاصطناعي وقطعتها إلى قطع صغيرة، بحيث تشبه الأرضية العشبية لملعب الجولف، وحينها كان الأطفال يلعبون الجولف باستخدام البالونات، وكنت أزين تلك الأرضية العشبية في كل عطلة بحسب نوع المناسبة، سواء عيد الهالوين، أو عيد الحب، أو عيد الميلاد.

لعبة البولينج ممتعة، لكن صالات البولينج صاخبة جدا، مما يجعلها أشبه بالكابوس بالنسبة للعديد من الأطفال المصابين بالتوحد؛ لذلك اشترينا شرائط ورق التغليف من المتجر، وصنعنا منها ممرات بولينج ذات أشكال وألوان، وفي أحد الأيام أعطيت مايكل صندوقا من مشروب ماونتن ديو؛ ليشربه هو وزملاؤه في العمل، ويعيد الزجاجات الفارغة إلي قبل عطلة نهاية الأسبوع لنستخدمها كقوارير بولينج. كانت المساحات الخضراء تشكل تباينا رائعا مع زجاجات المشروب الشفافة سعة اللترين، والتي اكتشفناها أنها يمكن أن تكون كرات بولينج رائعة عندما تتدحرج وهي مملوءة بالماء.

كان البعض قلقين بشأن نفقاتي: «ماذا عن أطفالك ومصاريفهم الجامعية؟ من أين ستنفقين عندما تبلغين سن التقاعد؟»، ولم يكن ذلك يمثل هاجسا بالنسبة لي؛ لأنني وجدت

أن ما أقوم به هو هدفي ورسالتي في الحياة، وكنت أؤمن دائما أن الأموال التي نحتاجها ستأتي في الوقت المناسب، لم ننشأ أنا أو مايك ونحن نملك الكثير من المال، ولم نعتقد أبدا أننا سنمتلك منزلنا الخاص، لقد بدا كل شيء وكأنه هدية، ولطالما شعرت بأنه يمكننا محاربة المفاهيم الخاطئة حول التوحد، كما يمكننا مساعدة العائلات التي بها طفل مصاب بالتوحد، وكان كل ذلك بمثابة نعمة أخرى.

لحسن الحظ لم يكن مايكل متعاونا فحسب، بل كان يتسم باللطف في تقديم العون أيضا، فعندما نكون في المتجر، كان يعلق ضاحكا: «أعتقد أن راتبي سيذهب لشراء العشب الاصطناعي».

لقد طلبت مساعدة كل معارفي وأصدقائي، وكان لدينا مدرب كرة القدم من المدرسة الثانوية يأتي ليعلم الأطفال كرة القدم، ومرة أخرى استخدمنا البالونات بدلا من الكرات في البداية حتى يتمكن الأطفال من تعلم كيفية التمرير وإحراز الأهداف، كما أصبحت لعبة الهوكي ناجحة بشكل جلي (كان جيك حارس المرمى!)؛ فقد حضر أعضاء من اتحاد الهوكي الأمريكي في ملعب إنديانا آيس ليلعبوا مع الأطفال.

عندما انتقلنا أخيرا إلى تجهيز لعبة البيسبول، تجاوزت بطاقتي الائتمانية أقصى حد لها عندما استخدمتها لشراء قمصان ذات ألوان مختلفة عليها أسماء الفريق، حتى يصل الأطفال إلى الشعور بأنهم فريق واحد، أما بالنسبة للعديد من الأطفال ذوي الأداء المنخفض، فقد كان الجلوس في المنطقة المخصصة للاعبين هي المرة الأولى التي ينفصلون فيها عن أحد الوالدين أو عن مقدم الرعاية، لكنهم لم يأبهوا لذلك؛ فقد كانوا مع فرقهم، وبالطبع كان آباؤهم يهتفون لهم كالمجانين من المدرجات.

في ذلك الوقت شعرنا جميعا بأننا أسرة واحدة كبيرة وسعيدة.

لقد تعلمت الكثير من ليتل لايت.

كنت أعلم أن الأنشطة يجب أن تكون جذابة لعقل الطفل المصاب بالتوحد؛ لذلك ابتكرت الكثير من قواعد الجذب البصري للأطفال، من خلال استخدام الأشرطة اللاصقة في تكوين حدود من عشرين لون مختلف.

لقد كان كل ما فعلناه يحتوي على مكون حسي، فقد كانت هناك كرات قابلة للنفخ، وحصائر إسفنجية، وبالونات، وقد

نثـرت تلك الألعاب الحسـية على السـجادة الحريرية التي تغطي الأرض حتى أغري الأطفال بالجلوس معي.

صحيح أنّ كل هذه الأشـياء صُممت لجعل الأنشـطة جذابة للأطفـال المصابيـن بالتوحـد، ولكننـي أعتقـد أيضًـا أن نـوع من التطـور يأتـي مـن خـلال تحسـن الحالـة المزاجيـة لمـن يخضع للعـلاج، وهـذا لا ينطبـق فقط علـى الأطفال المصابيـن بالتوحد وغيرهم من الأشـخاص ذوي الاحتياجات الخاصة، وإنما ينطبق علـى الجميـع؛ وبالتالـي فقـد بذلـت قصـارى جهـدي مـن أجل تحسين حالتهم الشعورية.

قبل أن يولد جيك، كانت لدي فتاة صغيرة لطيفة في الحضانة تُدعـى روز، وقـد ربيتهـا واعتنيـت بهـا لأعتمـد عليهـا كنمـوذج يحتـذي به للأطفال الآخرين، وقد انهار والدها جيم تماما عندما علم بتشخيص حالة شريكته على أنها مصابة بالسرطان؛ لقد كان شديد التركيز على رعاية شريكة حياته ورعاية روز، لدرجة أنه لم يكـن لديه أي وقت للاعتناء بنفسـه، وكان في حالة من الفوضى، وهو ما أثار قلقي عليه من أنه قد يفقد وظيفته، حينها أجلسته ذات صباح وغطيت الهالات السـوداء التي ظهرت تحت عينيه بخافي عيوب البشرة الموجود في حقيبة المكياج الخاصة بي.

ليس من المستغرب أن روز بدأت تتأثر بما يدور حولها، حيث بدت فاترة ومنطوية، ولم تعد تلعب دورا قياديا مع الأطفال الآخرين كما اعتدنا منها، وانتابني شعور بالقلق الشديد حيث كانت روز تحت مسؤوليتي، ولم تكن في حالة تسر من يراها.

وذات يوم، عندما قام جيم بتوصيل روز، كانت يداه ترتجفان بشدة لدرجة أنه لم يتمكن من إخراج غداء روز من حقيبته، فوضعت يدي على كتفيه، ونظرت في عينيه، وقلت: «أنت لست بخير، وإذا استمريت على هذا الحال، فلن تكون عائلتك بخير، أنت بحاجة إلى الاهتمام بنفسك بدنيا ونفسيا حتى تتمكن من رعاية الأشخاص المهمين في حياتك».

قال جيم بذهول: «لا أدري كيف يمكنني فعل ذلك؟»؛ حينها قلت له: «من فضلك، هل يمكنني تقديم بعض الاقتراحات؟ في طريقك عودتك من العمل إلى المنزل الليلة، اشتر دجاجة مع بعض من إكليل الجبل وعشبة المرمرية وقم بطهيها وتناولوها سويا».

رد قائلا: «لكني لا أجيد الطبخ!»؛ أجبته: «أشعل الفرن على حرارة مائة وثمانين درجة، وضع الأعشاب داخل الدجاج، وادهنها ببعض الزبدة والقليل من الملح من الخارج، واتركها

على النار لمدة ساعة ونصف، وأثناء طهي الدجاجة وانتشار كل تلك الروائح الشهية في منزلك، خذ أنعم بطانية لديك وضعها في المجفف لمدة عشر دقائق، ثم لف تلك البطانية المريحة حولك، وشغل بعض الموسيقى التي تحبها، وانظر إلى ألبوم صور العائلة، ولا تنهض حتى تنضج تلك الدجاجة، ثم اجلس مع عائلتك وتناول العشاء».

كان جيم بحاجة إلى إعادة التعرف على أحاسيسه ومشاعره، ولما كان لدي اعتقاد راسخ أننا نختبر الحياة من خلال تلك الأحاسيس، فإنني أدركت أننا عندما نكون مشغولين للغاية، أو عندما نمر بموقف مؤلم مثل ما مر به جيم، فإننا نتجاهل تلك الأحاسيس والمشاعر، ولا نأخذ الوقت الكافي للتعامل معها، سواء بالبحث في الراديو عن محطة ممتعة تمنحنا الهدوء والراحة النفسية، أو غير ذلك، بل بدلا من ذلك ينتهي بنا الأمر إلى الشعور بالضيق الشديد، حتى نصبح بلا إدراك لكل ما يدور حولنا.

كان جيم الذي جاء لتوصيل روز في اليوم التالي رجلا مختلفا، فقد بدا مليئا بالحماس، ومفعما بالحيوية، وأكثر راحة وسكينة مما رأيته عليه منذ شهور، نعم كان لا يزال ما تبقى في داخله من أحداث ذلك العام صعبا جدا عليه وعلى أسرته، لكن

كانت لدى جيم وسيلة علاجية تنقذه، ويمكنه استخدامها واللجوء إليها كلما شعر بالاستنزاف أو الإرهاق أو الاكتئاب، كما يمكنه أن يمنح نفسه شعورا بالدفء والراحة الجسدية، ويمكن أن يجعل رائحة منزله كما ينبغي أن تكون عليه، وبالتأكيد يمكنه إعداد وجبة منزلية لنفسه وأسرته.

إن الانغماس في الأحاسيس والاهتمام بالناحية الشعورية ليس رفاهية، بل ضرورة، فنحن نحتاج إلى المشي حفاة على العشب، ولأن نأكل الثلج النظيف المتساقط، ولأن نترك الرمال الدافئة تتخلل أصابعنا، ولأن نستلقي على ظهورنا ونشعر بحرارة ودفء الشمس وهي تنساب على وجوهنا.

لهذا السبب لم يكن على الأطفال الذين حضروا البرنامج الرياضي فعل أي شيء سوى اللعب، وكان الكثير من الناس يشككون في فعالية هذه الطريقة، وقد غادرتنا بعض العائلات التي كانت معنا في ليتل لايت في محاولة منهم للاستفادة من هذا الوقت في إخضاع أطفالهم لمزيد من العلاج، وكان الكثير ممن حولي قلقين من أن جيك لن يحصل على ما يحتاجه بسبب تركيزي على اللعب ومنحه الفرصة لخوض التجارب والخبرات الطفولية العادية.

وبالمقارنة مع المزيد من تلك الممارسات الرسمية، فإنّ استراتيجيتي لا تتناسب معها كثير: «اركل الكرة لصديقك، وسأصفق لك»؛ أي نوع من العلاج هذا؟ لا أدري! ولكنني كنت مقتنعة به، «ليس عليك فعل أي شيء .. العب فحسب»، وقد نجحت في ذلك، وبدأت أرى التطورات على الفور؛ فالأنشطة التي بدا من غير المتوقع أن نمارسها عندما بدأنا، مثل: سباقات التتابع، أصبحت ليس فقط ممكنة، بل ممتعة، وعند استعراض الصور التي التقطناها خلال تلك السنة الأولى، يمكنك أن ترى معظم الأطفال يتجولون كالتائهين تماما في عوالمهم الخاصة، بينما في الصور الأخرى التي التقطناها مؤخرا في عيد الميلاد ترى أنهم بدؤوا يستعيدون التعرف على أنفسهم، ويجلسون في الجهة المقابلة لي على أماكنهم في المظلة، وينتبهون لما أقوله وما أفعله.

مرة واحدة في الشهر لم تكن كافية، لقد كنا بحاجة إلى اللقاء أسبوعيا، وقد سمحت لنا الكنيسة بذلك، طالما تعهدنا بتنظيف المباني التي كنا نستخدمها قبل مغادرتنا .. انتابني شعور بالسرور العميق.

كنت أنا وأختي نساعد جدتي في تنظيف الجزء الداخلي من

الكنيسة التي بنتها هي وجدي، حينها كانت تضع منديلا على شعرها، وتحمل دلوا به ما سنحتاج إليه في عملية التنظيف وتضعه في السيارة، ثم نتوجه أنا وأختي إلى هناك حتى نتمكن من كنس المكان، ومسح اللوحات، وإزالة الغبار من فوق المقاعد وتشميعها، وبالنسبة لجدتي، كان هذا نوعا من خدمة المجتمع، وكذلك كان تنظيم الأنشطة الرياضية للمصابين بالتوحد خدمة مجتمعية بالنسبة لي أيضا.

لقد توقفت أنا ومايك عن الذهاب إلى الكنيسة في السنوات التي أعقبت تشخيص إصابة جيك، وهذا أمر شائع جدا بين الأسر التي بها أطفال مصابون بالتوحد.

وقعت حادثة في الكنيسة في صباح أحد أيام الأحد، فبينما كنت أقف في الردهة مع جيك، رأتني والدة إحدى الفتيات التي كانت تذهب معي إلى المدرسة الثانوية، وصرخت من شدة فرحها وانبعثت رائحتها بشدة وهي متجهة نحونا، وشالها ذو الألوان الزاهية يرفرف خلفها، ثم أمسكت وجهي لتطبع قبلة على خدي، فتغير وجه جيك تماما، واستلقى على الأرض وهو يصرخ بأعلى صوته، وعندما حاولت حمله، ركلني، وأمسك بثوبي الحريري ومزقه.

إنـه شـيء مثـل هـذا يمكـن أن يحـدث عندمـا يفقـد طفلك صوابه، ولكن المشـكلة أن هذا الأمر حدث في الكنيسـة وهو ما جعلنـي أشـعر بالحرج الشـديد؛ حينهـا بدأ الجميـع يحدقون بنا، حتـى إن أحدهـم قال على سـبيل الدعابة: «رشـوا عليه بعضا من المـاء المقـدس»، أخيرا توجهنا إلى الحمام، حيث أجلسـته على المنضـدة بيـن المغاسـل، وكنـت أفـرك ظهـره وأمسـح عينيه في محاولـة لطمأنتـه بأن كل شـيء على ما يرام، وفـي النهاية، خفف قبضتـه مـن حولـي تـاركا ثوبي الـذي أصبحـت تفوح منـه رائحة العرق.

أعتقد أن نوبات الغضب ليست من أعراض التوحد، بل هي أحد أعراض الفشل في فهم التوحد، فلم يكن السبب في ذلك أن جيـك لـم يرغب في الذهاب إلى الكنيسـة، بل لأنـه ليس بإمكانه الذهـاب إليهـا، فالتجربة أصعب من اللازم بالنسـبة له، ولو كنت أجبـره علـى الذهاب إلى هنـاك، فلن ينتهي الأمـر إلا بعودتي مع طفـل بائـس وثوب آخـر ممزق، ولكـن لماذا لـم يكن قـادرا على الذهاب إلى الكنيسة؟

لقـد انتابني نفس هذا الشـعور لفترة قصيرة مسـبقا؛ فأدركت الأمر حينها، وعدت أدراجي عبر الردهة وخرجت من الباب، ثم وضعت جيك في السيارة وغادرنا المكان.

على الرغم من أننا عدنا نزور الكنيسة بانتظام، إلا أنني وجدت أن القيام بالخدمة من خلال الرياضة جلب لي إحساسا عميقا بالهدوء النفسي والسلام المجتمعي، وكنت أفكر بجدي كثيرا في صباح يوم السبت، لقد غرس في داخلي الإحساس بمدى متعة اللعب وفهم أهميته، وعلمني أيضا أن أنظر إلى سوء حظي كفرصة لإنشاء مجتمع، بدلا من عزل نفسي عن المجتمع، لقد تعلمت من خلاله تعليماته ونصائحه أن مساعدة الآخرين تعني أنك لست وحدك أبدا.

لم تستمتع أسر هؤلاء الأطفال المصابين بالتوحد بأي شيء لفترة طويلة، ولطالما كان الوالدان منهكين ومحبطين، وكم قيل لأطفالهم الرائعين أن لا قيمة لهم.

هل من المستحيل عمليا بالنسبة لي العثور على مكان يجتمعون فيه؟

إن الجمع بين هذه العائلات ومساعدتهم في إعادة بعض مشاعر الفرح إلى حياتهم يعني كل شيء بالنسبة لي، وبصياغة أخرى، كان تنظيم الأنشطة الرياضية للمصابين بالتوحد بديلي عن الكنيسة.

كان ويسلي في أروع حالاته، وأحبته كل العائلات، وكان

بإمكانه القيام بشقلبات لافتة للنظر أكثر على الحصائر التي استخدمناها لتغطية أرضيات الكنيسة، وكان إيثان ينمو وسط فئات مختلفة من الناس، وقد جعله سلوكه الثابت والهادئ مفضلا لدى الأطفال الأكبر سنا من المصابين بالتوحد، أما جيك فقد أصبح متألقا في نظري.

عندما يسألني الناس اليوم كيف يمكن لجيك أن يكون اجتماعيا ومرتاحا مع الآخرين على الرغم من إصابته بالتوحد، كنت أقول لهم إننا مدينون كثيرا للرياضة.

في أيام السبت تلك، لم نقم بتدريبه للمشاركة في أولمبياد لمادة الرياضيات، أو نصطحبه إلى معرض العلوم، بل كنا نحرص على تواجده في ملعب كرة القدم، أو ملعب البيسبول، أو ملعب كرة السلة، مع إعطاء الأولوية للصداقة والتفاعل الاجتماعي، والعمل الجماعي، واحترام الذات.

لم يكن جيك طفلا خارقا في مجال الرياضة، أو طفلا مصابا بالتوحد مع حالات تأخر في النمو الجسدي، بل كان طفلا طبيعيا يقف خارج ملعب البيسبول ساحبا خيوط حذائه الرياضي على العشب الذي تتسلط عليه أشعة الشمس، تماما مثل آلاف الأطفال الآخرين في جميع أنحاء أمريكا.

في وقت وجيز أصبحت الرياضة أكثر من مجرد كونها رياضة فقط؛ حيث لاحظت أن كريستوفر بدأ يتجول بعد الفصل، وكنت في كل أسبوع ألاحظ أن المزيد من العائلات تتجول في الجوار أيضا، لقد كانوا يتوجهون إلى ملعب كرة القدم، ويركلون الكرة أو يرمون الأطباق الطائرة، وكانوا يُحضِرون غداءهم معهم، حيث يخطط الكثيرون منهم للبقاء حتى غروب الشمس، وفي فصل الشتاء، كان الناس يجلبون الزلاجات، وكان الأطفال ينزلقون من فوق التلال، حتى أصبح كوب الشوكولاتة الساخنة هو الشيء الوحيد الذي يمكنه تدفئة أيديهم الصغيرة وخدودهم.

بدأنا تكوين مجموعة على فيسبوك، وكان أفراد المجموعة ينشرون قصص نجاح جديدة بشكل دوري، وكان المنشور يبدأ دائما بهذه العبارة: «قصة نجاح، في عالم التوحد!».

لقد مر وقت طويل على هذه العائلات دون أن تضحك معا، إلى أن عاد إليهم هذا الإحساس لأنهم شعروا بالأمل، وكانوا يبحثون عن سعادة بعضهم البعض ويمضون في حياتهم بدون قلق.

أعجبتني رؤية الأمهات وهن جالسات على المدرجات ويتجاذبن أطراف الحديث، وأكفهن تمسك أكواب القهوة، فيما يلعب أزواجهن كرة السلة مع الأطفال.

لقد تناسى الكثير من هؤلاء الناس مفهوم الطفولة، إنها مجرد الاستمتاع لا غير، وقد فهمت ذلك مؤخرا بعد أن نسيناه أنا ومايكل أيضا لفترة من الزمن.

ولكننا تذكرنا، والآن يمكننا مساعدة هذه العائلات على تعلّم الاستمتاع مرة أخرى.

حلمٌ يتحقق

يتشارك معظم الأزواج أحلامهم حول المستقبل، ويناقشونها قبل الخلود إلى النوم، بينما يغط بقية أفراد العائلة في سباتهم.

قد يتمحور حلم بعض الناس حول رحلة بحرية فاخرة في منطقة البحر الكاريبي، أو الفوز باليانصيب، أما بالنسبة لي ولمايكل كان أحلامنا تدور حول حل مشكلات الأسرة.

في عام ٢٠٠٦؛ فزت بجائزة شركة: «جاز أمريكا» للأبطال المحليين عما بذلته في برنامج الأنشطة الرياضية للمصابين بالتوحد، وكانت الجائزة بضع لترات من البنزين المجاني، وبالرغم من بساطتها إلا أنها كانت مصدر حماس بالنسبة لي، ولكنني لم أنظر إلى كلمة: «بطل» على أنها تنطبق علي؛ حيث أشعرتني بالحرج، فأنا أشاهد في الأخبار جنودا يتركون عائلاتهم للقتال من أجل الحرية والديمقراطية في أفغانستان، بينما يعمل أحد جيراننا رجل إطفاء، حيث يذهب إلى عمله كل يوم ليواجه احتمال المخاطرة بحياته لإنقاذ حياة شخص آخر،

هؤلاء الناس هم الأبطال الحقيقيون، وليست تلك الأم التي ترتدي بنطال من نوع كابري، وتصنع ملعبا مصغرا للجولف.

لقد ساعدني مايكل في كل ما أقوم به، بينما زادت الجائزة من حماسي وتحفيزي، وكنت مصممة على المضي قدما إلى أبعد من ذلك.

لقد لاحظنا أن الرياضة يمكن أن تحدث تحولا إيجابيا لدى الأطفال المصابين بالتوحد، وسيكون من الرائع لو كان لدينا منزل دائم نمارس فيه هذه الأنشطة؛ فقد توجب علينا نقل جيك وويسلي إلى غرفة نوم واحدة حتى نحتفظ بصناديق تخزين المعدات الرياضية في الغرفة الأخرى، وقمنا بتجهيز المساحة التي أتاحتها لنا الكنيسة بالقدر الذي يمكننا من الاستفادة منها، ولكننا كنا سنصبح أكثر قدرة على القيام بأشياء أكثر إبهارا لو كان لدينا مقر خاص.

لقد أدت الأنشطة الرياضية إلى التعرف على أطفال أكبر سنا ومصابين بالتوحد، بما يعني أنه يمكننا أن نتوقع المستقبل لبعض الصغار، ولكن من الصعب التنبؤ بذلك للمراهقين، ولكن الأصعب من ذلك كله أن تكون مراهقا ومصابا بالتوحد.

لقد فهمنا أنه سيأتي وقت يحتاج فيه جيك وكريستوفر

وأصدقاؤهما إلى فترة للتخفف من الصعوبات الاجتماعية التي قد يواجهونها في المدرسة، ولتحقيق ذلك؛ بدأنا البحث عن مساحة خاصة بنا لنمارس فيها الرياضة وكأننا في سباق مع الزمن.

لقد أصبحت ليتل لايت وبرنامج الأنشطة الرياضية للمصابين بالتوحد ملاذا آمنا لجيك وأصدقائه، فأردت مع مايكل أخذ هذه الخطوة إلى فضاء أرحب بإنشاء مركز ترفيهي، حيث يمكن للأطفال والمراهقين المصابين بالتوحد ممارسة الرياضة أو مشاهدة الأفلام أو الحصول على المساعدة في أداء واجباتهم المدرسية، أو اللعب بالبطاقات دون أن يحاول شخص ما «علاج» التوحد لديهم.

عندما كنا بحاجة إلى اسم رسمي لمؤسسة ليتل لايت الخيرية قبل عدة سنوات، اقترحت ميلاني أن نطلق عليه اسم «ميدان جاكوب»؛ حيث بدا لها الاسم وكأنه يدل على مكان به مساحة من الود وليس كمستشفى أو مركز علاجي، ومن ذاك الوقت لم نستخدم هذا الاسم إلا في إقراراتنا الضريبية، ولكنه كان الاسم المثالي لمركز الترفيه، فأصبح حلمنا هو أن نجعل: «ميدان جاكوب» حقيقة على أرض الواقع.

زادت شهرة برنامج الأنشطة الرياضية بسرعة كبيرة لدرجة أن مساحة الكنيسة التي كنا نستخدمها كانت تكتظ بالزوار خلال أشهر الشتاء، وبدلا من تقليل النفقات، اخترنا أن ننظر إلى ذلك على أنه فرصة للنمو، وفي صيف عام ٢٠٠٨، قمنا ببيع إحدى سياراتنا، وسحبنا مبلغا من التأمين التقاعدي لمايكل، وذهبنا للبحث عن: «ميدان جاكوب».

كان علينا أن نبحث في جميع الأنحاء؛ فقد كنت أحلم بالحصول على مبنى متكامل، لكن ميزانيتنا قليلة للغاية، حتى إن إحدى وكيلات العقارات سخرت منا عندما أخبرناها أن ميزانية الإنفاق المتوفرة لدينا لا تتجاوز خمسة عشر ألف دولار للمبنى، وخمسة آلاف دولار أخرى للصرف على التحسينات أو المعدات التي نحتاجها.

الحقيقة أن هذه الميزانية لم تكن تكفي للحصول على أي مكان قريب، ولا حتى مكان في كل أنحاء إنديانا.

كان على مايكل في ذلك الوقت أن يقود سيارته في جميع أنحاء المنطقة للبحث عن ضالتنا، حيث كان يترقب أي شيء يبدو واعدا أو مبشرا للحصول على المكان المنشود، ذات يوم اتصل بالمنزل وقال: «كريس، لابد أن تأتي، أعتقد أنني وجدته».

كنا قد اشترينا سيارة من طراز فورد برونكو قديمة الصنع مقابل خمسمائة دولار كبديل للسيارة التي بعناها، كانت السيارة تصدر ضجيجا مزعجا وقبيحة الشكل، والصدأ يغطي مساحة أكبر من الطلاء الذي عليها، لكن ما يدعو للعجب أن الأطفال أحبوها لأنه كان بإمكانهم رؤية الطريق يمر أسفل السيارة من خلال الفتحات الموجودة في الأرضية - وكانت تشبه إلى حد ما السيارة التي قادها فلينستون من العصر الحجري في مسلسل الكرتون الشهير -، وقد كنت مقتنعة أنه بالكاد يمكنني استخدام هذه السيارة في الذهاب إلى البقالة والعودة إلى المنزل، ولم تزد طموحاتي في الاستفادة منها إلى أبعد من ذلك؛ لذلك كنت متوترة بعض الشيء عندما نظرت إلى الخريطة ورأيت كم كان المبنى الذي يقصده مايكل بعيدا، لكنني واصلت طريقي إلى أن وصلت أخيرا إلى بلدة كيركلين الصغيرة بولاية إنديانا التي تبعد حوالي ساعة عن منزلنا.

بغض النظر عما كنت أشعر به من قلق بخصوص السيارة، إلا أن القيادة في تلك البلدة كانت جميلة، وكانت أكثر طرقها ترابية ذات اتجاه واحد وتمر عبر المزارع الريفية، لقد تخيلت أن هذه الرحلة يمكن أن تكون نوعا من الاستجمام في حد ذاتها للآباء والأطفال الذين يعانون من الإجهاد.

عندما وصلت إلى هناك، رأيت سيارة مايكل متوقفة في نهاية الشارع الرئيسي، الذي بدا لي أنه مليء بواجهات متاجر مهجورة، لقد كان مايكل يقف أمام أكثر المباني المتداعية التي رأيتها في حياتي، لقد كان المبنى قديما بكل ما تعنيه الكلمة وكأنه بني في القرن التاسع عشر، وكنت أرى بوضوح أنه لم يحظ بأي اهتمام منذ منتصف القرن العشرين على الأقل، فلم تكن هناك نوافذ سليمة، بينما انهار الجدار الخلفي، ولم يكن هناك رصيف في الخارج، باستثناء قطعة من الخرسانة تختبئ بين الحشائش، ومع استمراري في فحص المكان حاولت فتح الباب المؤدي إلى المدخل الجانبي.

قال مايكل: «هذا الباب ليس جيدا في الواقع».

وبمجرد فتحه، استطعت أن أرى ما يقصده، لم يكن هناك شيء خلفه سوى حفرة سوداء كبيرة، وخطوة واحدة أخرى كانت ستهوي بي خمسة أمتار على الحطام في الطابق السفلي، وقد راودتني بعدها كوابيس لعدة أشهر حول الوقوع في تلك الحفرة، وكان الطابق الثاني بالكامل في الجزء الخلفي من المبنى قد سقط، وكان أشبه بوعاء معلق فوق الطابق الأول، لم تكن هناك طريقة يمكنك من خلالها الدخول إلى المكان دون

الخوف من أن ينهار الطابق الثاني فوقك بأكمله، وعند دخولنا المكان في الظلام باستخدام مصابيحنا اليدوية، تمكنا من رؤية مجموعة من المعدات الطبية العتيقة والمخيفة وبعض الأثاث المتبقي منذ أن كان المبنى مقرا لمكتب طبيب المدينة.

كان المكان قذرا للغاية، وموقعه غير جيد، ومن الواضح أنه غير آمن، ولكنه كان يروي قصص الكثير من الذكريات التي حدثت فيه، وكان يتوجب علينا القيام بالكثير من الأشياء به لإصلاحه، لكنني عندما أغمضت عيني لأتصور مستقبل المكان، تخليته وقد امتلأ بالعائلات التي عرفناها وأحببناها كثيرا من خلال ليتل لايت وبرنامج الأنشطة الرياضية للمصابين بالتوحد، وكان بإمكاني رؤية الأمهات تعانق بعضهن البعض، ويشعرن بالراحة لوجود مكان للاسترخاء ومشاركة همومهن بعد أسبوع طويل، وكان بإمكاني تخيل الأطفال وهم يجلسون على المقاعد القماشية ويشاهدون الأفلام، وآخرون يلتفون فوق رقعات الشطرنج وطاولات اللعب بالبطاقات، ووسط هذه التخيلات كان بإمكاني رؤية جيك وكريستوفر يتناوبان رميتين حرتين من منتصف ملعب كرة سلة كبير وجميل وحديث الطلاء، ثم أفقت حلمي ونظرت إلى مايكل وابتسمت قائلة: «هذا هو، هذا هو المكان».

كان جيك وكريستوفر لا ينفصلان، وأنا كذلك أصبحت صديقة مقربة من فيليس جدة كريستوفر، التي كانت تتولى تربيته.

في ذلك الصيف؛ كنا نتمشى بجوار حمام السباحة ونتحدث بينما يسبح الأولاد، كانت تلك اللحظات بقربها لحظات استرخاء نادرة بالنسبة لي، وكنت أتوق لها.

كانت عائلتهم تمتلك وكالة لبيع السيارات وتعيش في منزل ضخم، به ملاعب كرة سلة خارجية، وداخلية وحمام سباحة ومصعد، وبالطبع كان جيك يحب الذهاب إلى هناك، أما كريستوفر فكان يحب أن يأتي إلى منزلنا الصغير ليشوي النقانق، ويصنع الحلوى في الفناء الخلفي، لقد كان ممتعا بشكل لا يصدق، وكان من الأشخاص الذين يمكنهم تحويل موقف صغير مثل نزهة في جو ماطر إلى مغامرة كبرى.

لقد ارتبط كريستوفر وجيك ببعضهما رغم أنهما من بيئتين مختلفتين، وبالنسبة إلى طفل مصاب بالتوحد فقد يكون من الصعب التمييز بين الأطفال الذين يضحكون معه، وأولئك الذين يضحكون عليه، على سبيل المثال؛ عندما يقول كريستوفر نكتة ويضحك الأولاد في المدرسة، لم يكن يستطيع تفسير ما

يعنيه هذا الضحك، هل كانت النكتة جيدة إلى هذا الحد، أم أن الضحك كان مبالغا فيه؟

لقدا استفاد جيك كثيرا من السنوات التي قضاها في المدرسة الابتدائية، بالإضافة ما بذلنا من جهد لجلب الأصدقاء إلى حياته.

بمرور الوقت التقى جيك بكريستوفر، وحينها شعر بقدر أكبر من الراحة من الناحية الاجتماعية؛ حيث كان بإمكانه مساعدة صديقه الأصغر على شق طريقه وسط المواقف المحرجة التي كان يواجهها في تلك المرحلة العمرية، كما أنه كان يوضح له ما يعتقده أو يشعر به الأطفال الآخرون، ولم تكن هناك حواجز بينهما كصديقين.

أصبحت التوجيهات التي يقدمها جيك إلى كريستوفر تحتل مساحة كبيرة من صداقتهما، فقد كان جيك يرشده باستمرار: «في هذا الموقف تصرف بهذه الطريقة، أنت بحاجة إلى اكتساب هذه المهارة الصغيرة، وإلا سيكون من الصعب عليك التعامل مع مثل هذا الموقف».

في اليوم الأول من لقائهما، تعلم كريسنتوفر من جيك اللعب بطوق الهولا هوب، يبدو أن تعلم تلك اللعبة ليس

بالشيء الكبير، حيث لا يحتاج الناس إلى تعلم طريقة لعب الهولا هوب، ولكن بالنسبة لكريستوفر كانت اللعبة صعبة؛ لذلك استخدم جيك مع كريستوفر عنصر الإلحاح لتعليمه تلك المهارة؛ حيث إن كل مهارة يمتلكها طفل مثل كريستوفر كانت أقل من غيره، وهو ما قد يبعث لديه الشعور بالضيق وبأنه أقل تميزا من غيره.

في المقابل ساعد كريستوفر جيك، فقد كان أكبر منه بكثير، وكان يتمتع بمهارات أكثر في كرة السلة، وبالتالي تحسنت مهارات جيك كثيرا بسبب توجيهات كريستوفر، وفهم معه متعة ممارسة الرياضة، كما أن كريستوفر مهووس بالأحجيات أيضا، وكان جيك يحب كتابة الرسائل إلى كريستوفر بالرموز التي يتعين على الأخير حلها لكي يفهم المكتوب فيها، وكان كريستوفر يسعد بتعلم الحيل الغامضة ليمارسها مع جيك، الذي يتوجب عليه معرفة كيفية القيام بها وحل رموزها؛ وبالتالي تحسنت براعة كريستوفر وإتقانه للأحجيات، وأصبحت الحيل التي يقوم بها أصعب، وكلما زادت صعوبة الحيلة أصبح جيك أكثر سعادة؛ حيث من النادر أن يقدم شخص لغزا يمثل تحديا حقيقيا له، وفي بعض الأحيان كانا يتعاونان معا في حل إحدى حيل الخداع البصري، على سبيل

المثال؛ ساعد جيك كريستوفر في تصميم خدعة معقدة تتطلب وضع عدد من المرايا في الزوايا الصحيحة بدقة، وهو نشاط كان يبرع فيه جيك.

ذهب كل منهما إلى مدرسة تختلف عن مدرسة صديقه، لكنهما كان يلتقيان كل يوم سبت في برنامج الأنشطة الرياضية، ومرة أخرى في اليوم التالي في الكنيسة، وكانا يتصلان ببعضهما البعض على الهاتف كل ليلة ويتحدثان عن الرياضة، وبالرغم من أنني صارمة بشأن أهمية جلوس الجميع لتناول العشاء معا، إلا أنني كنت أسعد جدا برؤية جيك وقد أصبح لديه صديق جيد يتفاعل معه، حتى إنني كثيرا ما كنت أصنع شطيرة الديك الرومي وأقطع بعض الخضار له ليتناولها وهو يتحدث مع كريستوفر عبر الهاتف.

أدركت مع مايكل سريعا أننا قد أنفقنا أكثر مما يمكننا إنفاقه فيما يتعلق بالمركز، وكان المبلغ المتبقي لدينا خمسة آلاف دولار فقط، وهو مخصص لدفع تكاليف إصلاح المبنى، وهذا كل ما تبقى لدينا.

أتذكر عندما نظر مايكل إلى كشف حسابنا في البنك، وهز رأسه قائلا: «سنواجه شتاء صعبا؛ فلم يعد لدينا أي مال لإصلاح المدفئة التي انفجرت في المنزل».

يعمل والد مايك نجارا، وقد انزعج عندما دخل المبنى لأول مرة، ووجه حديثه إلى مايك قائلا: «لا تتورط في هذا الأمر، استمع لنصيحتي، ابتعد عن هذا المبنى».

بالطبع لم نستمع لنصيحته مثلنا مثل الكثير من الناس في أمريكا في ذلك الوقت؛ حيث استفدنا من التضخم الاقتصادي في ذلك الوقت.

حصل مايكل على ترقيات متتالية، وكانت الحضانة مليئة بالعمل، وكانت لدي رؤى وتصورات لتوسعتها، وربما حتى إنشاء مدرسة صغيرة بجوارها، ومع قدوم المولود الجديد إيثان لم يعد منزلنا يكفينا، حيث أدركت أن الأسرة لا يمكنها أن تجلس بأكملها في غرفة المعيشة، إلا إذا كان أحد الأطفال جالسا على ذراع الأريكة، أو على الأرض عند أقدامنا، وكان علينا أن نجد مساحة أكبر إذا أردنا أن نشاهد فيلما معا بشكل مريح.

كانت الخطة في الأساس أن نعيش في مركز الترفيه ونصلحه في نفس الوقت، لكن بلدية المدينة لن تقوم بتشغيل الكهرباء أو إيصال الماء إلى المبنى إلا عندما يكون جاهزا، وكنت سأتعايش مع ذلك، لكن تربية ثلاثة أولاد صغار في

خيمة داخل مبنى غير صالح للسكن بدا أمرا مجحفا بعض الشيء، حتى بالنسبة لي؛ لذلك حصلنا على قرض عقاري، وخصصنا أموالا لبناء منزل في مساحة جديدة في ويستفيلد، وهي ضاحية للطبقة الوسطى تم اقتطاعها من الأراضي الزراعية شمال إنديانابوليس، ولا أبالغ عندما أقول أن المنزل الجديد كان منزل أحلامي، وهو مكان لم أحلم به على الإطلاق، ناهيك عن أنه أصبح ملكنا.

كانت هناك مساحة كافية لنا جميعا، حتى إنها أكثر مما نحتاج إليه، وفي خطتنا لتصميم المنزل، كان المطبخ وغرفة الطعام وغرفة المعيشة مفتوحة على بعضها البعض بحيث يمكننا أن نكون معا في نفس المكان، بحيث لن نحتاج إلى استبعاد أحد أفراد الأسرة من المطبخ كي نتمكن من تناول العشاء على الطاولة.

كان إيثان مهتما جدا بالطهي والخبز، وعندما بلغ الرابعة من عمره كان بمقدوره إعداد بعض الوجبات الرئيسية بنفسه، وعندما كنت أنظر إلى تصميم المنزل، كنت أبتسم وأنا أتخيل ما يمكن لإيثان أن يفعله قريبا للاحتفال بأية مناسبة.

سيكون للمنزل الجديد مرآب ضخم يمكنه أن يستوعب بسهولة المزيد من أطفال الحضانة، بالإضافة إلى المساعدين.

اتفقت مع مايكل على الاحتفاظ بالمنزل القديم لحين الانتقال إلى منزلنا الجديد، على الرغم من أن ذلك سيكلفنا المزيد من المال، لكنني أردت أن يكون الاضطراب لدى الأطفال نتيجة لهذا الانتقال في أقل درجاته.

خلال فصلي الربيع والصيف، وبينما كنا نراقب المنزل في مرحلة البناء، تعرفنا على جيراننا الجدد، لقد كنا نتوقف لنرى التقدم الذي حققه البناؤون، ثم نقوم بنزهة في الملعب الصغير على ضفاف البركة الواقعة على الجانب الآخر من الشارع، وبينما كان الأطفال يتأرجحون، كنا نتناقش أنا ومايكل مع الأشخاص الآخرين الذين كان يحضرون لمشاهدة مراحل التقدم في بناء منازلهم.

في اليوم الذي انتقلنا فيه إلى منزلنا الجديد، شعرت بصراحة وكأنني أسطو على مكان جديد؛ فقد نشأت في حي فقير على الجانب الشرقي من إنديانابوليس، ولم أكن أنتظر أن يأتي شخص ما ليخبرني أن منزلي القديم لم يعد مناسبا للعيش فيه، وكلما كنت أنظر إلى تفاصيل منزلي الجديد كان ينتابني شعور بالسعادة كل يوم؛ فحقيقة أن يكون لدى كل منا حوض الاستحمام الخاص به تجعلني أشعر وكأنني ملكة إنجلترا.

أصبح من الواضح خلال اليوم الأول أو الثاني أن المطبخ وغرفة الطعام وغرفة المعيشة الذين تم فتحهم على بعضهم البعض ستصبح المكان الذي سنقضي فيه معظم وقتنا، وكان هناك أشخاص يأتون إلينا، ويستمتعون بالدفء الأسري الموجود في منزلنا، ويجلسون على الأريكة، وينتهي بهم الأمر بأن يمكثوا حتى تناول العشاء.

كنا على حق بشأن حميمية المجتمع المحيط بنا أيضا، فالتقيت بجارتنا المجاورة لنا، نارني، وفي إحدى المرات، وبينما كنت أتسوق معها، سمعتها وهي تتعرف على إحدى السيدات، وخلال الوقت القصير الذي كنت أجرب فيه فستانا جديدا في غرفة قياس الملابس، عرفت نارني كل شيء عن حفل زفاف هذه السيدة الذي سيقام قريبا، وعن خطيبها، وعن احتياجاتها العاطفية التي كان يلبيها ذلك الخطيب، وعن تلك التي لا يلبيها في بعض الأحيان.

بمجرد أن توقفت شاحنتنا المليئة بأغراضنا التي كنا تركناها في منزلنا القديم أمام منزلنا الجديد في ذلك اليوم الأول، خرجت نارني من المنزل المجاور، وهل تصدقون أنها بدأت في تفريغ الشاحنة؟! فعلت ذلك بتلقائية ووجه مبتسم

وضحكة عميقة، ثم قامت بترتيب خزانة ملابسي في الوقت الذي عرّفت فيه نفسي لها، كما أنها غسلت أطباقي في الساعة الأولى التي عرفتها فيها.

كما أنه من المميز جدا أن نجاور تلك الجدة التي تمارس اليوجا، وتحمل بطاقة الاتحاد القومي الأمريكي للأسلحة، وهي منظمة غير ربحية تتولى الدفاع عن حقوق الأفراد في حمل السلاح في الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا شيء جيد في حد ذاته؛ لأنه عندما تدخل امرأة كهذه حياتك، فستكون حاضرة متى ما احتجت إليها.

وقد اعتدنا على وجود أحد الجيران الذي يحضر لتناول فنجان من الشاي بعد الظهر كل يوم، أو مشروب الكاكاو أيام الأربعاء.

لقد كان لدي كل ما أريده في منزلنا الجديد، وكان مليئا بالأشخاص الذين أحببتهم، وفي نفس الوقت كنا نبني مركز الترفيه الذي تحدثنا عنه لفترة طويلة، وكان العمل يسير على وتيرة بطيئة، ولكنها مستمرة، وكنت أقول لمايكل: «حسنا، لقد انتهينا مما نريد تحقيقه، هذا هو كل ما أردته، الآن لدي كل شيء كنت أتمناه».

وفجـأة حل الركود فـي تلك الفترة، وكان مركـز الترفيه هو أقل ما يقلقنا حينها.

أوقات عصيبة

كان الركـود قـد ضرب بشـدة ولايـة إنديانا بأكملهـا في وقت وجيز، وكان مايكل أحد الضحايا الأولين لهذه الأزمة.

ذات ليلة، وبينما كنت أُعد العشاء بالمطبخ، سمعت شيئا في نشـرة الأخبار المحلية عن إغلاق أحد متاجر: «سـيركت سـيتي»، كنت لا أزال أجفف يديّ في منتصف الطريق بين المطبخ والغرفة، وإذ بي أسـمع ويسـلي يسـأل: «مهلا، أليس هذا هـو المتجر الذي يعمل فيه أبي؟».

تسمّر كلانا في مكانه ونحن نشاهد مايكل وهو يفقد وظيفته.

كان ذلـك المتجـر يمثـل لمايكل أكثر من مجـرد وظيفة، وقد سـبق أن واجـه موقفـا صعبا فيـه؛ حيـث كان المتجر يقـع في حي عشوائي، وقد أصبح سيء السمعة داخل الشركة بعدما فقد في أحد الأعوام بضاعة بسبب السرقة أكثر من التي باعها، لكن مايكل كان يـرى فـي العامليـن بالمتجـر إمكانـات واعـدة كثيـرة، فقـام بترقية العامليـن الأكثـر اجتهـادا، وتخلـص من الفاسـدين، وأعـاد تنظيم المتجر، وقدم حوافز، وكان أبرز ما تعهد به في هذا الخصوص أنه

وعد بأداء شقلبة خلفية أمام طاقم العمل حال نجاح أي شخص في تجاوز نسبة المبيعات المقررة له.

خلال ستة أشهر من وصول مايكل، تغير شكل المكان وتبدلت أجواؤه تماما، وفي العام التالي احتفل كل العاملين هناك بعيد الشكر معا، ونجح مايكل بشكل كبير في قلب الأحوال داخل المتجر وخلق قوة مبيعات وبيئة حيوية ونشطة، لدرجة أن: «سيركت سيتي» بدأت تتواصل معه بشأن تطوير برنامج لتدريب العاملين يمكن تطبيقه في المتاجر الأخرى.

ثم تلاشى كل شيء، فلن يشترى الأشخاص القلقون من فقدان وظائفهم أجهزة تلفاز، وبالتالي أغلق المتجر، وتفككت المجموعة التي تعاهدها مايكل وطورها وجعلها متكاتفة وكأنها أسرة واحدة، ولبضعة أشهر، عمل مايكل لصالح القائم على تصفية الشركة، فكان يفكك المتجر الذي بناه ويبيعه قطعة قطعة بأبخس الأثمان، وتلك تجربة صعبة بلا شك، وعندما انتهت تلك المهمة، لم يعد هناك شيء آخر ليفعله.

كنت قد حصلت على بعض المال من جدي، وكنا نستعين به في تسديد الدفعة الأولى المستحقة من ثمن منزلنا، وبفضل ذلك استطعنا البقاء فيه، لكن لم يكن جميع سكان الحي محظوظين مثلنا؛ حيث بدأت أرى المنازل من حولنا تعرض للبيع واحدا تلو

الآخر، وكنت كلما أخرج من البيت أرى لافتة جديدة ترفرف في الهواء وقد كتب عليها: «للبيع»؛ لتُعلمني بضياع حلم أسرة أخرى من الأسر الرائعة التي التقيتها ذلك الصيف.

كنت ومايكل نواجه أيضا ضائقة مالية، فقد أنفقنا كل ما نمتلكه على المركز الترفيهي ومنزلنا الجديد، ولم يكن باستطاعة أحد الحصول على قرض، ومن ثم استبعدنا تماما أي فكرة بشأن بيع منزلنا القديم، مما كان يعني الاضطرار لمواصلة تسديد رهنين من دخل واحد، ثم تطور الأمر لنضطر لتسديد رهنين بدون دخل؛ نظرا لتقلص أعداد الأطفال بمركز الرعاية النهارية أيضا، في ظل تأثر المزيد والمزيد من الأسر في منطقتنا بالانكماش الاقتصادي، وأضحى من المعتاد بشكل شبه يومي أن يحضر أحد الآباء، وقد بدا على وجهه الشحوب والتوتر، ليخبرني بأنه قد فقد وظيفته.

كان نشاط الرعاية النهارية للأطفال يمثل لي دخلا ثابتا، فمنذ أن فتحت أبوابي، كان عدد الأطفال الذين يلتحقون بالمركز يزيد دوما عن العدد الذي أستطيع قبوله، لا سيما بعد نجاح برنامج: «ليتل لايت»، ولكن خلال الركود، لم يكن لسمعتي أو النجاح الذي حققناه مع الأطفال أي جدوى، فإن لم تكن لديك وظيفة، لن تحتاج لشخص يعتني بأطفالك، وقد بدا الأمر وكأنه لم يعد هناك من يمتلك وظيفة في أوساط الطبقة العاملة عام ٢٠٠٨ في إنديانا.

تشبثت بالعمل مع طفل أو طفلين لفترة، لكن ذهب هؤلاء الأطفال أيضا بلا رجعة، وعندما أغلقت الباب خلف آخر طفل، شعرت للمرة الأولى بخوف حقيقي.

عندما فقد مايكل وظيفته، وجدت طرقا للاقتصاد وتقليل النفقات، بما في ذلك إعداد أطباق كبيرة من يخنة الفلفل الحار باللحم للأسرة، وقد بحثت عن أصل هذه الأكلة أنا وجيك؛ فوجدنا أنها ابتكرت خلال الكساد الكبير الذي حدث في ثلاثينيات القرن الماضي كوسيلة لجعل أي قدر ضئيل من اللحم يبدو أكثر، وعندما تضاءلت أعداد الأطفال في الحضانة، ولم تعد لدي القدرة المالية على صناعة تلك الأكلة، كنت أضع إناء كبيرا من الماء على الموقد وأنثر فيه خمسة قوالب من حساء المكرونة اليابانية (الرامن)، حيث تباع كل ثلاثة قوالب بدولار واحد، وكل ذلك كي نستطيع الإبقاء على تقليد العشاء الأسري الجماعي.

ولإضفاء روح المرح على تلك التجمعات، كنا نسأل الأطفال ثلاثة أسئلة في المعلومات العامة، مع قيام مايكل بتقليد شخصية سوب نازي من المسلسل الكوميدي *سينفيلد*، فكان يحرك حاجبيه، ويؤدي تعبيرات طريفة بوجهه، ويوبخ الأطفال بلكنة غريبة بلهاء حال الإجابة الخاطئة.

كما كان يصيح: «لن تحصل على حساء»، مما يجعلهم

يضحكون حتى يوشكوا على التبول في ثيابهم، لقد كان كلانا مصمما على الإبقاء على حالة المزاج المرح من أجل الأطفال، مهما بلغ بنا الخوف والفزع.

كان ذلك الشتاء أحد أكثر فصول الشتاء برودة على الإطلاق في ولاية اشتهرت بقسوة شهوره، وكنا في معظم الوقت غير قادرين على تحمل تكلفة تدفئة منزلنا، ولكي نبقي على الشعور بالدفء، كنا نتكدس على الأريكة تحت كومة من البطانيات، ونشاهد الأفلام ويحتضن بعضنا بعضا، في حين واعتاد كثيرون ممن كانوا حولنا حرق المناضد والمقاعد القديمة للتدفئة، فلم تكن الكهرباء متوافرة لدى الكثيرين، أما من كانوا يمتلكونها، فلم يكونوا يستخدمونها، وكانت كل المنازل مظلمة، ولم تكن هناك أضواء مشتعلة في أي مكان، وأتذكر أنني عندما كنت أسير داخل متاجر وول مارت، كانت الممرات خالية من أي شيء، عدا الضروريات كمعدات التخييم، والقهوة، وأخشاب الوقود، وأدوات إشعال النار، والمياه، والبطانيات الكهربائية الرخيصة لهؤلاء المحرومين من التدفئة، بالإضافة إلى الجعة، ولم يهتم المتجر بتخزين أي بضائع أخرى، وكان يبدو وكأنه متجر عسكري لبيع الفائض.

ثم حدث أن تلقيت اتصالا من أخي، الذي كان يعيش في منزلنا القديم، بعد أن فقد وظيفته في مجال الإنشاءات، ولم يكن

هناك أمل في حصوله على وظيفة أخرى، فقد كانت طوابير الانتظار للحصـول علـى وظيفة في ذلـك المجال طويلـة، وكان أخي يقوم على رعاية أبي، الذي كان يعاني من بعض المشاكل الصحية، والتي من ضمنها عملية قلب مفتوح خضع لها في ذلك الشتاء.

عندما بات واضحا أن المنزل لن يشتريه أحد، عرض أخي بن الانتقـال إليـه مـع بعض مـن أصدقائـه وإصلاحه أملا فـي أن نجد مستأجرا، لكن لم يكن لديهم مال كاف لإصلاحه، وفي ليلة شديدة البرودة انخفضت فيها درجة الحرارة إلى ثلاثين تحت الصفر بفعل الرياح الباردة، وبينما كان أخي نائما في مكان آخر أكثر دفئا، انفجر أنبـوب، وغمـرت المنزل مياه كثيرة توازي مـا يكفي لملء حوض سباحة أوليمبي.

كان أمـرا كارثيا، فقد دمّر البيت بأكمله، نعم دمّر من الداخل، لم يبق من حوائطه شيء، وانهار السقف على أرضية البيت، وصار الدرج يؤدي إلى «اللامكان»، وكنت كلما نظرت أبصر ماء يتقاطر قد غشيته الثلوج، فيما كان لا يزال الحائط الجاف قائما منتفخا من أثـر الرطوبة، وعندمـا فتحت الباب ورأيت الدمـار، خارت قواي، وجثوت أرضا.

وكحال الجميع، كانت شركة التأمين التي تغطي المنزل تعاني مـن ضائقة مالية خطيرة ولم تكـن متأكدة من قدرتها على مواصلة

نشاطها، ففي البداية شككت الشركة في تأميننا على البيت، لكننا حتى عندما اضطررنا لتناول حساء المكرونة اليابانية من أجل البقاء، كنا نتمكن دائما من تسديد فواتير التأمين، غير أن الشركة ماطلت في النظر في مطالبتنا بقيمة التأمين، ثم زادت مماطلتها، بينما كان منزلنا المغمور بالمياه يسري فيه العفن شيئا فشيئا من الداخل والخارج، مما أصابني بالجنون، ومع كل أسبوع يمر، تتزايد عدم صلاحية البيت للسكن، لكننا لم نكن نمتلك سنتا واحدا في البنك كي نصلحه.

في ذلك الوقت، كنت أعمل جليسة للأطفال بأجر بالساعة أقل مما كنت أتقاضاه عندما افتتحت حضانة الأطفال قبل ستة عشر عاما.

أعلمت الجميع بأنني متاحة في أي وقت، بما في ذلك الليالي وعطلات نهاية الأسبوع، كانت الأمهات اللائي تعرفت عليهن من خلال برنامج: «ليتل لايت» ومن برنامج الأنشطة الرياضية يحضرن إلي أطفالهن في حال كن لا يزلن محتفظات بوظائفهن، وكان ذلك بمثابة القانون غير المعلن: إذا كانت لديك وظيفة، ابحثي عمن ليس لديهن.

وحتى نتحاشى الشعور بحالات الصدقة، كان بعضنا يخبز أو يخيط لبعضنا الآخر أو ينظف له بيته، أما أنا فكنت أعتني بأولادهن، غير أنه لم يكن هناك مال كاف للوفاء باحتياجاتنا.

شعرت بالجوع للمرة الأولى في حياتي، واشتريت فيتامينات للأولاد، لأنني لم أعد قادرة على شراء اللحم بانتظام، وفي حال تواجد اللحم، كنت أتظاهر بأنني أعاني من ألم في المعدة وأدفع طبقي بعيدا حتى يأكلوا المزيد منه، وباتت مسألة شراء ملابس جديدة للشتاء غير واردة على الإطلاق، ورتقنا كل قطعة ملابس لدينا حتى أوشكتْ على البلاء، وكان ويسلي، ذلك الكاميكازي (الفدائي) الصغير، أسوأنا مظهرا، حيث كانت الرّقع تعلو بعضها على سرواله، وكنت أمتعض لرؤية الأولاد وهم يتجهون إلى حافلة المدرسة وقد انكشف جزء صغير من المعصم بين أكمام سترتهم الفرائية وقفازاتهم، وإن كنت أعلم أن وجود معاطف صغيرة للغاية أفضل من عدمها، فلم يكن كثيرون يمتلكونها.

بحلول عيد الميلاد، كنا بالكاد نعيش، ولم تكن البهجة المزيفة بزينة وديكورات تلك المناسبة المنصوبة على المتاجر الفارغة إلا تأكيدا على مدى اليأس والخوف الذي كان يشعر به الجميع.

لقد اعتدنا في عائلتنا أن لا نحتفي كثيرا بهدايا عيد الميلاد؛ لأنه يمثل لنا مناسبة دينية، فكنا نفضل التركيز على العمل الخيري، ولكن عندما أعطتنا الكنيسة التي نتبعها صندوقا لنملأه بالعطايا للفقراء؛ اضطررنا لكتابة ملاحظة تقول: «ليس لدينا ما نرسله سوى الدعاء»، فتفهم القس الأمر.

بالتأكيد لم نكن الوحيدين الذين ليس لديهم ما يعطونه في ذلك العام، لكن بلا شك، كان فعل ذلك من أصعب الأشياء على نفسي.

ورغم ذلك، حظينا بمعجزتنا الصغيرة؛ فحينما خرج مايكل في طليعة صبيحة عيد الميلاد لتجريف ممر المنزل من الثلوج، عاد وأطل برأسه من الباب فجأة ونادى علي بهدوء حتى لا يسمعه الأطفال: «لقد وجدت كيسا أحمر لامعا قد وضع على المدخل المسقوف المغطى بالثلج، إنه كيس سانتا»، نظرت إلى مايكل وقد انتابني شعور بالصدمة، ماذا فعل؟ فأنا أعرف يقينا أن حسابنا بالبنك ليس به سوى ٣٢ دولارا، ولم تأتنا أي أموال منذ فترة، ولو صرف هذا المبلغ، فلن يتبقى شيء لشراء مواد البقالة.

غير أن مايكل كان ينظر إلي بنفس الطريقة، ووجدته يهمس قائلا: «غير معقول يا كريس! ماذا فعلت؟».

هززت رأسي، ثم خطرت الإجابة لكلينا في نفس اللحظة: إنها نارني.

داخل الكيس، كانت هناك ثلاث هدايا مغلفة بأغلفة لامعة، وكانت الهدايا المثالية: مجموعة مكعبات ليجو لإيثان، ولوح تزلج لويسلي، وتلسكوب لجيك، وعندما زارتنا نارني لاحقا ومعها فنجان قهوتها كما اعتادت، سألت بحسن نية عن صبيحة عيد

الميـلاد وكيف قضيناه، فبكيت في حضنهـا امتنانا لصنيعها، الذي سيظل أطيب لفتة عرفتها في حياتي، وقد كان ذلك سببا في إرساء مكانة نارني كعضو غير رسمي في عائلتنا.

كانـت تلـك لحظة مضيئة، لكنها لم تدم طويـلا، فبعد أن كان محتوى موقع فيسبوك مشجعا للغاية، لم يعد يجلب إلا أخبارا عن تفاقم الأزمة الاقتصادية.

لقد كان الجميع مفلسا وخائفا، وفي كل ليلة نجد في الأخبار نبـأ عـن إغلاق منشـاة أخرى أو مصنـع آخر، ممـا كان ينذر بكارثة لعائلة أخرى نعرفها، ثم جاءت زيارة الرئيس، وعندما يزور الرئيس إنديانا، تعرف أنك في مأزق حقيقي.

وسـمعت ذات مـرة أن نصف الولايـة كان عاطلا عن العمل، وهو ما بدا تقديرا متحفظا بالنسبة لواقع المكان الذي أقيم به، ربما بسبب أن كل من نعرفهم كانوا من الطبقة العاملة مثلنا، لم يكن أحد يمتلك شيئا، لكن كان علينا أن نبقى متفائلين رغم الصعوبات؛ لذا مهما كانت الأخبار سـيئة، كنت أضع دائما منشـورا يقول: «مرحبا بكل من أراد منكم تناول قدر من حساء الرامن في أي وقت!!!!».

بحلول شهر يناير، بدا الأمر وكأن أسوأ مخاوفنا على وشك أن تحدث.

تحدثت مع أختي ستيفاني على الهاتف حتى وقت متأخر، كنا

نفكر جديا فيما يمكن أن نفعله إذا فقدنا منازلنا، لقد كان التهديد حقيقيا، وكان يحدث بالفعل لأناس نعرفهم، فقد فقدت إحدى الأمهات التي كنت أتعامل معها في الحضانة منزلها، وانتهى بها الحال في الشارع مع أطفالها، ورغم استضافة بعض الأصدقاء لها، لم يكن أحد يعرف يقينا إلى متى سيستمر هذا الوضع، إذ إن الأسرة المستضيفة تعاني أيضا.

تصورت وستيفاني أنه باستطاعتنا في أي وقت اصطحاب عائلتينا إلى الكنيسة التي كان قد بناها جدي والعيش لفترة في الغرفة العلوية لجماعة المنشدين، وهي غرفة غير مستخدمة، وبرغم هدوئي خلال المحادثة، أخذت أرتجف بعد أن وضعت السماعة ولم أستطع التوقف؛ فقد كانت احتمالية تشردنا وتشرد أبنائنا ترعبني.

كان الطقس قاسيا، وكان كريستوفر وجيك ويسلي يقضون وقتهم في عطلة نهاية كل أسبوع في بناء شبكات أنفاق معقدة من خلال الثلج الذي يغطي فناء البيت، وتطوير ألعاب تجسس محكمة ودقيقة لممارستها، ونظرا للبرودة الشديدة، صار المخبأ المقبب الذي شيدوه جزءا دائما من المنزل.

كانت جميع الأمهات اللاتي أعرفهن قلقات من ظروف القيادة، لكن المدارس كانت تحصّل رسوما مقابل وجبات الغداء،

ومن ثم بقيت مفتوحة، رغم أننا لم نكن نستطيع الوصول لنهاية ممر السيارات الخاص بمنزلنا دون أن نسقط.

(اعتاد ويسلي أن يبسط صندوقا من الورق المقوى حتى يمكنه «التزلج» على التل الثلجي).

لكن حدث أكثر من مرة أن أخبرت أبنائي بأنني غير مهتمة بسجلات الحضور، وأعيدهم معي على الفور إلى المنزل، بعد ما أرى الحافلة تتجه متأرجحة منزلقة باتجاه موقف انتظارنا.

كان حفل سوبر بول الذي يقام احتفالا بنهائي دوري كرة القدم الأمريكية نقطة مضيئة وجيزة في ذلك الشتاء الرهيب، حيث يعشق مايكل كرة القدم الأمريكية، وكذلك أولادنا.

واعتدت كل عام أن أعد وليمة كبيرة - أجنحة وقشور بطاطا محشية وكعك مقولب (كب كيك) مزينة على شكل كرة قدم - ويأتي الناس لمشاهدة المباراة معنا، ولكن في ذلك العام اقتصرت المأدبة على طبق كبير من البسكويت المملح، لكنني كنت راضية على أية حال، فيكفي أننا استطعنا أن نتجمع، فقد خرجنا من هذه المناسبة بحفل، وشجعنا وهتفنا وصرخنا ونحن نتابع المباراة على التلفاز، وتبارى الأولاد لإظهار من أكثرهم إجادة في تصنع أسخف رقصة على طريقة المشجعين.

حتى كريستوفر كان موجودا بشكل ما، حيث لم تستطع فيليس

إحضاره بالسيارة كما كان مخططا؛ لذا اتصل به جيك، وفتح مكبر الصوت في الهاتف، وظل معنا على الهاتف طوال اليوم، وتخيل هو ومايكل أنهما يتصافحان عبر الهاتف تعبيرا عن الانتصار، بل وفتح كريستوفر من جانبه كيسا من البسكويت المملح، حتى نسيت بعد فترة أنه لم يكن معنا في الواقع .. لقد كان يوما رائعا.

بعدها بفترة قصيرة، تلقيت خطابا رسميا من بلدية كيركلين يحمل مزيدا من الأخبار السيئة.

ذكر الخطاب أن مبنى المركز الترفيهي الخاص بنا يشكل خطرا، وأن البلدية ليس أمامها خيار سوى هدمه.

أغلقت عينيّ ورأيت كرة هدم تترنح داخل ملعب كرة السلة الذي كنا نحلم ببنائه، أما الصدمة الكبرى فكانت في عدم اكتفائهم بتدمير المبنى، بل ومطالبتهم أيضا بدفع أموال نظير فعل ذلك، وبينما كنت أقف في مكاني وأنا أمسك بالخطاب وما زالت عيناي مغلقتين، قلت لنفسي *لا يمكن أن يكون هناك أسوأ من ذلك*.

بعدها بأسبوع، كنت على استعداد لبذل أي شيء للتراجع عن تلك الفكرة.

ملائكة غيورة

في أواخر فبراير؛ تلقيت اتصالا من صديقتي ريتشل تخبرني فيه أن أفتح التلفاز.

قلّبت عيني يمينا ويسارا، ثم قلت: «لا أرجوك.. أهناك المزيد من الأخبار السيئة؟»، متوقعة أن أشاهد إغلاق مصنع آخر، ما سوف يسبب حسرة لشخص آخر نعرفه، لكني توقفت عن قول هذه النكتة المريرة عندما لم أسمع شيئا سوى البكاء في الهاتف.

فتحت التلفاز على قناة الأخبار المحلية وشاهدت هذه الكلمات تمر ببطء عبر الشاشة: «خبر عاجل: طالب من مدرسة سبرينج ميل الابتدائية يلقى مصرعه دهسا تحت عجلات حافلة مدرسية»، وعلى الرغم من مشاهدتي لاسم الطالب وعرض صورته المدرسية على الشاشة، لم أصدق أنهم كانوا يتحدثون عن كريستوفر.

لقد أنزلته الحافلة المدرسية في ساحة انتظار السيارات بالمدرسة، وليس على الرصيف الذي اعتاد كريستوفر النزول عنده، وما حدث هو أمر معلوم مثير للرعب لأي والد أو والدة

طفل مصاب بالتوحد؛ إذ إن كريستوفر أصبح مشوشا بسبب تغير المكان، وحاول أن يشق طريقه بين السيارات المتوقفة إلى مدخل المبنى الذي يعرفه جيدا، وأثناء قيامه بذلك، سار في مسار أخرى مخصص للحافلات، حيث صدمته حافلة مدرسية.

لا أتذكر بقية ما حدث في ذلك اليوم على الإطلاق، فقد كنت مصدومة، ولا أعلم كيف كنا سنخبر جيك بالأمر؟!

عندما دخل جيك المنزل، كانت هناك مجموعة من السيدات من جيراننا ومن برنامج الأنشطة الرياضية في غرفة معيشتنا، كلهن يقفن بشكل شبه دائري حول التلفاز، وكانت نارني تبكي وهي تمسح على ظهري، لكني كنت لا أزال مذهولة غير قادرة على الحركة أو الكلام.

سألنا جيك: «هل كان هناك حادث حافلة؟»، بينما كان يتفحص وجه كل واحدة منا بحثا عن دلائل.

حينها ظهرت صورة كريستوفر المدرسية على الشاشة مرة أخرى، وكأنها كانت بمثابة الإجابة.

شاهدتُ وجه جيك الذي استوعب الأمر، حينها ألقى جيك بنفسه على الأريكة مصدرا صوتا لم أسمعه من أي إنسان آخر، ولا أتمنى سماعه مرة أخرى.

ظلّ جيك قابعا في مكانه تحت وسائد الأريكة لساعات.

في النهاية؛ أخرجته أنا ومايكل من مكانه، ثم توجهت أنا وجيك بالسيارة لرؤية فيليس، كانت تربطنا بفيليس علاقة وثيقة للغاية حتى إنني لم أكد أطرق باب منزلها حتى وجدنا أنفسنا بالداخل، وجدتها جالسة بلا حراك في غرفة المعيشة، لا تزال مرتدية رداء الحمام وشبشبا كانت ترتديهما ذاك الصباح، وبينما استمر جرس الهاتف في الرنين، أخذ جيك إحدى يديها، وأخذت أنا الأخرى، وجلسنا نحن الثلاثة معا بدون حديث معظم تلك الليلة.

إن حزن جيك على فقدان أعز أصدقائه جعل حالة التوحد الذي يعاني منها أكثر وضوحا، كان حزنه شديدا للغاية ومستحوذا عليه ما جعلني أعتقد أنه لم يعد لديه القدرات العاطفية للتعامل اجتماعيا على النحو الذي طالما تعامل به أغلب الوقت، فلم يعد لديه مكانا سوى لعاطفة واحدة، ألا وهي الحزن، كما أن حقيقة أنه يمكن للآخرين أن يتعاملوا مع الحزن، وطريقتهم في ذلك، تجاوزت حدود إدراكه.

فمثلا؛ كان جيك في حالة صدمة حقيقية بسبب سلوك المعزين في الجنازة، بالطبع كان الأسى مهيمنا على الوضع في الغرفة، ومع ذلك؛ كانت هناك مائدة للطعام كما جرت العادة، حيث كان

المعـزون يعـدون أطباقا لأنفسـهم ثم يجلسـون لتناولهـا معا، كان ذلك، بالنسـبة لي ولجميع الحاضرين تقريبا، بمثابة إشارة ترحيب بالجميع، وبأشخاص مقبلين على الحياة حتى في ظل هذه المأساة المروعة، لكن كان ذلك الأمر غير مفهوم بالنسبة لجيك.

إن فكـرة أن يكون لدى أي شـخص مكانا لشـيء آخر سـوى الحزن – كأن يشـعر المرء بهذه الخسـارة الفادحـة ثم يتناول قطعة دجـاج، أو أن يسـأل عـن أحوال أحفاد شـخص ما في المدرسـة- كانت غير متقبلة بالنسبة لجيك.

جلس جيك في طابور استقبال المعزين مع فيليس معظم فترة مـا بعـد الظهيرة، متقبلا التعـازي كأحد أعضاء العائلـة التي أصبح واحدا منها.

قـال جيـك أثنـاء عودتنا للمنزل بالسـيارة: «لم أكـن أعتقد أن الملائكـة تغـار»؛ لـم أفهـم: «مـا الذي تتحـدث عنه يـا حبيبي؟ إن الملائكة لا تغار».

فأجابنـي: «أعتقـد أنهـم يغـارون، فقـد جـاءوا وأخـذوا أعـز أصدقائي لأنهم أرادوا اللعب معه».

بعدمـا دفنّا كريسـتوفر، شـعرت وكأنّ الصمت قـد خيّم على العالـم، ولـم أسـتطع أن أجعـل عقلي يتقبل فكـرة أن هـذه الروح الوديعة المبتهجة قد رحلت.

بدا الأمر مستحيلا ومخالفا لكل مبدأ في الطبيعة.

عندما استيقظتُ في الصباح، كنت أنسى لبضع لحظات ثمينة أن هـذا النـور قد انطفأ، ثم ما ألبث أن أسـترجع ما حدث، فينتابني الألـم من جديد.

بعـد مضـي بضعة أسـابيع؛ تلقيت في منزلي رسـالة من رجل يدعى تشـيب مان، قال فيها إنه مهتم بترميم بعض المنازل القديمة في كيركلين، وأنه يرغب في التحدث إلينا بشأن منزلنا.

كانـت مشـاعري مخـدرة عندمـا ذهبـت بالسـيارة لمقابلتـه، فالمناظـر الطبيعيـة ذات التـلال المتموجـة التي طالمـا جلبت لي السـكينة والبهجة تبدو الآن جدباء وبشـعة حينها فهمت ما يقصده الناس بقولهم إنهم يشعرون وكأنهم ميتون من الداخل.

توقفـت أمام المبنـى، وبمجرد أن خرجت من السـيارة، تقدم نحوي رجل طويل ذو شـعر رمادي وعينين زرقاوين ثاقبتين، ومد يده لمصافحتي؛ أعطيت مفاتيح المبنى إلى تشيب دون أن أنظر في عينيه، وقلت له: «يمكنك الدخول، لكن لا يمكنني التجول بداخله معك، لا أستطيع تحمل ذلك».

وبينمـا هـو يغيب عـن بصري، قلـت: «*لقد انتهـى الأمر، هذه نهاية الحلم بالنسبة لهؤلاء الأطفال*».

وعقب خروجه، قال تشيب بنبرة حاسمة: «سأعطيك ألف دولار»، لقد كان ذلك جزءا ضئيلا للغاية من المبلغ الذي دفعناه ووضعناه في المبنى، لكن هل عندي خيار آخر؟ ألف دولار أفضل من الدفع للبلدية للقيام بهدم المبنى، كما أن مواردنا المالية ظلت مدة طويلة صعبة للغاية، لدرجة أن هذا المبلغ الزهيد بدا وكأنه ثروة كبيرة.

فجأة انهمرت في البكاء؛ كنت واقفة في منتصف الطريق أمام رجل التقيت به منذ بضع دقائق، وقد تناثرت دموعي على وجهي، وبدون قصد أو حتى تفكير أخبرته عن جميع خططنا بشأن المبنى، أخبرت تشيب وأنا أبكي كيف تحدثنا أنا ومايكل لسنوات عن بناء مركز ترفيهي للأطفال المصابين بالتوحد مثل ابني جيك، وكيف وضعنا فيه كل مال نملكه.

أخبرته عن رغبتنا في جعل: «مركز جاكوب» مكانا آمنا لهم؛ حيث يمكنهم فيه أن يكونوا على طبيعتهم، كما أخبرته أننا فقدنا مؤخرا أحد هؤلاء الأطفال، والذي كان مميزا للغاية.

أخيرا، قلت: «آسفة»، وأنا أمسح وجهي بقدر استطاعتي: «أعتقد أنني لست في أصعب ظروف حياتي حاليا».

نظر تشيب إلي لفترة طويلة، ثم أمسك ذراعي وبدأ بالسير نحو

مبنى تجاري آخر قديم في الجهة المقابلة مباشرة من الطريق، وكان هناك آثار حريق في المبنى، الذي كان متهالكا مثل منزلي.

قال لي: «أنا أملك هذا المبنى أيضا»، «هل تخبرني أنني إذا أنشأت ملعبا لكرة السلة هنا، فسوف تجدين أطفالا يلعبون فيه؟".

أومأت برأسي؛ لأنني كنت لا أزال أشهق.

«حسنا إذن، سنفعل ذلك، سأقوم ببناء مركز جاكوب ."

كان تشيب مقاولا ناجحا؛ حيث استخدم فطنته التجارية في إنشاء سلسلة من الأنشطة التجارية المزدهرة التي نشّطت كيركلين.

مكثت فترة طويلة غير مصدقة أن ذلك كان حقيقيا، لقد كان الأمر بمثابة دعاء استُجيب.

في ذاك الربيع، شرع العمال في أعمال الإنشاء.

في مارس حصل مايكل على وظيفة في شركة: «تي موبايل»، ما جعلنا جميعا نتنفس الصعداء، على الأقل سيمكننا ذلك من تأمين لقمة العيش، وبعد ذلك، وعقب مضى أشهر على رفضنا لكل عروض المقاولين التي تلقيناها، أرسلت لنا شركة التأمين شيكا عن الأضرار التي لحقت بالمنزل القديم، لكنه كان أقل بكثير من المبلغ الذي كان من المفترض أن نحصل عليه -كان المبلغ الذي قرره محقق التأمين بالكاد يكفي لإصلاح الأرضية- لكن لم

يكن لدينا أي خيار في هذا الأمر، وشعرنا على الأقل أننا نسير على الطريق الصحيح.

ورغم ذلك؛ لم نكن قد خلصنا بعد من ذاك الشتاء الرهيب، فقد زعم المقاولون الذين استأجرناهم أنه يجب عليهم العيش في المنزل كي يقوموا بالعمل مقابل هذا المبلغ الزهيد، وبالفعل انتقلوا إلى هناك بصحبة كلابهم المرعبة؛ لذلك لم نتمكن أبدا من دخول المنزل لنرى كيف كانت تسير الأمور، وانتهى بهم الأمر بسرقة أول دفعتين من المال قمنا بدفعهما لهم، وأخذوا كل شيء في المنزل استطاعوا إزالته، مثل: تركيبات الإضاءة، ومقابض الأبواب، وأغطية أنابيب التدفئة، وخزائن الملابس التي اشتريناها بدلا من التي فقدناها في الفيضان، ثم رحلوا بعدما أشعلوا النار في المرآب.

لقد كانت ضربة مدمرة، لا سيما بعدما ظننا أن الأمور بدأت تتحسن.

في ذلك الوقت؛ كان فصل الصيف قد بدأ رسميا، ومع ارتفاع درجة حرارة الطقس؛ انتشر العفن في المنزل. قررت أنا ومايكل أن نحاول القيام بالعمل بأنفسنا، وكنا نشتري أرخص المواد الموجودة ببطاقات شركة لويز، وندبر أمورنا قدر ما نستطيع، كما نشر مايكل الخبر لجميع أصدقائنا على الفيسبوك: «رجاء ساعدونا، نحن

مضطرون لإصلاح المنزل، فإن كانت لديكم أية مهارات، فمن فضلكم تعالوا وساعدونا».

يوم السبت التالي؛ حضر مئات الأشخاص، كانوا جميعهم تقريبا آباء لأطفال قمت بمساعدتهم على مدى سنوات عدة في الحضانة وليتل لايت وبرنامج الأنشطة الرياضية، كان الأمر أشبه بتشييد حظيرة على الطراز القديم، فقد أحضر الأشخاص أدواتهم الخاصة بالإضافة إلى أشياء عثروا عليها في الطوابق السفلية لمنازلهم، والتي ربما يمكننا استخدامها، مثل: الخزائن والأضواء والطلاء كما أحضر بعضهم أصدقاءهم معهم - «هذا جاري ويدعى، آل، وسوف يقوم بكل أعمال اللياسة لديكم» -، كما وقاموا أيضا بكشط الجدران ووضعوا عليها ألواح جبس جديدة، وأحضروا سجادا جديدا وقاموا بفرشه، وبينما كان هذا الجمع المذهل يعيد بناء منزلي، كنت أبكي وأنا أوزع عليهم شرائح البيتزا والقهوة والكعك المحلّى.

بعد مضي شهرين، توجهت إلى كيركلين لأتفقد التقدم المحرز في المركز الترفيهي، وهناك التقيت بالمصادفة مع تشيب في الشارع، فقال لي: «عليك القدوم لرؤية منزلك القديم يا كريس، ولن تصدقي أبدًا ما وجدناه هناك».

أخذني تشيب هناك ليريني العمل الذي قام به، بالكاد صدقت

عيني، فالطابق الثاني الذي كان يشبه قاعة معلقة على الجزء الخلفي للمبنى، تم ترميمه بالكامل وأصبح رائعا، ومع أني كنت أملك هذا المبنى لم أجرؤ على العودة إلى هناك؛ لأنه كان مخيفا جدا، قام تشيب بالقفز لأعلى ولأسفل ليريني أن السير على الأرضية آمن، لقد كانت جميع القطع الخشبية، رغم تضررها، عتيقة وجميلة للغاية؛ لذا اتخذ تشيب قرارا بعدم هدم الطابق الثاني، بل ترميمه.

لقد استأجر عمالا لإنقاذ كل تلك القطع الخشبية المعوجة، ثم قام بإعادة ثنيها وصنفرتها لإعادة رونقها السابق.

ثم قال: «هل تعلمي ما وجدوه عندما بدؤوا في صنفرة كل طبقات الطلاء في تلك الأرضيات القديمة؟».

«وجدوا خطوطا مرسومة»؛ إذ كانت تلك الغرفة، في وقت ما من تاريخ هذا المبنى، تضم ملعبا لكرة السلة، انتابتني حينها حالة هائلة من الذهول، أخبرني تشيب أنه عندما رأى هذه الخطوط للمرة الأولى، جثا على ركبتيه: «عندما رأيت هذه الخطوط، لم يساورني أي شك، لقد شعرت كأنها علامة تشير إلى أنه يفترض بي أنِ أقوم بإنشاء مركز ترفيهي لهؤلاء الأطفال في كيركلين».

ابتسمت حينها ابتسامة كبيرة، لم أبتسم مثلها طوال الشتاء، بينما كنت عائدة إلى المبنى الآخر على الجهة المقابلة من الطريق،

لقد شـعرت بالطبع أنها علامة، وكأن كريسـتوفر هناك في السـماء ينظر إلينا، ويخبرنا أنه يرغب في أن يلعب أصدقاؤه.

واضح ومؤكد

«شيتوس أم شيبس؟».

إن الأمر الجيد بشـأن صبي في العاشرة من عمره هو أنه مهما كان مهووسا بمحاضرات الفيزياء الكهرومغناطيسية التي يحضرها فـي الوقت الراهن، إلا أنه دائـم الاهتمام بنوعية الوجبات الخفيفة التي سيتشاركها مع والدته أثناء فترة الاستراحة.

بعدما أصبح جيك في الصف الخامس، كانت النوعية الوحيدة مـن الأسـئلة التي أسـتطيع إجابته عليها هى أسـئلته عـن الوجبات الخفيفة.

حضر جيـك جميع الفصول الخاصة بعلـم الفلك في جامعة إنديانـا بيـردو إنديانابوليـس، بـل حضر بعضهـا عدة مـرات ومنها فصول الدكتور بيل، وحينما أدركنا جميعا أنه قد آن لجيك المضي قدما؛ اقترح البروفيسور رودز أن جيك قد يرغب في حضور فصل عن الفيزياء الكهرومغناطيسية.

كان جيك راغبا في الأمر- بل شغوفا به- أما أنا فقد كنت تائهة تماما.

بـدأ البروفيسـور ماركـوس بيتانكـورت فصلـه الأسـبوعي بمحاضـرة افتتاحية، بعدها كان الطلاب يقسـمون إلى مجموعات صغيرة لحل معادلات على السـبورات البيضاء التي تحف القاعة، وفـي النهايـة يجتمعون مرة أخـرى لتلقي محاضـرة ختامية، وكان فصلا مسائيا، وقد توهمت أن تقسيم الفصل بهذه الطريقة سيشجع الطـلاب علـى البقاء مسـتيقظين، لكن للأسـف، لم تناسـبني هذه الاسـتراتيجية؛ فقـد اسـتعصت علـيّ المفاهيـم الأساسـية خـلال المحاضرات، وكانت المعادلات على السـبورة تبدو أكثر تعقيدا، ومع كامل الاحترام للدكتور بيتانكورت، لكنني بدأت أحضر معي كتابـا لأقرأه في الفصل، وفي النهايـة؛ توقفت تماما عن الحضور، لكن جيك كان سعيدا للغاية، ما جعلني واثقة أنه لن يسيء التصرف.

قبـل انتهـاء هـذا الفصل بأسـبوعين تقريبـا؛ أخبرنـي الدكتور بيتانكورت أن مشاركة جيك داخل الفصل بدأت تتراجع، فلم يعد جيك يُولي المحاضرات اهتماما كبيرا، ولم ينضم إلى باقي الطلاب الآخرين أمام السبورة أثناء قيامهم بالسرد الأكاديمي، مفضلا بدلا من ذلك البقاء في مقعده والقراءة باهتمام شـديد، وكلما سـنحت لجيك الفرصة؛ كان يمطر الدكتور بيتانكورت بوابل من الأسـئلة، كان من الواضح أن ذهنه أصبح منشـغلا بأحد المفاهيم التي كانوا يدرسونها، ويبدو أنه غير قادر على تجاوز الأمر والمضي قدما.

لقد كانت جميع أسئلته متعلقة بالضوء وكيفية انتقاله في الفضاء.

بعدما استنفد جيك القدرات العلمية للأساتذة في جامعة إنديانا بيردو إنديانابوليس - وربما صبرهم -؛ كان عليّ توسيع نطاق البحث عن استفساراته، ومرة أخرى، وجدت نفسي أقوم بإجراء محادثة هاتفية، لدعم جيك عن طريق طلب مجنون؛ فلقد تواصلت مع الدكتور أليكسي فيليبينكو في جامعة كاليفورنيا، بمدينة بيركلي، والدكتور فيليب بايندر في جامعة هاواي، بمدينة هيلو، وبدأت كلتا المكالمتين بالطريقة ذاتها: «أرجوك، أرجوك، لا تغلق الخط، أنا لديّ ابن يبلغ من العمر عشر سنوات...».

عليك أن تدرك كم كان ذلك الأمر خارجا عن نطاق المألوف، ولم تكن عندي أي تجربة سابقة مع علماء الفيزياء الفلكية العالميين، ومع ذلك؛ فقد أزعجت هؤلاء العلماء المشهورين بمكالمتي؛ لأن جيك كان لديه سؤال لم يستطع أساتذته الجامعيين الإجابة عليه، ولعل الأمر الأكثر لفتا للنظر هو أن هذين العالمين أصبحا أصدقاء جيك ومن بين الداعمين الأكثر تحفيزا له.

كانت إجاباتهما تحل بشكل مؤقت أي مشكلة مستعصية على جيك، لكن جيك الذي كان مثل النار المشتعلة التي تأتي على الأخضر واليابس لم يجد شيئا يزيد من اشتعاله.

في أوائل عام ٢٠٠٩، تلقيت مكالمة من الدكتور جى. آر. راسل من جامعة إنديانا بيردو إنديانابوليس، سألني خلالها عما إذا كان بإمكاننا أن نتقابل.

إن أمر الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة في الحضانة جعل من الصعب عليّ العثور على شخص يمكنه تولي مسؤوليتهم إذا كنت بحاجة للانصراف لأمر ما؛ إذ إن بعض الأطفال كانوا معرضين للخطر بشكل بالغ، فمثلا؛ أحد هؤلاء الأطفال، ويدعى تاي، كان يتغذى عن طريق أنبوب تغذية؛ لذا كان يجب تدريب أحد المساعدين على طريقة تغييره.

بجانب الحضانة؛ فتحنا منزلنا لاستقبال عدد من أطفال الأسر التي تمر بأزمات من خلال برنامج تابع لكنيستنا يسمى: «أطفال آمنون»، وهو نظام كفالة مجاني للعائلات التي تصاب بمحن بشكل مؤقت، فمثلا؛ قمنا برعاية طفلة صغيرة لأم عازبة احتاجت إلى إجراء عملية جراحية، وكذلك أخ وأخت من عائلة فقدت منزلها أثناء فترة الركود ولم ترغب أن تودع أطفالها في ملجأ.

كانت كفالة الأطفال فكرة مايكل، فبعد أن تمكنّا أخيرا من بيع المنزل القديم، كان مايك ممتنا للغاية لاستطاعتنا الوقوف على أقدامنا من الناحية المادية مجددا؛ لذا بدا من الطبيعي أن نتساءل

عن الطريقة التي نستطيع من خلالها مساعدة الأشخاص الذين يعانون ماديا، وكنت مؤيدة لفكرة الكفالة بشكل مطلق.

كنّا نملك الكثير من الحب لنهبه للآخرين، وجعلتني كفالة الأطفال أشعر أننا نحسن استخدام منزلنا الكبير والجميل لغرض نافع، وفقط بعدما بدأنا في استقبال الأطفال بالمنزل، شعرتُ أنه قد أصبح لديّ الحق في العيش فيه، وتمكنّت أخيرا من طلاء غرفة المعيشة باللون الخوخي الذي كنت اخترته عندما كنت طفلة.

كانت كفالة الأطفال تجربة رائعة لجميع أفراد عائلتنا، وكان يعني الأمر الكثير بالنسبة لي ولمايكل عندما يدرك أولادنا شعور العطاء تجاه أشخاص محتاجين، وكم كان من الرائع أن أرى أولادي في هذا الإطار الجديد.

إن صبر جيك، وصراحة ويسلي وروحه السمحة، وهدوء إيثان الرزين واللطيف، كانت صفات معلومة لنا جيدا، لكن رؤية مدى السهولة التي أعطوا بها من تلقاء أنفسهم ومدى المتعة التي شعروا بها في المقابل جعلني سعيدة أكثر من سعادتي بأي شيء كان يمكننا شراؤه.

لكننا لم نكن نتخيل مدى فقر البيئات التي قدم منها بعض الأطفال الذين مكثوا معنا قبل أن نلتقي بهم، وأتذكر أن جميع أفراد عائلتنا أشاحوا بنظرهم في وجوم رهيب وقلوبهم حزينة، عندما قام

صبي صغير لم يسبق له رؤية مرحاض داخل منزل، بفتح باب المطبخ المنزلق واستخدم الفناء الخلفي لقضاء حاجته - لكنه كان محبوبا واستوعب الأمور بسرعة -.

وما بين مركز الحضانة والأطفال المكفولين، كان مجرد خروجي من المنزل خلال تلك الفترة يستلزم تخطيطا كبيرا، لكن في صباح لقائي مع الدكتور راسل، سارعت إلى إعادة ترتيب الأشياء، وتذكرت أن أرتدي بلوزة نظيفة وأضع بعضا من ملمع الشفاه، ثم توجهت إلى الجامعة.

صراحة؛ كان القلق هو انطباعي الأولي.

لقد حضرنا عديدا من الفصول الدراسية في جامعة إنديانا بيردو إنديانابوليس، لكننا لم ندفع مقابل أي منها؛ إذ كنا نعتمد على كرم الأساتذة الجامعيين الذين من الواضح أنهم لم يمانعوا في تواجد جيك وتواجدي في فصولهم، بل على العكس تماما، لكن من كان يدري عن القادم؟ كان هناك شيء واحد واضح: لم يكن باستطاعتنا تحمل تكاليف حضور هذه الفصول إذا توجب علينا دِفع ثمنها.

أصبح وضعنا المالي أفضل من ذي قبل، لكن ليس بالقدر الذي يمكّننا من تسديد ديوننا، ولم تكن هناك طريقة يمكننا من

خلالها دفع تكاليف فصل جامعي جديد، فضلا عن تكاليف الفصول التي تلقاها جيك بالفعل.

لكن نظرا لأني شخصية إيجابية بطبعها؛ فقد راودتني أفكار أكثر سعادة عندما كنت في منتصف طريقي للجامعة.

ظننتُ أنهم ربما يريدون منحه عددا من الساعات المعتمدة مقابل حضوره الفصل الأخير الخاص بعلم الفلك، وفوق ذلك كله، كان قد أدى الاختبارات مع الأطفال الآخرين.

ألن تكون هذه بداية جيدة إذا كان هذا الطفل ذو العشر سنوات لديه ثلاث اعتمادات جامعية في حوزته؟

عندما أوقفت السيارة؛ فكرت أن هذا الأمر إما أن يسير بشكل جيد للغاية أو بشكل سيء للغاية، وبغض النظر عن الطريقة التي سارت بها الأمور، كنت أعلم أننا سنجد طريقة تقدم لجيك ما يحتاجه.

اتضح فيما بعد أن الدكتور راسل كان يدير برنامجا يسمى SPAN «البرامج الخاصة للرعاية الأكاديمية».

لقد سمع من الأساتذة في الجامعة عما كان يقوم به جيك، واعتقد أن برنامجه، الذي يسمح لطلاب المدارس الثانوية

الموهوبين بشكل استثنائي بالتسجيل في الفصول الجامعية، سيكون مناسبا لجيك.

قال لي: «نود أن يتقدم جاكوب بطلب التحاق لجامعة إنديانا بيردو إنديانابوليس من خلال البرنامج".

وفي الوقت الذي كان كل ما يمكنني فعله هو التحديق في الفراغ؛ قدم الدكتور راسل عرضه بصورة أوضح: «هل نفكر في إخراج جيك من المدرسة الابتدائية وإرساله إلى الكلية؟».

جزء ما بداخلي كان يظن أن الأمر برمّته كان مزحة، ولم أكن لأتفاجأ لو أن شخصا ما خرج من وراء أحد الرفوف المكتبية بكاميرا فيديو خفية.

نعم، لقد كنت مقتنعة لفترة أن المدرسة الابتدائية لم تكن بالضرورة أفضل مكان لجيك، ونعم، كان جيك يحضر تلك الدورات الجامعية، لكنني كنت أعتبرها هواية، على النحو الذي يتعامل به بعض الأطفال بجدية مع الباليه أو الجمباز أو كرة القدم.

وبالنسبة لي، كان الوقت الذي قضيناه في الجامعة مجرد تسلية، رغم كونها تسلية غير عادية.

«أنت تعلم يا دكتور أنه في العاشرة، أليس كذلك؟»، لم أستطع أن أتمالك نفسي عن طرح ذلك السؤال.

ضحك الدكتور راسل، قائلا: «نعم، نحن نعلم جيدا كم عمره».

في الوقت الذي كان الدكتور راسل يشرح لي عملية التقديم للجامعة، كان عقلي يزدحم بالأفكار، فإذا كانت لدينا رغبة في ذلك الأمر، كان أمامنا الكثير لنقوم به، سيحتاج جيك بداية إلى إجراء بعض الاختبارات الرسمية، أولها أداء تقييم لتحصيله الدراسي الحالي، وسنحتاج إلى أن ندعم بالوثائق ما يفيد بأن جيك يستطيع المكوث ساكنا طوال مدة المحاضرات دون أن يحتاج إلى مساعدة من أحد، كما يتعين علينا تجميع خطابات التوصية من الأساتذة الجامعيين الذين درس جيك في فصولهم.

وبينما أوصلني الدكتور راسل إلى خارج مكتبه؛ اعتذرت له بسبب حالة الارتباك التي كنت فيها، ثم جلست على كرسي في الممر خارج باب مكتبه مباشرة، فقد كنت بحاجة للتفكير في الطريقة التي سأنقل بها هذا الخبر لمايكل.

كنت أنا ومايكل قد تحدثنا من قبل عن إخراج جيك من المدرسة الابتدائية، أو بالأحرى كنت أنا من تحدث عن ذلك، وفي كل مرة كنت أرى جيك ضجرا أو ألاحظ عليه علامة إحجام؛ كنت أبدأ في التحدث إلى مايكل بشأن تعليم جيك في المنزل، ومن الواضح أن جيك لم يحصل على ما كان يحتاجه، وشعرتُ أننا

مدينون له باستكشاف خيارات أخرى، ألم يكن من الأجدى بالنسبة له أن يتعلم أثناء النهار بدلا من قضاء ليله في القراءة؟

ومع أني أمتلك قدرة على الإقناع عندما ينتابني شعور جارف تجاه شيء ما، فإني لم أتزوج شخصا يوافق على الأشياء بسهولة وتلقائية، لقد رأيت الكثير من الأزواج يتجادلون حول أشياء مثل نوعية أكياس الشطائر التي يجب شراؤها، ولم يحدث أن تشاجرت أنا ومايكل بلا داع بشأن الأشياء التافهة، لكن هذا لا يعني أننا لم نختلف، وفيما يتعلق بموضوع المدرسة، كان مايكل عنيدا ومتصلب الرأي، وكان يفتخر بقدرته على منح أطفاله نوعية الطفولة التي كان يحلم بها عندما كان صغيرا، ولم يكن إخراج جيك من المدرسة العامة وتعليمه في المنزل جزءا من رؤيته تلك، وبشكل أكثر تحديدا، شعر مايكل أن قدرة جيك على تكوين صداقات والحفاظ عليها سوف تتدهور، فكان قراره أن جيك سيبقى في المدرسة الابتدائية، وهذا أمر غير قابل للنقاش.

لكن بمرور الأعوام؛ أصبح من الواضح أن المدرسة الابتدائية لم تكن بيئة مثالية لجيك، ومع ذلك، كنت مدركة أن مايكل ليس لِديه استعداد لتغيير رأيه؛ حينها بدا الأمر كما لو أننا سنخوض في هذا النقاش مرة أخرى.

شعرت كما لو أنني شخصيا لست مقتنعة بالأمر تماما،

وتخيلت أن رد فعلي التلقائي سيكون موافقتي لمايكل، ولكن قطعا لا، مستحيل.

لم يكن هذا مجرد تعليم منزلي، كان هذا تعليما جامعيا، لكن بدت فكرة التحاق جيك بالجامعة سخيفة، فالمنطقة التي نقطن بها لم يكن التعليم الجامعي منتشرا بها، كما أن معظم الأشخاص هنا يتزوجون فور تخرجهم من المدرسة الثانوية، والغالبية منهم يتوجهون للعمل في أحد المصانع أو في صناعة السيارات، ومع أنني ومايكل قد تلقينا تعليما جامعيا، إلا أننا نعمل في قطاع الخدمات، مثل معظم جيراننا.

وقد حدث أمر زاد من ارتباكي، فبينما كنت منتظرة عند إحدى إشارات المرور الحمراء في طريقي إلى المنزل، شاهدت رجلين مشردين يصرخان بشراسة في وجهي بعضهما، مما ذكرني أنني لم أفكر بعد في كيف سنتأكد من أن جيك سيكون في مأمن، لن أستطيع جعل طفلي يتجول بمفرده بين الفصول داخل حرم جامعي في وسط المدينة.

غير أنني لم أستطع أيضا أن أوصد الباب كليا أمام احتمالية الالتحاق بالجامعة، لم تكن لديّ نية في ذلك الوقت لإخبار جيك بهذه الفرصة، فقد كنت أعلم أنه سيتشبث بهذه الفرصة للذهاب

إلى الجامعة، لكن كان علينا أنا ومايكل الاتفاق أولا على الإجراء الأمثل.

ظللت طيلة ذلك اليوم أسير ذهابا وإيابا وأنا أفكر، وعندما عاد مايكل إلى المنزل في المساء، جلسنا سويا تحت بطانية في الشرفة، نشاهد الأولاد يلعبون مع بعض أصدقائهم في ملعب لكرة القدم على الجانب الآخر من الشارع، وكان من بينهم صديق جيك «لوك»، الذي كان مثل نجم كرة القدم الذي لا يشق له غبار، وقد عزز التفاوت بين حجم أجسامهما من أن مجرد التفكير في عرض الدكتور راسل هو ضرب من الجنون.

سألت مايك: «هذا الأمر سخيف، أليس كذلك؟».

فقال: «بالتأكيد، إنهم مجانين؛ فطفل في العاشرة من عمره لا يمكن أن يذهب إلى الكلية».

وافقته الرأي: «انظر إليه، إنه حتى ليس بحجم طفل عادي يبلغ من العمر عشر سنوات، هذا الطفل لا يمكنه الذهاب إلى الكلية».

بالطبع، لم يكن حجمه هو المشكلة الرئيسية؛ بل تطوره الاجتماعي.

كيف سيكوّن صداقات؟ وماذا سيعني ذلك الأمر بالنسبة

لأصدقائه الحاليين؟ والأهم من ذلك، ماذا سيعني ذلك لطفولته؟ وكلما قلّبت هذه الفكرة في رأسي، كانت تبدو أكثر جنونا.

نعم، كان جيك ذكيا، لكن ألا ينبغي أن تتاح له فرصة للمشاركة في جميع الأنشطة المعتادة بالمدرسة الثانوية؟ هناك فارق كبير بين تخطي فصل دراسي واحد، وبين تخطي سبعة فصول - وهو أمر يبدو مبالغا فيه للغاية -.

قد يبدو ما سأقوله سخيفا، لكن كان من الصعب عليّ تقبل فكرة أنه لن يقام لجيك حفل تخرج من الثانوية، وكان أيضا من أكثر الأمور التي يجب أن أتقبلها على مضض، عندما كان جيك مستغرقا للغاية في حالة توحده؛ هو إدراكي أنه قد لا يجد أبدا الفتاة التي تحبه وتدعمه، تلك التي تشاركه حياته، على النحو الذي تلاقينا به أنا ومايكل.

علمت من أصدقائي أن إقامة علاقات رومانسية لم تكن دائما سهلة بالنسبة للمراهقين والشباب المصابين بالتوحد، - وهذا ليس سهلا أيضا بالنسبة للأشخاص الطبيعيين! -؛ ونظرا لأن جيك قد خرج من عزلته، فقد كنت آمل أن يكون قادرا على العثور على الإشباع العاطفي في حياته، ولسبب ما كان لديّ ارتباط عاطفي بفكرة ذهابه إلى حفلة التخرج الراقصة، ولطالما تخيلت التقاط صورة لجيك مع رفيقته قبل أن يتوجها إلى الحفلة الراقصة، وهي

تمسك بباقة الورد الصغيرة التي اشتراها جيك لها لتناسب لون فستانها المميز.

كان مايكل قد اتخذ قراره: يجب أن يبقى جيك في المدرسة الابتدائية

جزء ما بداخلي كان يتفق معه، لكن في نفس الوقت لم تفارق مخيلتي صورة جيك وهو محشور بين أرفف مكتبتنا، كنت أعلم أن حضوره كمستمع في الفصول الجامعية قد أخرجه من هذا الحيّز، وكنت أشاهده في كثير من فترات بعد الظهيرة وهو يعبث بقلم الرصاص ويحدق خارج النافذة بينما كان صديق الدراسة الذي كان جيك يساعده يجتهد لحل صفحة من مسائل الكسور، لم تسعني إلا المقارنة بين جيك الخامل وجيك المتقد نشاطا الذي كان يتحاور ويتناقش مع الدكتور بيل في نهاية كل محاضرة عن علم الفلك.

بالفعل لم يكن الأطفال الآخرون يلتحقون بالجامعة في سن العاشرة، لكن جيك لم يكن كالأطفال الآخرين.

لم أستطع تقبل فكرة أنني ومايكل لدينا أهدافا متناقضة.

بينما كنت أقوم بطيّ الجوارب كان جيك يحل مسائل الرياضيات وهو يجلس بجواري في كومة من الغسيل الذي كان لا يزال دافئا، كنت أتعجب من هذا الشعور الجارف، ربما لأنني

قضيت وقتا أطول مع جيك أكثر مما قضاه مايكل معه، فلم يكن مايكل موجودا في فترات الظهيرة عندما كان جيك يتوسل لي ليتعلم الجبر، ولم يكن في الجامعة عندما كان جيك يثير دهشة هؤلاء الأساتذة الجامعيين، وبسبب ما رأيته، أدركت أن ابننا كان عالما، أما بالنسبة لمايكل فكان جيك مجرد طفل صغير.

لم نكن لنخرج من هذا الوضع المعلّق بدون مساعدة؛ لذا حان الوقت للحصول على تقييم موضوعي.

في أغسطس ٢٠٠٩؛ أخذت جيك لإجراء مجموعة من اختبارات التحصيل مع الدكتور كارل هيلي، أخصائي علم النفس العصبي.

وكالعادة ذهبت إلى الموعد مع جيك، لكنني قللت بشكل كبير من المدة التي ستستغرقها الاختبارات. جلست في غرفة الانتظار الفارغة لمدة أربع ساعات ونصف، بعدما كنت قد انتهيت بالفعل من قراءة الكتاب الذي أحضرته معي، وكذلك المجلة التي وجدتها في حقيبتي، وعندما نظرت من النافذة الوحيدة في الغرفة، كان بإمكاني رؤية محطة وقود على بعد مبنيين، وبعد مضي بضع ساعات، وجدت نفسي أنظر إليها بشغف، وأتطلع للذهاب إلى هناك لاحتساء فنجان قهوة وقراءة مجلة أخرى، لكنني لم أستطع

المغـادرة، فلم أكن أعرف كم تبقى من الوقت أمامهم، ولـم أرغب في أن لا أكون متواجدة عند خروج جيك.

عندها ظهر جيك أخيرا، بدا وكأنه قضى وقتا رائعا.

قـال الدكتـور هيلي، الذي بدت عليه علامـات الإعجاب، إنه سـيقدم لنـا تقريرا رسـميا في غضون أسـبوع تقريبـا، وكانت نتائج جيك مرتفعة للغاية، لا سيما في الرياضيات والعلوم.

ثم قام الدكتور هيلي بفعل شـيء مثير للفضول، سـألني كيف كانت تجربتي الخاصة في غرفة الانتظار؟ أجبته مازحة بذكر شيء عن حشوة الكراسي، لكنه كان جادا.

أراد أن يعـرف كيـف كان حالـي عقـب انتظـاري كل تلـك السـاعات الطويلـة في تلك الغرفـة الفارغة، وعندمـا صارحته في النهاية بمدى شعوري بالضجر والضيق، قال لي شيئا غير رأيي إلى الأبد.

«الآن أنت تعرفين كيف يبدو شعور جيك أثناء تواجده داخل فصل بالصف الخامس، إن تواجده في مدرسـة عادية يشـبه قيامك بالتحديق خارج النافذة، وتطلعك بشغف لاحتساء فنجان قهوة في مِحطـة الوقـود، إن أسـوأ قـرار يمكنـك اتخـاذه هو إبقـاء ابنك في المدرسـة العاديـة؛ إنه في غايـة الضجر، وإذا أبقيته هناك، فسـوف تقضين على كل ذرة إبداع لديه».

لقد كنت مفزوعة من فكرة أن أيام جيك الدراسية تحمل تشابها مع تلك الساعات المملة التي قضيتها في تلك الغرفة، وبشكل فطري، كنت أعلم أن الدكتور هيلي على حق، وسأبقى دائما ممتنة له على بذله لقصارى جهده لتوضيح وجهة نظره بطريقة خلاقة.

في المعتاد؛ لم تكن غرفة الانتظار مجردة من الأشياء كما بدت، لكن بعدما علم الدكتور هيلي أننا كنا متفاوتين في الرأي حيال مسألة إرسال جيك إلى الكلية، قام بتجريد الغرفة من المجلات ووسائل التسلية الأخرى قبل وصولنا.

عندما وصل تقرير الدكتور هيلي بعد أسبوع أو أسبوعين، كانت توصياته واضحة تـ ماما.

حصل جيك على ١٧٠ درجة في اختبار ويشلر الأساسي: الاختبار التحصيلي في المهارات الأكاديمية، الذي يقيس مهارات عديدة في القراءة والإملاء والرياضيات، في حين أن درجات الطالب العادي تتراوح بين ٩٠ و١٠٩، والمتفوق بين ١١٠ و ١٢٤، والموهوب بين ١٢٥ و ١٣٠، أما الدرجات التي تزيد عن ١٥٠ فيندرج صاحبها تحت فئة الطلاب العباقرة، علاوة على ذلك؛ اعتقد الدكتور هيلي أن درجة العمليات العددية لجيك، والتي تقيس مهاراته في الرياضيات الحسابية، ربما كانت أعلى من

١٧٠، لكن لا يمكن احتسابها بسبب «سقف الدرجات»؛ فمائة وسبعون نقطة هي أعلى درجة يمكن منحها لطفل في عمر جيك في هذا الاختبار.

كانت نتيجة تقرير الدكتور هيلي أنه: «ليس في مصلحة جاكوب إجباره على إكمال الأعمال الأكاديمية التي أتقنها بالفعل، بل هو بحاجة إلى العمل على مستوى أعلى، وهو مستوى الدراسات العليا في الرياضيات، أي درجة الماجستير، إن مهاراته في الرياضيات تضاهي في الأساس مستوى شخص يحضر درجة الدكتوراه في الرياضيات، أو الفيزياء، أو علم الفلك، أو الفيزياء الفلكية».

كانت هذه هي النتيجة، وكانت واضحة تماما.

لم يكن هذا رأيي، بل نتيجة تقييم موضوعي لأحد الخبراء، ومفادها أن جيك ينتمي إلى الجامعة.

في الواقع؛ كان الدكتور هيلي ينصح بالانتقال مباشرة إلى الدراسات العليا، ولكن لم يكن هذا هو الوقت المناسب لنتجادل بشأن تفاصيل صغيرة.

أخذت نفسا عميقا وأحضرت التقرير لأريه مايكل.

«ليس في مصلحة جاكوب..» مكتوبة بخط واضح ومؤكد وعريض وتحته خط.

قرأ مايكل النتيجة بصوت عال وباستغراب.

أومأت برأسي، بينما هو كان لا يزال يهز رأسه، فيما بدت على وجهه ملامح القبول والإذعان، فأدركت أن الباب الموصد قد انفرج قليلا، وذلك بفضل الدكتور هيلي.

عقب وصول التقرير، أخبرنا جيك في النهاية بعرض الدكتور راسل، وكما توقعنا، تلألأ وجه جيك كأنه شجرة عيد الميلاد، وقال: «هل يمكنني الذهاب للجامعة؟ أرجوك يا أمي، هل يمكنني الذهاب للجامعة؟».

كان مايكل حينها مستعدا لإجراء حوار، لكنه لم يكن مقتنعا تماما، فلقد جادلتُه بأن ذهاب جيك إلى الكلية في سن مبكرة لا يمكن أن يضر بفرصه المستقبلية، بل يمكن فقط أن يحسّنها.

لقد كان جيك متقدما على زملاء فصله، حتى في برنامج الموهوبين في المدرسة الابتدائية، وحتى لو التحق جيك بالجامعة وأخفق، وحتى لو لم يتعلم أي شي، أو لم يكتسب أي صديق، فيمكنه العودة فورا والالتحاق بالمدرسة الإعدادية مثل أي شخص آخر، ومن المفارقات؛ اتضح أن سن جيك الصغير قد قلب الاحتمالات لصالحه.

قـال مايـكل متذمرا: «أنا بعيد جدا عـن منطقة الراحة الخاصة بي، ولا يمكنني حتى رؤيتها من هنا».

لكنـه لـم يعتـرض عندمـا مضيـت أنا وجيـك قدما فـي طلب الالتحاق بالجامعة.

تخطي فصل دراسي واحد - أو سبعة فصول

منذ تلك اللحظة؛ سارت الأمور بوتيرة متسارعة، وما إن أدركت كم كان جيك يشعر بالملل؛ لأننا بلا دراية حصرنا عقله النشط المتنامي المتقد ذكاء في صندوق صغير جدا، حتى بدت الكلية وكأنها الخيار الوحيد، ورغم أن إقناع مايكل كان بمثابة عقبة كبيرة، فقد كان التقديم للالتحاق بالجامعة في حد ذاته عقبة أخرى، وأراد الدكتور راسل أن يعرف ما إذا كان بمقدور جيك المكوث طوال مدة محاضرة طويلة دون أن يسيء التصرف.

تلقى جيك دروسا بالجامعة على مدى عامين دون حدوث مشكلة واحدة؛ لأنني عادة كنت أجلس بجواره، لكن هذه المرة ينبغي على جيك القيام بذلك بمفرده.

كان أحد مدراء المدارس الثانوية قد أحضر أطفاله إلى الحضانة عندما كانوا صغارا؛ لذا فهو يعرف أولادنا جيدا، وعندما أخبرته عن هذا التحدي، اقترح أن يتيح لجيك حضور حصة في مادة الرياضيات، كانت مخصصة للمراجعة لإعداد الطلاب لأداء

امتحان نهاية الفصل الدراسي في حساب التفاضل والتكامل، لم أكن متأكدة كيف كانت ستسير الأمور، وكان لدى جيك قدرة جيدة على الجلوس هادئا، لكنه لم يتلق مطلقا تعليما رسميا في الرياضيات سوى الكسور في الصف الخامس، بينما كان الطلاب سيراجعون دروس فصل دراسي كامل يعد أصعب مقرر رياضيات في نظام المدارس العامة بولاية إنديانا.

كان الموعد المحدد لهذه الحصة بعد أسبوعين، وشرحت الموقف لجيك، قائلة: «لا تقلق؛ لست بحاجة إلى معرفة حساب التفاضل والتكامل، كل ما يريدونه هو رؤية تصرفاتك، وكل ما عليك فعله هو أن تكون قادرا على الجلوس بشكل جيد طوال مدة الحصة».

نظر إليّ جيك وقال: «لن أجلس هناك إذا لم أعرف ما الذي يحدث».

تنهدتُ، وقلت بالطبع لن تفعل.

أراد جيك كتبا مدرسية، فاشتريناها له، ثم جلس في شرفة منزلنا الأمامية تحت أشعة شمس الربيع وتعلم اللغة الاصطلاحية لِكل من الهندسة، والجبر، والجبر المتقدم، وحساب المثلثات، والتفاضل والتكامل، لقد تعلم كل ذلك بنفسه وفي أسبوعين فقط.

وقد اكتشفنا فيما بعد أن جيك تمكن من معرفة المبادئ

الأساسية للرياضيات من تلقاء نفسه، فكما يمكنك فهم مبدأ الجمع دون أن تعرف ما هي علامة الجمع، استطاع جيك أن يطور نظامه الخاص لحساب التفاضل والتكامل، غير أنه لم يكن يعرف كيف يقوم بتدوينها حتى يتمكن علماء الرياضيات الآخرون من فهمها.

أدىّ جيك مع بقية الطلاب الاختبار النهائي في حساب التفاضل والتكامل واجتازه بتفوق، في الحقيقة، كان جيك هو الشخص الوحيد في الفصل الذي استطاع الإجابة على سؤال الدرجات الإضافية، وهو سؤال صعب للغاية لدرجة أن المعلم طلب منه التقدم وكتابة الشرح على السبورة.

عندما ذهبت بالسيارة في ذلك اليوم لإحضاره عقب الاختبار النهائي؛ وجدته محاطا بمجموعة من طلاب المدارس الثانوية المعجبين به، والذين كانوا جميعا يفوقونه طولا.

ورغم تجاوز هذه العقبة، كان لا يزال أمامنا الكثير لاستكمال متطلبات التقديم في البرامج الخاصة للرعاية الأكاديمية (SPAN).

أخبرني جيك ذات ليلة على العشاء أنه وجد الموقع الإلكتروني للمدرسة الثانوية التابعة لجامعة إنديانا. قال لنا: «أريد التسجيل في برنامج المستوى المتقدم الخاص بتاريخ الولايات المتحدة»، وأخبرناه بموافقتنا، ثم أتى إلينا بعد أسبوعين بطلب آخر، فقد كان يوجد بالجامعة مركز للاختبارات المُحَوسَبة حيث يمكنه إجراء

اختبار CLEP (برنامج امتحانات المستوى الجامعي)، المصمم لمساعدة طلاب الجامعات على اختبار مستواهم في المواد التي يكونوا على إلمام بها، مما يسمح لهم بالاستفادة من نظام الساعات المعتمدة دون الحاجة إلى إهدار الوقت والمال في أخذ دورات دراسية في تلك المواد، أراد جيك اختبار مستواه في دورة تاريخ الولايات المتحدة التي درسها عبر الإنترنت.

وفي عطلة نهاية الأسبوع التالية، توجهنا إلى الحرم الجامعي، سألتني السيدة الواقفة خلف مكتب الاستقبال التابع لإدارة برنامج CLEP ما إذا كان بإمكانها مساعدتي، قلت: «نعم، نحن نوّد إجراء اختبار المستوى المتقدم في تاريخ الولايات المتحدة، من فضلك».

فسألتني في حيرة «نحن؟".

"حسنا، أعني ابني، في الحقيقة".

"أنا آسفة يا سيدتي، لكن يجب أن يكون متواجدا هنا للتسجيل في الاختبار، أنت لا يمكنك أداء الاختبار بدلا منه".

وبينما نظرت كلانا إلى الأخرى بحيرة، فإذا بصوت صغير يقول: «أنا هنا في الأسفل!".

وقفت السيدة وأمعنت النظر من فوق حافة المكتب، حيث كان جيك يضحك ويلوّح لها بيديه. فقالت: «أوه! أهلا".

لم يكن لدى جيك أي بطاقة هوية تحمل صورته الشخصية، مثل بطاقة طالب أو رخصة قيادة -تساءل جيك: «هل يمكن لبطاقة المكتبة أن تفي بالغرض؟» -؛ لذا اضطرت السيدة الاستعانة بمديرها كي يخصص له رقم تسجيل لدخول الاختبار، واستغرق الأمر بعض الوقت من الموظفة لجعل النظام يسمح له بأداء الاختبار، غير أنه بدا واضحا أنها كانت مفتونة بفكرة إجراء هذا الطفل الصغير الاختبار جنبا إلى جنب مع الطلاب الأكبر سنا، وفي النهاية وجدت الحل.

وأتذكر أنني عندما كنت أتفقد جيك، كنت أرى رجليه الصغيرتين تتأرجحان تحت الكرسي بينما كان يقوم بالنقر على الفارة لحل الأسئلة، انتظرنا بينما كان الكمبيوتر يقوم بتقدير الدرجات، وكما هو متوقع اجتاز جيك بنجاح اختبار تاريخ الولايات المتحدة في صباح ذاك اليوم.

حينها ابتهج جميع الموظفين في إدارة برنامج CLEP كما لو أنهم كانوا يعرفونه طيلة حياته.

كان ذلك بمثابة دافع كبير لجيك، فلجأ إلى الإنترنت وبدأ في أخذ جميع الدورات الدراسية التي استطاع العثور عليها، وكان في نهاية كل أسبوع يذهب إلى الجامعة لإجراء اختبار، في النهاية؛ كان عليّ أن أتحدث معه؛ إذ إن تكلفة إجراء اختبار واحد في برنامج

CLEP تبلـغ حوالـي ٧٥ دولارا، ورغـم أن هـذا مبلـغ ضئيل جدا مقارنـة بتكلفـة دورة دراسـية واحـدة، فإننـا لـم نتمكـن من تحمل تكاليـف إجـراء اختبـار واحـد كل أسـبوع، لكننا توصلنـا إلى حل وسط: أن يجري اختبارا واحدا كل أسبوعين.

أذكر أن امتحان علم الفلك كان عجيبا بصفة خاصة، فقد أخذ جيك خمسـة عشـر دقيقة فقط للإجابة على الامتحان البالغة مدته ساعتين، وحصل في النهاية على نتيجة شبه ممتازة.

كان موظفـو إدارة برنامـج CLEP -وهـم حينهـا كانـوا قـد أصبحوا أصدقاء لجيك- مذهولين للغاية من هذا الأمر.

بمجـرد أن انتهينـا مـن جميـع الطلبـات الموجودة فـي قائمة الدكتور راسـل، أرسلت تقارير جيك، والتي شملت اختبار الذكاء وتقييـم الدكتـور هيلـي وملاحظات الأسـاتذة الذيـن حضر جيك كمستمع في فصولهم، وجميع درجاته في برنامج CLEP بالإضافة إلى ملاحظة من مدرس مادة التفاضل والتكامل بالمدرسة الثانوية أكد فيها أنه بمقدور جيك الجلوس هادئا طوال مدة المحاضرة.

بعد بضعة أسـابيع؛ تلقـى جيك خطاب قبولـه بالجامعة، مما جعله يقفز في الهواء مبتهجا، ولـم يمض وقت طويل، حتى اتصل بنا الدكتور راسل لإجراء مقابلة ترحيب موجزة.

فـي يـوم المقابلـة؛ كلّفـت جيـك بإحضـار بعـض العمـلات

المعدنية لوضعها في عداد موقف السيارات؛ ذلك لأنه كان يحب وضع العملات الصغيرة في العداد، ولفرط حماسه، جلب عددا هائلا من تلك العملات، حتى أصبحت جيوبه ممتلئة بها، لكنها وعندما جلس على الكرسي أمام مكتب الدكتور راسل، سقطت جميعها على الأرض، ولم يستطع جيك التركيز إلا بعد أن قام بالتقاط العملات ووضعها في جيوبه، وما إن عاود الجلوس مرة أخرى حتى تساقطت جميع العملات، وأخذت تتدحرج في كل ناحية محدثة صخبا فظيعا، وكي لا يعوقه شيء، بدأ جيك يلتقط العملات بيديه من على مشمع الأرضية ويضعها في قبعة البيسبول التي يرتديها، ولكن العملات ما لبثت أن سقطت من خلال الفتحة الموجودة في الجزء الخلفي للقبعة.

امتدّ أمر العملات الكارثي لفترة طويلة جدا، وكأنه مشهد هزلي بلا نهاية لفرقة المهرجين الثلاثة الكوميدية، ولو لم تكن هذه هي مقابلة ابني الشخصية للقبول بالجامعة، كان يمكن لهذا الأمر أن يبدو مضحكا، وظلّ الدكتور راسل يحاول تسليم جيك قبعة بيسبول وحقيبة ظهر تحملان شعار SPAN (البرامج الخاصة للرعاية الأكاديمية)، لكنه لم يستطع جذب انتباه جيك، الذي كان منشغلا بتتبع العملات المتناثرة حول مكتبه، وفي نهاية المطاف، وبعد أن استطاع جيك إحكام سيطرته على معظم العملات، أعطاه الدكتور راسل حقيبة الظهر والقبعة، بالإضافة إلى علم مثلث

الشكل دونت عليه عبارة «نمور جامعة إنديانا بوردو-جامعة إنديانابوليس» ليعلقه على حائط غرفته، استمر جيك، الذي أصبح يرتدي القبعة المدون عليها شعار SPAN، في تعقب العملات المعدنية في كل ناحية متجها خارج القاعة.

كانت المقابلة برمتها كارثة حقيقية، وعندما وضع الدكتور راسل يده على ذراعي، انقبض قلبي بشدة.

قال لي: «بناء على ما رأيناه هنا اليوم، أعتقد أننا يجب أن نبدأ الفصل الدراسي الأول ببطء، بثلاث ساعات معتمدة»، «لنكن منصفين تجاه جيك ونتيح لمهاراته الاجتماعية وطول قامته فرصة للحاق بالآخرين».

كان خبر عدم استطاعة جيك إلا الالتحاق بفصل دراسي واحد فقط أثناء الفصل الدراسي الأول محزنا للغاية، خاصة بسبب قيامنا بإخراجه من المدرسة الابتدائية، وقد لمت نفسي على ذلك.

كنا عادة نقوم بعمل تدريبات قبل مواجهة أي موقف جديد، لكن من كان يستطيع أن يتنبأ بتساقط العملات المعدنية؟ أما جيك فقد كان مذهولا بالطبع، إذ كان بإمكانه رؤية الأرض الموعودة، لكنهم لم يسمحوا له بالدخول.

ورغم إقراري بعدم نضج جيك؛ لم أكن متأكدة من أن إعاقته عن التقدم في مسيرته كان أمرا منصفا.

كـون أن ملامـح جيك لا تـزال تبدو كطفل صغيـر، وكونه لم يحـرز نجاحا باهـرا في المقابلة، فإن فترة الثلاثة أشـهر لن تحدث فرقا كبيرا في طول قامته أو في أي شيء آخر.

ومع هذا، سجّل جيك في الدورة الدراسية الوحيدة التي سمح له بتلقيها، وهي دورة تمهيدية في الرياضيات متعددة الأبعاد، وكم كنـت مذهولـة عندما قلّبت صفحـات الكتاب المقرر لهـذه المادة للمـرة الأولـى؛ فقد كان الكتاب يحتوي على الأشـكال الهندسـية التـي كان جيـك مهووسـا بها منـذ أن كان طفلا صغيـرا، إنه أمر لا يصـدق أن أفتح كتابا جامعيا لأجـد أن مضمونه يمثل الاهتمامات التي تشـغل بال طفلـي الصغير، وفي مخيلتي، كنـت دائما أصنف الأشـكال التـي يصـنعها جيك فـي نفس فئة لعبتـي التركيب والبناء «الليجو» و»لينكولن لوجز» - اللتين كان يستخدمهما أحيانا في بناء أشـكاله الخاصـة -: قطـع الألعـاب الصغيـرة المسـلية التي تسـد المكنسة الكهربائية وتؤلمني عندما أطأها بقدمي وأنا حافية.

بحلول المحاضرة الثالثة؛ كان جيك قد كون مجموعة دراسة وكان يقوم بتعليم الطلاب الآخرين في الفصل، كما أراد منه الأستاذ الجامعـي أن يشـترك في أحـد أنديـة الرياضيـات الخاصة بطلاب المـدارس الثانويـة، والـذي كان يديـره صبـاح أيـام السـبت، وهو معسكر تدريبي لأولمبياد الرياضيات.

أخذت جيك هناك في أحد أيام السبت حتى يمكنه معرفة كيف كان يبدو الأمر، معتقدة أنه ربما سيلتقي ببعض الأطفال الذين يشعر بالانسجام معهم، وقد دقت أجراس التنبيه في الوقت الذي كان الأستاذ الجامعي يريني ماكينة تحضير القهوة ويشير إلى الطريق المؤدي إلى مكتبة الكلية، وبعد خمس ساعات، أدركت أن نادي الرياضيات هذا يعني أن يتخلى جيك عن كل يوم سبت لكي يجلس في فصل دراسي بالطابق السفلي غير جيد التهوية مع مجموعة أطفال للقيام بحل مسائل رياضيات.

أنا أعشق تقاليدنا الخاصة بعطلة نهاية الأسبوع، حيث تخرج العائلة بأكملها لتناول الفطائر في إحدى الأماكن الصغيرة التي تقدم وجبات فطور متأخر، ثم نذهب إلى المركز الترفيهي أو البركة المقابلة لمنزلنا، أو إلى منازل جيراننا لإقامة حفل شواء بعد الظهيرة، وعندما يكون الجو باردا، نذهب إلى المكتبة ونمتع أنفسنا بقراءة الكتب الجديدة وتناول الشوكولاتة الساخنة بالكريمة المخفوقة في المقهى، أو نصنع البسكويت في المنزل وندعو الأصدقاء للعب إحدى ألعاب الطاولة.

بدا هذا الوقت مهما جدا بالنسبة لي بمجرد أن ترك جيك المدرسة الابتدائية، وكان الحفاظ على الصداقات التي كوّنها هناك

على رأس أولوياتنا، وكان هؤلاء الأطفال طلقاء في عطلات نهاية الأسبوع.

لذلك عندما ذهبت لاصطحاب جيك، استجمعت قوتي لإخباره أنه قد لا يشارك في هذا النادي مرة أخرى، لكنه سبقني إلى ذلك، حيث بادرني وهو يركب السيارة قائلا، «كان ذلك رائعا، لكنني لا أعتقد أنني بحاجة لفعل ذلك مرة أخرى».

كان جيك قد عثر على نموذج مسألة من أولمبياد الرياضيات على الإنترنت في الليلة السابقة وبقي مستيقظا حتى الساعة الثانية صباحا محاولا حلها من أجل الاستمتاع، ولم يكن ذلك يمثل تحديا بالنسبة له، ولم يكن يريد أن ينتزع الفوز من الأطفال الذين كانوا يجتهدون في المذاكرة للمشاركة في المسابقة:

«إنهم جميعا يحاولون جاهدين يا أمي، لذا لن يكون ذلك عدلا».

لقد كنت فخورة جدا بجيك في تلك اللحظة، بل أكثر فخرا مما لو كان فاز بميدالية فيلدز، وهي أرفع جائزة عالمية في مجال الرياضيات.

علم جيك أنه سيحقق انتصاراته الخاصة في العالم، وأدرك أن هذا الانتصار لم يكن له.

نظرية أصيلة

نظرا لاقتصار جدول جيك في ذلك الفصل الدراسي على ثلاث ساعات معتمدة وفصل رياضيات تمهيدي، فقد وجد نفسه فجأة في فراغ كبير.

كان مايكل، الذي كان يشك بأننا أضعنا مستقبل جيك بالكامل، يجدنا جالسين على مائدة الإفطار معا، بينما ويسلي وإيثان وكل الأطفال الآخرين في الحي مشغولون بارتداء ملابسهم للذهاب إلى المدرسة والنزول باتجاه موقف الحافلة.

لم يكن مايكل يستطيع مقاومة رغبته في مضايقتي قليلا فكان يقول: «يبدو أنك تنفذين برنامجا شاقا هنا يا كريستين»، ثم يستدير إلى جيك ويقول: «ألا ينبغي أن تكون معك الآن حقيبتك ودفتر أو شيء من هذا القبيل؟».

وكنت أرد: «مايكل، إنه يتناول إفطاره، ولا حاجة لحقيبة كي يفعل ذلك».

فكان مايكل يهز رأسه وهو يهم بمغادرة الحجرة متمتما

بعبارة: «الناس لا يرتدون أحذية منزلية على شكل ضفادع وهم ذاهبون إلى المدرسة».

في النهاية، كنت ألتفت إلى جيك وأقول: «أخبرني، ماذا ستفعل اليوم؟».

فكان يقول شيئا مثل: «ما رأيك في ثقوب سوداء عملاقة؟».

لم أكن قلقة لحال جيك؛ فقد كان الجميع بما فيهم مايكل يدرك أن عقل جيك لا يتوقف أبدا عن التفكير، وحتى عند استرخائه مع إخوته بجوار حوض السباحة، كان يفكر في ميكانيكا الموائع، كما حظي تعليمه بدفعه صاروخية بفضل تطبيق آي تيونز يو - وهو سلسلة من ملفات البودكاست الصوتية الرقمية المتاحة من خلال مشغل آي تيونز -.

يحاضر في تلك المحاضرات المجانية أساتذة من أرقى الجامعات مثل: ستانفورد، وييل، وهارفارد، ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وجامعة كاليفورنيا في بيركلي، وأكسفورد، ويتناولون بالشرح مئات الموضوعات بداية من اللغات إلى شكسبير وحتى الفلسفة، وكانت هناك محاضرات عن النسبية، والنسبية الخاصة، ونظرية الأوتار، وميكانيكا الكم،

وبمعنى آخر: أي شيء يمكن أن يريده طالب متسرب من التعليم الابتدائي ومهووس بالفيزياء الفلكية.

كان جيك عنيدا ومنجذبا إلى هدفه؛ فكان بمجرد انتهائه من الإفطار يجلس أمام الكمبيوتر ولسان حاله يقول: «بما أنهم لم يدعونني أذهب إلى جامعة إنديانا بيردو إنديانابوليس هذا اليوم، حسنا، سأذهب إلى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا».

كانت مسألة كيفية انتقال الضوء من خلال الفراغ قد بدأت تكتسب زخما وانتشارا، وهو المفهوم الذي جذب خيال جيك خلال متابعته لفصل الدكتور بيتانكورت، وكان جيك بالفعل خبيرا بالنسبية والنسبية الخاصة، لكن المحاضرات أضافت إلى بحثه ومكنته من التوغل في تلك الموضوعات بصورة أعمق من السابق، لقد كانت شراهته للمعرفة تشبه محركا عملاقا، يقوده لاستقصاء واستخراج أكبر قدر من المعلومات يستطيع أن يضع يده عليه ليملأ بها رأسه بنهم كبير، وبدا وكأنه لا يستطيع تحمل إضاعة ولو ثانية واحدة من وقته الثمين، ومرة أخرى أقول، كان عليّ أن أذكّره بأن يأكل ويستحم ويلعب، ولم تكن المشكلة في كيفية إقناعه بفعل الشيء، بل في كيفية إقناعه بالتوقف.

تركزت رغبته الكبرى في أن يشارك الآخرين ما يشعر به من

حماس وإثارة هائلة تجاه كل الأشياء التي كان يتعلمها، فبينما أكون مشغولة بمشاهدة برنامج ألين دي ديجينيريس، وترتيب المطبخ في الوقت الذي يأخذ فيه أطفال الحضانة قيلولة ما بعد الظهر، أجد جيك يأتي ليصادر التلفاز، ثم يوصّله بالكمبيوتر المحمول الخاص به، ويجرني حتى نصل إلى الأريكة كي يريني المحاضرة التي شاهدها ذلك الصباح، وكان عادة يقول: «حان وقت قصة الرياضيات والعلوم مع أمي!».

كنت أرجوه قائلة «لا يا حبيبي، لا أريد مشاهدة شيء عن الكيمياء العضوية، هل يمكن مشاهدة أي شيء آخر غير الكيمياء العضوية؟» -وكأن نظرية الأوتار ستكون محببة وأفضل بالنسبة لي! -، وأحيانا كان يصل إلى حد الاستغراق الشديد في المشاهدة فأستطيع التسلل لأفرغ غسالة الصحون، لكن غالبا كنت أظل عالقة في هذه الجلسة، ومخي يتألم من شدة الصداع، بينما جيك يشخبط بعصبية في دفتره.

كنت أحب ممازحته بإخباره بأن هذا الأمر يعذبني، لكن الحقيقة أنني كنت أعتز بتلك الجلسات التي كانت تجمعنا في أوقات العصر، وقد أذهلتني تلقائيته الشديدة عندما يتولى دور

المعلم، فلم يكن هناك شيء أحبّ إليه من الوقوف بجوار سبورته الصغيرة البيضاء وتعليمي ما كان يتعلمه.

كنت أقول له: «جيك، اشرح الأمر لي وكأنني شخص ثقيل الفهم»، فكان يفعل ذلك بتفصيل كل فكرة على حدة ببطء ووضوح، رغم شدة تعقيدها، حتى أفهمها، ورغم ضعف موهبة الاستيعاب أو انعدامها لدي كمتلقية، كان يتمتع بصبر لا نهاية له خلال عملية الشرح، فقد كان واضحا مدى حبه لهذا الأمر.

كان أحد الأطفال في الحضانة، وهو صبي اسمه نوح، يعتقد أن جيك هو مركز الكون، ولم يكن يحب شيئا أكثر من الجلوس على الأرض عند قدمي جيك، رافعا قدميه في الهواء وهو يشاهد جيك يباشر حل مسائل الرياضيات، وحتى عندما كنت أضطر للتوسل إلى جيك كي يأخذ قسطا من الراحة أو يتناول شطيرة أو يستحم، كان دائما يجد وقتا ليشرح لنوح الفرق بين المثلثات حادة الزوايا ومنفرجة الزوايا، وكيفية قياس محيط أي دائرة وقطرها، وقد ساعدتني رؤية جيك مع نوح في إدراك السبب الذي حفز جيك على تعليم الآخرين، وهو، بكل بساطة، شغفه بالموضوع.

يشق على كثيرين تفهم ذلك، لكن جيك يعتقد بصدق أن

الرياضيات والعلوم هما أجمل شيئين على وجه الأرض، فكما ينفعل الفنان بحماس مع التصعيد الموسيقي، ويحبس عاشق القراءة أنفاسه منبهرا بعبارة متقنة الصياغة، كان هذا يشبه وقع الرياضيات على نفس جيك، فهذا الصبي يحلم بالمكعب رباعي الأبعاد ثماني الخلايا والمكعبات ذات البُعد الرابع، وقد أدركت أن الأرقام والمفاهيم الرقمية تشبه الأصدقاء بالنسبة لجيك؛ إذ تتكون كلمة السر الحالية لجهاز الآي باد الخاص به من سبعة وعشرين حرفا، تتشكل من أرقام وصيغ رياضية يحبها، وفي كل مرة يكتب كلمة السر هذه، يبدو الأمر بسيطا وكأنه يُحيي صديقا له في احتفال، ودائما ما أقول له: «جيك، أنت لا تفهم حقيقة الأمر، الرياضيات تخيف الناس، وتخيفني أنا أيضا».

أعتقد أن هذا سبب تفانيه الشديد في سحق ما يطلق عليه: «الخوف المرضي من الرياضيات» متى واجهه، فهو يعتقد بصدق أنني لو عُلِّمت الرياضيات بأسلوب مختلف، فسأحبها بنفس قدر حبه لها.

كلما أصبحت متعبة، ورأسي تدور من الأرقام، كان جيك يتحدث إلى الكلب، فبما أنه لم تكن لديّ أدنى فكرة عما يمكن أن يشعر به جيك جراء تجربة ترك المدرسة الابتدائية، ولأنني

أردته أن يعرف أن هناك كائنا آخر - غيري - سيكون بجواره طوال الوقت، أحضرت له جروا من فصيلة سانت برنارد وأطلق عليه اسم: (إيجور).

باختياري هذه الفصيلة من الكلاب، وجدت أنني ورطت نفسي في شيء يفوق كثيرا توقعاتي، كان إيجور يأكل كميات كبيرة من الطعام بشراهة، فأخذ ينمو وينمو حتى فاق جيك حجما، وكل يوم كانت المكنسة الكهربائية تشفط شعرا بحجم كلب بأكمله، وكان مايكل يتساءل وهو يغير كيس المكنسة الكهربائية أكثر من مرة: «كيف لم يصبح هذا المخلوق أصلعا؟».

أما في الربيع؛ عندما كانت تمطر كثيرا في إنديانا، كنت أمسح أرضية المطبخ، وأعود لأمسحها مرة أخرى بعد خمس دقائق.

كان إيجور وجيك متلازمين، وبدأت أتقبل الكلب العملاق كقطعة ثابتة في المطبخ، حيثما كان جيك يحب حل مسائل الرياضيات، وكان إيجور يجلس هناك يشاهد، وقد أمال رأسه وارتسمت على وجهه نظرة ذكية، بينما المعادلات تنهمر من جيك.

كنت ممتنة للغاية لولاء الكلب واهتمامه، حتى إنني لم أكن

أتضايق من سيلان لعابه، ولطالما استمتعت نارني بهذا المشهد، فكانت تقول: «في هذا المنزل، الكل يدرس الفيزياء الفلكية حتى الكلب»، وكان كلانا يرى أن إيجور يستوعب أكثر من أي واحدة منا.

لم يمثل انجذاب جيك لتعليم الآخرين مفاجأة لنارني، التي كنتُ - والحمد لله - أعول عليها في تعطيل تلك الجلسات التعليمية الملحمية بقدح من الشوكولاتة الساخنة، وذات مرة علّقت على هذا الأمر بقولها: «طوال حياته، كان عليه أن يشرح للناس أسلوب تفكيره؛ فما الفرق بين هذا وتعليم الآخرين؟».

كانت نارني محقة في ذلك، كما هو شأنها دوما، لكني أيضا كنت أعتقد أن دافع جيك لتعليم الآخرين كان يحركه نفس الشيء الذي جعلنا نذهب إلى الجامعة في المقام الأول، لقد أراد محادثة الآخرين؛ فالرياضيات لغة أجنبية بالنسبة لغالبية الناس، وكان جيك متلهفا لمحادثة الآخرين بلغة الرياضيات؛ لذا كان حله يتمثل في تعليم من حوله «ليتحدثوا» الرياضيات، وربما أرضت المحاضرات التي قام بتنزيلها حاجته الكبيرة للتعلم، لكن إن لم يستطع جعل تلك المفاهيم مفهومة للآخرين، فمعنى ذلك أنه عجز عن التحدث معهم.

للأسـف، كان عالقا معي ومع إيجـور، وكلما تعمق أكثر في المادة العلمية، اتضحت بصورة أكبر حاجته لعدد أكبر من الرفقة في طريق المحادثة يفوق ما كان يمكن أن يعطيه لكلينا.

ذات ليلـة، وبينمـا كنـت وجيـك نتنقل بيـن قنـوات التلفاز، توقفنا عند فيلم يسـمى: «أنا سـام»، كان شـون بين يؤدي في هذا الفيلم دور رجل بالغ اسـمه سـام يعاني من إعاقة في النمو، وهو أب لبنت في الخامسة تعاني من نفس المشكلة، وفي مشهد مؤثر للغاية، تبدو الابنة وهي تقرأ لأبيها كتاب البيض الأخضر واللحم (*Green Eggs and Ham*) للدكتـور سـوس، وحينهـا يـدرك كلاهمـا أن البنت فاقت أباها فكريا، وما إن انتهى المشـهد، حتى وجدتني أتشـبث بيد مايكل بقوة شديدة لدرجة أن أظفاري أثرت في كفه، فقد اسـتطعت أن أتفهم ما شـعر به سام في هذا المشهد: خليط حلو ومر وغريب من الفخر والشعور بالتخلي.

كنـت فخـورة للغايـة بجيك وإنجازاتـه، وكثيرا مـا كنا نمرح معـا، لكننـا الآن مجددا في موقف لا يسـتطيع فيـه التحدث إلي، كان هنـاك سـبب وجيـه لذلـك هـذه المـرة، ورغـم أنني لـم أكن لأقايض ابني متقد الذكاء بأي أحد في العالم، كان هناك جزء مني

يشعر بشيء من الخيانة بسبب الجدول الدراسي المتسارع لجيك.

لا شك أن كل تلك الخطوات التقدمية التي يتخذها الأطفال نحو الانفصال والاستقلالية كنوم الطفل عند صديق له لأول مرة، وتعلّمه القيادة، وموعده الغرامي الأول، تهيئ آباءهم للاستقلال المحتوم أيضا، وقد كنت أستشعر بعضا من تلك الخطوات مع إيثان وويسلي، لكني لم أستشعر أيا منها مع جيك، بل حدث كل ذلك مرة واحدة، ولهذا السبب، كان جلوسي بجوار جيك على الأريكة وهو يشاهد محاضرة لأستاذ في جامعة برنستون أو هارفارد من الأمور الرائعة للغاية، وحتى عندما كنت أعجز عن استيعاب المفهوم الأساسي للمناقشة، كنت أدلك رأس ابني ذا الشعر المجعد، وأقضي بعض الوقت بجواره، وربما لم أستطع الانخراط في المحادثة، لكني كنت أستطيع القيام بدور الأم بالنسبة له، ولو لوقت قصير على الأقل.

بحق لقد كان هذا الفصل الدراسي الذي تغيب عنه جيك فترة مدهشة من الناحية الفكرية بالنسبة له؛ فقد وفر له وقتا لاستكشاف كل شيء أراده، وبالتعمق الذي كان يبغيه، مهتديا في

ذلك بفضوله الثري فقط، وقد بدا الأمر وكأننا أعطينا فرس سباق قوي إذنا بالركض الحر بعد سنوات من تقييده باللجام.

كان مايكل يمازحه بقوله: «تمهل يا فتى، هناك دخان يتصاعد من أذنيك»، لكن أحيانا كان الأمر يبدو تقريبا وكأننا نسمع دوي اشتباك الخلايا العصبية في رأس جيك وهو يعايش تجليا تلو آخر، وكل فكرة تشعل التالية.

كان يتمتع بروح متقدة، وكان كل شيء يشاهده أو يقرؤه أو يتعلمه بمثابة وقود يؤجج تحمسه للمعرفة.

كثير من أفكار جيك كانت عبارة عن معادلات طُورت وأثبتت بالفعل، وبعضها كان أصيلا من نتاج عقله، رغم أن عديدا من تلك المعادلات انطوت على أوجه قصور كان يكتشفها بعد يومين أو ثلاثة، لم يكن يشعر بإحباط أو غضب مرتبط بتلك الخطوات الزائفة، في الحقيقة؛ كان يتحرك بسلاسة شديدة حتى إن الانتكاسات لم يكن نلاحظ أثرها على وجهه، ربما كان يتتبع طريقا لم يكن يراه سواه، لكنه كان واضح المعالم بالنسبة له.

كانت تلك الحالة من الشرود الإبداعي تمثل حقيقته الأساسية، بينما بدت شؤون الحياة اليومية كفكرة فرعية.

كان جيك، دونما تحذير أو مقدمات، يلقي بنفسه من فوق

الأرجوحة الموضوعة في الحديقة بالجهة المقابلة من الشارع، ليركض إلى المنزل بأقصى سرعته، وهو غير قادر تقريبا على احتواء تسرب المعادلات التي تتدفق في عقله.

وأتذكر ذات ليلة أنه بعد تهربه من مائدة العشاء دون أن ينطق بكلمة، نقش سبورة بيضاء بشوكة طعام، لم يكن لينتظر حتى يبدل الشوكة بقلم؛ فقد كانت الأفكار تتدفق بسرعة وغضب شديدين.

كنت أعطيه دفترا ليحمله معه حتى يستطيع تعقب الأفكار، وهي استراتيجية لم تلق إلا نجاحا محدودا؛ إذ كان دائما يدون فكرة بعينها، فتخطر له فكرة أخرى، لينطلق في اتجاه آخر تماما.

في ذلك الفصل الدراسي؛ كان جيك شديد التركيز كما عهدناه دائما، لكن حدة تركيزه هذه كان يتخللها دوما إحساس بالاستمتاع والحماسة يُشعر من حوله وكأنه يلعب، وعندما ضاق الورق بالمعادلات المستفيضة التي كان يعمل عليها، شرع في استخدام أقلام السبورة ليكتب بها على نوافذ منزلنا، وكنت في أغلب الأوقات أقف في مدخل أي غرفة كي أرقبه بهدوء وهو يعمل.

كانت الرياضيات تتدفق منه بسهولة وسرعة بالغتين، حتى

بدا الأمر وكأنه يكتب شيئا يُملى عليه، أكثر من كونه يفكر بالفعل فيما ينبغي أن يأتي تاليا، وبدا القيد الوحيد له مدى السرعة التي يستطيع الكتابة بها.

تذكرت عندما كنت أشاهده هو وكريستوفر وهما يتباريان في تصويب الكرة على السلة، التي كانا يسعدان بلعبها لساعات، فلا يتوقفان إلا لتناول رشفة من المياه الغازية أو حفنة من البسكويت المملح.

كانت بعض رمياتهم تصيب، وبعضها يخطئ، وأحيانا كانا يتحدثان، وأحيانا يكون الصوت الوحيد بجانب الكرة المتقافزة صرير أحذيتهم الرياضية على الأرض، لكن عندما كان يكتب المعادلات والمسائل الرياضية على النوافذ، كانت هناك سهولة وانسيابية في ممارسة هذا النشاط، أعني إحساسا باستمتاع هادئ ومتمهل، وهو شيء أراه للمرة الأولى منذ وفاة كريستوفر، ولما رأته نارني علقت باندهاش قائلة: «إنه مستمتع».

في صباح يوم ما وبينما كنت أحتسي كوبا من القهوة في الغرفة الصغيرة التي كنا نتناول فيها طعام الإفطار أحيانا؛ دخل جيك، وتجاهل طبق الفاكهة، والتقط قطعة من خبز الكروسون من على المائدة، ثم جلس في حجري، وحدثني قائلا: «أمي،

أريدك أن تنصتي إليّ. إنه أمر يتعلق بالرياضيات، لكن إن لم تنصتي جيدا، فسأشرحه حتى تستطيعي فهمه؛ لقد اكتشفت نمطا رياضيا».

تمتع جيك دوما بقدرة حادة خارقة على استكشاف ورصد الأنماط، وكان هذه الموهبة من بين كل مواهبه: الصفة التي ذكر أساتذة الجامعات الذي كان يدرس معهم بأنها العنصر الرئيسي لنجاحه.

كان ما أخبرني به مذهلا حقا.

لم تكن لديّ فكرة بشأن ما كان يعكف عليه، لكن كان لديّ إحساس كاف بالثقة في أنه كان يحرز تقدما في شيء مهم، لكن على حد معرفتي كان مفهوم «شيء مهم» بالنسبة لي يعني برنامجا مكثفا في الفيزياء التي تدرَّس بالمستوى الجامعي، وهو إنجاز مبهر بدرجة كافية بالنسبة لصبي في الحادية عشرة من عمره.

لكن اتضح أن الأمر أكبر من ذلك.

اتسمت نظرية جيك، التي كانت في مجال النسبية، بأنها مبسطة - أي منسابة وواضحة بصورة كافية لي كي أفهمها - ومعقدة بصورة بديعة في نفس الوقت، فإن ثبتت صحة نظريته،

فهـو بذلك يخلق مجـالا جديدا تماما للفيزيـاء، مثلما فعل نيوتن ولايبنتس عندما أحدثا ثورة بابتكار حساب التفاضل والتكامل.

كانت أولى الكلمات المتلهفة التي خرجت من فمي مفاجئة حتى بالنسبة لي، حينما قلت: «جاكي، إنها جميلة».

وكانت الابتسامة التي رأيتها على وجه جيك في تلك اللحظة جميلة هي الأخرى.

كان جيـك قـد بـدأ بصـورة، والآن احتـاج الرمـوز الرياضية لوصـف ما كان يراه، وتوصلت لفهـم أن الرياضيات بالفعل لغة، وطريقة لوصف مايراه أمثال جيك.

كانت لديه كل القواعد والأساسيات بالفعل، لكن أي تصور لهذا التعقيد كان يتطلب مجموعة مفردات لم يكن يمتلكها بعد.

أعتقد أنه من العدل عند تلك النقطة القول بأنه صار مهووسا؛ فقـد اختفـى كل المرح والمزاح الذي أعجبني منه سـابقا؛ إذ كان يكافـح لترجمـة الصورة التـي كان يراها بوضوح شـديد في عقله إلـى رموز رياضية يسـتطيع العلماء الآخـرون فهمها، وبدأ يصوغ نمـاذج زمكانيـة - أي: متعلقة بالزمان والمـكان -، ونماذج ذات أبعاد للمكان، وأخذت المعادلات تتنامى بصورة أكبر وأكبر على النوافذ.

توقف جيك عن النوم، فلطالما كان شخصا ليليا محبا للسهر، وكان يشكل نموذجا مختلفا عن غيره، أما الآن، فأصبح لا ينام على الإطلاق.

كان مايكل يدخل غرفة جيك ليوقظه في الصباح، فيجده جالسا معتدلا في نفس المكان الذي تركه فيه قبل ثماني ساعات، فيسأله « هل نسيت مجددا أن تنام يا جيك؟».

كان يغفو على مائدة الإفطار وفي السيارة، لكنه يكون يقظا للغاية في الليل وهو يقرأ ويدرس الرياضيات.

أخذناه إلى طبيب أطفال، فشاركنا القلق وأوصى بإدراجه في دراسة متخصصة عن النوم.

قضى جيك ليلة في المستشفى وهو محاط بالأسلاك والأنابيب والأقطاب الكهربائية.

أكدت الدراسة شكوكنا وهي: أن جيك لم يكن ينام، ولم تكن به مشكلة عضوية، بل الشيء الوحيد الذي كان يبقيه متيقظا كان الرياضيات.

في النهاية، صار مستغرقا لأبعد حد في معادلته العملاقة، وأصبحت قلقة عليه، كنت أتكئ على مقبض الباب وأشاهد جيك وهو يشخبط بعصبية على النافذة، ويملأ ألواح الزجاج

برمـوز رياضية لـم أسـتطع حتـى الاقتراب من فهمهـا، في الوقت ذاتـه؛ كنـت أرى أقرانه من الأطفال يلعبون في الحديقة العامة في الجهـة المقابلـة مـن الشـارع، ويتعلقـون بالأراجيـح وقـد دلّـوا رؤوسهم إلى أسفل.

بـدا جيـك تائها فـي المعادلة، وخطر ببالي أنـه ربما علق في جـزء مـا من المعادلـة، فلعله لـم تتوافـر لديه المعلومـات اللازمة للتحـرك إلـى الخطـوة التاليـة، وربمـا كان بحاجـة للتشـاور مـع شخص ما متمكن بصورة أفضل من المادة، شخص يستطيع فهم ما إذا كان جيك قد سلك منعطفا خطأ.

لـم أكـن أكترث بأي حـال بأمر المعادلـة، كل مـا أعرفه أنها كانت طويلة بشـكل مجنون وتسـتغرق كثيرا جـدا من وقته، لكن بدا لي أن مسـاعدته في إصلاحها قـد تكون أفضل طريقة لإبعاده عن النافذة إلى الحديقة.

قلـت لـه: «جيك، لا يمكن أن نسـتمر على هـذا النحو، دعنا نلتمس لك بعض العون، لنبحث عن شخص آخر قد يكون قادرا على فهم الموضع الذي علقت فيه».

نظـر إلـيّ محـاولا اسـتيعاب فحـوى حديثي، وقـال: «لكني لست عالقا يا أمي، إنما أحاول أن أثبت أنني مخطئ».

ذلـك ما كان يحاول فعله مع هذه المعادلة، وهو التحقق من صحتهـا، ثـم إعـادة التحقـق مـن ذلـك، والبحـث عـن الخلل أو الفجوة التي قد تعني أن النظرية لا قيمة لها.

لكني أصررت على رأيي، فعلى الأقل ينبغي أن نكتشـف ما إذا كان هناك أي وجه لصحة تلك النظرية قبل أن يكرس لها ستة أشـهر أخرى، وسـلّم جيك بأنه قد يكون من المفيد التحدث إلى شـخص آخر، وحـدد على الفور مَـن كان يحتاجـه للتواصل معه وهو الدكتور سـكوت تريمين، وهو عالـم فـي الفيزياء الفلكية ذو شـهرة عالميـة، يعمـل فـي معهـد الدراسـة المتقدمـة فـي جامعة برنسـتون بولايـة نيوجيرسـي، حيـث كان يتلقـى تعليمـه على يد آينشـتاين حتى وفاته؛ لذا اتصلـت بالدكتور تريمين، الذي أنصت إليّ عندما أخبرته بشأن ابني غير العادي، الذي لا يزال في الحادية عشـرة مـن عمـره، ونظريتـه، ونظرا لحرصـي الشـديد على أن لا أضيع وقته، أكدت في حديثي على مدى فعالية الأمر لو أمكن أن يلقي نظرة سـريعة على تلك المعادلة ويخبر جيك بالمناحي التي يـرى أنها تحتاج عملا وجهدا، وشـددت أيضـا على أنني لـم أجر تلـك المكالمـة بدافع علمي، وإنما بسـبب إصابة جيك بالتوحد، فقد كنت بحاجة لإبعاده عن تلك النافذة.

أجـاب الدكتـور تريمين بأنه يمكـن أن يلقي نظرة على فيديو قصيـر عن النظرية، وطلب أن نرسـله إليه عبر البريد الإلكتروني، وقبـل أن ننهـي مكالمتنا، أكد لي أن النظريـات الأصيلة نادرة في مجال مزدحم للغاية بالباحثين كالفيزياء.

سـأكون صادقة معكم، لقد شـعرت بالارتياح! فإذا كان هذا المجال قد قُتل بحثا، فأعتقد أنه سيكون من السهل نسبيا للدكتور تريمين اكتشاف موضع الخطأ في نظرية جيك.

كنـا جميعا مشـغولين للغايـة بعمل جيك لدرجـة أننا فوجئنا تقريبـا بظهـور نتائـج امتحاناتـه فـي أول برنامـج دراسـي جامعي رسمي يلتحق به، وكالمتوقع، تفوق جيك في الرياضيات متعددة الأبعـاد، حيـث حصل علـى ١٠٣ درجات في الاختبـار النهائي، ولـم يشكل ذلك مفاجأة لأحد سوى أبيه.

أخبرني مايكل بنبرة تنم عن دهشة تامة وهو يلوح بنسخة من السـجل الأكاديمـي قائـلا: «لقـد حصـل علـى درجـة (A) فـي رياضيات المسـتوى الجامعي .. إنه أمر لا يصدق!»، حاولت أن لا أضحـك وقلـت لـه «حبيبـي، هـذا ليس بجديـد؛ فمـا اعتقادك تحديدا بشـأن ما كنا نفعله هناك؟ لقد أخبرتك أنه كان يجيب عن

أسـئلة لا يسـتطيع أحد أن يجيب عليها ويدير مجموعات دراسية ويتفوق في كل الاختبارات».

رد مايـكل وقـال: «لكنه حقـق (A) يا كريسـتين، (A)! وفي رياضيات المستوى الجامعي!».

كان مايـكل فخـورا جدا، وبعث برسـائل إلـى كل من يعرفه عبر البريد الإلكتروني، بل لقد نشر نتائج جيك على صفحته على فيسبوك، والآن وبينما كان ينزل على الدرج في الصباح ووجدني وجيك على مائدة الإفطار، صفق بيديه وسأل: «كيف تسير الأمور في أكاديمية بارنيت، بيت حيوان الموظ المقاتل؟».

- لا أصدق أنني أذيع تلك المعلومة غير المفيدة، لكن اسم إيجـور الكامـل هـو إيجـور موسـنفلوفن، مـع إمالة حـرف العلة الأخير (الواو) -.

بل لقد أسـهمت دهشـة مايكل فـي أن يتعاظم لدي الشـعور بالعرفـان لحالة الشـد والجذب التي مررنـا بها للوصول إلى قرار السـماح لجيـك بمغـادرة المدرسـة الابتدائيـة، كان كلانـا عنيـدا ومتشـبثا برأيه، لكننا اتفقنا على مبدأ واحد: لا شـيء أهم من فعل الأصلح لأبنائنا.

لقـد دار الجدال بيننا في شـد وجذب، فـي محاولة للتوصل

إلى أفضل قرار ممكن لجيك، وقد كان، وقد شعرت بالفخر بحالنا، كفخري بجيك تقريبا.

ورغم أن أداء جيك في ذلك الفصل الجامعي الأول كان أفضل ما يكون، أبلغنا قسم البرامج الخاصة للرعاية الأكاديمية (SPAN) بالجامعة بأن جدول جيك سيقتصر على ست ساعات معتمدة فقط في الفصل التالي، وكانت تلك الساعات متطلبات أساسية للتأهيل، وكان معنى هذا استبعاد الفيزياء الحديثة التي كان يتوق لدراستها بشدة.

عندما علمنا بتلك الأخبار، لم ينطق جيك بكلمة، لكني رأيت الإحباط على وجهه، وأخذت أرقبه أنا ومايكل وهو يصعد الدرج ببطء شديد، ثم أغلق باب غرفته بهدوء؛ حينها نظرت إلى مايكل وقلت: «هذه سخافة، لقد اجتزنا كل تلك العقبات الصعبة المعقدة حتى نستوفي هذه المجموعة من الطلبات، وقد نجح بتفوق كبير، والآن يمنعونه من المضي قدما؟ نحن لا نفعل ذلك من أجل الشعارات؛ ما الفائدة إن لم يتمكن من الالتحاق بالفصول؟».

واصلت التنفيس عن غضبي بالمزيد عن العبارات، ثم انطفأ

المصباح، ساعتها قلت: «إذا كان في سبيله لأن يكون طالبا جامعيا، فربما ينبغي علينا المضي قدما وإلحاقه بإحدى الكليات».

وبمجرد التفكير في هذا الأمر، وجدنا أنه الحل الأسهل، كانت هناك ميزة إضافية أيضا.

إذا تقدم جيك للالتحاق بجامعة إنديانا بيردو إنديانابوليس، فسيكون مؤهلا للحصول على منحة دراسية، بينما لم تكن هناك أية مساعدات مالية لفصول قسم البرامج الخاصة للرعاية الأكاديمية، كما أن الأطفال الملتحقين ببرامج هذا القسم لم يكونوا مؤهلين للحصول على مساعدات الولاية التي يمكن أن يحصل عليها طلاب الكليات، لقد كان كفاحنا لجمع المال الكافي لدفع الرسوم وشراء الكتب لبرنامج الرياضيات متعددة الأبعاد يتطلب منا أن نقوم ببعض التضحيات، وكان هذا من أجل برنامج دراسي واحد.

شعرت بالسوء لأننا لم نكن في وضع مالي أفضل، لكني تساءلت في نفسي: «من ذا الذي يمتلك في الواقع أموالا جاهزة لتغطية نفقات الجامعة لصبي في الحادية عشرة من عمره؟».

لذا بدأت في استيفاء طلب لإلحاق جيك بالجامعة فعليا.

كنت بالفعل قد جمعت مجموعة جيدة من المسوغات

لتقديمها لدكتور راسل، لكني الآن أتعامل مع المشروع بجدية حقيقية، أردت أن أوضح - ربما حتى لنفسي- أن هذا لم يكن رأيي كأم فخورة تكتفي بالقول «انظر إلى ابني الموهوب!»، بل لقد عمدت إلى حصر أدلة دامغة على صحة ما توصلت لفهمه، وهو أن مكان جيك الطبيعي هو الجامعة، وأنه لن يكون بخير إن لم نوفر له هذه الفرصة.

لم تكن لدي أدنى فكرة عن المستندات والمسوغات التي يريد أي مكتب قبول الاطلاع عليها؛ لذا ألقيت إليهم بكل شيء مطلوب وغير *مطلوب*، لكن لو تفكرت في الأمر، لأدركت أننا نجحنا في استيفاء المتطلبات، ولهذا السبب التحق جيك بمجتمع مِنسا (Mensa) الدولي لذوي نسب الذكاء المرتفع.

- لطالما أحبت نارني تصفح البريد الإلكتروني لجيك، والذي تضمن دومًا نشرات إخبارية من مِنسا ومن مجموعة أخرى أشد خصوصية لأصحاب نسب الذكاء العالي تسمى إنترتِل، وكانت تقول: «أقسم إني رأيت لدى هذا الفتى أكثر أنواع رسائل البريد غير المرغوب بها جاذبية وتشويقا» -.

أحيانا كان جيك، ومعه ويسلي يرافقه كظله، يتجمعان في

الفرع المحلي لمجتمع مِنسا خلال عطلات نهاية الأسبوع للمشاركة في مشروعاتهم.

وذات مرة؛ طلبت من جماعة مِنسا مساعدة رجل وزوجته في تحديد ما إذا كانت شجرة ساقطة تقع داخل ممتلكاتهما أم في ممتلكات جمعية محلية مجاورة لصيانة الموارد الطبيعية.

في العادة؛ كانت الجمعية تصر على طلب تقرير مساح أراضي من شخص يمتلك شهادة في الهندسة، لكنها وافقت هذه المرة على قبول رأي جماعة مِنسا أيا كان؛ لذا ذهب جيك وويسلي وبعض أعضاء مجتمع مِنسا في عطلة ذلك الأسبوع إلى المكان موضع النزاع، والذي كان يضم واديا كثيف الأشجار، ولم يكن معهم سوى بوصلة منزلية الصنع ومنقلة.

- كان ويسلي، الذي لا يفهم لماذا يمشي الإنسان طالما أنه يستطيع أن يقفز ويتسلق ويهبط ويبحر بالمظلة، مستمتعا للغاية بتلك الأجواء -.

تقدم جيك واضطلع بدور القائد، وكان قد طور معادلة في دفتر مسودات خاص به ليتزعم حل الخلاف، وبناء على تعليماته، أحاط أعضاء جماعة مِنسا المنطقة بسلك وأصدروا حكمهم في النزاع الحدودي.

لقد كان الرجل وزوجته محقين، بعدما تبين أن المسؤولية عن الشجرة الساقطة تقع على جمعية صيانة الموارد الطبيعية، وكان من المدهش أن أرى رضوخ الجمعية التام لرأي مجموعة يتزعمها صبي في العاشرة وأخوه الذي لم يجاوز الثمانية.

بعدها بأيام، وبينما كنت أقود السيارة ومعي ويسلي وصديق له لإحضار بعض الآيسكريم؛ سمعت ويسلي وهو يصف كيف قضى عطلة نهاية الأسبوع، حيث قال: «هذه هي الجماعة التي ستطلب مساعدتي أنا وأخي أحيانا»؛ أدرت وجهي بعيدا حتى لا يلاحظا ابتسامتي، وعندما طلب مني الفرع المحلي لِمنسا المساهمة بفقرة في نشرة أخبارها، كانت دهشتهم كبيرة عندما وجدوا أنني كتبت مقالا عن مدى أهمية اللعب.

عاد الدكتور تريمين ليتواصل معنا مجددا، وبعد أن ألقى نظرة على معادلة جيك، أرسل إليه رسالة بالبريد الإلكتروني تضم قائمة كتب ليشتريها جيك وأشياء ليفكر فيها، وكانت كلها يصعب عليّ فهمها، لكنه كتب أيضا رسالة لي، أكد من خلالها أن جيك يعمل حقا على نظرية أصيلة، وأوضح لي أنه في حال ثبوت نظرية جيك، فسيؤهله ذلك للترشح لجائزة نوبل، واختتم

رسـالته بتشـجيعي على دعم جيك بكل ما أستطيع؛ لأنه يعتقد أن العمل الذي يقوم به جيك سيكون مهما للعلم.

إن أحـد ألمـع علمـاء الفيزيـاء الفلكيـة في العالـم لم يكتف بمراجعة نظرية ابني، بل وصادق عليها، ويمكنني القول بأن تلك كانت لحظة شافية مؤثرة لا تعادلها أي لحظة.

وبعـد مراسـلة الدكتور تريميـن بوقت قصير، جاءنا نبأ سـار آخـر، وهـو قبول جيك رسـميا في السـنة الأولى بجامعـة جامعة إنديانـا بيـردو إنديانابوليـس، فضـلا عـن حصوله علـى منحة من رئيس الجامعة تغطي تكاليف الدراسة.

إذن سـيلتحق جيـك بالجامعـة، وهذه المرة سـيكون التحاقا فعليا لا افتراضيا.

منزل آخر

«هذا الأمر لن يجدي نفعا».

قلت هذه العبارة وأنا أنظر إلى جيك بينما كان يقف في غرفة المعيشة بجوار حقيبة الظّهر التي اشتريناها له ذلك الصباح، كانت الحقيبة ممتلئة بكتب الرياضيات والعلوم التي سيحتاجها في أول يوم له في الكلية، لقد كنت قلقة بعض الشيء من أن هذه المقررات لن تكون مناسبة له، خاصة عندما رأيت كتاب الفيزياء، بحجم دفتري هاتف معا، لكن جيك كان قد وضع كل شيء في الحقيبة، وكل كل ما يحتاج إليه الآن هو شخص ليحملها.

ولأنه جيك، فقد كان يحاول حساب نقطة الارتكاز التي سيحتاج إليها لحمل تلك الحقيبة على ظهره، لكنه سحب الحقيبة من الأشرطة الموجودة فيها، فقد بدا هذا أفضل ما يمكنه فعله دون مساعدة الغير.

لم أكن أساعده كثيرا؛ لذلك اتصلنا بمايك لرفع الحقيبة على ظهر جيك، ثم وقفنا أنا ومايكل نشاهد جيك المسكين

ضعيف البنية يتأرجح تحت هذا الحمل قبل أن يفقد توازنه وينقلب جانبا على الأريكة، نظرنا أنا ومايكل إلى ابننا، ورأسه مدفون بين الوسائد بينما كان يكافح بشكل بلا جدوى من أجل تصحيح وضعه، وفي الحقيقة أن جيك لم يكن يبالغ في السقوط، بل كانت سقوطه مؤلم بالفعل.

قال مايك بعد تفكير عميق: «أعتقد أنه على حق، وقد نحتاج إلى شيء مختلف هنا»؛ لأن سقوطه السريع وصراخه المكتوم بين الأرائك أصبح أكثر دراماتيكية، ولم يتجاهل ويسلي أبدا الفرصة، وتوجه إلى الزاوية بأقصى سرعة وقام بقفزة طائرة ليهبط فوق حقيبة الظهر ويسحق شقيقه الأكبر، أما إيثان، الذي كان يقرأ في مكان قريب، فقد تجاهلهما؛ قررت أن أفعل الشيء نفسه وأتجاهل الأمر، فطبعت قبلة على وجه زوجي وقلت: «أمر مختلف؟»، «ها نحن نعيد الكرّة مرة أخرى.»

أصبح جيك الطفل الوحيد في الحرم الجامعي الذي يستخدم حقيبة سفر بعجلات لنقل كتبه من فصل إلى آخر، وفي النهاية، سيكون كبيرا بما يكفي لحمل حقيبة الظهر، ولكن وللأسف نحن على يقين من أن ذلك لن يحدث قبل تخرجه.

حل مشكلة صغيرة مثل العثور على حقيبة مناسبة لكتب

جيك بدا وكأنه مسرحية للأطفال، مع الوضع في الاعتبار أنني قضيت الصيف قلقة بشأن واقع طفل يبلغ من العمر أحد عشر عاما يتجول في حرم جامعي في وسط المدينة بمفرده.

كان جيك يحب أن يقول إنه لم يولد ليشبه غيره، ولكن الحقيقة هي أن التوحد الذي يعاني منه لا يزال بإمكانه أن يعيق قدرته على العناية بنفسه، - أنا أكتب هذه الخاطرة في يوم سيء الطقس وشديد البرودة في ولاية إنديانا -.

هذا الصباح كان علي أن أرسل جيك إلى الطابق العلوي لتغيير سرواله القصير والشبشب قبل الخروج، وبالرغم من أن جيك كان يجيد التعامل مع الكتب إلا أنه لم يكن بنفس الذكاء في التعامل مع الشارع؛ حيث لم يخرج من هذا المكان الذي نعيش فيه على الإطلاق، ولكن حتى في ذلك الوقت، وقبل أن يكون موضوعا تتناوله وسائل الإعلام، فقد حصل على أكثر مما ينبغي من النظرات الفضولية والمحادثات المرتجلة، وكنت أعلم أن تلك النظرات ستزداد عندما يكون بمفرده؛ لذلك كانت لدي مخاوف حقيقية على سلامته.

لقد استعنّا بالتكنولوجيا لحل هذه المشكلة وحققنا من خلالها بعض النجاح؛ حيث سيكون لدى جيك هاتفه الخاص،

وسيتصل بي عندما يغادر الفصل، مما يعني أن الأمر سيبدو وكأننا نسير سويا، وحتى أثناء عبوره الحرم الجامعي بمفرده، اعتدنا على استخدام برنامج آي تشات «iChat»؛ لذا كان بإمكاني رؤيته والشعور بالارتباط به، وتذكيره بالتوقف لتناول شطيرة.

لكن من وجهة نظري؛ كانت المشكلة الحقيقية أنه لن يكون لديه مكان يذهب إليه عندما يكون لديه وقت بين المحاضرات.

عندما كان جيك يأخذ محاضرة واحدة فقط، كان بإمكاني أنا أو مايك أن نوصله بالسيارة بكل سهولة إلى الحرم الجامعي، أو نصطحبه إلى القاعة، ونقضي الوقت في الرد على رسائل البريد الإلكتروني أو القراءة ونحن ننتظره حتى يفرغ من محاضرته، لكننا كنا نعلم أن ذلك لن يكون مفيدا إذا كانت لديه محاضرات طوال اليوم.

في الواقع كانت لديه ساعات فراغ بين المحاضرات، ولم يكن لديه مكان يذهب إليه في هذا الوقت، وبقدر ما حاولت إبعاد تلك الأفكار عن ذهني، إلا أن التفكير في أولئك الرجال المِشردين الذين يتشاجرون في زاوية الشارع ظل يراودني، فكنت أقضي الليل قلقة على جيك.

كنت متأكدة من أن جيك سيجنح إلى كل أنواع الصخب

والهرج عندما يبلغ التاسعة عشرة من عمره، ولم يغب عن تفكيري أنه سيتعرض خلال مرحلة ما من حياته المقبلة للفتيات اللاتي أصبحن أكثر شقاوة وتحررا من ذي قبل، سواء أحببت ذلك أم لا، لكن جيك الآن في الحادية عشرة من عمره، ولم أكن أريده أن يتعرض لأي شيء لم يكن مستعدا له عاطفيا.

كان أشد ما يثير خوفي عليه هو أن يقوم شخص ما بالسخرية منه أو الاستهزاء به، فماذا لو اعتقد شخص ما أنه من المضحك رؤية ما سيحدث إذا أعطوا هذا الطفل الصغير في المكتبة ست علب من البيرة؟!

تجولت في المنزل ذات ليلة، والقلق يكاد يقتلني، ثم أدركت أن مشكلة السلامة هذه يمكن أن تكون في الواقع حجر عثرة، وإذا لم أتمكن من العثور على مكان يمكن لجيك أن يتجول فيه، فقد يضطر إلى التعلم في المنزل فقط؛ لذلك، حاولت أن أجد له مكانا ما في الحرم الجامعي - ركنا مريحا وأريكة صغيرة في مكان عام -؛ حيث يمكن أن يذهب جيك ويكون في أمان، مكان ما يمكنه العمل والدراسة أو الاسترخاء فيه، لقد استعصى علي ذلك الملاذ الآمن، وبحلول نهاية الصيف، بدأت أشعر بعدم الاستقرار بالفعل، وكنت على وشك الاستسلام عندما بدأت

إحدى النساء العاملات في المكتبة محادثة معي، في آخر مرات بحثي عن المكان المنشود، وقالت: «لقد رأيتك هنا عدة مرات، ما الذي تبحثين عنه؟».

شرحت لها الأمر، وأخبرتني عن كلية هونورز، وهي كلية جديدة في الجامعة تعطي الأولوية للبحث المستقل والخبرة الميدانية الواقعية لألمع الطلاب، لم يبد البرنامج كما لو كان مناسبا تماما لجيك فحسب، بل كان يحتوي أيضا على مسكن، ومجموعة من المكاتب في الطابق السفلي للمكتبة، ولا يمكن أن يدخل إليه إلا طلاب الكلية فقط ببطاقة خاصة.

بدا الأمر رائعا لدرجة يصعب تصديقها، لكن حقيقة كلية هونورز أذهلتني تماما، حيث يمكن للطلاب رؤية المكاتب المصطفة في الممرات، ويمكن للمسؤولين والمعلمين رؤيتها أيضا، وهناك أماكن للأطفال للعمل والدراسة والسمر معا، بالإضافة إلى أماكن للاسترخاء والاستجمام، وتوجد لوحات ذكية على أحدث طراز تعمل باللمس في الصالات، وكميات غيَر محدودة من الشوكولاتة الساخنة في المطبخ، إنها ببساطة مؤسسة فكرية واتحاد طلابي ومنزل آخر غير منزلنا، وكل ذلك في مكان واحد، أما في قلب هذا المكان المذهل توجد الدكتورة

جين لوزار، العميد المؤسس لكلية هونورز والمعلم المقيم فيها وملاكها الحارس، التي تقضي أيامها في جعل البرنامج على أفضل وجه ممكن، أما الطلاب فلا ينادونها بالدكتورة جين لوزار، بل جين بلا ألقاب، وفي كثير من الأحيان، ماما جين.

كان العثور على جين وهذا المكان المعجزة الذي أنشأته لهؤلاء الطلاب مصدر ارتياح كبير لي كأم، ولم يعد يقلقنا أن نفكر بجدية في ذهاب جيك أي مكان آخر.

في أول أيام جيك هناك، علمت أننا اتخذنا القرار الصحيح؛ حيث رن هاتفي وكانت على الطرف الآخر جين التي قالت: «إن جيك على وشك الذهاب الآن»؛ حيث غادر كلية هونورز للتو.

أخبرتني جين أنها ستنتبه لجيك، وقد فعلت ذلك، ليس لأنه فتى صغير، بل لأن ذلك طبعها، فقد رأيتها تؤنب شابا في العشرين لعدم تناوله الغداء.

كما كانت جين تراقب جيك أكاديميا؛ حيث توجب عليه استيفاء عدد من المتطلبات من أجل التخرج، وهو الأمر الذي كان مملا بالنسبة له؛ فلم يكن سعيدا بمتطلبات الفيزياء المتعلقة بالجبر في كلية هونورز التي كان عليه أن يدرسها في تلك السنة الأولى، فعلى سبيل المثال بدلا من حل المسائل باستخدام فيزياء

نيوتن الكلاسيكية والأسهل والأقل دقة، استخدم جيك النهج الكمي، الذي يتطلب عدة صفحات من المعادلات ويقدم نتيجة أكثر دقة، إلى أن طلب منه البروفيسور اتباع الطريقة الأبسط ليسهل على زملائه في الفصل استيعابها وفهمها.

تعرف جين أنه لا يشعر بالراحة في تلك الصفوف؛ لذلك ظلت تراقبه، وتسأل عما قد يفعله خارج الفصل الدراسي.

تدرك جين أيضا أن جيك ليس في المسار الطبيعي، لا يوجد دليل إرشادي هنا، ولا توجد قواعد حول كيفية مواصلة الرحلة، حيث نقوم نحن بابتكار تلك القواعد والإرشادات بينما نمضي قدما؛ لذلك عندما أعرب جيك عن اهتمامه بأخذ دروس في الفيزياء على مستوى الماجستير، أتاحت جين له الجلوس في فصل دراسي متقدم، نعم، كان الأمر غير معتاد بالنسبة لطالب في السنة الجامعية الأولى، لكنها تؤمن به وتثق في قدراته، كما تفعل مع كل الطلاب.

تقدمت جامعات أخرى، بما في ذلك بعض الجامعات المرموقة، لمحاولة ضم جيك، لكننا لم نتمكن من إيجاد بيئة مناسبة له ولأسرتنا، وأخبرني المسؤولون في إحدى المدارس بمنطقة إيست كوست آيفي ليغ أنهم يرغبون في أن يدرس لديهم،

وكان العرض مغريا، حيث كان المقابل المالي الذي قدموه رائعا، وبالطبع توفرت المرافق والتسهيلات التي يمكنه الاستمتاع بها والأساتذة الذين سيتمكن من الوصول إليهم، إنها واحدة من أفضل المدارس في العالم، ولكن كانت هناك نقطة شائكة كافية لكي أنحي هذه الفكرة جانبا؛ حيث توجب على جيك العيش في مسكن عام مشترك كي ينضم لتلك المدرسة،.

كان ذلك الأمر سخيفا جدا بالنسبة لي، ولم أستطع حتى التغلب عليه أو تجاهله، ربما تكون خلفيتي التي كان تعتمد على مفهوم تقليدي عند شعب الأميش، يقول: «أنت تربي أطفالك، ثم تساعد في تربية أطفال أطفالك، وعندما تكبر، يعتني بك أطفالك وأطفالهم».

أنا لا أعيش مع والدتي وأختي، لكني أتحدث إليهما مرتين يوميا؛ لذلك فإن فكرة إرسال ابني وهو في الحادية عشر من عمره إلى منطقة إيست كوست للعيش في مسكن عام مشترك بمفرده لم تكن فكرة مريحة بالنسبة لي.

أخبرني مسؤول القبول والتسجيل أن عائلتنا ستكون موضع ترحيب وسيتم العثور على شقة قريبة من الحرم الجامعي، لكن يجب أن يعيش جيك في مسكن مع جميع الطلاب الجدد

القادمين، فاعترضت على ذلك قائلة: «إنه جزء لا يتجزأ من العائلة»، ثم نظرت إلى جيك، الذي كان يسرق قطعة كبيرة من مثلجات إيثان، وشكرت مسؤول القبول والتسجيل على وقته.

لقد كان عرضا رائعا، لكنه لم يكن مناسبا لنا، في النهاية، قد نضطر إلى الذهاب إلى مكان آخر، ولكن في الوقت الحالي سنتواجد في منزلنا فحسب.

اعتاد الدكتور بيل أن يقول دائما إن الطلاب الآخرين في فصله موجودون للقيام بما يتوجب عليهم فعله، لكن جيك كان هناك للتعلم، إنه مثل الإسفنج، يمتص كل شيء، ومتعطش دائما لمزيد من الرياضيات، والمزيد من الفيزياء الفلكية، والمزيد من المفاهيم.

كنت أقلق من أنه لن يكون مع جيك من يهتم بطعامه أو شرابه؛ وذلك لأننا غالبا ما كنا نضطر إلى الضغط عليه في المنزل لكي يتناول معنا العشاء، لكنني لم أشك للحظة في أنه يفعل الشيء الصحيح، أو أننا فعلنا الشيء الصحيح من أجله.

ما زلت أشعر ببعض القلق من أن يكون جيك وحيدا في الحرم الجامعي، لكن الآن، يعرفه الكثير من الناس لدرجة أنني لم أعد أشعر أنه وحيد تماما.

كنت كثيرا ما أتواجد مع جيك؛ حيث يرجع ذلك إلى قبول إيثان وويسلي للانضمام إلى البرنامج الخاص للرعاية الأكاديمية (SPAN) أيضا.

يتعين على جيك أن يدرس الكيمياء حتى يتخرج، ويجب على إيثان أن يأخذها كشرط أساسي لعلم الميكروبيولوجي الذي يريد دراسته وممارسته، وهو علم مطلوب للعمل في مجال الأرصاد الجوية الذي استهوى ويسلي؛ لذلك قد يأخذ ثلاثتهم درسا في الكيمياء معا، وسيكون من المضحك رؤيتهم يدرسون نفس المادة معا، وكالعادة كان يتصل بي جيك وهو يتجول في الحرم الجامعي عندما لا نتواجد أنا وإخوته فيها.

أما بقية الوقت فقد كان يعيش حياة طلابية عادية، وهو ما يعتبر أمرا عاديا بالنسبة لجيك.

في العام الماضي؛ ذهب ليحصل على شطيرة دجاج من اتحاد الطلاب، ووجد فعالية مسابقة عيد تقريب العدد (ط) أو باي (PI) التي توافق الرابع عشر مارس؛ حدّث جيك نفسه متسائلا: هل يمكنني أن أفوز؟ سيفوز بهذه المسابقة الطالب الذي يمكنه قراءة أكبر عدد من أرقام باي، والجائزة هي: قميص باي.

اتصل بي جيك وقال: «سأحاول، أعرف أن العدد يصل إلى أربعين رقما».

ثم سألته مذهولة: «هل يمكنك ذلك؟» كانت تلك مفاجأة أخرى بالنسبة لي، ثم أردفت قائلة: «حسنا، حسنا، حظا سعيدا، ولا تنس تناول الغداء».

اتصلت به مرة أخرى عندما انتهى وسألته قائلة: «كيف كانت المسابقة؟»، وسألته أيضا: «هل تناولت شطيرتك؟»، قال جيك: «لقد قرأت الرقم من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى ليمين؛ لذلك حسبوه على أنه ثمانون رقما»، ثم كان عليه إنهاء المكالمة.

لقد كان يقرأ العدد باي عندما حان وقت تناوله الغداء؛ لذلك كان سيأكل شطيرة وهو في طريقه عائدا إلى الفصل.

في تلك الليلة؛ توقفت نارني لتناول كوب من الشاي عندي؛ جلست على المنضدة مع جيك، وأخبرتها أنه فاز بقميص لمعرفته أن العدد باي يصل إلى أربعين رقما وتعود مرة أخرى، قاطعنا جيك: «لقد وصلت بأرقام العدد إلى مائتي رقم حتى الآن»، عِقدت الدهشة لساني فسألته بارتباك «ما؟ ماذا؟! متى حدث ذلك؟!».

على ما يبدو؛ أن منظمي مسابقة يوم العدد باي أعطوا الكل

من شارك في المسابقة بطاقة عمل صغيرة تحتوي على مائتي رقم من العدد باي مطبوعة عليها الأرقام بخط صغير، ولخشيته من أن لا تكون الثمانين رقما كافية للفوز بالقميص؛ فقد حفظ جيك الباقي في طريق عودته إلى الفصل.

كان جيك على يقين من أن قراءة أربعمائة رقم من اليمين لليسار ومن اليسار لليمين كافية لفوزه بالقميص.

ضحكنا أنا وناربي ونحن نتخيل منظر جيك وهو متجه عبر الحرم الجامعي مرددا أربعمائة رقم باي، بينما يسحب حقيبته ذات العجلات بيد ويأكل شطيرة دجاج باليد الأخرى.

في اليوم التالي؛ التقينا مع ناربي في الممر وسألت جيك قائلة «مرحبا جيك، كيف حال العدد باي؟»، فرد عليها: «لم أعد أحفظ أي شيء، حيث تقول أمي إن ذلك مضيعة للوقت».

كان لزاما علي أن أقول له ذلك لسبب منطقي، كان بإمكان جيك أن يستمر في حفظ أرقام العدد باي للأبد، ولكن لماذا؟ لقد حفظ دانيال تاميت، ذلك العالم المصاب بالتوحد العدد باي حتى خمسين ألف رقم، وتلاها لجمع الأموال لجمعية خيرية للتوحد، وبالطبع كان هذا أمرا رائعا، في النهاية؛ استغرقت تلاوته لأرقام العدد باي أكثر من خمس ساعات، وكان يتناول الشوكولاتة

ليتغلب على الوقت، وهذا على الأقل، ما يمكن لجيك أن يقلده فيه، ولكن حتى دانيال تاميت تحدث أكثر في كتابه عن تحديات إدارة قلقه الاجتماعي، وكيف أن تلاوة الأرقام أصعب جسديا من أي تحد فكري آخر.

عادت نارني إلى جيك مباشرة، بمظهره الأكثر براءة في العالم وقالت مازحة: «ماذا...؟»، ثم توجهت إلي قائلة «بلا سخف، سأساله عن فطيرة الكرز»، هز جيك رأسه وركب السيارة، فهو لا يريد أن يشغل عقله بسخافات نارني، ضحكت من ذلك، لكن شيئا ما كان يزعجني، ففي منتصف الطريق إلى الجامعة، نظرت إلى جيك الذي في المقعد الخلفي عبر مرآة الرؤية الخلفية، لقد كان يلعب أنجري بيردس «Angry Birds» على جهازه اللوحي، فقلت له: «مرحبا يا جيك»، «لماذا توقفت عن حفظ العدد باي بأربعين رقما؟»، أجابني قائلا: «لم أتوقف عند الأربعين، بل توقفت عند مائتين».

فقلت: «لكن قبل ذلك، لماذا توقفت عند الأربعين؟».

فقال: «كانت أربعين فيها تسعة وثلاثون رقما عشريا في الواقع».

فقلت: «حسنا، ولكن لماذا توقفت عند هذا الحد؟».

رد قائلا: «لأنه من خلال تسع وثلاثين منزلة عشرية، يمكنك تقدير محيط الكون المرئي وصولا إلى ذرة الهيدروجين، لقد اعتقدت أن هذا هو كل ما أحتاجه».

بئس الحظ

كان من أول الأشياء التي لاحظتها في كلية هونورز توقع الدكتورة جين بأن طلابها سيصبحون مواطنين ذوي أهمية في هذا العالم؛ حيث كانت تتوقع منهم العمل في كل نشاط وتكريس الوقت والجهد لمساعدة الآخرين.

بدا شكل الجهد التي سيقدمه جيك في صورة التدريس في معمل الرياضيات، وقد بدأ ذلك بمجرد وصوله إلى الحرم الجامعي، وكان من عادة الطلاب الذين يقوم جيك بتدريسهم، إلقاء نكتة واحدة عن عمره، ثم يتعاملون مع التفاصيل العلمية الجوهرية لكل ما لا يفهمونه.

لقد تطورت موهبة التدريس التي رأيتها لأول مرة في غرفة المعيشة لدينا، وهو شيء يمكنك رؤيته في كل مرة يساعد فيها شخصا ما على استيعاب مفهوم جديد وتوسيع مداركه.

عندما كنت أرى جيك لم أكن أستطيع التوقف عن التفكير في الجد جون، لقد كانت الرياضيات والعلوم بالنسبة لجيك

مشحونة بالكهرباء وتنبض بالحياة وجميلة للغاية، لدرجة أنه يريد من الجميع أن يكونوا شغوفين بها كحالته.

عندما نجحت إحدى طالبات جيك الأكثر اجتهادا في اجتياز امتحان المستوى الثاني من حساب التفاضل والتكامل بعد أن كانت في حالة ميؤوس منها، بكت هي وجيك غير مصدقين.

يبدو أن جيك ورث صبر جدي، فقد كان يشجع الأطفال الذين يدرسهم قائلا: «ستحققون ما تريدون، ولكن استغلوا أوقاتكم»، ثم يجلس في الخلف ويتناول الشيبس وهو يراقبهم، بينما هم يحلون مسألة جديدة، كذلك كان جيك يشبه جدي في أن لديه موهبة فريدة لتكوين مجتمعات متكاتفة من الناس الذين يمكنهم دعم بعضهم البعض؛ فلا أحد يعرف أفضل منه أنك لا تستطيع أن تصنع الإنجاز بمفردك.

أشارت جين إلى أن قدرة جيك على التدريس تمنحنا الفرصة للتعرف على مفهومه للرياضيات؛ فإذا كانت إحدى طرق حل المسائل لا تبدو مفيدة مع الطلاب الذين يدرسهم، فسيأتي بطَريقة أخرى، ثم أخرى، وأخرى، حتى يتوصل إلى طريقة تفيد الطالب، وكانت براعته في ذلك واضحة، حيث يمكنه طرح عدة طرق لحل مسألة ما، في حين أنه حتى الشخص الموهوب تماما

في الرياضيات لا يمكنه عادة أن يطرح طريقة واحدة أو طريقتين على الأكثر للتوصل إلى الحل الصحيح لمسألة ما.

كان جيك يؤمن بأن كثرة طرق حل المسائل ستفيد كل طالب في حل المسألة على طريقته الخاصة، وكان بإمكانك وأنت تشاهده وهو يدرس الطلاب ملاحظة أنه يستمتع بذلك، وفي المقابل تعلم من هؤلاء الطلاب أشياء مثل: تناول زبدة الفول السوداني بملعقة مباشرة من البرطمان، وكان يرد عليهم على سبيل الامتنان قائلا: «شكرا يا رفاق».

أعترف أنه عندما كنا نفكر في الكلية؛ لم يكن يخطر ببالنا أن جيك سيقيم صداقات حقيقية مع الطلاب هناك، لكن جين تتوقع من الجميع في كلية هونورز أن يشكلوا مجتمعا، وأن يهتموا ببعضهم البعض أكاديميا وعاطفيا، وقد أصبح جيك بالفعل جزءا مهما من ذلك المجتمع، ولم يكن لفارق السن أي تأثير في التعامل مع الآخرين كما توقعنا؛ حيث كان الآخرون يتعاملون معه بطريقة «الأخ الصغير» التي أجدها محببة للغاية، ويستمتع هو بها أيضا، وبصفته الأكبر في عائلتنا، كانت تلك التجربة جديدة بالنسبة له.

أخبرتني جين مؤخرا عن دخولها المطبخ وسماع مجموعة

من الأطفال يتحدثون عن جيك، لقد اكتشفوا أنه لن يحصل على رخصة قيادته قبل التخرج، وكانوا يتساءلون عمن سيوصله بالسيارة إلى الحفل.

تماما كما قصدت جين، فإن التعامل مع طلاب من العديد من التخصصات المختلفة قد يعود بالعديد من الفوائد للصبي المهووس بالرياضيات والفيزياء.

أخبرته إحدى الطالبات اللاتي يدرسن الأدب في كلية هونورز عن رواية مادلين لانغل: «تجعد في وقت»، وهي رواية رائعة موجهة للشباب، وشرحت له كيفية العثور عليها في المكتبة، وبقي أن نعرف هل ستجعله يقرؤها بالفعل؟ مثل العديد من المصابين بالتوحد، يجد جيك صعوبة في قراءة الروايات حيث كان يقول: «إن قراءة قصة مختلقة بالنسبة له تشبه تحويل مستند بصيغة نص على برنامج وورد إلى جدول بيانات على برنامج إكسيل».

الأهم بالنسبة لي؛ أننا رأينا جيك في كلية هونورز وهو يتواصل مع الآخرين بروح الدعابة التي لديه، فأنا أم لديها ثلاثة أبناء وأدير حضانة، وإذا لم أتمتع بروح الدعابة فلن أتمكن من تناول غدائي، ولا أعتقد أن من يكتب النكات للفنان الكوميدي

جيمي فالون لديهم أي تحفظ على نكات جيك، ما لم تكن هناك نكتة رياضيات تتطلب تدخلهم السريع، ولكن يسعدني أن أرى أحد أصدقاء جيك الجدد يسحب قبعة البيسبول من رأسه ويديرها بالطريقة «الخاطئة»، بينما يضحك جيك وذلك الصديق على سبب عبور الدجاج لشريط موبيوس الذي ينتهي عند نفس نقطة البداية.

التغيير الأكبر الذي حدث هو أن جيك أصبح قادر أخيرا على إجراء محادثة حقيقية، فالآن عندما أسأله عن يومه، أصبح لا يعطيني سردا سريعا لجدول أعماله، بل بدلا من ذلك يخبرني عن النكتة المضحكة التي قالها صديقه ناثانيال عن صديقه تريسي، أو ما فعله صديقه أوين عندما فشل في اختبار التفاضل والتكامل وما سيفعلانه والداه عندما يكتشفان ذلك، وكان يسألني عن الحضانة ويلقي نكات ساذجة؛ لأنه يعلم أنها ستسرني، ونظرا لأن جيك أصبح طرفا من النقاش الذي يدور بيننا ونحن في طريقنا من وإلى من المدرسة، فقد أجرينا أنا وهو أخيرا المحادثات التي لطالما حلمت فيها.

كما استفاد إخوة جيك من تطور حالته، ففي بعد ظهر أحد الأيام، قمنا بتشغيل التلفزيون لنجد أن إحدى المحطات كانت

تعرض بثا مباشرا لمزاد سيارات ميكوم، وفجأة وقف ويسلي ساكنا، حيث كان يرى جميع السيارات التي كان يحلم بها: كورفيت وكامارو وأخرى فاخرة مثل نايت رايدر، وبالطبع مجموعة مختارة من سيارات مازيراتي المحبوبة، وبمجرد أن سمعنا أن هذا المزاد كان يجري في إنديانابوليس خرجنا على الفور وربط الأولاد أحذيتهم في المقعد الخلفي.

كان علينا التسجيل بصفتنا «منافسين على الشراء» للدخول إلى المزاد، الأمر الذي كان مضحكا جدا، فلم يكن في حسابنا البنكي سوى ٥٢٠٠ دولار فقط، لكن الأطفال أدركوا أننا لن نتمكن من شراء أي شيء، فلقد ذهبنا إلى المزاد للمشاهدة فقط.

شعر ثلاثتهم بالإثارة بمجرد دخولنا، ويجب أن أعترف أن المنظر كان رائعا، حيث تميز المزاد بوجود كل سيارة سمعت عنها من قبل، والكثير من تلك التي لم أسمع بها.

أخذ ويسلي زمام المبادرة وبدأ يتجول مستكشفا كل سيارة وينظر في كل التفاصيل، وصولا إلى أغطية العجلات، حتى إن العِديد من الملاّك سمحوا له بالنظر تحت غطاء المحرك، وطوال الوقت، كان جيك يحفظ كل شيء في ذاكرته الموسوعية، وكان يكتشف الحقيقة بعد الأخرى عن السيارات.

لم أعتقد أبدا أنني سأبكي في مزاد للسيارات، لكنني وجدت أنه من المؤثر جدا رؤية أبنائي الثلاثة يسيرون، ويتوجهون معا، ويتحدثون بحماس عما كانوا يرونه، وعلى وجه الخصوص، بدا الأمر كما لو أن جيك وويسلي قد وجدا أخيرا أرضية مشتركة.

عدنا إلى المزاد في اليوم التالي واليوم الذي يليه، أخيرا، وصل المزاد إلى آخر السيارات الموجودة في الساحة، وشاهدنا سيارو أولدزموبيل تباع بثلاثة آلاف دولار وفولكس فاجن تباع بألفين وخمسمائة دولار، بعد ذلك، رأينا سيارة نيسان زد باللون الأزرق والرمادي، وقد كانت قديمة بما يكفي لتكون سيارة كلاسيكية، وكانت موجودة على الأرضية المغطاة بالسجاد الأحمر، وبدأ المزاد عليها بمبلغ خمسمئة دولار، وارتفع بزيادات قدرها مئة دولار إلى أن وصل إلى ألف دولار، فألقيت نظرة سريعة على ويسلي الذي استرعى الأمر انتباهه أيضا كما لفتت نظر مايك، وقد علمت أنه رآها أيضا، واستمر المزاد إلى أن وصل السعر إلى ألف وخمسمائة دولار، وحينها نادى البائع واحدة ومرتين دون أن ينبس أحد ببنت شفة؛ فرفع مايكل ويسلي على كتفيه وساعده في رفع بطاقة المزايدة، وأخيرا سقطت مطرقة المزاد معلنة أن سيارة نيسان زد أصبحت ملكنا، ابتسم الجميع ابتسامة عريضة فقد اشترينا للتو سيارة لابننا الأوسط.

هل ذهب عقلنا؟ من المحتمل أن يكون الأمر كذلك، التفت جميع التجار محدقين بين الجمهور ليبتسموا للصبي الصغير القابع على كتفي والده.

أنا متأكدة من أن كل واحد منهم قد تذكر شعور الوقوع في حب السيارة لأول مرة، وعلى الرغم من أنني أراهن على أن القليل منهم فقط يعرف شعور الحصول عليها! لكن كل ما كان يهتم به ويسلي هو تحقيق ما كان جيك يتمناه، وكان جيك مبتهجا للغاية، لقد كان يمسك بيد ويسلي طوال الوقت الذي كنا نقوم فيه بإنهاء إجراءات امتلاك السيارة.

عندما وصلنا إلى المنزل، ركض ويسلي متجها إلى الطابق العلوي وألقى بمجموعة عملاته المعدنية، فسألته وأنا أقف عند باب غرفته: «ماذا تفعل؟».

أجابني وهو يبحث منهمكا: «أبحث عن بنس الحظ»، وابتسمت حينها.

كان جدي يعطي عملة معدنية لامعة لكل من أحفاده الثلاثة عشر، وكان دائما ينبهنا إلى البنسات المحظوظة الموجودة على الأرض، - لم يخطر ببالي أي شيء يتعلق بذلك حينها، لكن الآن أصبحت أفكر في الأمر، ما الذي كانت تفعله كل تلك البنسات

هنـاك في ريف إنديانـا؟ - كنا كلما مررنا بالنافـورة، يعطينا الجد جون بنسا واحدا لإلقائه في النافورة وتمني أمنية.

لطالمـا عرضـت علـى أطفالي البنسـات لإلقائهـا، ولـم يكن جيـك مهتمـا أبـدا، ولا يبدو أن إيثان يهتم كثيـرا أيضا، ولكن منذ البداية، أخذ ويسلي هذه الأمنيات على محمل الجد، كانت هناك نافورة في المستشـفى حيـث كان يذهـب للعلاج عندما كان طفلا صغيـرا، وغالبا ما كان يقف أمامها، ويحدد رغبته بعناية قبل رمي العملـة المعدنيـة، حتـى عندمـا كبـر، كنـت أعطيـه عملـة معدنية لإلقائها كلما مررنا بالنافورة.

كان ويسـلي يبحث عـن العملات المعدنيـة الموجودة على أرضية غرفة نومه، ووجد بنسـا محظوظا، وظل يفرك ذلك البنس ليجعله لامعا وهو يقول: «لا أستطيع أن أصدق ذلك يا أمي، لقد تحققـت رغبتـي اليـوم! » قالهـا بـكل سـرور حيـث كان يتمنـى الحصول على سـيارة سـريعة، لـم أسـتطع منع نفسي من مضايقته قليلا فقلت له بسخرية «حقا؟، هل تمنيت سيارة نيسان زد؟».

بـدا مرتبـكا للحظة، ثم هز رأسـه وقـال: «لا، لـم أرغب في الحصول على سـيارة نيسـان، لم أرغب في الحصول على سيارة

علـى الإطـلاق، الشـيء الوحيـد الذي كنـت أتمناه هـو أن يلعب جيك لعبة السيارات معي».

عيد الشكر

وضع مايكل ذراعه حول خصري، كنا مثل الأطفال، نظرنا عبر نافذة داخلية صغيرة في الدور الثاني من مركز «ميدان جاكوب» الترفيهي، كانت النافذة تطل على ميدان الألعاب الرياضية في الأسفل، الذي يلعب فيه أربعون طفلا من المصابين بالتوحد بتواجد عائلاتهم.

سألت مايكل حينها: «هل ترى أن الأمر يبدو كما حلمنا به؟».

فأجاب: «بل أفضل».

قلت له: «بالنسبة لي، الكلمات لا يمكنها أن تعبر عن شعوري»، «فكيف هو شعورك؟».

قال: «عيد الشكر»، « أشعر تماما بأننا في عيدُ الشكر».

في يناير من عام ٢٠١١، تلقيت مكالمة من رئيس مجلس بلدية كيركلين؛ حيث أراد أن يقام حفل قص الشريط للاحتفال بافتتاح ميدان جاكوب بعد يومين.

لم نكن قد أنهينا العمل على المركز بأي شكل من الأشكال، ولـم يكـن لدينـا أي قطعـة أثـاث، فقضيت اليومين التاليين وأنا أتجـول وألتقـط أي قطعة أثـاث يمكـن لأصدقائنـا توفيرها، كما اشـتريت أريكـة دائرية ضخمـة بلون أحمر فاقع باسـتخدام بطاقة الائتمـان، لقـد كنـا دائمـي الحركـة لدرجة أننـا أحدثـا ضجة في المدينة.

قبـل بضـع سـنوات فقـط؛ لـم أتمكن مـن إقناع أي شـخص بتأجيـر مكان لي؛ لأن برنامجنـا الرياضي كان للأطفال المصابين بالتوحد، أما الآن فقد أصبح لدينا مكاننا الخاص.

أعلن الافتتاح وقص الشـريط في الصباح بحضور الكثير من العائـلات من ليتل لايت ومركز الأنشـطة الرياضية، وألقى رئيس البلدية خطابا، كما حضر عدد من رجال الدين وأدوا الصلاة بهذه المناسـبة، وسـاعدني أكثـر مـن عشـرين طفـلا فـي قـص شـريط الافتتـاح، ثـم وقفنا أنا ومايكل وشـبكنا أيدينا ونحن نراقب كيف أصبح حلمنا الممتد لعشر سنوات حقيقة.

بعـد ظهر ذلـك اليوم؛ حصلنـا على أول لمحة عما سـتكون عليه عطلات نهاية الأسبوع في ميدان جاكوب.

الغرفـة الأمامية عبارة عن ردهة يشـع فـي داخلها الضوء من

النوافذ الكبيرة المطلة على المحلات، وأحد الجدران مصنوع من الخشب الماهوجني القديم والذي تم التبرع به للمركز، ليكتمل المنظر بلوحة كوكا كولا قديمة معلقة، ولتمويل بعض الأنشطة فسوف نبيع الحلوى هنا، كما أن لدينا آلة صنع الفشار من طراز قديم ، حيث سنطلقها في الليلة المخصصة للألعاب، وتماشيا مع فكرة متجر الحلوى، كلفنا فنانا بعمل لوحة جدارية من حبوب الهلام ذات الألوان المختلفة، تماما كما فعلت مع الأطفال في الحضانة، أما الجدار المقابل فيزهو بلون تلك الأريكة الحمراء المخملية الضخمة، بينما انتشرت النوافذ الداخلية في كل مكان، بحيث يمكن للوالدين مراقبة أطفالهم، وكذلك، يمكن للأطفال رؤية والديهم دون الحاجة إلى أن يتكدس بعضهم فوق بعض، وخارج الصالة، هناك غرفة صغيرة يمكن للأطفال مشاهدة مقاطع الفيديو وممارسة الألعاب فيها، وفي الطابق العلوي يوجد مكان للدراسة يحتوي على طاولات كبيرة حيث يمكنهم القراءة أو التعلم، كما توجد غرفة صغيرة تتسم بالهدوء ومغطاة بالكامل بوسائد ناعمة، مع أكياس القماش الكبيرة، أما الإضاءة داخل المكان فكانت خافتة، بحيث إذا وجد الأطفال في أنفسهم نشاطا زائدا، فيمكنهم الغوص لبضع دقائق في جو من الراحة النفسية.

كنا لمرة واحدة في الشهر، نترك كرة السلة وننتقل إلى استخدام جهاز عرض الفيديوهات لمشاهدة أحد الأفلام - كان شراء حقوق الأفلام مكلفا؛ لذا نحن لا نفعل ذلك كثيرا كما كنا نرغب، لكننا اشترينا أحد أفلام شبكة إتش بي أو (HBO) وموضوعه التوعية بالتوحد، وتدور أحداثه حول أحد الناشطين في هذا المجال وهو د. تمبل جراندين -، وبمجرد مشاهدتهم للفيلم، بكت جميع الأمهات الحاضرات.

ما زلنا لا نحصل على ما يكفي من التمويل، وما زال لدينا الكثير لنفعله، كان أحد جدران السلم مطليا نصفه باللون الأخضر والنصف الآخر عليه فقط طبقة من دهان الأساس فقط، وظل هكذا لفترة من الوقت، ومن ناحية أخرى كان هناك بعض الأثاث، الذي تبرع به أحدهم بالكامل، ولم يكن في أفضل حالة، وكان هناك مجموعة من الأمهات يتجمعن مرتين في الشهر حول تلك الأريكة الحمراء للتحدث فقط، بينما تصدر ماكينة الفشار صوتا يشبه الطنين، ويتدرب الأطفال على فنون الدفاع عن النفس في الغرفة الخلفية.

كان هذا هو هدفي في الحياة، كنت أحلم أن أدير مكانا لا

يطالب فيه أحدهم الأطفال بما لا يستطيعون فعله أو يحاول «تقويم» أي منهم.

كان جيك يأمل في الحصول على أماكن آمنة للأطفال المصابين بالتوحد في جميع أرجاء البلاد؛ لأننا جميعا بحاجة إلى أشخاص آخرين وعائلات أخرى - بما يشبه المجتمع الواحد - لمساعدتنا خلال أدائنا لمهمتنا.

في اليوم الأول؛ كنت أتصور كيف سيبدو الأمر: الأمهات كن يحتسين الشاي ويتجاذبن أطراف الحديث عن مواعيد الطبيب، وعن نفور الأطفال من الطعام، بينما على الجانب الآخر يستكشف أطفالهن كل ركن وزاوية في المبنى، وفي النهاية يلعبون في صالة الألعاب الرياضية، أما الآباء فيلعبون لعبة الصيد مع أبنائهم، باستخدام الكرات الناعمة الإسفنجية التي اشتريناها.

زارت المكان إحدى المراسلات التي تعمل لدى صحيفة محلية مغمورة تسمى فرانكفورت تايمز، حيث أجرت حوارا معي أنا ومايكل وجيك أيضا، ونشرت الصحف المحلية الصغيرة عددا من القصص حول ليتل لايت وبرنامج الأنشطة الرياضية، وكنا نسعد بتلك الدعاية؛ حيث كان مرادنا أن يدرك الناس في المنطقة أننا أسسنا هذا المركز من أجلهم.

كان المقـال، عندمـا نُشِـر، عبـارة عن وصف موجـز للمبنى والخدمات التي نأمل في تقديمها.

بعد ذلك؛ تلقينا مكالمة من صحيفة ذا إنديانا ستار، ما زلت لا أعرف كيف سـمع مراسـل الصحيفة بجيك، وما إذا كان ذلك من خلال فرانكفورت تايمز أو من مجلس مدينة كيركلين، أو أي شـخص آخر، على أية حال سـأل المراسـل عمـا إذا كان بإمكانه التحـدث إلينـا، وبالطبع قلنـا: نعم، وكان الاهتمـام من الصحيفة مثيرا للغاية، حتى لو كان ذلك عن طريق ذكرنا في جزء ضئيل من إحدى ورقات الصحيفة، وعندما زارنا المراسـل في منزلنا، كنت أنا ومايكل نجتمع مع محاسبنا ونتحدث عن إعادة تمويل منزلنا، وبعد بعض الأسـئلة السـريعة، حولت المقابلة إلى جيك، وكنت واثقة من أنه سيمثل المؤسسة الخيرية خير تمثيل، كان يعرف كل شـيء، واعتقـدت أنـه قـد يكـون مـن المثيـر للاهتمـام أن يعرف المراسـل عـن قـرب ما هي الأشـياء التـي كان الأطفـال يفعلونها هناك مع أصدقائهم، وعلى سـبيل التذكير، قلت لجيك: «لا تنس أن تخبـره عن ليلة الألعـاب العائلية»، ثم عدت إلى اجتماعنا مرة أخرى، بعد عشـر أو خمسة عشـرة دقيقة، سمعت الباب الأمامي يغلق، عندما سـألته لاحقا، قال جيك إن محادثتهما سـارت على ما يرام، ولم يخطر ببالي مطلقًا أن أسأل عما تحدثوا عنه.

في وقت لاحق من ذلك الأسبوع، ومع بدء الحضانة، أتى مراسل الصحيفة إلى منزلنا مرة أخرى؛ حيث طلب مني بعض الصور لجيك ليضيفها إلى مقال سيظهر في عدد يوم الأحد، وفي تلك الليلة، اتصل الدكتور دارولد تريفيرت ليطلب منا الإذن بالتحدث مع مراسل الصحيفة عن جيك، يعيش الدكتور تريفيرت ويعمل في ولاية ويسكونسن؛ لذلك تأثرت بما أحدثه مقال صغير حول جمعية خيرية للتوحد في كيركلين في إنديانا، والتي التي يقل عدد سكانها عن ثمانمائة.

في صباح يوم الأحد المنتظر؛ استيقظنا مبكرا للحصول على الصحيفة، انتابني شعور بالحماس الحقيقي لرؤية المقال، وحتى لو كان مكانه مخفيا خلف إعلانات بيع الأراضي والقطط، فقد كان هذا الأمر يمثل لي أهمية كبيرة، ركبنا السيارة وسافرنا إلى كروجر، وهو محل بقالة يبعد مسافة ميل واحد عن منزلنا، عندما وصلنا إلى ساحة انتظار السيارات ونزلنا من السيارة، سمعنا أشخاصا بالجوار يقولون: «ها هو! ها هو!»؛ نظرنا أنا ومايكل في حيرة من أمرنا، فلم تكن مدينتنا تحظى بوجود الكثير من المشاهير، ولكن من حين لآخر يأتي أحد سائقي سباقات ناسكار للسيارات، ويحدث الناس جلبة كبيرة حوله، ولكن لم يكن هناك

أي سائق ناسكار في موقف سيارات كروجر، وكل هؤلاء الناس كانوا يشيرون إلى جيك وينظرون إليه!

جيك، الذي كان يرتدي سرواله القصير ويشارك إيثان الاستماع إلى أغنية كاتي بيري التي كان يحبها، وقبل أن نستوعب ذلك، كان هناك حشد من الناس قد التفوا حول ابننا، وكانوا يطلبون منه قراءة أعداد باي.

عندما رأيت وجه جيك على الصفحة الأولى من صحيفة إنديانابوليس ستار، شعرت بالدهشة وسألت مايكل وأنا أشعر بالحيرة: «لماذا؟»، ثم أكملت سؤالي قائلة: «لماذا يهتم أي شخص بجيك؟».

أعتقد أن الأمر ليس لأنه كان مميزا، فأنا والدته، ومن المفترض أن أعتقد ذلك.

لقد أيقنت حينها أن جيك كان طفلا غير عادي، وكانت صورته على غلاف الصحيفة غير عادية.

علم جميع أصدقائنا بما كان يفعله، ولم يكترث الكثير منهم بالأمر، ولكن بدت صورته على الصفحة الأولى من الصحيفة مختلفة بالنسبة للجميع.

بمجرد أن وصلنا إلى المنزل، كان الهاتف يرن، وكان الطرف

الآخر في المكالمة معلمي جيك السابقين في مدرسته الابتدائية وأولياء أمور الأطفال الذين بالكاد يعرفهم، وكذلك تحدثنا مع أصدقائنا، وانهالت الاتصالات علينا من كل حدب وصوب، لم نكن على تواصل مستمر مع الكثير من هؤلاء الأشخاص؛ لذلك لم تكن لديهم أي فكرة عما كان ينوي فعله.

اعتقدت إحدى أساتذته السابقين أننا تركنا مدرستها لأننا انتقلنا إلى مكان آخر، ومن خلال حديثي معهم، بدأت أدرك كيف بدت قصة جيك غريبة بالنسبة لشخص غير مطلع على تفاصيل الأمر، وكان رد الفعل الشائع هو الشك في الأمر، حيث كان يساورهم الشك وهم يتساءلون: «هل يفعل حقا كل هذه الأشياء؟».

ما إن وصلنا إلى وقت الظهيرة، حتى أصابني شعور بالإجهاد، يبدو أننا التقينا بكل من كنا نعرفهم من قبل، وحدث كل ذلك في أعقاب أول أيام الافتتاح الناجح للمركز، الذي كان بمثابة حدث ضخم في حد ذاته، وفي وقت مبكر من المساء، تناولت وكالة أسوشيتيد برس القصة، ثم تناولتها كل وسيلة إعلامية رئيسية في عالمية تقريبا، وعندما استيقظنا في صباح اليوم التالي كانت القصة قد انتشرت في كل مكان.

في الحقيقة لم أجرب أي شيء في حياتي كلها يشبه الذي جرى في تلك الأيام، لقد اتصل بنا كل برنامج صباحي سمعت عنه من قبل، وكل صحيفة وقناة تلفزيونية، وما إن نرفع سماعة الهاتف، حتى يقول لنا المذيع على الطرف الآخر «أنتم على الهواء!»، تتميز المنطقة التي نعيش فيها بالهدوء التام، وباستثناء أصوات الطيور أو أصوات الأطفال وهم يستقلون دراجاتهم، فلن تسمع أبدا صوت أي شيء في منطقتنا، لذلك؛ لم يكن من المعتاد أن نستيقظ على صوت مثل هذه الجلبة، حين سمعت مايك من الطابق السفلي وهو يقول: «ما الذي أراه هنا»، كان هناك الكثير من الصحفيين الذين اكتظت بهم حديقة منزلنا.

اتصل بنا أشخاص من هوليوود، وحصل جيك على عروض عمل ومنح دراسية من جميع أنحاء العالم، واتصلت بنا العديد من المراكز البحثية والمؤسسات الفكرية، بالإضافة إلى تواصل ستيفن ولفرام معنا، وهو العالم الذي طوّر تطبيق ماثيماتيكا (Mathematica)، ومحرك المعرفة الحاسوبية، وولفرام ألفا (Wolfram Alpha)، ثم أرسل لي أحد الأصدقاء صديق صحيفة صينية، والشيء الوحيد الذي استطعت قراءته فيها هو «جاكوب بارنيت، ١٢ عامًا» التي برزت في بحر من الأحرف الصينية.

كنا بالكاد نستطيع الخروج من منزلنا؛ حيث كان هناك فتيات يحملن لافتات كتبن عليها: «نحن نحب جاكوب!»، وكان الناس يأتون إلينا ويطلبون الحصول على توقيع جيك أو التقاط صورة معه سواء تواجدنا في دنكن دوناتس أو في مطعم الوجبات الخفيفة الذي اعتدنا الذهاب إليه أو في متجر البقالة، - يحسب لويسلي أنه قام بتصرف وحيد للاستفادة من سمعة أخيه حيث كان يقول: «أعتقد أنه يمكننا الآن الالتقاء بتوني هوك لاعب ألواح التزلج والممثل» -.

كان أحد المعالجين ممن عمل مع أحد الأطفال لمدة عام لدينا في الحضانة يطلق صرخة قوية كما لو كان مراهقا عندما يرى جيك، وكان هذا أسخف شيء رأيته في حياتي، قلت له على سبيل الاستنكار: «لقد قابلت جيك الأسبوع الماضي، ولم يتغير شيء بين الأسبوع الماضي وهذا الأسبوع، فما سبب هذه الصرخة؟».

كما كان من المقرر أن نذهب إلى حفل زفاف في نهاية الأسبوع، لكنني ألغيت الموعد، ظنا مني بأن جيك سيخطف الأضواء من العروس والعريس.

كانت الأضواء مسلطة على جيك أكثر من اللازم، وهذا إلى

حد ما وبكل صراحة لم يكن سارا أو مقبولا بالنسبة لي، حيث كان كل ذلك في سبيل الحصول على تصريح معين أو قصة ما، وكان الصحفيون مثابرين للغاية، لدرجة أن بعضهم قد يتسم بالشراسة والعداونية.

لقد قدمت عائلتنا الكثير من الأعمال الخيرية، ونحن لا نحب أن نعلن عنها لأننا نشعر بأن ذلك أكثر إخلاصا؛ لذلك لم تكن لدينا رغبة في الاهتمام المفرط بما نقدمه، وكان ذلك الاهتمام غير مرحب به، وعلى أقل تقدير كنت خائفة مما قد يؤدي إليه هذا الأمر في النهاية، حيث كان الناس يتصرفون بجنون، لدرجة أنني ضبطت اثنين من الصحفيين القادمين من لندن وهم يحاولون اقتحام قبو منزلنا، وفي تلك الليلة صنعت لجيك سريرا على أريكة استرخاء في غرفة نومنا، حيث ظل ينام هناك لمدة شهر كامل.

كما كانت حماية جيك مما يقوله الآخرون عنه تزداد صعوبة، كما حدث عندما صرحت إحدى الصحف الشعبية في المملكة المتحدة بأنه سيكون شريرا خارقا وهو التعبير الذي آذى مشاعر جيك، حتى إنه سألني حينها بكل حزن: «لماذا يقولون ذلك عني

وهم لا يعرفونني؟»، وواصل أسئلته: «أنتما تعلمان أنني لن أفعل أي شيء لإيذاء أي شخص، أليس كذلك؟».

أخيرا ابتعدت وسائل الإعلام، لكن التجربة كانت قاسية بالنسبة لي ولمايكل، حيث كنا ولسنوات نعيش في ظل تشخيص حالة جيك بأنه مصاب بالتوحد، ولكننا الآن ننظر إلى الأمر بشكل مختلف، حيث لا يزال جيك مصابا بالتوحد، وهذا التوحد لم يتمكن جيك من تجاوزه، بل هو شيء يمر به كل يوم ويتغلب عليه؛ فهو لا يزال شديد الحساسية والملاحظة تجاه جميع أنواع الأشياء التي لا يلاحظها غيره على الإطلاق، مثل: الأضواء الساطعة، وأزيز المصباح المتوهج، وتغير الأرضيات من الخرسانة إلى البلاط تحت الأقدام.

لقد كان جيك يفخر بالأشياء التي تجعله مختلفا، وتميزه عن الآخرين، وقد منح الفرصة للتخلي عنها، لكنه اختار الاحتفاظ بها، أما وسائل الإعلام فقد ساعدتني ومايكل على فهم أن التوحد لم يعد الموضوع الأبرز في رحلتنا مع جيك.

لفترة طويلة لم أفهم لماذا تفاعل الناس مع جيك بتلك الطريقة، أما الآن، فأصبحت أعتقد أن لدي فهما أفضل للأمر، فقد تكون نشأتي مع أختي ستيفاني تلك الفنانة العبقرية، وزواجي

من مايكل وتربية أطفالي أثرت سلبا على فهمي لمدى ندرة مواهب مثل تلك التي يتمتع بها ابني، وبمجرد ظهور المقالة في صحيفة ذا إنديانا بوليس ستار، تحدثت إلى الدكتور تريفيرت، الذي أوضح أن هناك عددا كبيرا من الأطفال الموهوبين، وتتراوح درجات موهبتهم من عادية إلى متوسطة إلى عالية إلى متقدمة إلى استثنائية، ينتمي جيك إلى مجموعة المواهب الاستثنائية، حيث يوجد أقل من شخص موهوب بشكل استثنائي بين كل مليون شخص وفقا لما ذكرته ميراكا جروس في كتابها: «الأطفال الموهوبون بشكل استثنائي»، وهذا يعني أن أشخاصا مثل جيك نادرون للغاية.

ساعدت التعليقات الصادرة من الأشخاص الذين سمعوا عن جيك في إلقاء الضوء على سبب استحواذ قصته على خيالات الكثيرين، وقد صاغت نارني العبارة بشكل أفضل حين قالت: «جيك هو الخبر السار بين كل الأخبار»، كما استثمر الناس حقيقة أن جيك مصمم على فعل شيء جيد من خلال موهبته، وكانت تنتشر أخبار جيك السارة في الوقت الذي تمتلئ فيه الصحف بالأخبار التي تجلب الحزن والتشاؤم حول الأطفال في أمريكا ونتائجهم المخيبة للآمال في القراءة، وزيادة معدلات السمنة بين السكان، وانتشار الأسلحة والبنادق في المدارس،

وبزوغ ظاهرة الأمهات المراهقات التي تتصدر برامج التلفزيون، بالإضافة إلى أخبار المدارس العامة في إنديانا التي تعاني الكثير بسبب نقص ميزانياتها لدرجة أن بعضها قطع خدمة الحافلات.

بالفعل لا نسمع الكثير من الأخبار السارة عن الأطفال في هذا البلد، ولكن جيك كان بالفعل هو الخبر السار في خضم كل تلك الأخبار الحزينة.

لقد أصبحت قصة جيك بمثابة ملحمة أمريكية؛ لأنه عندما تقرأ عن نتائج الأطفال المخيبة للآمال في الاختبارات، تكتشف إن المقالة تنتهي دائما نفس الطريقة من التشاؤم، وعلى الجانب الآخر نجد أن الأطفال في الصين أو الهند، أو في أي مكان في العالم يستطيعون حل مسائل الرياضيات، أما أطفالنا فلا أمل فيهم من هذه الناحية، وبالطبع هذا ليس صحيحا على الإطلاق، لكن العديد من الأشخاص الذين اتصلوا بنا قالوا إن وجود شخص مثل جيك باعث على السرور والبهجة في ظل تلك الأخبار المحزنة، وعلى الرغم من أنني سعيدة لأن الأطفال الذين يحبون الرياضيات في جميع أنحاء العالم يتقدمون للأمام، إلا أنني أعترف أن رؤيتي لإحدى صفحات ويكيبيديا حول جيك

والتي تصدرتها عبارة «جاكوب بارنيت، عالم الرياضيات الأمريكي» جعلت قلبي يخفق بشدة من السعادة.

من المهم لي ولمايكل أن نوضح أنه لا يوجد شيء غير طبيعي أو خارق للطبيعة في جيك؛ حيث يعتقد بعض محبي المعالج الروحاني والطبيب النفسي إدغار كايس أن جيك نسخة منه، كما تنبأ بذلك كايس نفسه، ففي يوم سبت عادي، رن جرس الهاتف ورفعت السماعة وأجريت محادثة مع شخص يعتقد أن ابني هو أحد أمثلة تحقيق بعض التنبؤات الصوفية.

لكن جيك ليس خارقا للطبيعة، إنه لم يتخرج حتى من مدرسة خاصة في مانهاتن، هو يعيش في أحد حقول الذرة في ولاية إنديانا، ولا يبدو مختلفا عن الأطفال الآخرين ممن هم في مثل عمره، كما أنه لا يتصرف بشكل مختلف أيضا، على الأقل ليس في معظم الأوقات، إنه مجرد طفل بريء، ولكنه مميز في نفس الوقت، طفل يرتدي قبعة بيسبول بشكل مقلوب، ويستطيع القيام بأشياء لا تصدق، وهذا العقل غير العادي متدثر بغلاف عادي للغاية.

اتفقت أنا ومايكل على إجراء مقابلة مدتها ساعة في برنامج

على المجلة الإخبارية لشبكة سي بي إس، لنوضح من خلالها أنه لا وجود لأية أسطورة خارقة للطبيعة لدى جيك.

في المرة الأولى التي اتصل فيها منتج البرنامج؛ شعرنا كما لو أننا داخل مسلسل توايلايت زون الذي عرض على نفس القناة، وفي محاولة منه لمقاطعتي، كتب مايك على لوحة الهاتف «سنسمع تعليق بطل المسلسل رود سيرلينج في أي لحظة الآن»، ولكن بعد أن تحدثنا إلى المنتج، تبين لنا أن البرنامج ملتزم بتقديم فقرة متميزة، وانتابني شعور بأنه يمكنني أن أثق في أنهم لن يُظهروا جيك بمظهر المهووس بالطبيعة، وكنت أعلم أن ظهورنا أمر واجب، حتى ولو لم نمنح الأمل إلا لأم واحدة أبلغها الخبراء بأشياء كثيرة لا يستطيع طفلها المصاب بالتوحد القيام بها.

إن معرفة أن ساعة من التصوير ستتم في منزلك طريقة ممتازة لجعل زوجك ينجز جميع المشاريع الصغيرة التي كان يؤجلها، أما أنا فلم يخطر ببالي قبل عشر سنوات أنني في أحد الأيام سأصرخ قائلة: «جاكوب بارنيت، يجدر بك أن تكون متأكدا من أن مولّد فان دي غراف الذي ستستعرضه لن يصعق مذيع سي بي إس السيد مورلي سيفر».

ركوب الأفعوانية

بعد نشر المقالة في صحيفة إنديانا بوليس ستار؛ انهالت علينا الطلبات لإجراء المقابلات، ووصلتنا الكثير من تلك الطلبات من أكاديميين مهتمين بالتعرف على جيك، وجاءتني أبرز تلك الطلبات عبر رسالة بريد إلكتروني من طبيبة في جامعة ولاية أوهايو تقوم بدراسة عبقرية الأطفال.

سأقولها بكل صدق وصراحة، لقد تعاملت مع هذه الرسالة بنوع من الرعب، كان هناك شيء غير محبذ في داخلي حول فكرة السماح باستخدام طفلي في تجارب البحث العلمي؛ لذلك لم أعر تلك الرسالة اهتماما على الإطلاق، أما مايكل فلم يستطع مقاومة الإفصاح عما يدور بداخله تجاه جيك فقال له: «لقد وهبناك للعلم!»؛ أجاب جيك بجفاف: «يمكنهم دراستي عندما أموت»، ولكن بمجرد أن فتحت رسالة الدكتورة جوان روثساتز، تبين لي أنني تسرعت في الحكم، فقد كان البحث الذي كانت تقوم به مقنعا في حد ذاته، وروثساتز متخصصة في الأسس الجينية التي يشترك فيها الأطفال العباقرة وغيرهم من المصابين

بالتوحد، وكان جيك مهتما جدا بهذا الأمر، لا سيما وأنه يتمتع بالقدرة على مساعدة الكثيرين من الأشخاص الذين يعانون، بالإضافة إلى ذلك بدت الدكتورة روثساتز مليئة بالإنسانية، كما بدت أنها ستعامل جيك كإنسان، وليس كفأر تجارب.

كانت روح المرح التي تتمتع بها وشغفها بأبحاثها تنتقل كالعدوى إلى من يتعاملون معها، وقد دعتنا أن نذهب إليها في أوهايو.

عند هذه النقطة؛ بدأنا أنا ومايكل في التفكير أن الهروب من الأمر لفترة من الوقت قد لا يكون فكرة سيئة، حيث هدأت حدة العاصفة الإعلامية قليلا، لكن لا زال يصلنا العديد من المكالمات في اليوم، ويتواصل معنا الآخرون كلما خرجنا، وكانت النقطة الفاصلة هي أن الدكتورة روثساتز يمكنها أن تمنحنا تذاكر إلى سيدار بوينت، وهي مدينة ملاهي كبيرة في ساندوسكي في ولاية أوهايو، بها أكثر من خمسة وسبعين لعبة مختلفة، بما في ذلك ستة عشر أفعوانية.

سافرنا إلى أوهايو، وفي صباح اليوم التالي وصلت الدكتورة روثساتز إلى فندقنا لإجراء تقييم جديد لمعدل الذكاء لدى جيك، وأكدت الطريقة التي أعدت بها الاختبار ما لدي من شعور جيد

تجاهها، بينما اصطحب مايكل إيثان وويسلي إلى حمام السباحة، وكان جيك يجلس بشكل مريح في غرفة مشمسة هادئة تطل على حديقة صغيرة جميلة، وبدأ الاختبار وهو يجلس على كرسي أمام النافذة، وأمامه صينية من الكعك.

صمّم مقياس ستانفورد بينيه للذكاء (Stanford-Binet IQ) بطريقة تجعل التقدم في الاختبار مقيدا بإجابات المشترك الصحيحة في كل فئة من فئات الأسئلة، وكلما تقدم الاختبار تزداد الأسئلة صعوبة بشكل تدريجي، إلى تختبر في النهاية أقصى قدرات المعرفة لدى المشترك، فالإجابة على سؤالين متتاليين بشكل غير صحيح يعني اقترابك من الوصول إلى النهاية، والإجابة الخاطئة للمرة الثانية في نفس الفئة تعمل مثل الجرس الصامت الذي يوجه القائم بالاختبار إلى الانتقال إلى الفئة التالية، ولا يصل إلى أقصى المراحل في فئة واحدة إلا القلة القليلة ممن يخضعون للاختبار، فما بالك إذا تعلق الأمر بأكثر من فئة.

أثناء مراقبتي لجيك، كان بإمكاني أن أرى أنه كلما ازدادت الأسئلة صعوبة، كانت متعته تزيد، وكمثال على ذلك قرأت الدكتورة روثساتز قائمة من ستين حيوانا لجيك بترتيب عشوائي تماما، فكررهم مرة أخرى، بنفس الترتيب بالضبط، بعد ذلك

عرضت عليه قائمة بالحيوانات، تم تنظيمها عشوائيا مرة أخرى، هذه المرة بألوان مخصصة عشوائيا (حمار وحشي = أخضر، نمر = أرجواني، كلب = أزرق)، ومرة أخرى، كررهم جميعا بشكل صحيح، ثم بعد حوالي عشرين دقيقة حدثت فيها بعض الإشكالات غير المتعلقة بالاختبار، طلبتُ من جيك مرة أخرى تكرار أسماء الحيوانات على مسامع الدكتورة روثساتز، ففعل ذلك بشكل مثالي بالترتيب الصحيح بالأسماء وكذلك الألوان، فعلها بينما علت وجهه ابتسامة عريضة، وعند ذلك التفتت إلي الدكتورة وقالت: «لم يحدث هذا من قبل، أبدا، على مر التاريخ».

من الواضح أن جيك كان يعيش في عصف فكري رهيب وهو ما انعكس على ملامح وجهه وأشعرني بالقلق وعدم الراحة كلما ازدادت الأسئلة صعوبة، في النهاية كان مستوى الصعوبة أشبه بالمستحيل، عندها شعرت بالارتباك الشديد، كيف يمكن لأي شخص، ناهيك عن ابني، أن يجيب على مثل هذه الأسئلة؟ شعرت وكأن الأمر قد وصل مرحلة من المغامرة والتهور دون الاكتراث بما إذا كان ذلك رائعا أو مرعبا، وبالطبع كنت أعلم أن جيَك يتمتع بمعدل ذكاء مرتفع، وكنت أعلم أن معظم الأطفال في سن الثانية عشرة لم يدرسوا نظرية المجال الكمي، لكن ربما لأنني كنت على الجانب الآخر من الطاولة، أشاهد هذه المناقب

والخصـال المذهلـة لأول مرة، فإن ما شـاهدته فـي ذلك الصباح أحدث أثرا جديدا علي، وعندما انتهى الاختبار وأغلقت الدكتورة روثسـاتز دفترها بهدوء واسـتدارت نحوي والدمـوع تملأ عينيها شعرت بالدوار.

كان جيـك قـد تجـاوز الاختبـار، وكان مـن النـادر للغايـة الوصول إلى سـقف فئة واحدة فقط من فئات الاختبار، حيث لم يسـبق أن رأت الدكتورة روثساتز هذا يحدث إلا مع القليل طوال مسيرتها المهنية، ولـم تر من قبل أي شخص يفعل ما فعله جيك، وهـو الوصـول إلـى أقصى مستوى من الاختبـار فـي العديد من المجالات المعرفية والفئات.

لا نصـادف فـي الغالب أشـخاصا يمكنهم إخبارنا بشـيء لا نعرفه عن أطفالنا، لكن في نهاية هذا الأسبوع ساعدتني الدكتورة روثساتز على فهم الكثير مما يتمتع به جيك من قدرة عقلية مبهرة، وكيـف يسـتفيد من ذلك، فقد شـرحت لي على سـبيل المثال أن جيك بلغ أقصى حدود الاسـتفادة من تشغيل: «الذاكرة العاملة»، وهي ذلك الجزء من الدماغ الذي نستخدمه عندما نريد أن نبحث عـن رقم هاتـف ليبقى في الذاكرة لفترة كافيـة للاتصال به؛ حيث يضطر معظمنا أن يردد الرقم من أجل الاحتفاظ به في أذهاننا ولو

لفترة قصيرة، أما بالنسبة لجيك فإن الأمر مختلف، ليس فقط فيما يتعلـق بحفظ رقم هاتف مكون من عشـرة أرقـام، ولكن أيضا في حفـظ معادلات من عشـرين صفحة، وبينما ننسـى أنـا وأنت رقم الهاتـف هـذا علـى الأرجـح بعد ثوان مـن الاتصال بـه، إلا أنه لا ينسـى أبدا عند جيك، إنه يتذكر كل شيء كما لو كان حفظه للتو؛ لذلـك فهو لا يحتاج إلى محاولة تذكر المعلومة واسـتعادتها بعد أسـبوع أو شـهر أو حتـى بعد عام، لأنـه بمجرد أن يراهـا ويقرأها ويتعلمها فسـتظل موجودة لديه ليسـتخدمها أو يسـتفيد منها متى احتـاج إليهـا، وهذا هو السـبب في أنه اسـتطاع حفـظ أعداد باي حتى مئتي رقم، وقرأها من اليسار لليمين والعكس بنفس السهولة واليسر، إنه يرى تلك السلسلة المكونة من مائتي رقم بعين عقله، ويمكنه الاحتفاظ بها بنفس السـهولة التي نحفظ بها نحن رقمين أو ثلاثة أرقام.

تنتشـر هـذه الذاكـرة العاملـة المـزودة بشـاحن توربيني عند أصحـاب المواهـب الخارقـة، وهي أحـد الأجزاء التـي تجعلهم قادريـن علـى فعـل مـا يفعلونـه، وتعتقـد الدكتـورة روثسـاتز أن أصحاب المواهب الخارقة يستخدمون جزءا مختلفا من عقولهم لتنشيط الذاكرة العاملة، غير الذي نستخدمه، كما تعتقد الدكتورة أن هـذا هـو ما يميز قـدرة أصحاب المواهـب الخارقة على تذكر

المعلومات ذات الترتيب الأعلى بثبات واستقرار، وبالنسبة لجيك فإن تذكّر هذه المعادلة يشبه تذكري أنا وأنت تفاصيل أول مرة تعلمنا فيها السباحة.

بصياغة أخرى سيكون من المستحيل بالنسبة لمعظم الناس أن يستحضروا عددا مكونا من مائتي رقم من الذاكرة، ولكن إذا كتبه شخص ما لك على قطعة من الورق، فستتمكن من قراءته من اليسار إلى اليمين والعكس بكل سهولة ويسر، لأنه موجود أمامك عينيك، هذا هو بالضبط ما تبدو عليه التجربة بالنسبة لجيك عندما يتذكر سلسلة طويلة من الأرقام، وقائمة من ستين حيوانا، ورسم بياني معقد، وما إلى ذلك. كما أوضحت لي الدكتورة روثساتز أيضا؛ أنه بدلا من وجود ورقة واحدة تحتوي على هذا العدد المكون من مائتي رقم، فإن ذاكرة جيك النشطة تحتوي على قطعة من الورق بحجم ملعب كرة قدم.

ليست لدينا أدنى فكرة عن مدى قوة الذاكرة العاملة لدى جيك؛ لأنها تجاوزت مقياس الاختبار مما يجعل من الصعب قياسها، لكن من المؤكد أنه يتذكر كل شيء تعلمه عن ظهر قلب، ويحتفظ بكل هذه المعلومات حتى يسترجعها ويستخدمها متى أراد ذلك.

إن الجميع، بما فيهم أساتذة الفيزياء يستخدمون أوراق لحفظ الصيغ والتراكيب الطويلة، وهي الصيغ التي يمكننا العثور عليها على الإنترنت، وتباع نماذج منها في مكتبات الكليات، حيث يتم تشجيع الطلاب على حملها في كل مكان، حتى في قاعات الاختبارات، ومن غير المتوقع من أي شخص على وجه الأرض أن يحفظ جميع الصيغ التي قد يحتاجها لحل مسائل الرياضيات والعلوم عالية المستوى، لكن جيك على العكس من ذلك تماما، فهو لم يستخدم مثل تلك الأوراق طوال حياته.

رغم أن ذاكرة جيك العاملة ذاكرة استثنائية وغير عادية في نطاقات معينة، إلا أنها ليست بتلك الدرجة في نطاقات أخرى، فعلى سبيل المثال: ذاكرته المتعلقة بالحواس والتذوق ذاكرة دقيقة؛ لأنه في الحقيقة يستعيد مشهد كل وجبة، ويمكنه أن يستحضر على الفور الخصائص المادية للمشهد، خاصة فيما يتعلق بأي شيء له نمط خاص به، وهي الطريقة التي يمكنه من خلالها رسم كل شكل من أشكال أغطية إطارات السيارات التي شاهدها في موقف السيارات، ولكن في الوقت ذاته، يواجه جيك صعوبة في تذكر الروائح، التي تعد بمثابة محفز قوي للذاكرة لدى معظم الناس، ومثل العديد من المصابين بالتوحد، لديه

الكثير من المشاكل في تذكر المحادثات وما يقوله الأشخاص الآخرون.

لقد شعرت الدكتورة روثساتز بصدمة عند رؤيتها لما يتمتع به جيك من ذكاء مكاني بصري متقدم بشكل لا يصدق، وهو أمر نادر للغاية حتى في أصحاب المواهب الخارقة، فإذا كانت ذاكرته العاملة تشرح كيف يمكنه عزف مقطوعة موسيقية كلاسيكية بعد سماعها لمرة واحدة، فإن ما يتمتع به من ذكاء مكاني بصري هو ما جعل جيك وهو في الرابعة من عمره، ينظر إلى الخريطة للحظات ثم يرسم مسارا واضحا وسط مدينة شيكاغو؛ وهذا فسّر لنا لماذا كان ويسلي شديد الإصرار على أن يشاركه جيك اللعب في أحد الأيام عندما كان جيك يقوم ببحث ضروري، لقد أحضرت للأطفال صندوقا من المصاصات، وكانوا يبنون حصونا وبلدات لجنود من الدُمى.

وعلى سبيل التذكير، قلت لويسلي: «أنت لست بحاجة إلى الاستعانة بجيك للبناء معك».

لكن ويسلي أدار عينيه وقال: «أمي، لا يمكنني بناء مدينة واشنطن العاصمة».

بعد عودتنا من رحلة إلى نيويورك، بنى جيك لويسلي نسخة

طبق الأصل من مدينة نيويورك، ظهرت بها المعالم الرئيسية وأنظمة الطرق والمكان الذي أقمنا فيه، وبعد رحلة قمنا بها إلى واشنطن، قام جيك ببناء نسخة طبق الأصل من تلك المدينة أيضا، وبرزت بها قبة الكابيتول في مبنى الكونجرس والتي كانت صغيرة ومثالية رغم أنها مصنوعة من المصاصات المتداخلة، كذلك بنى جيك لويسلي نموذجا لجزيرة أواهو في هاواي؛ لأن إحدى ألعاب الفيديو الموجودة لدى مايكل كانت تحتوي على خريطة مفصلة للجزيرة، كما أوضح ويسلي أنه باستخدام خرائط جوجل كان يستطيع بناء أي مكان حيث قال: «يمكنه أن يبني لي أي مكان أريد الذهاب إليه».

وبعيدا عن المدن المبنية من المصاصات، يعد هذا الذكاء المكاني البصري المتقدم الذي يتمتع به جيك عنصرا أساسيا في قدرته على التميز في الرياضيات والفيزياء عالية المستوى، وعلى وجه التحديد استطاعت الدكتورة روثساتز أن توضح لي أن هذا هو المفتاح لما يعنيه جيك عندما يقول إنه «يستخدم الرياضيات» في تحديد العديد والعديد من الأبعاد.

أدرك علماء الرياضيات أن الأرض ليست مسطحة قبل وقت طويل من إثبات العالم ماجلان لهذه النظرية، وكذلك يفترض

العديد من علماء الرياضيات أن هناك أبعادا أكثر من الأبعاد الثلاثة التي يمكننا إدراكها، رغم أنهم لم يستطيعوا إثبات ذلك حتى الآن، ولكن يجد معظم الناس أنه من السهل نسبيا التفكير في ثلاثة أبعاد فقط، كما أنه ليس من الصعب استحضار شكل التفاحة في ذهنك، أو تخيل شكلها عندما تنقلب رأسا على عقب في الفضاء.

أنا وأنت يمكننا تخيل ذلك من خلال رؤيتنا للطريقة التي تحاول بها النملة أن تزحف على سطح تفاحة، حيث تعد التفاحة بالنسبة إلى تلك النملة عالما مسطحا، ولكن إذا قمنا بتصغير المشهد، فيمكننا أن ندرك أن سطح التفاحة مستدير.

يتفق جيك مع الرأي القائل بأنه من المحتمل أن يكون هناك أكثر من ثلاثة أبعاد بكثير، ولكن على عكس العديد من العلماء، بما فيهم أولئك الذين يعملون في هذا المجال، فإن جيك يتمتع بالقدرة على تخيل شكل الأشياء بالصورة التي قد تظهر عليها في تلك الأبعاد الأخرى، إنه لا يراها فعليا، ولكن يمكنه إجراء بعض العمليات الحسابية المعقدة للغاية التي من شأنها أن تسمح بوجود أبعاد أخرى، وتسمح له مواهبه المكانية البصرية بمعالجة ما تعنيه هذه الرياضيات بشكل كامل؛ فكما نعرف أنا وأنت

القواعد التي تنطبق على الصورة التي نحتفظ بها للتفاحة في أذهاننا، ويمكننا أن نتخيل كيف ستبدو عند قطعها إلى نصفين، أو قلبها على جانبها، أو رميها ومشاهدتها وهي تتحطم على الجدار إلى قطع صغيرة، فإن جيك يتمتع بالمرونة نفسها مع الخصائص والقواعد التي تنطبق على الأشكال الأكثر تعقيدا ذات الأبعاد المتعددة.

هذا التناغم الفريد بين الذاكرة العاملة، والذكاء المكاني البصري المتقدم، والاهتمام غير العادي بالتفاصيل المادية، يمنح جيك القدرة على استكشاف الرياضيات والفيزياء عالية المستوى بطريقة لا يقدر عليها إلا القليل جدا من الناس، كما قالت الدكتورة روثساتز ذلك أيضا: «يمكن لجيك أن يرى أبعد مما يمكن لمعظمنا أن يفهمه أو يستوعبه معرفيا».

كما تمكنت الدكتورة روثساتز من الإجابة عن عدد من الأسئلة الأخرى التي كانت تمثل ألغازا بالنسبة لنا؛ حيث أوضحت أنه عندما كان الطفل جيك ينظر إلى ما وراء معالجيه، ربما لم يكن يحدق في الفراغ، إنما كان يصب كل ما لديه من قوة تركيز على الضوء الواقع على الجدار.

عندما كان جيك يعيد ترتيب صندوقا كبيرا من الطباشير

الملونـة، أو يخلـد للنـوم بجـوار السـاعة الشمسـية التـي صنعها بنفسه، كان جيك ينغمس في جو من المشاعر التي لا تزال تحركه حتـى اليـوم مثل: الضـوء، والقواعد التي تقنن حركة الأشـياء في الفضـاء، والأبعـاد المختلفـة للفضـاء، والدور الـذي يلعبه عامل الزمـن، وبنفـس الطريقة التـي يمكننا من خلالها إلقـاء نظرة على عمـل الفنـان فـي مراحله الأوليـة، ورؤيـة بدايـات الموضوعات والاهتمامـات التي تأتي لاحقا لتحديـد روائعه، كان جيك يعمل منذ نعومة أظافره على نفس الأشياء التي تشغل باله اليوم.

لقد ساعدتني الدكتورة روثساتز في معرفة مدى اتساع نطاق اهتمامـات جيـك وما ينطـوي عليه ذلـك من غرابة، فعلى سـبيل المثال: كانت الدكتورة روثسـاتز مستمتعة عندما علمت أن جيك لديه ثماني سبورات في غرفته، كل واحدة منها مخصصة للبحث في مجال مختلف عن الأخرى، حيث كان يعمل على أبحاث في الرياضيات والفيزياء.

في الغالب يختار معظم العلماء جانبا محددا من مجالاتهم، ويقضـون حياتهـم المهنية في إجـراء الأبحاث في هـذا المجال، وعلـى النقيـض من ذلك كان جيك يجد سـهولة فـي التبديل بين موضوعـات مثـل: النسـبية العامـة، والمـادة المظلمـة، ونظريـة

الأوتـار، ونظريـة المجال الكمي، والفيزيـاء الحيوية، وتأثير قاعة الدوران الكمومي، وانفجارات أشعة جاما.

قـد تسـأل نفسـك: هل مـن الممكـن أن تكـون مواهبـه غير العاديـة مفاجأة بالنسـبة لي؟ لقد تفحصت أقـلام التلوين التي قام جيك بترتيبها فوجدته قد رتبها بتسلسل الطيف اللوني عندما كان فـي الثالثـة مـن عمـره، وشـاهدته يعـزف بشـكل مثالـي مقطوعة موسـيقية كان قد سـمعها مرة واحدة فقط عندما كان في السـابعة مـن العمر، واتصلت بأحد أبـرز علماء الفيزياء في العالـم للتحقق مـن صحـة نظريتـه الأصلية فـي الفيزيـاء الفلكيـة عندمـا كان في التاسعة من عمره.

لقد سعيت جاهدة للحصول على تفسير لكل ذلك، وبالطبع كان هناك العديد من التفسيرات، لكنني أعتقد أن الإجابة الحقيقية تكمن في علاقتي بجيك.

نعـم، لقـد كنـت أنـا الشـخص الـذي قـاده إلـى الجامعة في العاشـرة مـن عمـره وشـاهدته يجيب على الأسـئلة التـي حيرت أسـاتذته، لكننـي كنـت أيضـا الشـخص الـذي يذكره بـأن يُحضر جواربـه المتسـخة المنتشـرة فـي جميع أنحـاء أرضيـة غرفة نومه عندمـا يحيـن وقـت الغسـيل، والشـخص الـذي طلـب لـه حذاء

كروكس بلا رباط من متجر زابوس عندما كان من الواضح أنه على الرغم من جميع ما يعرفه في الفيزياء، إلا أنه لا يعرف كيف يربط حذاءه.

في الحقيقة لو كنت قد توقفت وتركت نفسي أستمتع بقدرات جيك المذهلة، أو كنت قد توقفت لأفكر فيما يتميز به من قدرات استثنائية جعلت منه إنسانا استثنائيا، لما كنت أما جيدة له.

كانت الطريقة الوحيدة التي اتبعتها هي: السماح لجيك بالقيام بالأشياء التي يحبها والتأكد من أنه يعيش مرحلة طفولته ويستمتع بها.

كنت أعرف أن الوقت قد حان للعودة إلى حقيقة أنني أمّ لجيك، بعدما انتابني شعور بالضيق من أحداث عطلة نهاية الأسبوع التي شهدتها مع الدكتورة روثساتز.

لذا ذهبنا نحن الخمسة إلى سيدار بوينت، واشتريت النقانق والصودا، بينما ركب كل واحد من أبنائي واحدة من تلك الأفعوانيات الستة عشر مع والدهم.

الوظيفة الصيفية الأولى

تعين تجارب العمل المبكرة أي شاب على الاضطلاع بنوعية المسؤوليات التي تنشأ مع بلوغ سن النضج، سواء كان مشرفا على مخيم أو يعبّئ الآيسكريم؛ لذا أدركت دوما أن أولادي سيعملون في وظائف صيفية في وقت ما، وقد حدث أن عمل جيك كباحث بالأجر في مجال الفيزياء الكمّية في جامعة إنديانا بيردو إنديانابوليس.

سمعت لأول مرة بالأبحاث التي يقوم بها جيك من خلال إشارة في صحيفة إنديانابوليس ستار، وبعد شهر، تلقى جيك طردا بريديا يشتمل على دعوة رسمية ليشارك في برنامج بحثي خاص بالمستوى الجامعي في قسم الفيزياء بالجامعة، وقد ذهلت عندما علمت أنه سيحصل على أجر أيضا.

رغم كونها فرصة رائعة، لم أكن متأكدة من مدى رغبتي في قيام جيك بهذا العمل، فقد شعرت في أغلب الأحيان بأنها خطوة كبيرة للغاية.

كان جيك بصدد إنهاء عامه الدراسي الجامعي الأول، وكانت الجامعة مصرة على أنه جاهز لتحديات أكبر، بل كان أساتذته يرون أن عدم تزويده بتلك التحديات سيعد تقصيرا من جانبهم، وقد قال له أستاذه في الفيزياء الدكتور جون روس: «كفاك ما حصلته من دراسة نظرية، فأنت هنا لتمارس شيئا من العلم»، لكني كنت أتساءل عما إذا كانت مغازلة العديد من المؤسسات الأكاديمية رفيعة المستوى لجيك في هذا الوقت - وتلك حقيقة - دافعا آخر لهذا الاهتمام من جانب أساتذة جامعته.

لم أستطع تحاشي القلق من أننا نسير بسرعة مبالغة فيها ونضع ضغطا هائلا على صبي لم يتجاوز عمره الثانية عشرة، كما أنني لم أشأ أن يقضي جيك الصيف بأكمله مواجها لشاشة الكمبيوتر، بل كنت أود أن يركب دراجته ويلعب لعبة حرب الطلاء مع أصدقائه، ويسبح في حوض السباحة حتى يغطي أنفه غشاء من خطوط النمش.

لقد كانت تؤرقني بشدة رؤية كل هؤلاء الأطفال الموهوبين الذين صادفناهم على مر السنوات وهم يذاكرون من أجل مسابقات الرياضيات، بينما أقرانهم من الأطفال الآخرين يشاركون في أنشطة صيفية ترفيهية.

بالطبع لم يشاركني جيك أيا من مخاوفي بشأن حجم وعبء العمل، فكان يقول دوما: «هذا كل ما أردت يا أمي»، وكان بوسعي تفهُم أن كلامه كان حقيقة.

كان يعمل مع الدكتور يوجيش جوجليكار في أبحاث عن فيزياء المواد المكثفة كونها ذات صلة بالألياف البصرية، التي تمثل الشغف الرئيس لجيك، وكيفية انتقال الضوء عبر الفضاء، وكنت أعرف الدكتور جوجليكار وأثق به، وكان جيك متحمسا للغاية لهذه الفرصة لدرجة أننا لم نستطع رفض تلك الفرصة في نهاية اليوم.

لقد كان جيك - كما أوضح مايكل - باحثا بالفطرة منذ البداية؛ إذ كان لديه فضول لا يهدأ لاستكشاف الكيفية التي تعمل بها العالم، فقد تقبلنا أنا وأنت حقيقة أن هناك أشياء لن نفهمها أو نستوعبها أبدا، لكن جيك لم يكن يطيق تقبل ذلك بسهولة، وعندما يستعصي عليه شرح ما، كان يشتعل غضبه ويجن جنونه.

في مطلع الصيف؛ دعي كل الطلاب المختارين للمشاركة في البرنامج البحثي إلى اجتماع عقد في كلية الحقوق التي يتسم مبناها بالجمال وكثافة الزخارف الخشبية المصقولة التي تغطي جدرانه، وانتشار الرخام والتماثيل اليونانية في أرجائه، وكان أول

شيء لاحظته مدى الاحترافية التي بدا عليها الجميع، وكان زملاء جيك في الفصل طلابا بالجامعة، رغم أن غالبيتهم يفوقونه طولا بثماني بوصات ووزنا بمئة رطل، وكانوا يرتدون الجينز وقبعات البيسبول، وبدت وجوههم طفولية وإن ظهرت عليهم بعض المشاكل الجلدية، أما نظافتهم الشخصية فمشكوك فيها، باختصار، كانوا يبدون كالأطفال، وعلى النقيض، كان الباحثون الجامعيون يحملون حقائب جلدية ويرتدون بدلات وفساتين ذات مظهر احترافي، جذبت جيك حتى يتوقف عن لعب لعبة الصحون الطائرة مع إخوته ويأتي للمشاركة في الاجتماع، وكان يرتدي ما نطلق عليه: «زيه الخاص» المكون من قبعة بيسبول مقلوبة للخلف، وقميص قصير الأكمام، وسروال قصير، وحذاء بلا رباط، بينما كنت أرتدي ثوبا صيفيا قصيرا ذا لون وردي مثير، به عقدة فيونكة أمام الخصر، وبالنظر لما كنا نرتديه، شعرت بالفزع قليلا عند رؤية رئيسة البرنامج وهي تشق طريقها نحونا.

بادرتني قائلة: «أنت والدة جيك» وهي تمد يدها لمصافحتي، ثم أردفت: «نحن مسرورون للغاية لأنه سيشارك في البرنامج، ونتوقع منه أشياء عظيمة».

أفترض أنها كانت تعرف ما لا أعرفه، وهو أن تعيينه بهذا

البرنامج يحطم رقما عالميا؛ ففي ذلك اليوم، كان سيصبح أصغر باحث في الفيزياء الفلكية في العالم.

وبينما كنا جالسين بانتظار أن يبدأ المتحدثون كلماتهم، لم أستطع مقاومة التفكير في أول وظيفة صيفية حصلت عليها، وكانت في مزرعة، كنت أجول بين صفوف الذرة صعودا وهبوطا مع العمال من المهاجرين المكسيكيين؛ لأزيل الحشائش ثم ألقح النبات في النهاية، لقد كان عملا مُضنيا في حرارة لا تطاق، وكان العرق يتجمع أسفل الملابس الثقيلة التي كنا نرتديها، وفي وقت الغداء، كنا نجلس على دلاء مقلوبة، ونتناول الشطائر في مؤخرة مقطورة شديدة السخونة لدرجة أنني كنت أرى السراب يتصاعد في موجات، وكنوع من المزاح، كان المزارعون يضعون فئرانا ميتة في حقائب أمتعتنا، لكني تعودت أن لا أصرخ، حتى لا يتمادوا في تصرفاتهم.

كنت أشعر بالذعر من كلاب المزرعة الذين يتجولون بين سيقان الذرة؛ لذا أرسلت إلي أمي جهازا كهربائيا مخصصا لردع تلك الحيوانات، فقد وجدتْ إعلانا عن الجهاز في الصفحة الأخيرة لإحدى المجلات، لكني أعتقد أنها لم تقرأ الإعلان

جيدا؛ لأنه فعل العكس، حيث جذب الكلاب في البرية، وأثار زمجرة وغضب قطعان منهم.

وبهذه الطريقة وجدت نفسي «مطاردة ومحاصرة» في مؤخرة شاحنة صغيرة وأنا أرتجف خوفا، حتى نزع أحد المزارعين الجهاز مني وأبعده ثم سحقه تحت كعب حذائه الطويل.

في الصيف التالي عملت في أحد مطاعم ويندين؛ حيث كانت روائح المخللات والخردل والكاتشب واللحم المشبع بالزيوت تتوغل في أعماق ملابسي وشعري حتى شعرت وكأنها تتقاطر من مسام جسمي، وظلت رائحتى على تلك الحال لشهور، ولم ينجح الاستحمام بأي طريقة في منحني الشعور بالنظافة، وعندما تركت تلك الوظيفة لصالح أخرى في محل لفطائر البيتزا، كنت صادقة مع مديري بشأن أسباب مغادرة الوظيفة، فقلت له: «أحتاج فقط لأن تكون رائحتي مختلفة على سبيل التغيير».

تلكما كانتا أولى الوظائف الصيفية لي، وهذه كانت أول وظيفة صيفية لجيك.

إن أمل كل والد أن يتفوق ابنه عليه وأن يذهب إلى أبعد مما ذهب، وهذا ما بلغناه بالفعل.

كل مـا اسـتطعت فعلـه فـي ذلـك الوقـت هو الضحـك وهز رأسي.

رحبت بنا السـيدة التي تدير البرنامج بأن قصت علينا حكاية مؤثـرة عن بداياتهـا في البحث الأكاديمي، فعندما وصلها خطاب يدعوهـا للحصـول على درجـة الزمالة في كليتهـا، ذكر الخطاب راتبـا مـا، حينها لم يسـتطع والدها، الـذي ينتمي للطبقـة العاملة، تخيّل أن جهة ما ستدفع لها من أجل أن تدرس أو تفكر أو تكتب، لقـد كان مقتنعـا بـأن الرقـم المدون على تلـك الورقـة كان يمثل المبلـغ الـذي يتحتـم على الأسـرة دفعه لهـا كي تشـارك، ومنعها تقريبـا من الذهاب إلى الكلية، وحتى اليوم الذي صرفت فيه أول شـيك، كان لا يـزال مقتنعا بأن هذا لون مـن الغش والخداع، لقد كانـت تحكـي القصـة بتأثـر، وشـعرت بأن وجهـي يـزداد حرارة وسـخونة، لكنني اسـتطعت تفهم عقلية أبيها وأنا جالسة هناك في ثوبي الصيفي القصير.

ثـم شـرعتْ فـي التحـدث عـن البرنامـج التوجيهـي، حيث أوضحت أن كل طالب جامعي في الغرفة سيقترن بعالـم أكبر سنا، أي شـخص أكثـر خبـرة وقـادر علـى تزويـد الطالـب الجامعـي

بالأدوات التي سيحتاجها للنجاح في المجال الذي اختاره، مع توقع أن يأخذ كلا الطرفين تلك العلاقة على محمل الجد الشديد.

كان الدكتور جوجليكار الموجّه لجيك، ولم يكن الباحثون يكتفون بالاجتماعات الفردية مع موجهيهم كل أسبوع، بل كانوا يحضرون أيضا غداء أسبوعيا وهم يرتدون ملابس رسمية للاستماع إلى محاضرة عن موضوع أكبر يتعلق بالتطور المهني أو الأخلاقيات العلمية.

توقعت بلا شك أن أشعر بالملل خلال هذه المناسبة، لكنني وجدت نفسي أجهش بالبكاء، لقد كان تخصيص الجامعة موجّها مرشدا لجيك بمثابة التزام منها تجاهه، وكأنها تقول له: «سندعمك ونوفر لك التوجيه والإرشاد الي تحتاجه».

لقد حان الوقت لأن أدع الآخرين يشاركونني فيه، وأن أتيح له الفرصة ليحصل على العون الذي كان يستحقه.

لكن جيك كان أقل تأثرا، فلم يقل سوى: «حقا؟ هل سأرتدي بدلة؟».

لم تكن لديه بدلة أيضا، وهذه المناسبات النادرة التي كانت تتطلب منا تأنقا، وكان جيك قادرا دوما على تدارك الأمر بارتداء سروال نظيف داكن اللون وسترة أنيقة؛ لذا انطلقنا إلى متجر

ماسيز بمركز التسوق، وعندما انحنى الخياط والدبابيس في فمه ليأخذ طول السروال، نزع جيك حذاءه وأظهر للعالم قدميه المتسختين اللتين أثر فيهما فصل الصيف.

وجدت نفسي أبادر لشرح الأمر للرجل المسكين فقلت: «لقد كان يلعب الصحون الطائرة في ساحة اللعب»، وحصل الرجل على عمولة في ذلك اليوم؛ فقد كان عليه أن يريني كيف تعقد ربطة العنق أيضا، وعندما أراد أن يعرف سبب شرائنا البدلة، نظرت أنا وجيك إلى بعضنا، ثم أجبت: «هناك زفاف سنحضره في وقت لاحق من الصيف»، وكان هذا الأمر حقيقيا، وأقل تعقيدا من ناحية الشرح والتوضيح.

عندما عقدت ربطة العنق وضبطت مقاييس البدلة بشكل كامل، تراجعت للوراء ونظرت إلى صغيري.

لقد بدا رائعا.

قلت له: «جيك، عليك أن تخلع قبعة البيسبول».

لم يكن سعيدا بذلك، لكنه فعل.

كان شعره طويلا ذا مظهر أشعث ومنتصبا في كل الاتجاهات، فقلت له: «أعتقد أننا سنحتاج إلى حلاقة الشعر أيضا».

رد قائلا: «لا يا أمي! لا أستطيع أن أحلق شعري! فهذا شعري العلمي!»؛ ضحكت بصوت عال، فهذا لا يزال طفلي، سواء كان له مرشد أم لا.

عندما تعلّم طفلك ركوب الدراجة، تسير بجانبه في الشارع ذهابا وإيابا؛ فهو يحتاج مساندتك حتى يتعلم موازنة نفسه بمفرده، وقد يقع أحيانا، لكن سرعان ما تتجمع لديه المهارات، وحتى مع بقاء يدك بجانبه، يحدث شيء مدهش، حيث يجد توازنه وينطلق بمفرده.

في ذلك اليوم؛ رأيت فتى يركب دراجته بمفرده للمرة الأولى، وخشيت أن أظل عالقة في مكاني لأرقبه وهو ينطلق بدراجته عبر الأفق، لكن الشيء الرائع في جيك أنه لم يتركنا أو يفعل شيئا دون علمنا، ولن يفعل.

فلم تكن لديه مشكلة يوما في انتظارنا في ركن أو زاوية ما، أو تمضية الوقت في التأرجح في حلقة حتى نتقابل، فهو يدور دورته ليعود إلي بعد كل فصل في الجامعة؛ ليخبرني بالتعليقات المضحكة التي قالها الآخرون، والأخطاء التي وجدها في الكتاب التعليمي، والأفكار الجديدة التي يدعمها أو يفندها.

وهو أيضا يعود للأطفال الذين يساعدهم ويعلمهم، وهو

الآن بصدد تأليف كتاب لمساعدة الأطفال الذين ترهبهم الرياضيات، وبهذه الكيفية، أصبح منقادا لمساعدة الآخرين، لا سيما الأطفال، من أجل رؤية واستكشاف جمال الرياضيات والعلوم .. وهذا هو موطن الجمال في جيك.

سيتوجب علي تعلم الثقة في الآخرين معه، وغالبا سيتحتم علي تعلم المشاركة، وهذا هو المقصد الحقيقي لهذا الكتاب بالنسبة لي: فهو فرصة لمشاركة العالم قصة جيك ومواهبه.

احتفال

بصرف النظر عن القلق الذي كان يساوره بشأن ارتداء الملابس الرسمية فقد أحبّ جيك إجراء الأبحاث في ذلك الصيف، والغريب في الأمر أنه كان لديه أيضا وقت فراغ كبير، فقد كان دائما يركب الدراجات بصحبة رفاق الحيّ، أو يذهب مع إخوته للعب كرة السلة، إلا أنه لم يبد لي أن جيك كان يؤدي الكثير من مهامه؛ لذا فقد بدأ ينتابني بعض القلق.

وعندما سألته عن سبب ذلك؛ أوضح لي أن الدكتور جوجليكار أنه كان يكلفه بمهام كل أسبوع وأنه كان يقوم بإكمالها، غير أنني لم أره يستخدم كتبا؛ لأنه كان قادرا على حل المسائل في رأسه خلال الخمس وأربعين دقيقة التي تستغرقها رحلة العودة بالسيارة من الجامعة إلى المنزل، لكن جيك أخبرني أن هذا الأسبوع سيكون استثنائيا؛ لأنه ظن أنه لن يتمكن من حل المسألة الأخيرة التي كلف بها في الوقت المناسب قبل اجتماعه بالدكتور جوجليكار يوم الثلاثاء.

شرعت في تلقين جيك محاضرة صارمة حول أهمية

أخلاقيـات العمل: «جيـك، أنت الآن لديك وظيفـة تتلقى أموالا مقابلها، والناس يعتمدون عليك للقيام بكل ما هو مطلوب منك، إن حـلّ هـذه المسـائل ليس شـيئا اختياريا؛ لذا أتوقـع منك البقاء بالمنزل وأداء ما يتوجب عليك عمله في عطلة هذا الأسـبوع من أجل الانتهاء من عملك بحلول يوم الثلاثاء».

قال جيك: «لسـت متأكدا من أنني أسـتطيع فعل ذلك»؛ لقد صدمتني إجابته قليلا؛ لأنني لم أر قط جيك قلقا ولو قليلا بشـأن أي شـيء متعلـق بالرياضيات، فقلت له: «فـي هذه الحالة، عليك أن تبذل قصارى جهدك، جرّب بعض الأشياء، وتذكّر أنه لا يوجد عيب في طلب المساعدة».

قال: «لا أعتقد أنه يوجد أحد يمكنني سؤاله يا أمي».

ثـم بعـد مضـي سـاعتين، سـمعته يضحك مـع ويسـلي أثناء مغادرتهمـا المنـزل باتجاه الحديقة، فتحت نافـذة الطابق العلوي وناديت بصوت عال: «جيك، هل أنجزت عملك؟».

"نعم يا أمي، أعتقد أن لديّ شيئا يمكنني استخدامه".

فقلـت: «هـذا جيـد، أنـا سـعيدة أنك أتممـت ذلـك الأمر يا حبيبي، أنا فخورة بك».

بالطبـع؛ حينهـا لـم يكن لديّ أدنى فكـرة لأي مدى يمكن أن يبلغ فخري هذا.

اتصـل بـي جيك يوم الثلاثـاء التالي كعادتـه؛ ليعلمني بوقت انتهـاء موعده مـع الدكتور جوجليـكار، وكانت نبـرة صوته مليئة بالحماس بشكل لم أسمعه من قبل.

"لقد فعلتها يا أمي، لقد فعلتها!".

قلت: «تمهّل قليلا، يا حبيبي، ما الذي فعلته؟".

قال: «قد حللتها! حللت المسألة!".

رددت عليه: «هذا رائع! أنا سـعيدة للغاية لأنك ثابرت حتى نجحت» >

فقـال: «لا يـا أمـي، أنـت لا تفهمين الأمر، لقد كانت مسـألة مفتوحة، مسـألة في الرياضيات لـم يسـتطع أحد حلها، وقمت أنا بحلها».

لقد أسـأتُ الفهم؛ فلم تكن هذه المسألة واجبا منزليا عاديا، بل نوعا من المسائل التي يستغرق علماء الرياضيات المتخصصون شـهورا أو سـنوات أو حتى عقودا ليتمكنوا من حلّها، ومع ذلك، تمكن جيك من حلها في غضون ساعتين، في الفترة ما بين القيام

بقفزاته لتسديد كرة السلة واللعب على جهاز الإكس بوكس، وفي لحظة إدراك متأخر؛ حمدت الله أنه أثناء محاضرتي حول أهمية أخلاقيات العمل، لم يكن لديّ أي فكرة عما كنت أطلب منه القيام به.

بإكماله هذه المهمة، انتهى جيك رسميا من بحثه الصيفي.

كان حلّ هذه المسألة المفتوحة انجازا كبيرا، له آثار كبيرة ليس فقط على بحث أستاذه المرشد، ولكن أيضا على الرياضيات وتكنولوجيا الألياف البصرية.

قدم جيك عرضا تقديميا حول هذا الإنجاز العلمي في ندوة في الجامعة، وبدأ هو والدكتور جوجليكار في إعداد بحث لتقديمه إلى الدوريات العلمية الكبرى.

كانت هذه تجربة جديدة ومثيرة لجيك.

لقد كان مدفوعا بشدة لفهم الشكل الصحيح لكتابة بحث مثل هذا وإخراجه بشكل مضبوط، ولم أفهم تماما سبب تحمسه الشِديد لهذا الأمر حتى أدركت أن هذا البحث كان وسيلته للتواصل مع علماء آخرين وربما حتى شجعه على إجراء محادثات معهم.

ومرة أخرى؛ كان جيك يتعلم لغة جديدة، لغة ستسمح له أخيرا بالتحدث عن كل الأشياء التي أحبها كثيرا.

تم قبول البحث وعنوانه: « أصل كسر التناظر الأقصى في شبكيات متعادلة متناظرة من حيث التكافؤ والزمن» للنشر في المجلة الفيزيائية: «فيزيكال ريفيو إيه».

- لكنني لا أستطيع أن أشرح لك ماذا يعني هذا العنوان -.

سيكون اسم جيك مدونا على البحث جنبا إلى جنب مع اسم الدكتور جوجليكار، وهو شرف استثنائي لأي طالب، وشرف نادر لأي طالب جامعي، وأكثر ندرة لطالب صغير في عمر جيك.

دخل جيك المنزل بعد انتهائه من اللعب في الفناء الخلفي في فترة ما بعد الظهيرة قبل أن يقدم بحثه.

لم يكن يومي هذا يسير على ما يرام، وعلم جيك بذلك؛ فقدم إليّ وهو يبتسم باقة بها ثمان وثلاثين زهرة نفل رباعية الأوراق.

أخذت أطفال مركز الحضانة إلى الخارج للبحث عن المزيد من هذه الزهرات، معتقدة أنه ربما نعثر على حزمة أخرى منها، لكن بعدما بحثنا قرابة الساعة، وجدنا منها ثلاثة فقط.

هـذا الموقـف أضحكني .. أحيانـا يكون التواجـد مع جيك بمثابـة مشـاهدة شـخص ما يمشـي على المـاء دون أن يـدرك أنه يفعل شيئا أقل ما يوصف به أنه مذهل، قد يبدو ما سأقوله مكررا، لكنه شرف لي أن أكون والدة جيك، وأن يكون لديّ هذه المكانة المميـزة التـي تمكنني من معرفة ما يراه ويفكـر به، والطريقة التي يعمل بها عقله الاستثنائي.

إن دهشـتي الحقيقيـة تكمـن فـي أن ابني المصـاب بالتوحد يعرف كيف يبهجني بباقة من النفل لا يسـتطيع العثور عليها أحد سواه.

كثيرا ما يسألنا الناس عن مستقبل جيك.

حتى الآن؛ نحن نصنع مستقبله بينما نمضي قدما.

أعتقد أنه سـيقدم مساهمة علمية كبيرة للعالم؛ غالبا لأن هذا مـا يقـول إنه يريـد القيام بـه، وأنا لـم أر جيك يتخلى عـن أهدافه مطلقـا؛ لقـد قضى معظـم حياته يحـاول فهم المعـادلات المقننة لسير هذا الكون.

لقد شعرت بالارتياح عندما علمت من الدكتورة روثساتز أن الملـكات الاسـتثنائية للأطفال العباقرة لا تسـتنزف بسـرعة، كما تشيع الأفكار المغلوطة.

لقد تعاملت روثساتز مع أطفال عباقرة لمدة أربعة عشر عاما، وقد واصل كل منهم النجاح في مجاله، وعلى الرغم من أن جيك يمتلك مقومات رجل أعمال جيد، فيبدو أنه قد ورث من العائلة عدم الاهتمام بالمال كدافع ومحفز فعلى سبيل المثال: لم يكن جيك مهتما عندما كان يتصل أشخاص من وادي السيليكون.

كان ما يحفز جيك هو أن يشرح للآخرين كيف يسير العالم، وفي نهاية المطاف يريد جيك مساعدة الناس من خلال إيجاد حلول للمشاكل العملية الواقعية، وهو بهذه الطريقة يذكرني بالجد «جون».

قدم جيك بحثه بحلول نهاية الصيف، وقد احتشد الناس حوله وطرحوا عليه بعض الأسئلة.

كما تقدم كبار رجال الأعمال في مجتمعنا لمصافحته، وبينما كنا نقف ونراقب ابننا، أمسك مايكل بيدي، ونظرت إلى أصابعنا المتشابكة، ولم يسعني حينها إلا أن أتذكر مدى تعلقي بمايكل أثناء ذلك التقييم الأولي المفجع التي أجرته ستيفاني وستكوت؛ ففي ذاك اليوم تم تشخيص جيك بأنه مصاب بالتوحد، وها نحن قد قطعنا شوطا طويلا جدا منذ ذلك اليوم.

التقط جيك صورا جماعية مع الباحثين الآخرين وأساتذتهم،

وكان برنامج ستون دقيقة يصور هناك، وفي الختام، أقيم حفل داخل غرفة رخامية زجاجية مرتفعة بمركز الحرم الجامعي لجامعة إنديانا بيردو إنديانابوليس، غير أني كنت أخبئ مفاجأة لجيك، حيث كنا سنواجه كل هذه التعقيدات الفكرية ببعض المرح القديم في إنديانا.

في وقت سابق وفي إحدى ليالي الصيف؛ جاءت نارني لزيارتنا بينما كنا نشاهد فيلم ليالي تالاديجا المفضل في منزلنا.

في الفيلم طُرد سائق سباق السيارات ريكي بوبي - الذي لعب دوره الممثل ويل فيريل، حتى فقط يمكنك تخيل الموقف - من مطعم تابع لسلسلة أبل بيز، وذكّرتني رؤيتي لهذا المشهد كيف أخبرت مساعدتي في الحضانة هيذر جيك أنه سيفوز بجائزة كبيرة يوما ما، وعندما يفعل ذلك؛ حينها سأصرخ ابتهاجا بصوت عال لدرجة أننا جميعا سنطرد خارج المطعم، وبينما كنت أحكي هذه القصة لنارني، نظرت كلانا إلى الأخرى، حيث خطرت على بالنا فكرة بشكل مفاجئ.

لقد كانت فكرة رائعة.

إن الطفل العادي لا يحتفل بنخب النجاح وزجاجة عصير على مفارش مائدة بيضاء في مطعم فاخر، ولا أبالي بمدى شهرة

هذا التقليد، بل يحتفل الطفل العادي برفع كفه للأعلى لمصافحة أصدقائه وبأكل أكبر عدد ممكن من أجنحة الدجاج الساخنة؛ لذلك كنا سنذهب مع أصدقائنا لقضاء وقت ممتع، وإذا أراد الناس شرب نخب نجاح جيك، فيمكنهم رفع أيديهم بمشروب بيرة الروتبير الغازي ذي الرغوة.

قدت سيارتي بجانب أحد مطاعم أبل بيز القريبة منا وتحدثت مع مديره، حيث أخبرته القصة بأكملها، وتوصلنا إلى خطة شعرت أنها ستجعل جيك ينفجر من الضحك.

وبينما كنت أنا ومايك نشاهد جيك وهو يقدم بحثه، حلت نارني مكاني في الحضانة، و ألبست إيثان وويسلي ملابس سائقي سباق سيارات ناسكار، على طريقة فيلم ليالي تالاديجا، ورسمت لهما وشوما مؤقتة، وصنعوا قمصانا ممزقة كتب عليها: «جيك، أنت مدهش!» كما أنها ألبستهما عصابات الرأس.

عندما دخلنا إلى مطعم أبل بيز مع جيك، كان الجميع هناك، وعلى استعداد للاحتفال على طريقة آل بارنيت، وكان هناك أصدقاء جيك من برنامج ليتل لايت، وأصدقاؤه من الحضانة عندما كان صغيرا، وجميع أصدقائه من المدرسة الابتدائية.

أردت أن يعرف جيك أنه بغض النظر عن عدد الفرضيات

التي حلها، سيكون هناك دائما مجموعة من الأشخاص الذين يتذكرون ما كان يبدو عليه في اليوم الذي ألبسته وجميع الأطفال الآخرين في الحضانة ملابس بأشكال غزلان سانتا كلوز.

كانت ليلة رائعة.

ثبتنا الملصق الذي صنعه جيك لتقديم بحثه، وأخبرنا هو - بعبارات عامة - ما تعلمه، ثمّ تناول شطيرة ضخمة من الهمبرجر ومثلجات صنداي للتحلية، وبقينا لوقت متأخر؛ لأنه كان لدى كل شخص قصة ليرويها عن جيك.

في نهاية الليل؛ صحنا جميعا وصفقنا وصرخنا بأعلى أصواتنا احتفالا به، على طريقة ريكي بوبي في الفيلم، وعندما حان وقت «الطرد» من المطعم، أمسكت النادلات بجيك وحملنه على أكتافهن إلى خارج مطعم أبل بيز في الوقت الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

ثم أما بعد

«سيتمكن من فعل أي شيء يريده».

هذا ما قاله الدكتور روس، أستاذ جاكوب في الفيزياء، عندما سـأله مراسـل صحيفة إنديانابوليس سـتار عن رأيه فيما قد يفعله جاكـوب بمـا لديه مـن مواهـب، وحينما قـرأت تلـك الكلمات، شعرت بالقشعريرة في كل جسمي.

تلـك هـي المسـافة التـي قطعناهـا، وهذا هـو المـدى الذي بلغنـاه، ابتـداء من رأي معلمـي التربية الخاصة الذيـن لـم يعتقدوا بأن بمقدور جاكوب تعلم القراءة، وصولا إلى رأي أسـتاذ فيزياء جامعي يؤمن بقدرات جاكوب الكامنة وغير المحدودة، نعم هذا هو السقف الذي أريد من معلمي ابني أن يحددوه له، والأهـم من ذلـك، أنه السـقف الـذي أريد مـن المعلمين والآبـاء أن يحددوه لكل طفل، وأن يحدده كل منا لنفسه.

لقـد كان إيمانـي بما تمثله قصة جاكوب من قيمة رمزية لكل الأطفـال دافعا وراء كتابتي لهذا الكتاب، ورغم تفرد مواهبه، فإن

قصته قد تحفّز احتمالية إدراك القدرات غير العادية في أنفسنا، وهي احتمالية تنطبق علينا جميعا، بل وربما تفتح هذه القصة الباب إلى احتمالية أن لا تكون «العبقرية» بهذه الندرة التي نعتقدها، ولا أعني هنا أن كل طفل مصاب بالتوحد عبقري، ولا أعني هذا أيضا بالنسبة لكل طفل عادي، لكنك إذا نجحت في إشعال وميض الإلهام الكامن داخل طفلك، فسيدلك على الطريق إلى آفاق أرحب وأعظم بكثير مما تخيلت.

من الصعب أن تؤمن في أن ابنك قد يجد طريقه بمفرده، لا سيما في ظل ما يردده المتخصصون يوميا من ضرورة أن يوائم الأبناء أنفسهم داخل قوالب صارمة، إننا جميعا نريد أن نمنح أطفالنا أفضل الفرص، ولهذا السبب نشعر بتأنيب الضمير إذا لم ندفعهم نحو الاتجاه «الصحيح».

إن الاحتفاء بشغف طفلك بدلا من إعادة توجيهه، قد يُشعرك بأنك تقفز من فوق منحدر صخري، وهذا بالتأكيد ما شعرت به، لكن قفزة الثقة تلك ضرورية إن أردت لطفلك أن يحلّق، ولا سيما ذلك الشغف الذي لا يندرج في قائمة خطوات النجاح المستقبلي.

إن طفلا لم يكن من المفترض أن يتكلم أو يقرأ، استطاع

الارتقاء إلى تلك القمم المستبعدة، فما بالكم بما يمكن أن يحققه أطفال لا يواجهون مثل هذه التحديات.

تخيلوا إلى أي مدى يمكنهم التحليق إن شجعناهم على بسط أجنحتهم، وتركناهم ليحلقوا في كل أفق، ويتجاوزوا أقصى طموحاتنا وتوقعاتنا .. آمل أن يحدث ذلك من خلال مشاركتكم قصتنا.

خاتمة

يمكنني أن أسطّر ألف صفحة أخرى، بيد أني سأكتفي بإخباركم أنه بحلول عام ٢٠١٣، كان جاكوب قد أكمل جميع برامج الرياضيات والفيزياء في جامعته المحبوبة في إنديانا، وقد أدركت أن الوقت قد حان مرة أخرى لمساعدته على تتبع ومضات إلهامه أينما توجهه؛ لذلك اصطحب جميع أفراد أسرتي في جميع رحلات جولتي الترويجية لكتابي.

نعم، لقد أخذ إيثان حقيبته التي تحوي دمى محشوة على شكل ميكروبات، بينما حمل ويسلي كتابه الخاص بالأرصاد الجوية، أما جاكوب فقد حزم مكتبة كاملة في حقائب تناوبنا كلنا على حملها على أكتافنا في جميع أنحاء أوروبا، وتوقفنا لمشاهدة الكاتدرائيات في مدينة البندقية الإيطالية، واستنشقنا الهواء النقي في الريف الإنجليزي، لقد كنت في أغلب الأحيان أجتهد للترويج لهذا الكتاب، ولكن في أوقات فراغنا كنا نزور أية أماكن يرغب الأولاد في رؤيتها، والتي تبين لاحقا أن أفضلها هي المختبرات والمكتبات الموجودة في بعض أجمل الجامعات في

العالم، فقد بحثنا في الأرفف اللامعة للمكتبة في جامعة كامبريدج عن عناوين كتبهم المفضلة.

"أمي، انظري هنا، هذا كتاب عالم الفيزياء ستيفن واينبرج!»، قالها جاكوب وهو يبتسم، لقد عثر عليه وسط هذا المحيط من الكتب، وهناك على الرف الأوسط كان يقبع جميع أصدقائه القدامى، وجدنا كتبا للانداو وليفشيتز وكذلك لبنروز، ثم فتشنا جميع أرجاء المكتبة وجميع زواياها وأركانها.

عندما كنت أضيع جيك كنت أتساءل» هل يمكن أن أجد ابني منزويا هنا؟ ومنكفئا على الكتب التي أحبَها؟ وكلما بحثت عنه أجده دائما على تلك الحال.

كانت محطتنا الأخيرة في كندا، حيث عرّفتنا ناشرتنا الكندية على الفيزيائي الرائع لي سمولين، الذي كان حينها قد فرغ للتو من أحدث مؤلفاته بعنوان: «الزمن *يولد من جديد*»؛ حينها قالت الناشرة: «أعتقد أنكم سوف تحبون سمولين، إنه يعمل في مكان رائع يسمى معهد بريميتر، وهو ليس بعيدا عن تورنتو".

تهللت أسارير وجه جاكوب وقال: «أعرف هذا المكان! كنت آمل أن أحضر ندوة هناك حول المناهج الثلاثية الديناميكية العرضية بينما نحن متواجدون هنا».

وهذا ما فعلناه.

لـم تكـن المحاضرة متاحة للعامّـة؛ لذا أنا ممتنّـة حتى يومنا هـذا لصديقتينا الكنديتين هيذر ريسـمان، المديرة الرائعة لسلسـة مكتبـات إنديجو، وناشـرة كتابي، حيث نسـقتا كل شـيء بسـرعة حتى يتمكن جيك من الحضور، وكأنهما عاملتي مسـرح تعملان خلف الكواليس، هاتان الصديقتان تعنيان الكثير جدا بالنسبة لي.

ومنذ اللحظة الأولى التي دخلنا فيها من باب معهد بريميتر، شـعرت أنـا وجاكوب بحب العلم، لقد كان باسـتطاعتنا الشـعور بشـيء لـم نشـعر به فـي أي مكان آخـر فـي العالـم: وهو *الشـغف بالعلـم!* كانـت هنـاك جـدران زجاجيـة كبيـرة صُنعـت خصيصـا لتدويـن المعادلات عليها، وبدت مثـل نوافذ جاكوب في منزلنا، كمـا عثرنـا على كل شـيء كنا نبحث عنه! وتنقلنـا عبر الغرف في ذهول بالغ كما لو أن حلما قد تحقق أمام أعيننا.

قـال جاكـوب بهـدوء: «هذا هـو (المـكان الحلم) يـا أمي»، لكنني كنت أعرف ذلك قبل أن ينطق به، ثمّ ما لبثنا أن انتقلنا إلى كندا؛ نعم هكذا بكل بساطة.

ذهـب جاكـوب إلـى محاضرتـه، وجلسـت بجانبـه مرتبكـة كعادتي بسـبب رموز المعادلات على السبورة، ولكني بطريقة ما

كنت أشعر بالارتياح في الوقت نفسه بسبب لغة الفيزياء وما تحمله من جمال لأولئك الذين يمكنهم فهمها.

عندما برزنا للعيان تفاجأنا بوجود مؤسس المعهد، رجل الأعمال الشهير مايك لازاريديس، الذي أسس أيضا شركة بلاك بيري؛ حيث أهدى جاكوب مجموعة من الكتب التي يحبها، من ضمنها: كتاب محاضرات فاينمان في الفيزياء، وكان من بين الحضور أيضا: لي سمولين، ونيل توروك مدير المعهد.

قالوا لنا: «مرحبا بكم في بريميتر" .

في وقت لاحق من تلك الليلة؛ حدق مايكل في عيني وقال: «افعليها! اتبعي وميض الإلهام!»، وهذا ما فعلناه.

دخل جاكوب؛ عقب عيد ميلاده الخامس عشر، سلسلة من اختبارات القبول الصارمة، وسرعان ما أصبح أصغر شخص يتم قبوله على الإطلاق في برنامج العلماء الدوليون في معهد بريميتر للفيزياء المتقدمة، الحائز على المرتبة الثانية كأفضل مؤسسة لدراسة الفيزياء النظرية في جميع أنحاء العالم.

وها قد التحق به جاكوب الذي لا يزال صغيرا جدا حتى للحصول على رخصة قيادة سيارة.

انتقلت عائلة بارنيت جاكوب إلى كندا، وبناء على طلب

إيثـان قررنـا العيـش فـي مزرعـة خـارج المدينـة، وصدقـوا أو لا تصدقـوا، لدينـا الآن خـروف، ومهـر صغير، ودجـاج يضع بيضا لنتناوله على الإفطار!

هناك طرق تصطف على جانبيها الأشـجار وحقول لا نهائية نسـير فيها، وأماكن يمكننا فيها أن نفكر ونؤلف ونحلم، وبالنسـبة لويسلي، فتوجد لديه مساحة مفتوحة لقيادة مركبة بأربع عجلات!

كندا بلد جميل وغامض وقد أسرت قلوبنا.

يمكنـك الآن أن تجـد عائلة بارنيت تقوم بأعمال تطوعية في المجتمـع، وقد كوّنـا بالفعل هنا بعض الصداقـات التي أعلم أننا سـنحتفظ بها طوال حياتنا، ولدينا مرشـدون جدد وأشخاص من خلـف الكواليـس يوجهوننـا كأرواح أسـطورية تهدينـا الطريـق الصحيح في هذا العالـم الجديد.

جاكوب الآن أحـد علماء الفيزياء الواعدين في العالم، وفي الوقـت الحالـي، حصل ويسـلي وإيثـان، اللـذان مـا زالا يتلقيان تعليمـا منزليا، على شـهادتيهما الثانوية في سـن العاشـرة والثانية عشر عاما، وحققا تقدما كبيرا في مجالاتهما الخاصة.

ختاما- وللمرة الأخيرة - أريد فقط أن أشـكر مايكل، الذي انسـلخ مما كان فيه، وتخلى عن الوسـط الذي كان فيه لمسـاعدة

أسـرته على متابعـة أحلامها في أرض جديدة، سـأظل أحبه دوما من أجـل ذلـك، ومـن أجـل اسـتعداده لمسـاندتي، ومـن أجـل مساعدته على أن نكون ما أصبحنا عليه جميعا الآن ... ومن أجل استيقاظه مبكرا لإطعام الحيوانات!

شكر وعرفان

هناك كثيرون أود شكرهم، فلولاهم ما كان هذا الكتاب.

على رأس هؤلاء تأتي صاحبة الشخصية المتفردة لورا تاكر، إنني ممتنة لك إلى أبعد حد على لطف تعاملك ودعمك، لا سيما عندما فجّرت الذكريات دموعي، لقد كنت مصدرا متجددا بمنحني القوة، أشكرك على قدومك إلى منزلنا في إنديانا ومساعدتي في بث روح الأمل والحياة في كل من حولي.

أشكر لوري بيرنستاين من أعماق قلبي، فلم أر وكيلا أدبيا أكثر موهبة وتفانيا منك كما أود أن أسجل عرفاني لأبنائك بِن وهاسكل على التضحيات التي قدماها خلال العمل على الكتاب.

لكم استمتعت باحتساء الشاي وتبادل أحاديث السمر معك في آخر الليل، لكن أكثر ما يشعرني بالامتنان لك هي طريقتك في الاعتناء بجاكوب في كل خطوة يخطوها على الدرب، وهذا يعني لي الكثير.

كما أشكر سوزان كامل، محررة كتابي البارعة من دار نشر

راندوم هاوس، وأقول إنني ممتنة لشغفك بالمشروع، ورؤيتك الواضحة وفطنتك كمحررة فذة، لقد تعلمت الكثير والكثير من العمل معك، كما كان دعمك الشخصي مؤثرا جدا؛ فقد جعلني أشعر بالارتياح في عالم لم يكن عالمي، وأشكر أيضا سام نيكلسون لعمله الدؤوب ودقته البالغة المتناهية.

كما أتوجه بالشكر لفريق العمل بأكمله في دار نشر راندوم هاوس، فلن يتمنى أحد فريقا أفضل من فريقها، وأخص بالذكر سالي مارفين، وبربارا فيون، ودينيس كرونين، وجويل ديو، وأفيدي باشيراد، وإريكا جريبر، وكلهن متفردات في مجالهن.

كذلك أود أن أعبر عن امتناني العميق لكورتناي فالنتي بشركة وارنر براذرز لإيمانها بقصتي، شكرا لاستشعارك سحر وروعة القصة منذ الوهلة الأولى، وتحمسك للأمر يعني الكثير بالنسبة لي.

الشكر أيضا موصول لألان هورن لتفهمه وجهة نظري بالنسبة لما كنت أراه دوما أفضل في أجزاء القصة.

كما أودّ التعبير عن امتناني الفائق لوكيليّ الأفلام بوكالة يونايتد تالنت (UTA) – هاوي ساندرز وكيسي إيفاشيفسكي –؛

لمصارحتي بالحقيقة دائما، وعلى الروح المرحة، وكذلك على الاعتناء بجاكوب.

أود أيضا أن أشكر كل الأطفال المصابين بطيف التوحد في إنديانا الذين كان لي شرف العمل معهم على مر السنين .. إن شجاعتكم تتجلي كل يوم، وأنتم أبطالي الحقيقيون!

ثم إنني لم أكن لأستطيع فعل أي شيء بدون قوة الأمهات اللاتي ساندنني طوال الرحلة، فحياتنا مرتبطة للأبد بحبنا المشترك لهذه الفئة الجميلة، وأنا أحظى في حياتي بمجموعة من المقاتلات ممن يجابهن التحديات دون خوف نيابة عن أطفالهن، ويدعمن بعضهن البعض بعبارة: «سنسحقك أيها التوحد!» .. أحبكن جميعا، ونحن أسرة واحدة.

كما أتقدم بشكر خاص لقسم الرياضيات والفيزياء بالجامعة المشتركة بين جامعة بيردو وجامعة إنديانا في إنديانابوليس لفتحهم أبواب قلوبكم قبل قاعاتكم، وأخص بالشكر يوجيش جوجليكار، الموجه والناصح لجاكوب، لما كرسه من وقت وجهد من أجل ابني، وكذلك لماما جين لوزار لثقتها في جاكوب ومنحه فرصة للنجاح، وأيضا لما أبدته من حميمية وانفتاح

وحماس .. لا يوجد أحد أفضل هؤلاء الأشخاص أواجه التحديات بصحبته، أو حتى أتناول معه كعكة.

كما أنني مدينة بشكر عميق لكل من هيذر سامبل وميلاني لوز، وكارل هيل، والدكتور أندرو جافرين، وجاي فيل، وإدوارد رودز، وجون روس، وكل الآخرين الذين تعاونوا مع جاكوب على مدار سنوات .. لقد آمنتم بموهبته، وبفضل ذلك أثبتنا للعالم ما الذي يستطيع طفل واحد فعله.

أشكر كذلك صديقاتي وأصدقائي الأعزاء نارني ديفيس، وبيث جونز، وكيم تِبتس، و"بيج مايك" أوينز، وستيفن «كليفلاند» جونسون، وجميع أسرة ألبراند .. عندما أقول أنني لم أكن لأستطيع أن أنجز هذا العمل بدونكم، فأنا أعي ذلك بكل ما فيه من معنى.

وبالطبع أشكر ابني الجميل جاكوب، الذي يواصل إبهاري كل يوم، شكرا لك على صبرك ومثابرتك، وعلى إتاحة الفرصة لي لمشاركة هذا الجزء من المعادلة مع الآخرين، وشكرا على تضحياتك من أجل بث الأمل في نفوس أطفال العالم، وعلى عدم تركك إيانا .. أدعو أن تظل شعلة إلهامك متوهجة دوما.

كما أود أن أشكر ولدي الحبيب ويسلي لمنحي القوة على مواصلة السير في هذه الرحلة .. إن حكمتك تتجاوز عمرك كثيرا.

وأتوجه بخالص الشكر لابني «المسالم» إيثان للسماح لأمك بأن تكون أما لآخرين، ومواظبتك على تقديم تتبيلة خل التفاح، والكعك لي خلال فترة عملي على الكتاب، والآن أتساءل: هل ستتوقف هذه الأشياء لمجرد أنني انتهيت من الكتاب؟

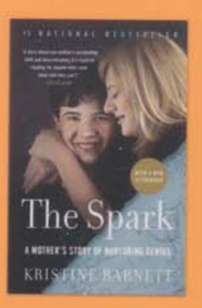
أخيرا؛ أتوجه بالشكر لعائلتي: جون وإديث ماير، وديفيد وريبيكا بيرسون، وستيفاني وبنجامين لترسيخهم إيماني بنفسي .. عائلتي هي المصدر الثابت للأمل والإلهام، والسر وراء كل شيء أفعله.



تعيش كريستين بارنيت في كندا مع زوجها مايكل وأولادهما الثلاثـة جاكوب وويسـلي وإيثان، وهي متحدثـة عامة متخصصة في التعليم البديل للأطفال المصابين بالتوحد.

اعرف المزيد عنها على الموقع الإلكتروني:

jacobbarnett.com



الشّرارة

قصة أم مع التربية والعبقرية والتوحّد

اسمي كريستين بارنيت، ويعد ابني جيك معجزة في الرياضيات والعلوم، لقد بدأ في أخذ دورات على مستوى الجامعة في الرياضيات وعلم الفلك والفيزياء وهو في الثامنة من عمره، وقبلته الجامعة في سن التاسعة، وبعد فترة وجيزة بدأ العمل على نظرية فريدة في مجال النسبية.

لقد كانت المعادلات التي يعمل عليها طويلة جدا، حتى إنها تجاوزت السبورة العملاقة إلى نوافذ منزلنا.

لم أكن متأكدة من الطريقة الأنسب لمساعدة جيك، فسألت عما إذا كان هناك من يرغب في عرض أعماله عليه، فاتصلت بفيزيائي مشهور بالنيابة عن جيك ووافق بسخاء على مراجعة أعمال جيك بشكل دوري، وأكد أن جيك بالفعل يعمل على نظرية فريدة وإذا ثبتت صحتها فستضعه في قائمة الفائزين بجائزة نوبل.

وفي صيف ما، وعندما كان جيك في الثانية عشرة عيّنته الجامعة باحثا مدفوع الأجر في الفيزياء، لقد كانت وظيفته الصيفية الأولى.

وبحلول الأسبوع الثالث له في الوظيفة كان جيك قد حل مشكلة قائمة في نظرية الشبكية الرياضية، وهو العمل الذي نشر لاحقا في مجلة علمية رفيعة المستوى.

قبل بضعة أشهر، وفي ربيع ذلك العام نشر مقالا صغيرا في صحيفة محلية عن مؤسسة خيرية صغيرة أسستها أنا وزوجي مايكل، وبشكل غير متوقع قادت تلك المقالة الناس للتعرف على قصة جيك من خلال صحيفة أكبر، حتى أصبحت طواقم التصوير تخيّم في حديقتنا، ولم يتوقف رنين جرس هاتفنا من اتصالات السينمائيين، والبرامج الحوارية، والبرامج الإخبارية الوطنية، ووكالات المواهب، والناشرين، والجامعات العريقة، وكذلك المراسلين والمنتجين الذين كانوا يحاولون يائسين إجراء مقابلة مع جيك.


ISBN 978-603-91618-6-8
9 786039 161868



